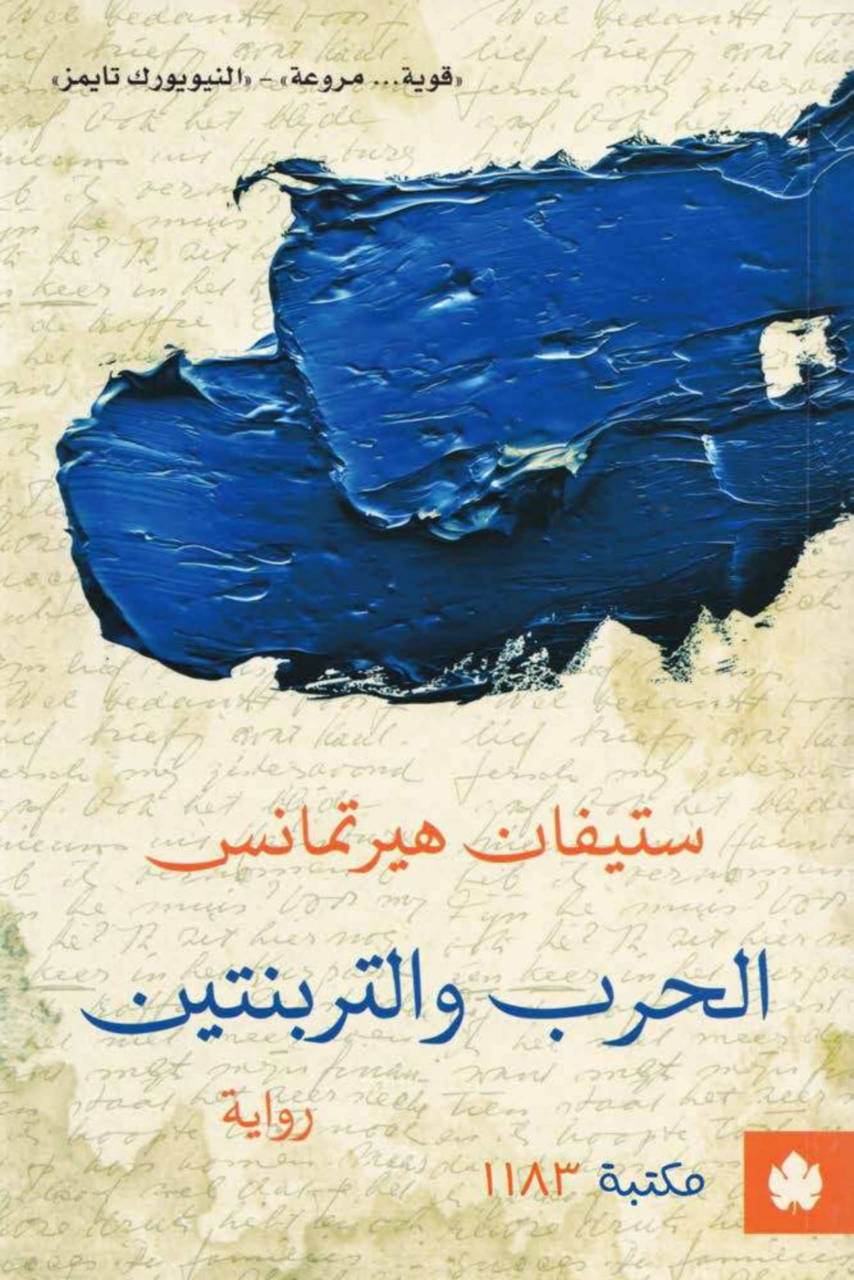


«قوية... مروعة» - «النيويورك تايمز»
ستيفان هيرتمانس
الحرب والتربنتين
رواية
مكتبة ١١٨٣



الحرب والتربنتين

ستيفان هيرتمانس

مكتبة | 1183

الحرب والتربنتين

رواية

ترجمتها عن الهولندية الفلامندية

أمينة عابد





alkarmabooks.com

facebook.com/alkarmabooks

twitter.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

٢٠٢٢

العنوان الأصلي: Oorlog en Terpentijn

Originally published with De Bezige Bij, Amsterdam.



نشر هذا الكتاب بدعم كريم من المؤسسة الفلامندية لدعم الآداب

FLANDERS LITERATURE

هيرتمانس، ستيفان.

الحرب والتربنتين: رواية / ستيفان هيرتمانس؛ ترجمتها من الهولندية الفلامندية: أمينة عابد - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٢.

٣٧٦ ص؛ ٢٢ سم.

تدمك: 9789776743830

١- القصص الفلامندية.

أ- عابد، أمينة (مترجمة).

ب- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٨٥٣١ / ٢٠٢١

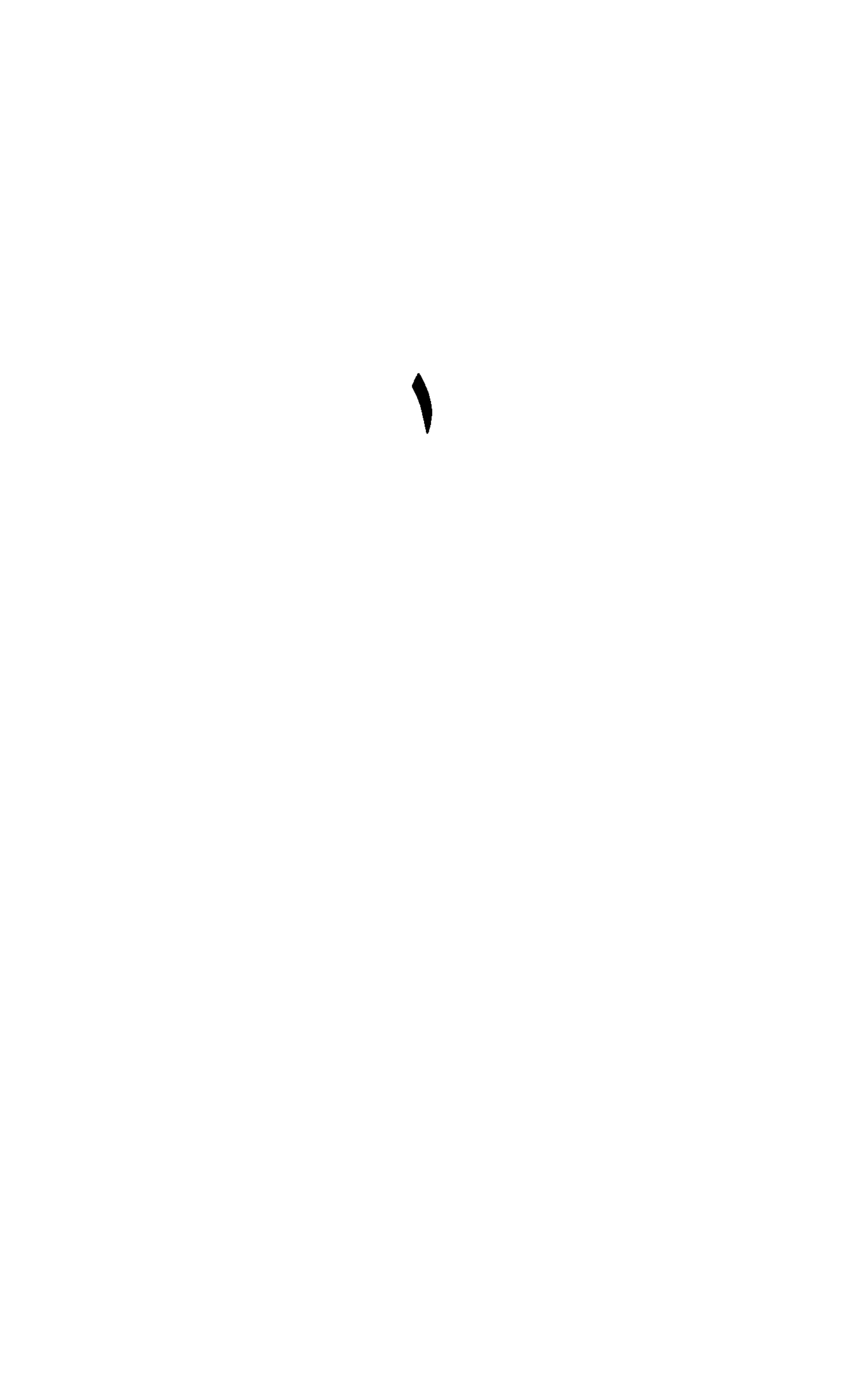
٢ ٤ ٦ ٨ ١ ٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

إلى أبي.

يبدو وكأن الأيام، مثل الملائكة باللونين الذهبي والأزرق،
تطل على دوامة الدمار من دون أن ندركها.

«إريش ماريا ريمارك»


١



من أبعد الذكريات التي تحضرني عن جدي ذكرى وجوده على شاطئ أوستنده: رجل في السادسة والستين من العمر، وسيم الهيئة في بدلة كحلية، حفر حفرة غير عميقة بمجرفة حفيده الزرقاء، وسطَّح الرمل المكوَّم على حافتها لينعم هو وزوجته بشيء من رغد الجلوس. لقد رفع الجدار الرملي القائم خلفهما بعض الشيء، ليحتميا من رياح أغسطس التي تهب من اليابسة تحت سحب الضباب العالية على خط الموج المنحسر. خلعا أحذيتهما وجواربهما، وجلسا يحركان أصابع أقدامهما حركات خفيفة، على سبيل الاستمتاع ببرودة رمال القاع الرطبة؛ بدا لي وأنا ابن السادسة أن هذا عمل ينطوي على طيش ليس من طبيعة هذين الشخصين، اللذين لا يرتديان سوى الأسود أو الرمادي أو الكحلي. على الرغم من الجو الحار والشاطئ، يحتفظ جدي بقبعته «الفيدورا» على رأسه شبه الأصلع. إنه يرتدي قميصه ناصع البياض، وكما هي حاله دائمًا، ربطة العنق الفراشة السوداء الكبيرة الخاصة به، الأكبر حجمًا من مثيلاتها من ربطات العنق في الحالات العادية، ولها فوق ذلك حاشيتان طويلتان، فيبدو للناظر إليه من مكان بعيد وكأنه رابط حول عنقه هيئة ملاك أسود بجناحين مبسوطين. كانت والدتي تخيط له ربطات العنق الغريبة تلك، بناء على تعليماته. لم أره طوال عمره المديد في هيئة أخرى غير الهيئة التي يلبس فيها ربطات العنق السوداء تلك، المزينة بحاشيتين طويلتين مثل حاشيتَي السترة «الخطافية»؛ لا بد أنه كان يملك العشرات منها، لا تزال واحدة منها موجودة هنا في مكان ما بين كتبي، أثر من زمن منسيٍّ بعيد.

بعد مضي نصف ساعة، لم يرَ بدًّا من خلع سترته، ثم أزال الزرَّين الذهبيين من سِوار الكمين، ووضعهما في الجيب الأيسر، حتى إنه رفع كمَّي قميصه بعد ذلك، أو بالأحرى ثناهما ثنيتين أنيقتين إلى ما تحت الكوعين بالضبط، كل ثنية بعرض السوار المنشَّى، وها هو يجلس واضعًا على ذراعه اليسرى تلك السترة المطوية بعناية، التي تلمع بطانتها الحريرية في ضوء النهار، وكأنه جالس أمام رسام ليرسم له صورة انطباعية. نظرته تبدو تائهة في الازدحام الذي يشكله الناس في البُعد، الأطفال الصارخون الذين يرش بعضهم بعضًا بالماء، زائرو الشاطئ ليوم واحد الصائحون الضاحكون الذين يركض بعضهم وراء بعض كأنهم هم أنفسهم رجعوا أطفالًا. ما يراه هناك يشبه لوحة من لوحات «جيمس إنسور» بُثت الحياة فيها، مع أنه يكره أعمال هذا الرسام الأوستنديِّ الكافر، ذي الاسم الإنجليزي. إنه «مخربش»، «جيمس إنسور»، وكلمة «مخربش»، بالإضافة إلى كلمتَي «أوباش» و«رعاع»، من أقوى كلمات التعنيف التي يمكنه أن يقذف بها أي شخص. إنهم مخربشون، رسامو الوقت الحاضر؛ ليسوا على دراية بفن الرسم الدقيق، ولا بالتفاصيل الرهيفة التي كانت تتميز بها حرفة الرسم النبيلة في الماضي. إنهم يخربشون ما شاء لهم هواهم، لم يعودوا يحترمون قوانين التشريح، لا يعرفون حتى أن يضعوا طبقة اللون الشفافة الأخيرة، لم يعودوا يمزجون الألوان بأنفسهم، يستعملون التربنتين مثل الماء، ليسوا على علمٍ بأسرار الخضاب المطحون يدويًّا، ولا بزيت الكتان النقي أو استخدام المجفِّف «السيكاتيف» ـ لا عجب في أنه لم يعد هناك رسامون عظام.

تميل الريح إلى البرودة، يُخرج زرَّي سِواره من جيب سترته، يفرد كمَّيه على ساعدَيه، يغلق أزرار قميصه بعناية، يرتدي سترته، ويُعنى بمساعدة زوجته على وضع وشاحها المصنوع من الدانتيل الأسود على كتفيها وعقدة شعرها اللامعة التي تتوسط شعرها الرمادي الداكن. يقول لها:

ـ تعالي يا «جابرييله».

وينهضان عن مجلسهما، يحملان أحذيتهما في أيديهما، ويبدآن بالصعود بشيء من الصعوبة في اتجاه الكورنيش، هو مشمر بنطاله عن ساقَيه قرابة خمسة عشر سنتيمترًا، وهي حاشرة جوربها الطويل الأسود في حذائها، ما يجعلني أرى السيقان البيضاء الأربع تحت جذعَين أسودين وهي تتحرك بهوادة وانتظام فوق رمال الشاطئ. يسيران في اتجاه السلم الصخري المؤدي إلى الكورنيش. هناك يجلسان على أقرب مقعد يصادفانه في طريقهما، يأخذان في تنفيض أقدامهما إلى أن تُنظف من الرمال، ثم يسحبان جواربهما السوداء فوق أقدامهما البيضاء الرهيفة، ويُحكمان شد أحذيتهما بما كان يسميه الناس في ذلك الوقت «وثاق الحذاء» بدلًا من رباط الحذاء.

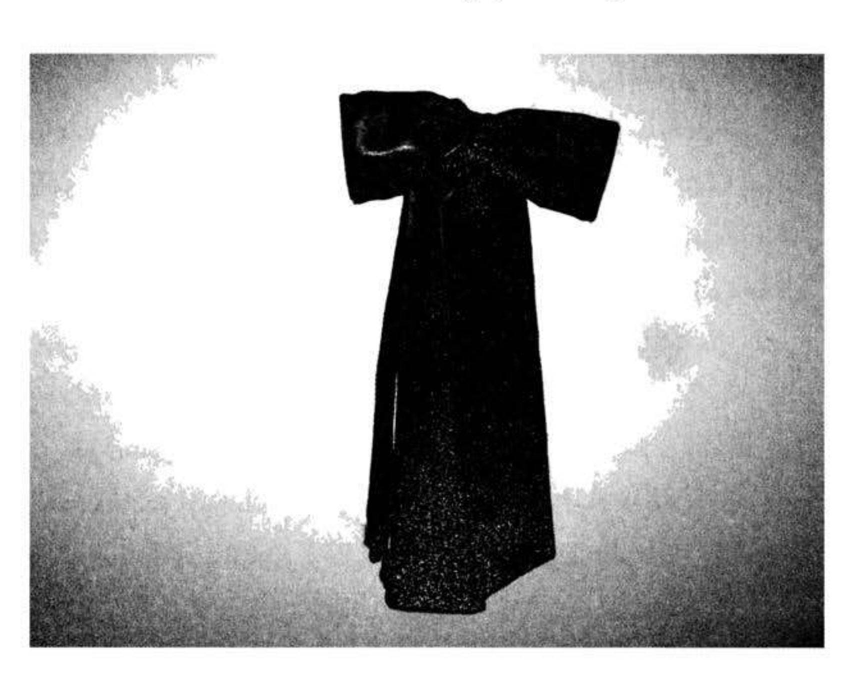
أنا نفسي، أسير إلى أمي مرتعد الأوصال، بعد أن انهدمت المتاهة التي حفرتها من أجل كراتي الحجرية الكبيرة، كرات البلي العزيزة على نفسي.

ـ فاض البحر من جديد.

تقول أمي ذلك، بينما تفرك جسمي لتبعث الدفء فيه، وتأخذ أولى السحب المتراكمة بالظهور في سماء ما فوق التلال الرملية الواقعة خلفنا. الريح تمشط قمم التلال الرملية، فتبدو وكأنها تشيع الفوضى في أهدابها، وتنتفض الحيوانات الكبيرة ذات اللون الرملي استعدادًا لحلول الليل.

يمسك جدي بعكازه من خشب الدردار اللامع، المغطى بالورنيش، ينتظر بشيء من نفاد الصبر إلى أن نصل كلنا إلى الكورنيش. عندئذ يتقدمنا في المسير؛ إنه ليس طويل القامة، مترٌ وثمانية وستون سنتيمترًا، حسبما أسمعه يقول في كثير من الأحيان، لكنه أينما يحل، يتنحى الناس جانبًا. مرفوع الهامة، حذاؤه الأسود طويل الساق لا تشوبه شائبة، ثنية الكي في بنطاله واضحة، زوجته الصامتة متأبطة ذراعه، وعكازه في يده الأخرى ـ هكذا يسير أمامنا على قدر من فروغ الصبر، يلتفت إلينا بين الحين والآخر ويهتف بأن القطار سيفوتنا إذا ما بقينا نتثاقل في المشي على هذا النحو. يمشي مثل عسكري متقاعد، هذا يعني أنه لا يطرق كعبيه على الأرض بشكل أخرق،

بل يضع مشط قدمه أولًا، كما ينبغي أن يفعل، منذ ما يزيد على نصف قرن. ثم يختفي بطريقة أو بأخرى من ذاكرتي، ويتركني تحت تأثير هذا الوضوح البراق المفاجئ، الذي تجلى به هذا المشهد من الماضي البعيد، وقد بلغت من التعب ما أستطيع معه النوم في الحال.



من دون أي تسلسل في الذكريات، يحضرني المشهد التالي، الذي يظهر فيه رجلًا باكيًا بهدوء. إنه يجلس إلى الطاولة الصغيرة التي كان يستخدمها للرسم والكتابة، مرتديًا مريلته الرمادية، وعلى رأسه قبعته السوداء. يتسرب ضوء الصباح الأصفر عبر النافذة الصغيرة التي تطوقها الدالية. يحمل في يده صورة من الصور الكثيرة التي ينزعها على فترات منتظمة من كتب الفن، والتي يستعين بها في رسم النسخ (كان يثبت الصورة بالدبوس على لوحة صغيرة يعلقها بمشبكين خشبيين على لوحة الألوان)، يمسك الرسمة بين يديه، لا أستطيع أن أرى ما هي بالتحديد، لكنني أرى الدموع تنهمر على

خديه وهو يتمتم بشيء ما في هدوء. كنت قد صعدت ثلاث درجات إلى غرفته، الأعلى من باقي الغرف، لأخبره بأنني أخرجت الهيكل العظمي لجرذ من تحت الأرض، وهأنذا أنسحب بسرعة وهدوء، بخطوات يكتمها السجاد على درجات السلم، أغلق باب غرفته، لكنني بعد فترة قصيرة، بينما يشرب القهوة في الطابق السفلي، أتسلل إلى غرفته، وأجد الصورة على طاولته. إنها رسمة لامرأة عارية، مستلقية بظهرها إلى المشاهد، امرأة ممشوقة بشعر داكن، تستلقي على نوع من الأرائك أو الأسرَّة أمام ستارة حمراء. يظهر وجهها الوديع الحالم في مرآة يمسكها أمامها إله الحب «كيوبيد» الضارب شريطًا أزرق على كتفه. ما يلفت انتباهي هو ظهرها النحيف العاري ووركاها المكوَّرتان، ثم تنتقل نظرتي إلى كتفيها الرقيقتين، فشعرها الناعم المتماوج في رقبتها، ثم تعود إلى ردفيها اللذَين تديرهما إلى المشاهد على نحو شبه إباحي. أصاب بالهلع فأضع الرسمة على الطاولة، أنزل إلى الطابق السفلي، أرى جدي في المطبخ. إنه يقف بجانب أمي، ويغني لها أغنية بالفرنسية، يتذكرها من زمن الحرب.

* * *

انغمرت سنوات طفولتي بحكاياته عن الحرب العالمية الأولى، بأحاديث عن الحرب يعود إليها المرة بعد المرة: بطولات غامضة في ميادين موحلة تحت وابل من القذائف، طلقات رصاص مدوية، أطياف صارخة في الظلام، أوامر مزمجرة بالفرنسية، كل هذا معروض بإحساس استعراضي عظيم من كرسيه الهزاز ـ وفي كل مرة هناك أسلاك شائكة، شظايا متطايرة جنب رؤوسنا، رشاشات مدوية، إشارات ضوئية ترسم أقواسًا عالية في السماء الداكنة، مدافع هاون و«هاوتزر» تطلق النيران، آلاف من القنابل والقذائف، بينما عمَّاتي يحتسين الشاي ويحنين رؤوسهن موافقات معجبات بهذه الأحاديث، وأنا نفسي لا أملك إلا أن أفكر بأن جدي لا بد أنه كان بطلًا في عصور تبلغ في بُعدها عني ما تبلغه القرون الوسطى التي سمعت عنها

في المدرسة. كان بطلًا في كل الأحوال، هذا الذي أعطاني الدروس في المبارزة، وشحذ سكين الجيب الخاص بي، وعلمني رسم الغيوم بتمرير ممحاة على الأشكال المرسومة بقطعة من فحم مأخوذة من الموقد، أو إظهار أعداد لا تُحصى من أوراق الشجر من دون رسم كل واحدة منها على حدة في واقع الأمر؛ إنها أسرار الفن الحقيقية، كما كان يقول.

تُحكى الحكايات من أجل أن تُنسى، لأنها دائمًا تعود إلى الحدوث على أي حال، مرة بعد مرة، حتى أغرب الحكايات عن الفن والفنانين. حكاية أن «بيتهوفن»، وهو في عمر متقدم، انهمك في العمل على سيمفونيته التاسعة إلى حد الهوس، لأنه كان أصم، كنت أعرفها، ولكن ذات يوم أُضيفت إليها معلومة مذهلة، وهي أنه لم يكن يكلف نفسه عناء الذهاب إلى المرحاض في أثناء العمل، فكان «يقضي حاجته بجانب البيانو»؛ على هذا النحو ـ أقتبس المقولة ـ «ألَّف تلك الأغنية الجميلة عن الناس كافة وهم يصبحون إخوة، إلى جانب كومة من القذارة». لذلك تخيلت الموسيقار الأطرش العظيم جالسًا في صالة من صالات فيينا، المزينة بأعمدة ذات تيجان ذهبية، بشعره المستعار الفاخر، وجوربه الطويل وجزمته طويلة الساق، وإلى جانبه كومة كبيرة هرمية الشكل من الفضلات، وكلما صدح «الأداجيو» الرائع من «السيمفونية الرعوية» في ظهيرة يوم من أيام الآحاد الطويلة المملة تلك، وقد جلس والداي وجداي على الأريكة بُنية اللون المزينة بزخرف الأزهار، يستمعون إلى الراديو ويحنون رؤوسهم شبه غافين، تراءت لي كومة من البراز إلى جانب البيانو المدهون بالورنيش اللامع، بينما يتعالى تغريد الوقواق من غابات فيينا، من بين آلات النفخ الخشبية والكمنجات، ويُحكم جدي إغلاق عينيه. التقدير الذي كان يكنُّه للعبقرية الرومانسية، التي يؤمن بها إلى أبعد الحدود، يصرفه في تلك اللحظات عن رؤية كل ما يفعله أفراد الأسرة من مشاغل يومية. لم أدرك إلا بعد مضي سنوات أنه هو نفسه قد عاش قرابة السنة ونصف السنة بشكل فعلي إلى جانب كومة من الفضلات، في الخنادق

البائسة التي كنت بمجرد أن تُخرج رأسك منها بغية الذهاب لقضاء حاجتك في مكان ما، تُعاقَب برصاصة في رأسك. لذلك ما كان يريد نسيانه، يعود إلى الظهور في حكايات مقتطفة أو في تفاصيل سخيفة، ولا يهم إن كانت تدور عن النعيم أو الجحيم، كان عليَّ أن أجمع هذه الأجزاء والتفاصيل وأضعها في مكانها المناسب، كي أفهم شيئًا مما كان يجول في خاطره على مدى عمره المديد: الصراع بين الرقي الذي كان يتلهف إليه، وذكريات الموت والدمار التي بقيت تُحكم قبضتها عليه.

* * *

في البيت، كان جدي يرتدي بشكل دائم ما يُسمى بالمرايل، تلك السترات القماشية القصيرة المتشابهة، ذات اللون الأبيض أو الرمادي الفاتح، البالغة من الطول ما تبلغه مباذل البيت من الطراز القديم، فوق قميص أبيض وربطة عنق على شكل فراشة. مهما جهدت والدتي ووالدتها في غسل تلك المرايل القطنية القديمة وغليها، التي كان يلبسها بشيء من التذوق والتأنق، لم تكن تنظف من بقع الألوان الكثيرة: لطخات مبعثرة من الطلاء الزيتي بألوان قوس قزح كلها، آثار أصابع متقاطعة بعضها مع بعض بشكل عشوائي، توليفة من لمسات جذابة طائشة، زخرفة مزاجية تشي بأنها من بقايا العمل الحقيقي.

ذلك العمل الحقيقي، الذي استطاع ممارسته من دون إزعاج، منذ أحيل إلى التقاعد في سن مبكرة، في الخامسة والأربعين من العمر، بسبب الحرب التي أصابته بالعجز، كان الرسم بهدف المتعة. كانت الغرفة الصغيرة التي يقف خلف نافذتها الصغيرة يومًا بعد يوم، تعبق برائحة زيت الكتان، والتربنتين، وقماش الكتان، والطلاء الزيتي. أجل، حتى رائحة الممحاة الكبيرة، التي كان يقطعها بالسكين بأحجام معينة، تفوح من بين هذا المزيج العصي على التقليد الذي يميز جو غرفته، رونق الساعات الهادئة اللامتناهية التي يقضيها في بذل الجهود الجبارة والعقيمة في تقليد الفنانين العظماء. ينسخ لوحاتهم

بمهارة عالية، يعرف كل الأسرار المتعلقة بالمواد والمركَّبات القديمة التي استخدمها الرسامون في عصر النهضة وورَّثوها للأجيال اللاحقة. بعد سنوات الحرب، التحق بدورات مسائية في الرسم بقلم الرصاص والألوان الزيتية في مسقط رأسه، مع أن والده المتوفى، رسام جداريات «الفريسكو» في الكاتدرائيات والكنائس الصغيرة، نصحه كثيرًا بعدم الالتحاق بها. على الرغم من أنه كان يشتغل في الأعمال اليدوية المرهقة في ذلك الوقت، استمر في أخذ الدروس، وعندما أوشك على تجاوز العمر الطبيعي للزواج، حصل على «شهادة مهارة في الرسم الدقيق بالألوان الزيتية وقلم الرصاص والرسم التشريحي».

من نافذته كان بوسعه أن يرى أحد الانعطافات في نهر «نيدرسخيلده»، المروج التي ترعى فيها الأبقار على مهل، القوارب الكبيرة الملأى بالحمولة التي ينغمس قاعها في المياه وهي تبحر ببطء في الصباح، السفن الخالية من الحمولة التي يلامس قاعها سطح المياه وهي تبحر بسرعة أكبر إلى خارج المدينة في آخر النهار. لقد رسم ذلك المنظر مرات لا تُحصى، في كل مرة بإضاءة مغايرة وظلال مختلفة، في وقت آخر من النهار، في فصل آخر، بمزاج آخر. كان يرسم كل ورقة من أوراق الدالية الحمراء على طبيعتها ـ يبدو أن الفن يحتاج في بعض الأحيان إلى استثناءات عن القاعدة العظيمة المتعلقة بالخدعة البصرية ـ وعندما ينسخ إحدى التفاصيل من لوحات «تيتسيانو» أو «روبنس»، يعرف أنه متمرس في الصبر، وفي الرسم الأولي المتقن بقلم الفحم أو الجرافيت، وفي الأسرار المتعلقة بمزج الألوان، والتقليل من كثافة الأخضبة، وترك الطبقة الأولى تأخذ قسطًا كافيًا من الراحة قبل وضع الطبقة الثانية، ما يعطي الانطباع عن العمق والشفافية ـ السر الثاني من أسرار الفن العظيمة الكثيرة.

كان هيامه الكبير هو رؤوس الأشجار، والغيوم، والأقمشة التي تظهر فيها ثنايا. كان بوسعه أن يطلق العِنان لنفسه في هذه الأشكال التي لا شكل

لها، أن يتيه في عالم الضوء والظلام، في الغيوم التي جمَّدها الطلاء الزيتي، في تدرجات الضوء والظل «كياروسكورو»، في عالم لا يفرض الناس أنفسهم عليه، فقد كان ثمة شيء، يصعب عليَّ أن أحدد ما هو على وجه الدقة، مكسورًا في داخله. كان التحفظ متضافرًا مع حنانه على الدوام، كما لو أنه في خشية دائمة أن يقترب منه الآخرون أكثر من اللازم، لأنه لطيف الطبع أكثر من اللازم. في الوقت ذاته، كان يعيش في براءة رقيقة من نوع راقٍ نبيل، وتلك السذاجة كانت السبب الجوهري في مزاجه المرح. كانت حياته الزوجية مع «جابرييله» سعيدة لا تلبدها الغيوم بالنسبة إلى الشخص الذي لا يعرف حقيقة الأمر. كانت حياة أحدهما متشابكة مع حياة الآخر تشابكَ رأسَي شجرتين معمِّرتين، اضطر أحدهما أن يلتف على الآخر، خلال عقود من الزمن، في سعي إلى الضوء الضئيل المتنازع عليه، يمضيان أيامهما البسيطة، التي لا يتخللها إلا ابتهاج ابنتهما المرحة اللعوب؛ طفلتهما الوحيدة. كانت الأيام تختفي في ثنايا الزمن الضائع هباءً. كان يرسم.

* * *

كانت الغرفة العلوية التي تؤدي وظيفة المرسم، الصاعدة إليها ثلاث درجات من فسحة السلَّم الصغيرة، غرفة نومهما أيضًا؛ شيء لا يصدق كيف أن الناس في الماضي كانوا يرون أنه من الأمور البديهية أن يعيشوا في مساحات صغيرة الحجم. خلف طاولة عمله، قام السرير إلى جانب الحائط، بحيث تستطيع زوجته أن تستند إلى الجدار في نومها على الدوام، فقد كانت تنام بعيدة عنه، رغم ضيق السرير. ثنايا الأقمشة والغيوم؛ رؤوس الأشجار والمياه. كان أفضل أعماله التقليدية المتميزة يحتوي كل منها على بضع بقع لا شكل لها، كتل تجريدية غريبة يراها هو نفسه تعبيرًا عن الوفاء للطبيعة، كما لو أنه يرسم من الموديل الذي أظهره الله أمام عينيه، فوجب عليه أن ينشره بصبر المتقن المتفاني في عمله اليومي كناسخ متواضع. ولكن هذا

الشيء كان أيضًا الضريبة التي التزم بدفعها كشكل من أشكال الحزن على موت والده المبكر، رسام الكنائس المتواضع «فرانسيسكس».

* * *

مضى ما يزيد على ثلاثين سنة وأنا محتفظ بالدفترين، اللذين كتب فيهما ذكرياته، بعناية وإتقان، بخط يده المميَّز من أيام ما قبل الحرب، من دون أن أفتحهما؛ أعطاني إياهما قبل بضعة أشهر من موته عام ١٩٨١ . كان حينذاك في التسعين من عمره. كان قد ولد عام ١٨٩١ ، بدا وكأن حياته لم تكن أكثر من قفز رقمين أحدهما فوق الآخر في التعداد السنوي. في فترة ما بين هاتين السنتين، حصلت حربان، ومذابح جماعية فظيعة، وأكثر القرون وحشية في التاريخ البشري كله، ونشوء الفن المعاصر وانحساره، والتوسع العالمي لصناعة الموتورات، والحرب الباردة، ونشوء الأيديولوجيات العظيمة وانهيارها، واكتشاف الباكيليت، وانتشار التلفون والساكسفون، والتصنيع، وصناعة الأفلام، والبلاستيك، وموسيقى الجاز، وصناعة الطائرات، والوصول إلى القمر، وانقراض ما لا يُحصى من أجناس حيوانية، وأولى الكوارث البيئية الكبيرة، وتطوير البنسلين والمضادات الحيوية، ومايو ١٩٦٨ ، والتقرير الأول الصادر عن منظمة نادي روما، وموسيقى «البوب»، وابتكار حبوب منع الحمل، ومشاركة المرأة في الحياة العامة، وظهور التلفزيون وأول الكمبيوترات، وحياته المديدة كبطل من أبطال الحرب المنسيين. إنها الحياة التي طلب مني أن أصفها باستئماني على تلك المذكرات. الحياة التي امتدت ما يقارب قرنًا كاملًا والتي بدأت على كوكب آخر. كوكب من القرى، من الطرقات الريفية، عربات الخيول، مصابيح الغاز، طشوت الغسيل، بطاقات النعي، الخزانات الجدارية القديمة، الزمن الذي كانت النساء فيه في الأربعين من العمر يُعتبرن من العجائز، الزمن الذي كان فيه القساوسة ذوو السلطة المطلقة تفوح منهم روائح السيجار والملابس الداخلية غير المغسولة، زمن وضع الفتيات البرجوازيات المتمردات في دور الراهبات، زمن الكليَّات

اللاهوتية والأحكام الأسقفية والإمبراطورية. الزمن الذي بدأت فيه معاناته الطويلة، عندما أطلق الصربي القذر الوضيع، «غافريلو برينسيب»، عام ١٩١٤، طلقة لم يصوبها حتى بشكل جيد، حوَّلت الوهم الجميل الذي كانت أوروبا القديمة تعيش فيه إلى أشلاء، وبذلك تسبَّب في كارثة ألمت أيضًا بجدي قصير القامة، صاحب العينين الزرقاوين، وهو في مقتبل العمر، وبقيت تسيطر على حياته إلى أبد الآبدين.

* * *

كنت قد نويت ألا أقرأ مذكراته إلا عندما يكون لديَّ حيز كامل من الوقت، مقتنعًا بأن مادتها ستستحوذ عليَّ إلى حد أنني سأكتب قصة حياته في الحال، أي بعبارة أخرى عندما أكون حرًّا من أي التزامات غيرها، ولا يكون بين يدَيَّ سوى هذه المذكرات كي أكرِّس نفسي لخدمته. لكن السنوات مضت، واقتربت الأيام التي توقعت أن تشهد غزارة في نشر الكتب، بمناسبة الذكرى المئوية، التي لا مفر منها، لكارثة ١٩١٤، التي من شأنها أن تضيف سدًّا من الكتب إلى الجبل القائم من المواد التاريخية الموجودة بشيء من العشوائية، كتب لا عد لها، مثل أكياس الرمل على جبهة إيزر؛ قصص وروايات من وحي الخيال، تاريخية وموثقة بحماس، في حين أنني، أنا الذي نلت شرف حيازة مذكراته، تركت هذين الدفترين مغلقين مدفوعًا بالخوف، حتى إنني لم أجرؤ على فتح الصفحة الأولى منهما، لمعرفتي بأن هذا الأمر سيشكل تصفية الحساب مع جزء من سنوات طفولتي. هذه القصة، إذا لم أحث الخطى في كتابتها، ستُنشر في اللحظة التي يدير فيها القارئ ظهره متثائبًا، متذمرًا من كتاب جديد آخر عن الحرب العظمى الملعونة تلك. تركت الدفترين مغلقين، مع أنني كنت أعرف أنهما، باعتبارهما يحتويان على تقرير موثق توثيقًا جيدًا للغاية، يجب أن يكونا في أرشيف الحرب العالمية الأولى ـ أي أنني بكلمات أخرى تكتمت بتوانيَّ المخزي على شهادة حيَّة من شاهد عيان، شهادة ينبغي أن تكون معروفة للعلن. لهذا السبب تولاني أيضًا نوع

من الخوف من الفشل، أصابني بمزيد من الجمود. وعندما استعرضت في مخيلتي عددًا من القصص التي كان يسردها على مسامعنا في الماضي، وبدأت أفهم، في تلك اللحظة فحسب، المغزى الحقيقي لكثير من الأمور والظروف المحيطة بها، انتابني شعور بالعجز والذنب. أضعت مرة أخرى سنوات قيمة، انهمكت فيها بما لا يُحصى من القضايا الأخرى، متجنبًا الاقتراب من هذين الدفترين؛ هذين الشاهدين الصامتَين، الصابرَين، حيث يرقد، كأنما في ضريح متواضع، خط يده الأنيق، المهذَّب، خط من تعلموا الكتابة ما قبل الحرب.

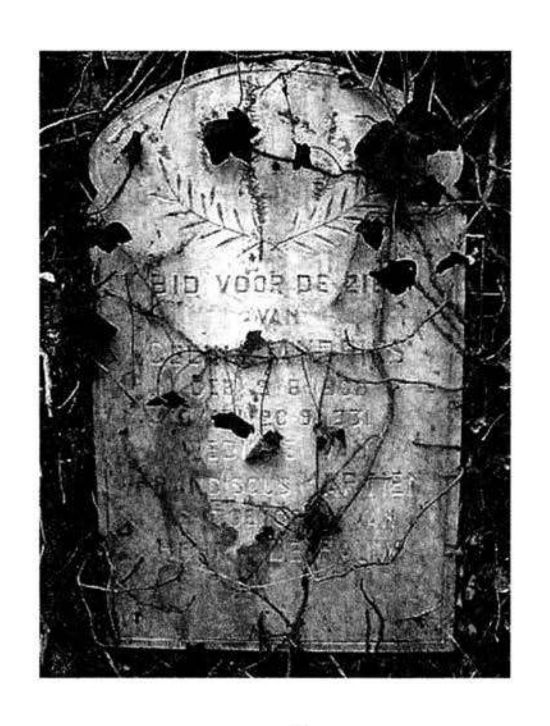
* * *

في سنوات التأجيل وكبت الإحساس بالذنب تلك، ظهر شيء للعيان أضفى على المسألة مزيدًا من الإلحاح. جاء أحد أعمامي لمساعدة أبي على تغيير بضعة ألواح متفسخة من الأرضية الخشبية القديمة، في الغرفة الأمامية من الفيلّا المتواضعة التي بناها جدي عام ١٩٣٠، فعثر على شاهدة قبر مغطاة بالغبار، في الفسحة منخفضة السقف الممتدة تحت أساس المنزل، في أبعد زواياها وأشدها ظلامًا. نادى أبي كي يذهب إليه. حبا الرجلان على أيديهما وركبهما حتى وصلا إلى الشاهدة المذكورة، وأضاءا المكان بمصباح يدوي. كانت شاهدة قبر والدة جدي. سمعت والدي يقول:

ـ اللعنة، كان قد خبأ الشاهدة هنا إذن!

حملا الشاهدة الثقيلة إلى درفة الفسحة ورفعاها إلى أرضية البيت. حتى في ذلك الوقت لم أفهم المغزى الحقيقي من هذا الأمر. كان جدي حينذاك قد مات منذ بضع عشرات من السنين، ولم أستوعب ما الذي يمكن أن يجعل شخصًا يخبئ شاهدة قبر في أبعد مكان من فسحة ما تحت أساس منزل، وهو على قناعة تامة كما يبدو بأنها لن ترى النور مرة أخرى. بعد مضي سنوات أخرى، رأيت أن أبي قد علَّق الشاهدة، بمشابك حديدية قوية، على حائط الحديقة المغطى بالمعترشات، على علو يقارب مترًا واحدًا من الأرض،

وراء المرأب القديم الذي كان يركن فيه سيارته في الماضي. حينذاك قرأت لأول مرة في تمعن ما كُتب عليها:



صلِّ لروح

«سيلين أندريس»

المولودة في ٩/ ٨/ ١٨٦٨

المتوفاة في ٢٠/ ٩/ ١٩٣١

أرملة

«فرانسيسكس مارتين»

زوجة

«هنري ده باو»

* * *

الدفتران أمامي. الدفتر الأول صغير وسميك، حواشي صفحاته ملونة بالأحمر. الغلاف مصنوع من قماش كتان ذي لون رمادي فاتح، وكأنه مكسو بسترة من قماش «التويد» من زمن ما قبل الحرب. الدفتر الثاني أكبر حجمًا، يكاد يكون بحجم أوراق آلة الطباعة، وله غلاف كرتوني مرخَّم من الطراز القديم، شبيه بعض الشيء بالرخام المُقلَّد الذي كان يروق له أن يرخِّم به الجدران. في الدفتر الأول، كتب ذكرياته عن طفولته التي قضاها في فقر في مدينة خنت قبل عام ١٩٠٠، وعن جزء من التجارب التي عاشها في الحرب العالمية الأولى.

كان في الثانية والسبعين من العمر، عندما شرع في كتابة الدفتر الأول هذا ـ بتاريخ ٢٠ مايو ١٩٦٣ ـ ربما ليكون في وسعه أن يخبر أحدًا عما شوَّه حياته، إذ إن الساكنين معه في البيت وأفراد عائلته ملُّوا من حكاياته وأخذوا يتهربون منه بحجج من قبيل: «لقد أخبرتني عن هذا كثيرًا»، أو «أنا متعب، سأذهب إلى النوم»، أو «يجب أن أغادر الآن». كان قد مضى خمس سنوات على موت زوجته «جابرييله» في ذلك الوقت؛ ساعدته الكتابة بطريقة أو بأخرى على إنهاء فترة حداده عليها. خط يده المتماسك لا يكاد يتغير في الدفتر الأول هذا؛ على العموم يكتب بحبر كحلي اللون، يسلسل حكاياته باستمتاع وأريحية، مسهبًا في الذكريات عن تلك الأيام التي قضاها في مدينة إقليمية كئيبة. لا أزال أرى قلمه الحبر من ماركة «وترمان» على طاولة الزينة الصغيرة، المنحدرة من القرن التاسع عشر، التي دهنها على شكل زخارف خشبية غريبة على أمل أن تشبه قطعة أثرية بعض الشيء. لا بد أن سطحها الأصلي من المرمر انكسر ذات مرة، فاللوحة الخشبية المركَّبة محله بشكل أخرق أصغر قليلًا في الحجم. على طاولة الزينة الصغيرة هذه، أمضى سنوات عديدة في الكتابة، مع أنها عالية جدًّا ولا يرتاح المرء في الجلوس إليها. الطاولة الصغيرة، التي

تلطخ درجها البسيط بألوان زيتية من شتى الأنواع، قائمة هنا ورائي، في الغرفة التي أكتب فيها؛ لا أزال أحتفظ بدفترَي المذكرات في درجها. الدفتر الثاني، الذي بدأ فيه لأنه ندم على الكتابة بإسهاب مفرط عن طفولة قضاها في فقر مهين، يستهله بشرح أنه أطال في الحديث عن حكايات شخصية غير مهمة في دفتره الأول، وأنه سيعيد الكرة، ولكن هذه المرة عن ذكريات الحرب فحسب. كما أن الدفتر الأول كان قد امتلأ، ولم يكن قد تجاوز منتصف سنة ١٩١٦. يكتب:

> دفتر ذكرياتي عن حرب ١٩١٤-١٩١٨ يحتوي أكثر من نصفه على حكايات مملة عن سنوات طفولتي وعلى صفحات كثيرة غير مهمة. سأكتب الآن عن الحرب فقط، بصدق ونزاهة، وليس على سبيل التمجيد. أشهد الله على ما أقول. عن تجاربي فقط. عن رعبي.

هكذا لخص عددًا من الحكايات التي سردها من قبل، مضيفًا تفاصيل جديدة هنا وهناك، من أجل أن يستمر حتى ١٩١٩. يتضمن الدفتر الثاني عددًا من المشاهد المؤلمة على جبهة إيزر، تفاصيل عن إصاباته، فترات نقاهته في إنجلترا، اكتشاف جدارية «الفريسكو» في ليفربول بالغ الأهمية بالنسبة إليه. بعد ١٩١٦، السنة التي أصيب فيها للمرة الثانية، يميل إلى مزيد من الاختصار، إذ إن وصف الحياة البائسة في الخنادق لا يمكن أن يُعاد إلى ما لا نهاية؛ هرس الجرذان بين اليدين ثم شواؤها على النار في الليل، وصريخ الرفاق المصابين، والتخبط في دحرجة لفائف الأسلاك الشائكة في الوحل بالأيدي الدامية، وأزيز المدافع، ودوي قذائف المنثار، وتطاير التراب وتناثر الأشلاء. لكنه يعود إلى الإطالة قليلًا عند إقامته في إنجلترا للمرة الثالثة، أي في ويندرمير في مقاطعة البحيرات. في الصفحات الأخيرة من الدفتر الثاني هذا، عندما يصل إلى الحدث المأساوي الذي أفجعه بعد مضي سنة على الحرب، في أثناء

الإنفلونزا الإسبانية عام ١٩١٩، يتزعزع خط يده. يبدو أنه يفقد انضباطه، لكنه يبقى متحفظًا في سرده على نحو لافت للانتباه. تسير الخطوط في ميلٍ على الصفحة، في صعود من اليسار إلى اليمين؛ أحيانًا يسترجع خطه القديم المنتظم، وأحيانًا يسير كل شيء في تعرج. لا بد أنه كان في مرحلة متقدمة من الثمانينيات من عمره، عندما كتب الصفحات الأخيرة بصعوبة. كان يكتب حينذاك بأقلام حبر جاف تتغير ألوانه، وتراجع بصره إلى حد بعيد؛ على حد معرفتي، لم يحدث أن اشترى نظارة جديدة في العقود التي عرفته فيها، لعله لم يعد يرى أي شيء تقريبًا في الصفحات التي كان يعذِّب نفسه عليها. سبعة عشر عامًا من العمل في كتابة ستمائة صفحة في الإجمال بخط اليد. كانت ذاكرته لا تزال في منتهى الوضوح، ومحتفظة بكم هائل من التفاصيل، بحيث لا أجد تفسيرًا سوى أن ذلك الوضوح كان أثرًا من الآثار التي تركتها الصدمة عنده؛ التفاصيل المذكورة في الدفتر الثاني، إذا ما وضعناه بجانب الدفتر الأول، تدل على أنه كان يعيش في خنادق ذاكرته ويوغل فيها أكثر فأكثر. لم يستطع طوال حياته المديدة أن ينتزع نفسه من التفاصيل؛ من الورقة المتساقطة من الشجر عند هبوط الليل قبل أن يواجه الموت للمرة الألف، من صورة رفاقه القتلى، من رائحة الوحل، من الرياح الدافئة التي تهب على المنطقة الريفية المدمَّرة في أوائل الربيع، من أشلاء حصان بعثرها القصف بين حطام سياج من شجيرات. في الصفحة الأخيرة، هناك بقعة يبدو أنها تشكلت من تسرب سائل عبر الورقة؛ ثقب كُتبت على أحد طرفيه كلمة «مساء»، وعلى الطرف الآخر كلمة «هلع».

* * *

تشبَّعت بما قرأته، ثم بدأت بترقيم الصفحات وتدوين المشاهد المذكورة في نهاية الدفتر الأول وبداية الدفتر الثاني. احتجت إلى ما يقارب السنة كي

أنقل مذكراته إلى الكمبيوتر، فأصبحت لديَّ رؤية واضحة عن الطريقة التي تتداخل بها الأحداث والقصص المسكوت عنها بعضها في بعض. كان ذلك عملًا شاقًّا، إذ إنني من ناحية، لم أستطع مجاراته في الكتابة، فقد استحال عليَّ تقليد أسلوبه، الذي يمتزج فيه الذوق قديم الطراز مع الركاكة والأصالة، من دون أن أقع في التكلُّف، ومن ناحية أخرى، عندما أعدت صياغة أسلوبه المسهب باللغة المعاصرة، تولاني إحساس بأنني ارتكبت خيانة في حقه، حتى تصحيح أخطائه الكتابية، المؤثرة في كثير من الأحيان، أصابني بشعور طفيف بالذنب. وضعني هذا العمل أمام الحقيقة المؤلمة التي ينطوي عليها كل عمل أدبي: كان يجب أن أشفى من الحكاية الأصلية أولًا، أتركها وشأنها، كي أستطيع العثور عليها من جديد بطريقتي الخاصة. لكن الوقت أخذ يلح أكثر من أي زمن مضى، وتعششت في رأسي فكرة أنه يجب عليَّ إنهاء هذا العمل قبل الذكرى المئوية للحرب العظمى. حربه. صراعي مع ذكرياته.

أخذت أكدح مثل موظف عبر المئات من الصفحات المكتوبة باليد، ولعنت أسلوبي متوسط الجودة، المتأتي من محاولتي المزدوجة في أن أبقى أمينًا له وأترجم حكايته مع ذلك حسب خبرتي الشخصية. بعد ذلك وضعت فهرسًا للمشاهد والكلمات الأساسية، دونت أسماء الأماكن التي يجب أن أزورها، ونسخت الدفترين خوفًا من ضياعهما، ثم احتفظت بهما في خزنة مضادة للاحتراق في أحد المصارف؛ أخذت أتحدث مع الأناس القلائل الباقين على قيد الحياة، فلم يستطيعوا أن يزوِّدوني سوى بقليل من التفاصيل المشكوك في صحتها. طلبت من والدي، صهره الذي كان يعيش وحده في البيت على ضفة النهر في تلك اللحظة، أن يكتب بدوره كل ما يستطيع أن يتذكره عنه؛ ساعدني، بذاكرته الواضحة والقوية بالنسبة إلى عمره التسعيني، على لصق المقاطع المتفرقة، في التدقيق في صحة

النسخ المشكوك فيها، التي نثرها جدي حوله على مدى عشرات السنين بروح مرحة، وذلك بمقارنتها مع النسخ المكتوبة في الدفترين، وكذلك في القدرة على رؤية الأشياء كلها في أحجامها الحقيقية.

* * *

عندما أنظر إلى طاولة الزينة القديمة القائمة هنا ورائي، أرى قامة قصيرة مكتنزة، تنضح بشدة لا مثيل لها. لا تزال عيناه الزرقاوان، زرقة فاتحة، بعد مضي أكثر من ثلاثين سنة على موته، تتألقان في رأسه المؤطر بشعر أبيض خفيف، شبيه بعض الشيء بتلك الصورة المشهورة لـ«أرتور شوبنهاور» في عمر متقدم: شخصيات عظيمة، شديدة المراس، نقول لأنفسنا إنها لم تعد موجودة اليوم، إذ إن الحياة فقدت زهدها الصارم الذي جعل أمثال هؤلاء الشخصيات تنضج وتزدهر. أستطيع أن أسمعه وهو ينادي، أن أسمع صوته الجهوري المتنقلة عدواه إلى الآخرين، ونغمة حكاياته المطربة، لكنني لم أعد أتذكر كلمات أو جملًا بعينها. كانت تحيط به هالة من الروائح: روائح الرسامين القدماء، وشيء آخر غير محدد، رائحته، وجوده الجسدي في الحياة في لحظة بعيدة عن هذه اللحظة التي أكتب فيها. لقد أوغل في الزمن، مثل القامات العظيمة في الأساطير والحكايات القديمة، فأصبح محسوسًا بطريقة مغايرة تمامًا، على شكل تاريخ حميم. وعندما أبحث عن آثار حياته، معتمدًا على نفسي على العموم، إذ إن كل شيء تقريبًا قد اختفى من الوجود، أتساءل مرة بعد مرة ما الذي يربطنا بأجدادنا بمثل هذه الطريقة المبهمة؟ أهو غياب ما نخوضه من صراع الأجيال مع آبائنا؟ ففي الهاوية التي تفتح ثغرها بيننا وبين أجدادنا، نخوض المعركة من أجل ذواتنا المُتخيلة، ويدفعنا بُعد الزمن إلى التوهم أن حقيقة أكبر من تلك التي نعرفها عن آبائنا مختبئة هناك. إنها سذاجة عظيمة وقوية، تلك التي تدفعنا إلى الرغبة في المعرفة.



الغريب في الأمر هو أن ثمة تفاصيل عن عالمي الخاص أيضًا، لم تكشف النقاب عن سرِّها التاريخي إلا بعد أن قرأت مذكراته: ساعة جيب ذهبية تشظت على البلاط؛ سيجارة إهليلجية الشكل من علبة فضية، دخنتها في الخفاء، وأصابتني بالغثيان، عندما كنت في الخامسة عشرة من العمر؛ شال أحمر بني مهترئ على إحدى الخزانات القديمة في دفيئة العنب المتداعية، ملطَّخ بذرق شحارير ضلت طريقها وراحت تتخبط في الدفيئة وتصطدم بجدرانها الزجاجية في رعب إلى أن خرجت من الشباك المفتوح بمحض مصادفة؛ علبة صغيرة متضمنة أدوات حلاقة فضية اللون قديمة الطراز، تعبق بالرائحة النفاذة لحجر الشب والصابون العتيق؛ نشرة إعلامية من ليفربول فُتحت وطُويت مرات لا تُحصى حتى تمزقت طياتها؛ العلبة المعدنية المحتوية على أوسمته وزينته العسكرية، التي لم أعثر عليها إلا بعد مضي سنوات على موته؛ الأسطوانة النحاسية التي ضمت قنبلة ثقيلة ذات يوم، الموضوعة فوق دعامة الدرابزين، وكان يحرص على تلميعها كل أسبوع ـ كان يسميها «قذيفة» ـ واعتقدت طوال فترة طفولتي أنها نوع من أنواع المزهريات الغليظة.

أماط لي الزمن اللثام عن سرٍّ جدي تدريجيًا ـ عن حياته المديدة التي كانت في جُلِّها عاقبة، حصيلة سنوات الطفولة التي تكاد تنتمي إلى القرون الوسطى، حياة الرجولة المبكرة التي امتلأت بالفظاعات، العشق الكبير الذي وجده وفقده بعد الحرب، حكاية استسلامه المعاند، حرمانه المؤلم، شجاعته الطفولية، صراعه الداخلي بين الورع والشهوة، الصلوات اللانهائية التي يتمتم بها وهو جاثٍ على ركبتيه، وقبعته إلى جانبه على مقعد الكنيسة، وقد أحنى رأسه المؤطر بالأبيض أمام ما لا يُحصى من تماثيل القديسين والشموع ذات اللهب المرتعش في بيوت الله المضاءة بأضواء باهتة ـ الحياة العاطفية لعالم لا يُرى عليه من الخارج أي شيء مثير.

* * *

أهيم في شوارع المدينة التي ولدت فيها، وأراها بعيون أخرى تمامًا منذ أن غادرتها قبل ما يزيد على عقد من الزمن. إنه طقس ربيعي بارد، وقد تلبدت السماء بغيوم شبيهة بتلك التي كان يروق له أن يرسمها. الواجهة القديمة لمحل الدراجات الهوائية، الذي حصلت منه على دراجتي الحمراء الأولى ذات يوم، لا تزال موجودة، لكن الحروف المكتوبة عليها بهتت. تقوم بيوت البرجوازيين يتيمة على طول طريق أسفلتي لم يعد يعرف الحياة الرغيدة التي كانت الغاية المرجوة من تصميمها وبنائها قبل ما يزيد على قرن من الزمن. تمطر السماء رذاذًا، تتحرك السيارات في رتل بطيء في جادة «هيرنس»، التي لا بد أن الزقاق المفتقر إلى الضوء الذي قضى فيه سنواته الأولى كان يقع في مكان ما وراءها، بين ساحة تغيير مسار القطارات والقناة المائية. لقد أصبحت تلك الجادة جزءًا من طريق المدينة الدائري؛ كانت في ذلك الزمان جادة أنيقة ترخي عليها الأشجار الباسقة ظلالها، حيث كانت «النساء النبيلات من الطبقة البرجوازية الراقية»، كما كان يسميهن باحترام، ينظرن في الصيف

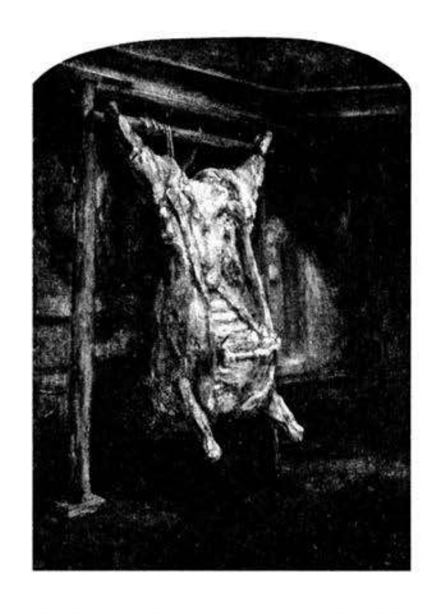
من شبابيك عرباتهن الخفيفة، يصحن بابتهاج، إلى الأطفال البائسين المتشحين بالرماد الذين يأتون في ظهر أيام الآحاد ليملأوا عيونهم منهن. كان يقطع جادة «هيرنس» هذه، في صباحات الشتاء الضبابية، متنعلًا قبقابه، مثل بطل صغير في قصة «ديكنز»، يجرجر قدميه من ثقل سطل: يذهب لاستجداء الفحم من الرجال اللامعين بالسواد الذين يُحمِّلون مقصورات القاطرات البخارية بالفحم، وراء تقاطع السكك الحديدية عند بوابة «دامبورت». يعود إلى البيت، يضع السطل الثقيل خلف الموقد المصنوع في مدينة لوفان كي تبتهج والدته، عندما تعود متعبة من عملها عند إحدى العائلات البرجوازية المقيمة في مكان ما في المدينة، وتلاحظ أنهم لن يعانوا البرد وسيستطيعون تناول طعام مطبوخ في المساء. بعد ذلك مباشرة، يهرول إلى المدرسة ويتلقى توبيخًا على تأخره. كانت أختاه تضحكان عليه، لأنه يجاري رفاقه بصعوبة في تعلم اللغات والحساب. زرع في أحد الأيام حبة ذرة، في مكان ما على الجانب العشبي المحاذي للسكة الحديدية والمغطى بشجيرات الفراشة والبيلسان، وأخذ يسقي الشتلة النامية بوعاء قديم متهالك كل يوم، إلى أن وجدها مكسورة ومقلوعة؛ مشهد يصفه بمرارة:

أصبحت أسرتنا تعيش شيئًا فشيئًا في عزلة في ذلك الزقاق.

* * *

أعبر الأحياء السكنية، التي لا يوحي بناؤها بالإبداع، وكانت تقوم محلها سوق خنت للحيوانات في يوم من الأيام؛ أحمل ذكرى هذا المكان في كياني على شكل رائحة قوية. كانت سوق المواشي القديمة تلك صالة مفتوحة، بسقف تدعمه على مسافات منتظمة أعمدة حديدية، حيث تضرب الثيران المربوطة إليها الأرض بحوافرها وتشد سلاسلها من دون توقف، بينما يحتقن الدم في عيونها ويسيل اللعاب من أفواهها. كان الدم المائع يسيل على القش المنداس تحت طاولات الجزارة، والرئات المكدسة

بعضها فوق بعض في جبال عديمة الشكل وردية اللون، تبدو كما لو أنها لا تزال تنبض بالحياة في مادتها اللزجة. القلوب المبتورة ترقد إلى جانب الألسنة، الرؤوس تُباع بالكيلوجرام، والعيون الناظرة إليك من الكفة النحاسية المتدلية من «الزان» ـ كان جدي يسمي خُطَّاف الوزن سهل الاستعمال بهذا الاسم المحرَّف عن كلمة «ميزان» ـ تحملق في جمود، وكأنها مستغرقة في التأمل وراء حدود الموت الموجود في كل بقعة من هذا المكان، موت يلازم الحياة أكثر من أي شيء رأيته في حياتي كلها، أنا الذي لم أعش تجربة حرب. لا بد أنه كان يتذكر حسبما أعتقد سوق الحيوانات القديمة هذه في بعض الأحيان، بشكل غير إرادي وباشمئزاز، عند رؤية المذابح على ضفاف نهر إيزر التي كان شاهدًا عليها، يتذكر الأحشاء التي تخرج من البطون وتقول إن هذا تجاوز للحدود؛ الحدود التي تكون الحياة فيما وراءها في مأمن عن الموت الذي يحلو له أن ينشب مخالبه في الأرواح. لم يكن المزيج المكون من الذعر والاستسلام، الظاهر في عيون الأغنام المنتظرة دورها في الذبح، يهم بائعي المواشي في ذلك الوقت، إذ يتغاضون عنه مسرورين غير مكترثين. كان الزمن نحو عام ١٩٠٠ في مدينة إقليمية زمنًا هادئًا، كل شيء لديه مكان، وجدي، الصعلوك الفقير آنذاك، يحوم بالطاولات وهو يعلم أن شيئًا ما سيُلقى إليه في آخر الأمر، شرط أن ترتسم نظرة حزينة بعض الشيء في عينيه الطفوليتين الزرقاوين: بضع أواقٍ من سجق الدم، ضلع مُشفًّى كيفما اتفق لكنه لا يزال صالحًا لطهي بعض من الحساء، أو قليل من اللحم قاسي الألياف لإعداد المرق. في زمن لاحق، كان إذا ما شاهد معي النسخ الفنية، ووصل إلى لوحة «الثور المذبوح» المشهورة للرسام «رمبرانت»، قال: «لقد أتقن رسم هذه اللوحة إلى درجة أنك تشم رائحة سوق الحيوانات النتنة».



كانت والدته، «سيلين أندريس»، قد «حظيت» بالتعليم، حسبما يكتب في مذكراته؛ كان والداها من تجار القمح والبطاطس، شأنهما في ذلك شأن بيت حميه في وقت لاحق. درست ابنتهما المرحلة الثانوية في المدرسة الداخلية الراقية للبنات «بييرز ده رافيسخوت»، التي لم تكن تقدر على تكاليفها في القرن التاسع عشر سوى الطبقة ميسورة الحال. كانت تتحدث الهولندية والفرنسية والإنجليزية، تحفظ قصائد الشاعر الفلامندي «برودنس فان دايس» عن ظهر قلب، قرأت الرواية التاريخية «أسد فلاندرز» للكاتب «هندريك كونشنس»، فصارت بذلك من مناصري «الحركة الفلامندية». بعد أن أنهت دراستها، «خدمت»، مثلما كانوا يقولون في ذلك الزمن، عند عائلة من طبقة النبلاء في قصر «ده بوتر ده فيلديفايك» في منطقة «إيكرن» التابعة لمدينة أنتويرب. تعرفت هناك إلى نمط الحياة الذي تعيشه الطبقة البرجوازية الراقية، وأحاطت بها منذ ذلك الوقت هالة من الوقار الرفيع. لا بد أنها كانت امرأة ذات شخصية قوية قوة فريدة من نوعها؛ جدي معجب بها إعجابًا لا حدود له. يتحدث عنها في مذكراته بمزيج من حب متحفظ وحنان حميم.

كان والده، «فرانسيسكس مارتين»، «رسام كنائس»، شابًّا موهوبًا منحدرًا من طبقة أدنى، التقته «سيلين»، عندما اصطدمت بالسلم الواقف عليه من دون قصد، في أثناء دخولها الكنيسة الأبرشية، وكادت بهذه الطريقة توقع الرسام المتواضع، الذي كان في تلك اللحظة يرمم لوحة المحطة الرابعة من درب الصليب. قبل أن أقرأ مذكراته، كانت حكاية لقائهما الأول أحجية بالنسبة إليَّ، حكاية كان جدي يتملص من سردها وهو يضحك، لكنه كتب عنها بحب شديد. عندما اصطدمت بالسلم الواقف عليه من دون قصد، وقع شيء من فوق وكاد يصيبها؛ فرشاة، سكينة رسم، شيء من الأدوات التي يعلقها على حزامه، ليس واضحًا أي شيء بالضبط. تعالى صوت ارتطامه بالأرض الحجرية في الكنيسة الفارغة. رفعت المرأة الشابة ناظريها، فأوشك الرجل المفزوع أن يفقد توازنه؛ وانزاح السلم عن الجدار لحظة قصيرة، فاضطر أن يرمي بجذعه على السلم بسرعة البرق كي لا يسقط على الأرض. تبدت ابتسامة على وجهها الصارم، تابعت سيرها، جلست تصلي إلى جانب الشمعتين المتقدتين أمام السيدة العذراء، الشعلتين الصغيرتين اللتين قالت عنهما لاحقًا كما لو أن روحها وروحه هما اللتان تشتعلان بهدوء إحداهما إلى جانب الأخرى. شاب رث الهيئة يلتقي فتاة مرموقة في كنيسة هادئة خالية من الناس ـ لقاءات اثنين من الشباب والشابات من دون طرف ثالث كانت في ذلك الزمن نادرة الحدوث نوعًا ما. نظر إلى الأسفل، رأى وشاحها المصنوع من الدانتيل الأسود ملفوفًا حول كتفيها المشدودتين الشامختين، نزل عن السلم، ومضى إلى البوابة ينتظرها في خجل وارتباك. عبرت من جانبه حتى كادت تصطدم به ونظرت إليه نظرة خاطفة: عينان ساخرتان بلون رمادي فاتح، وكأنها صبت ماء باردًا نقيًّا على روحه. عينان بلون رمادي فاتح، ولكن شعر أسود، لا بد أن ذلك لفت انتباهه باعتباره رسامًا؛ شيء لا يُرى كثيرًا، إنه جمال من نوع خاص، هذا ما اعتاد جدي أن يقوله فيما بعد، ولم يكن يلقي الكلام على عواهنه.

هام بها «فرانسيسكس» ـ مضت أسابيع وهو ينتظر دخول الطيف الأسود، الذي تركه ينتظر بلوعة في قلبه، حتى أصيب بخيبة الأمل، فالحمى، فالمرض. بقي بضعة أيام غائبًا عن عمله، إلى أن جاء نائب راعي الأبرشية، وقال لوالدَيه إن «فرانسيسكس» سيفقد عمله إن لم يرجع إلى العمل في الحال. عندما عادت «سيلين» إلى الكنيسة أخيرًا، في يوم عادي من أيام الأسبوع التي لا يجد فيها معظم الناس متسعًا من الوقت لزيارة الكنيسة، علم أنها جاءت من أجله. أستطيع أن أستخلص من مذكرات جدي أنه حدث اضطراب في عائلتها، التي لم تتحمل أن ترى ابنتها ذات النشأة الرفيعة ترتبط بمثل هذا الشخص الفقير المعدم؛ لكن يبدو أن روح الفتاة الشابة الأبيَّة قد تعلقت بالرسام الرومانسي المهلهل، بوجهه النحيف الشبيه بوجه الرسام «إل جريكو»، بيديه بارزتَي العظام الملطختين بالدهان وأصابعه الرفيعة المرتبكة، بطريقة مشيه الصبيانية، المترنحة بعض الشيء. كررت عائلة التجار الأغنياء، من دون دراية منها، ما يتكرر عبر التاريخ مرة بعد مرة: عندما يغتني الفلاح، يربي أولاده تربية أرستقراطية ويتيح لهم شيئًا من التعليم والثقافة، فينتهي بهم الأمر بأن يديروا ظهورهم لهواجسه المادية ويبحثوا عما هو أسمى. بقيت على شجار مع والديها شهورًا عديدة، قبل أن تنتزع موافقتهما على الزواج منه. هددت بأن تهجّ من البيت، بأن تترهب في دير الراهبات، بأن تفر إلى أي مكان، حبست نفسها في غرفتها، وحولت حياتهما إلى جحيم، وفكرت في سرِّها: أريده، أريد حبيبي رسام الكنائس ذا العينين الزرقاوين، أريده أن يكون لي وسيكون لي. حتى تاجر البطاطس الورع لم يتحمل أن يرى ابنته الجميلة تختفي في دير الراهبات. هكذا، استسلم والداها لرغبتها في آخر الأمر، فتزوجت «سيلين» الأبيَّة ذات النشأة الرفيعة حبيبَها الرسام الفقير.

عاشت حياتها الجديدة بقضها وقضيضها، حياة العوز والفقر، والهموم المالية، ومشكلات «فرانسيسكس» الصحية، ونوبات السعال وأزمات

الربو الليلية، ورطوبة البيت المتداعي، والغرف الخانقة التي يفنون حياتهم فيها، وجوع الأولاد الخمسة الذين جاءوا واحدهم وراء الآخر، وبكاؤهم وصياحهم الذي لا ينتهي. وكانت تحيط زوجها برعايتها كما لو أنه ابنها السادس. وتقول له وهي تهز رأسها، عندما تريد أن تمزح معه في تهكم خفيف: «آه منك يا حبيبي الرسام». وكان يعشقها ـ يعشق عقدة شعرها اللامع، عنقها، كتفيها المشدودتين، النتوءات الجميلة في مفاصل معصميها، هيئة أظافر يديها التي لا تشوبها شائبة، التألق الشاحب الغريب الذي تنضح به عندما تخوض في الحديث.

* * *

لأن «سيلين» أحبت رسام الكنائس الفقير والمريض بالربو ومن ثَم تزوجته، عاشت حياة الفقر والعوز، ترقع الأوضاع هنا وهناك لتستطيع تدبير أمور البيت. كانت ترتدي الأسود دائمًا، وتنتعل القبقاب العادي مثل زوجها وأولادها، إذ إن أحذيتها الأنيقة ذات السيقان العالية التي جاءت بها من بيت أبيها، أظهرتها بمظهر مختلف عن زوجها وأولادها والساكنين في الزقاق، لذلك وضعتها في قرارة الخزانة الجدارية القديمة، وبدأت تنتعل مثل الآخرين تلك الكتل الخشبية المفرغة التي تطقطق على الأرض في أثناء المشي. عملت أعمالًا متنوعة من أجل أن تساعد في مصروف البيت. اشتغلت فترة طويلة في تصليح الملابس للعائلات الأيسر حالًا، إلى أن تعطلت ماكينة الخياطة القديمة الخاصة بها، ولم يكن لديها من المال ما تشتري به ماكينة جديدة. كانت تكتب رسائل للناس الأميين في الحي، عندما يضطرون إلى الرد على وثيقة إدارية، أو توجيه رسالة إلى فرد من أفراد العائلة، أو طلب إلى أحد من المحامين؛ وهي رسائل كان ينبغي أن يكتبها المرء بالفرنسية في ذلك الزمن. تقوم بالأعمال الخيرية عند راهبات الدير، عندما يغيب زوجها عن العمل أسابيع عديدة، من أجل كسب رضاهن كي لا يفقد عمله؛ تربي أولادها الخمسة بأحسن ما تستطيع

من حُسن الأخلاق ورزانة العقل. بعد جدي، الذي كان الثاني في الترتيب، ما لبث أن جاء أخان وأخت واحدهم وراء الآخر. عملت فترة من الزمن في التنظيف عند عائلة تتحدث الفرنسية في مركز المدينة، وبدت النقود القليلة التي تعود بها إلى البيت، مثل الماء الذي يتسرب من بين أصابعها. فوق ذلك، بدأ مسكنهم يصغر عليهم بسرعة كبيرة، وعندما استعاد زوجها المصاب بالربو بعضًا من صحته في الربيع، استطاعا حينذاك فحسب أن يفكرا في البحث عن منزل أكبر، في حال سيئة هو الآخر، نظرًا إلى عدم قدرتهما على دفع إيجار أعلى من الإيجار السابق. عمل «فرانسيسكس» فترة قصيرة في دير رهبان، عند جماعة «إخوان المحبة»، الذين جعلوه من دون محبة يدهن صالة الطعام كلها مقابل أجرة لا تسد الرمق. بقيت الأسرة مع ذلك على تقواها وولائها الشديد للكنيسة؛ كان راعي الأبرشية يزورهم على فترات منتظمة، حكت له في إحدى المرات عما يعانونه من شقاء وبؤس، فأرسل إليها بعد بضعة أيام عددًا من تلاميذه ببعض الفتات من مائدته الباذخة.

أصلح «فرانسيسكس» البيت القديم الرطب على قدر المستطاع، جدَّد المعجون المتآكل في زوايا الشبابيك والأبواب وغيَّر إطاراتها المكسورة، دعَّم العوارض الخشبية المتعفنة، وغيَّر الدرجات المتفسخة في سلم القبو. أعجبهم الحي الجديد، الواقع في مكان قريب من شارع «أوستاكر» في ضاحية «سنت آماندس بيرخ» وأحبُّوه أكثر من الحي القديم؛ في الصيف يرون بضعة حقول صغيرة من فوق جدار الحديقة المنخفض، ووراءها ثمة أرض موازية لقناة مائية تنمو فيها أعشاب وأزهار برية، استطاعوا أن يتركوا عنزة ترعى فيها، ليكون بمقدور الأولاد على الأقل شرب الحليب على فترات منتظمة، وليكون بمقدورها صنع الجبن الطازج بنفسها. في الليل، كان إذا ما استلقى جدي في سريره الضيق في الغرفة المزدحمة بالأطفال في الطابق العلوي، استطاع سماع والدَيه وهما يتجاذبان أطراف الحديث في

المطبخ القديم، صوت والده الأجش في تعاقب مع ردود والدته الناعمة، أغنية يتناوب فيها طنين ذباب مع هديل حمام، تهدهده إلى النوم بسلام وأمان. يكتب:

> كان زواجهما ينضح بحب عميق وصادق، وإذا ما داعبت أمي الخدين الضامرين لزوجها في أثناء نوبة سعال، قالت أحيانًا: «آه يا حبيبي الصعلوك الجميل»، واغرورقت عيناها الملونتان بالرمادي الفاتح بالدموع.

* * *

كان «أوربابن مارتين»، الذي أعطي هذا الاسم الأول لأن جد والدته «سيلين» كان يُدعى به، صبيًّا محبوبًا لدى الجميع. ضخم البنية، له شعر معقوص طويل، ويدان كبيرتان قويتان، وعينان زرقاوان بريئتان. يلحق بوالدته المرموقة مثل فرخ بط، يسليها بمقالبه الحمقاء، ورغبته الجامحة في العناق والتصرف بجنون، يرقص بقبقابه، يمشي بكوبه المعدني في غرفة الغسيل ويشرب في الخفاء ماء الصابون المنقوعة فيه ملابسه الداخلية المتسخة. في أثناء رحلات بالسيارة في أيام الآحاد بعد مضي ستة عقود من الزمن، وهو في عمر متقدم لكنه لا يزال سعيدًا مثل طفل، كان يحدق في كمال طائرة البوينج العابرة في السماء ويقول إن كل شيء جميل، كل شيء يراه في هذا العالم. كانت سعادته بالحياة قد نمت في تربة فائقة السواد ـ كتب عن ذلك ما يكفي في مذكراته. شاءت الأقدار لـ«أوربابن مارتين» أن يكون كل شيء ولا شيء (إذ كانت لديه مواهب عديدة لكن يصعب تحديدها، حسبما قالت والدته ضاحكة)، كان «أوربابن» إنسانًا قويًّا يتغلب على المصاعب، ومع ذلك مرهف الإحساس ورقيق العواطف. يقف في الشمس في صباح يوم أحد من أيام عيد الفصح، وهو في السبعين من العمر، يحدق في السوسن الأزرق المزدهر في الحديقة الخلفية ويقول مأخوذًا به والدموع تترقرق في عينيه إن هذه الزرقة، المحيطة بالقلب

الأصفر الفاقع، تبلغ من العمق ما يخفق له قلبه، أو شيئًا من هذا القبيل، وإنه لشيء مؤسف حقًّا أن يموت الإنسان من دون أن يفهم كيف يمكن أن تحدث مثل هذه الأشياء.

عندما كان صبيًّا في السابعة من عمره، تلقى شرحًا في درس التعليم المسيحي، بأنك لا تستطيع رؤية الله، حتى وإن كانت السماء غير ملبدة بالغيوم، لأن الله لا يمكن أن يُرى، والأكثر من هذا، أنك حتى في الليالي الصافية لا تستطيع أن تنظر إلى ما وراء النجوم، إلى المكان الذي يوجد الله فيه، ولذلك فإن الإيمان أيضًا لا يمكن أن يخضع للبراهين، وإلا فلن يكون إيمانًا، فقال فجأة:

ـ أجل يا أبانا المعظَّم، ولكن هذا يعني أنكم تستطيعون أن تقولوا أيضًا إن هناك الملايين من أحصنة البحر تعوم في السماء، لأن لا أحد يستطيع أن يرى ذلك.

انفتح فم القسيس المذهول، كما لو أن فكه انكسر فجأة. لم تفارق خيالي أحصنة البحر العائمة بكل هدوء في الفضاء المظلم اللامتناهي، بين النجوم التي تفصلها سنوات ضوئية في بعض الأحيان، وعادت بأعداد لا تُحصى وهي تعوم في هدوء مهيب، كلما بدأ شخص بالحديث عن الأدلة التي تؤكد وجود الله. لكن «أوربان مارتين» كان مع ذلك إنسانًا مؤمنًا، حتى أكثر من هذا، كان قد اكتسب، بعد عودته من الحرب العظمى، ملامح واضحة من الورع المبالغ فيه. يستيقظ في الخامسة والنصف، مرتين في الأسبوع، من أجل أن يحضر قُدّاس الصباح، يجرجر خطاه في حذائه النظيف الملمَّع على الجليد والثلج، وسط الظلام الدامس، ميممًا وجهه صوب الكنيسة، حتى عندما يبقى راعي الأبرشية نفسه في سريره الدافئ. في الصيف، يجلس في الهدوء المنعش في الكنيسة الأبرشية، بينما تتدحرج حبات مسبحته من بين أصابعه، وتتحرك شفتاه حركات خفيفة بالصلوات اللاتينية. يشعل الشموع من أجل «العذراء سيدة الأحزان

السبعة»، ويذهب كل أسبوع للاعتراف، برأس مُنحنٍ، هو الذي لاح عليه أنه ورع إلى حد أنه لا يرتكب حتى خطيئة صغيرة.

* * *

كان العالم الذي ترعرع فيه قبل عام ١٩٠٠ مفعمًا بالروائح التي اختفى معظمها اليوم: مدبغة جلود تنشر رائحتها النتنة العصية على الزوال في ضباب سبتمبر الخفيف؛ مقاصير القاطرات البخارية المحمَّلة بالفحم الحجري الخام التي تروح وتجيء في أشهر الشتاء الداكنة؛ رائحة روث الخيل المنبعثة من الشارع في الساعات الأولى من الصباح التي تستطيع إيهام الصبي النائم نومًا خفيفًا عند النافذة المواربة أنه مقيم في مكان ما في الريف، شأنها شأن ما ينبعث من كل بقعة في المدينة من روائح التبن، والتوابل، والحشائش؛ الرائحة النفاذة للخشب القديم والخيش الرطب العابقة بها الدكاكين المضاءة بأضواء باهتة، والتي يُكال فيها الملح، والسكر، والطحين، والبقوليات بالصاع، ويُسكب من دون تغليف في الأكياس والأوعية التي تأتي بها النسوة المتسوقات من البيت؛ «آن فراك»، كما كان يقال بالفرنسية. في الساحات المغلقة تفوح رائحة شتلات ملفوف بروكسل، وروث الخيل المكشوط من الشارع، وأوراق التبغ المنشورة. كان يقول عن جدته، المولودة في الربع الأول من القرن التاسع عشر، إن مريلتها السوداء ـ التي يسميها «مئزرًا» ـ كانت تعبق برائحة أمعاء الأرانب الصغيرة.

كان يتصدر مجلس المعجبين من عمَّاتي وأولادهن، وهو شيخ طاعن في السن، ويتيه ساعات طويلة في سرد التفاصيل الصغيرة عن هذه الحياة في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، عن سنوات طفولته تحت الدخان المشبع بالكبريت المنبعث من أولى الصناعات، ذكرياته عن صياح الباعة المتجولين، صفْق الباب الخشبي الرفيع للمرحاض العام في آخر الزقاق، عند الجدار المغطى بالمعترشات حيث تنتشر رائحة البول والقرَّاص. حددت الرتابة الرمادية اليومية التي جاءت بها الموجة الصناعية الأولى معالم تفكيره

بشكل كامل، وإن بدأ يحلم في وقت مبكر من عمره، وهو يتصفح ما يملكه والده من كتب قليلة، بلوحة الألوان الزاهية للرسامَين «تينتوريتو» و«أنطون فان دايك».

* * *

إنه ربيع عام ٢٠١٢. أمضي مع ابني بضعة أيام في لندن، ليس فقط من أجل أن أريه الموديل الأصلي لمدينة نيويورك المحبوبة لديه، ولكن أيضًا من أجل أن أقوِّي أواصر الصداقة بين رجلين، العلاقة التي ينبغي لأب أن يوثق عراها مع ابن ذي خمسة عشر ربيعًا بين الحين والآخر، بغية التغلب على نقاط الخلاف كلها في التربية. لا أريد أن أجهز عليه بالثقافة، نتمشى في «كوفنت جاردن»، نتناول الطعام في مطعم «كارلوسيو»، نحتسي البيرة الإنجليزية في حانة مكسوة جدرانها بالخشب البني، ونحل خلافاتنا بنبرة لطيفة هادئة، نتسكع في الشوارع في وقت لاحق من الليل، نعبر في حي «ساوث بانك»، نقفز من خط مترو إلى آخر، ونقضي وقتًا في غاية السرور والاستمتاع.

لكنني أريد أيضًا أن أريه، وإن في جرعات حذرة حتى لا أثير اشمئزازه، عددًا قليلًا من المتاحف في اليوم التالي، لمعرفتي بأنه يتأثر بفن الرسم، على الرغم من الارتياب تجاه كل ما هو نخبوي، الذي يستلهمه من جهاز الآيفون الخاص به والمتلألئ على الدوام. لم يكن قد تجاوز الثامنة بعد، عندما جلس القرفصاء، في فينيسيا الإيطالية، أمام لوحة يتجسد فيها رجل شاب من القرن السادس عشر، وقال:

ـ بابا! تعالَ اجلس بجانبي. هذا شيء في غاية الجمال.

هكذا، نمشي في تمهل في الصالات الواسعة في «الناشيونال جاليري» من دون أن أرغب في فرض أي شيء عليه. لكنني أحرص أن ينتهي المطاف بنا، كأنما بمحض مصادفة، في الصالة الرابعة، عند التحفة الرائعة «السفراء» التي أبدعها «هانس هولباين» بتقنية «الأنامورفوسيس». أشرح له كيف

بوسعك أن تجعل الجمجمة المشوهة تظهر بشكلها الكامل الدقيق عن طريق مرآة مخروطية الشكل، لكنه يتساءل لماذا أراد هذا الرسام أن يرسم جمجمة مشوهة. أقول له:

ـ لأنك لا تستطيع أن تنظر في عينَي الموت إطلاقًا، ربما لهذا السبب.

لكن يبدو عليه أن إجابتي لم تقنعه كثيرًا. بعد ذلك، أريه لوحات «العناصر الأربعة» للرسام الفلامندي «يواخم بوي كلار»، المجسدة مشاهد السوق الشهيرة، فخر متحف خنت للفنون الجميلة في يوم من الأيام، وأشرح له أنها تجسد في الواقع مشاهد إباحية لا تكاد تُخفى، على الرغم من المظاهر الدينية في الخلفية، البالغة من الصغر على أي حال ما يجعلها تبدو قليلة الأهمية. ألفت انتباهه إلى الرموز التي كانت شائعة في ذلك الزمن، إلى التنوعات، الوضعيات، والإيحاءات. يبدو أن انتباهه ينصرف إلى شيء من التفكير: هل وصلت الأمور بفكر والده الحر إلى هذا المستوى حتى يرى قوادين في الباعة المتجولين، عاهرات في بائعات السمك، أعضاء ذكورية في الجزر والسمك، ومهابل في جرات السمن وحبوب البقول شبه المفتوحة؟ نتابع سيرنا المتأني، وإذ بها تظهر أمامنا، ولأنني لم أستعد لظهورها، فإن وعيي يتلقى صفعة في الجبهة.

ها هي معلقة هناك عارية ولا تدركها الأيدي: «فينوس أمام المرآة» للرسام «دييجو فيلاثكيث»، المعروفة أيضًا بـ«فينوس روكبي». اللوحة أكبر من النسخة التي أتذكرها، على الأقل إذا كنت أتذكر جيدًا تلك النسخة الأصغر قليلًا التي رسمها جدي ذات يوم، فقد رأيتها لحظة خاطفة فحسب، في غرفته العلوية. بالإضافة إلى ذلك، فإن شعر «فينوس» هنا أفتح قليلًا من شعرها في نسخته ـ لا أعلم لماذا رسم جدي، الذي كان ناسخًا دقيقًا فيما عدا ذلك، شعرها بلون يكاد يكون أسود. تقذفني قوة إلى الماضي، إلى ذلك اليوم من أيام طفولتي، عندما وثبت على الدرجات الثلاث الصاعدة إلى غرفته، ورأيته يبكي بهدوء وفي يديه النسخة عن هذه اللوحة. أقف أمام

التحفة الفنية برهة طويلة، مستغرقًا في هذه الذكرى. يقف ابني في مكان بعيد بعض الشيء، ويعبث بجهاز الآيفون الخاص به، ويسألني:

ـ ألن تأتي؟ إنه لشيء مخجل قليلًا أن يطيل رجل كهل التحديق في امرأة عارية.

أدرك أن الدافع الحقيقي وراء سلوكي يتطلب شرحًا مسهبًا أكثر من اللازم، أحني رأسي بالإيجاب، أنتزع نفسي مما أريد إمعان النظر في تفاصيله برهة أطول، تحين مني التفاتة إلى الوراء في أثناء مغادرتي. يجب أن أذهب إلى بيت والدي كي أرى نسخة جدي مرة أخرى. يحضرني ما كان يقوله لي دائمًا: «جدك لم يرَ زوجته عارية سوى مرة واحدة، وذلك بمحض مصادفة؛ كانت تستحم في ظهر يوم من أيام السبت، وجاء إلى البيت أبكر قليلًا من المتوقع، فهي لم تكن تستحم إلا بعد أن تصرفه من البيت. انهالت عليه بوابل من الشتائم والمسبات في ذلك اليوم، وراحت تبكي وتنتحب، بعد ذلك تشكّت عن تلك الصفاقة إلى والدته، فاضطر أن يقدم إليها اعتذارًا مطولًا (لعل والدته تصرفت بحكمة عندما اتخذت موقف الحياد)». عري «فينوس» «فيلاثكيث» ـ بكل هذه التلقائية والدفء، من دون أي خجل، بكل هذا الهدوء المطلق في كيانها، في جسمها الملكي الكسول ـ شيء لم يكن يُسمح به سوى في الرسم، فقط في العزاء الذي يمنحه فن الرسم. لم يحدث أن فهمت أعماق ذلك العزاء المرّ أكثر مما فهمته في ذلك المكان، في «الناشيونال جاليري»، في ذلك اليوم الربيعي، ومنذ بدأت بالتفكير في أن التفاصيل الواردة في النُّسَخ قد تضيف شيئًا إلى اللوحة الأصلية، أظن أن هناك مزيدًا من التفاصيل لا تزال مخفية في نُسَخه التي كنت أراها في السابق أنها ليست أكثر من نسخ خرقاء. أرى وجهه المبلل بالدموع من جديد، في زمن موغل في القدم. تطلع الشمس من وراء الغيوم على ساحة «ترافلجار»، وتجعل النوافير تتلألأ في طيف ضوئي تتناوب فيه الألوان على الظهور والاختفاء؛ فُوَّة الصبغ، وأبيض الرصاص، وبريق الكوبالت. لكني

لست متأكدًا من هذا، كنت أود لو أسأل جدي؛ يقف اللورد «نيلسون» في الأعالي ولا تدركه الأيادي، مثل ملاك أسود، فوق قاعدته المحاطة بالنور؛ تجلس فتاة على درجات كنيسة «سانت مارتن إن ذا فيلدز» وتعزف مقطوعة موسيقية لـ«باخ»، أقول لابني:

ـ «سانت مارتن»، اللعنة، هذه كنيسة القديس شفيع جدي، اسم عائلته «مارتين»، أليس كذلك؟

بينما يوجه نظرته إلى راقصي «البريك دانس» الشجعان الذين يدورون على أيديهم فوق الأرض أمام «الناشيونال جاليري»، يرد:

ـ ألم تكتشف ذلك إلا الآن؟

وأشعر بالألم فجأة، عندما يخطر في بالي أنهما لن يتعرف أحدهما إلى الآخر: سلَفي وخلَفي. أنظر إلى ابني، أكبح رغبتي في وضع يدي على كتفه، وأسأله:

ـ إلى أين سنذهب في المساء؟

* * *

بينما نعود إلى بروكسل بأريحية في قطار «اليوروستار» الذي يشق طريقه بسرعة في أعماق ما تحت سطح البحر، وأخبر ابني كم كان العبور يستغرق في شبابي ـ القارب الليلي من أوستنده إلى دوفر، العائم على الأمواج بمحركاته الهادرة البطيئة ـ تردني ذكرى عبور جدي الكارثي في سنة ١٩١٥ من سنوات الحرب. كان قد أصيب للمرة الثانية على جبهة إيزر ونقلوه من هناك وهو مصاب بطلقة في فخذه، تحت المغبن مباشرة؛ أرسلوه إلى المدينة الساحلية دينار في شمال فرنسا من أجل أن يتماثل للشفاء. استقل القارب من مدينة سان مالو القريبة منها إلى مدينة ساوثمبتن الإنجليزية، مع عدد من رفاقه الذين يقضون هم أيضًا فترة نقاهتهم، لأنه أراد زيارة أخيه غير الشقيق في سوانزي، لكنهم لم يكادوا يبلغون عرض البحر حتى هبت عاصفة قوية استمرت يومًا ونصف اليوم. وصل إلى إنجلترا منهك القوى مستنزف

الطاقة، قال فيما بعد إن هذه الرحلة كانت من أكبر الابتلاءات التي ابتلي بها في أثناء الحرب. أنا نفسي لا تزال تحضرني ذكريات حية عن القارب الليلي، عن السكارى المعربدين على سطحه، والمقاعد القاسية التي نرقد عليها متأرجحين شطرًا من الليل، والصخور الطباشيرية اللائحة في شمس الصباح، وانزياح الهم بانقضاء الليل من دون عاصفة. كان السفر إلى إنجلترا في ذلك الزمن عبورًا مشحونًا بشحنة رمزية؛ تصل إلى لندن بعد سفر ليلة كاملة ونصف نهار، فيبدو كل شيء أغرب من المعتاد بعد هذا الوقت كله. أتذكر غرفة مشمسة في فندق «كنسينجتون جاردنز» حيث قضيت ليلة في إحدى المرات. قرأت في تلك الغرفة قصائد للشاعر الأيرلندي «ويليام بتلر ييتس». يصغي ابني إلى حكاياتي التي تبدو له أنها حنين إلى الماضي، يفكر بهدوء لحظة قصيرة، ثم يقول:

- شيء غريب، في الماضي كنت أتصور أن النفق تحت القناة مصنوع من الزجاج، وأنك تستطيع رؤية أحصنة البحر وهي تسبح فوق رأسك، لكنني الآن لا أشعر حتى بأننا تحت البحر.

* * *

أخبرني جدي مرات عديدة كيف بدأ شغفه بالرسم، لكنني بعد قراءة مذكراته فقط استوعبت أن هذا الحب نُقش في روحه إلى هذا الحد الملموس خلال سنوات طفولته. يصف بتفصيل دقيق كيف أن أباه يجلس على مقعد خشبي صغير، وفي يده اليمنى فرشاة الرسم وعود الخشب المنتهي بقطن مكور، وإلى جانبه على الكرسي لوحة الألوان التي وضع عليها بقع الدهان الصغيرة بدقة وعناية، وقد أغمض إحدى عينيه نصف إغماضة وانحنى بظهره، ويعيد تهذيب أظافر ملاك البشارة في كنيسة «العذراء سيدة الأحزان السبعة». يعدِّل بعد ذلك لون ورقة باهتة من أوراق نخلة مرسومة بشكل أخرق في المحطة السادسة من درب الصليب. يستند إلى الوراء لحظة قصيرة كي يعاين النتيجة، يستدير نصف استدارة إلى ابنه، ويطلب فرشاة برأس ناعم من أجل

أن يصحح بها محيط ورقة في أحد الأماكن. يمزج معظم الألوان بنفسه، لأنه لا يستطيع شراء مواسير الألوان الجاهزة. تحتوي سحارة الإجاص المفتوحة على كتل صلبة من الصبغات، بودرة الكوبالت السام، والأخضبة ذات الرائحة الحلوة من سينا، وصبيدج، وسينوبيا؛ زجاجات من زيت الكتان النقي، تربنتين، كحول، و«سيكاتيف»؛ سكاكين رقيقة ولوحات ألوان، فُرش قديمة من وبر السنجاب من نوع نادر؛ فُرش دائرية، فُرش مسطحة من وبر الخنزير، ريشتان ناعمتان من وبر السمُّور اشتراهما من مال ادخره فترة طويلة؛ خرق من أقمشة متنوعة الملمس من خشن إلى ناعم؛ أقلام رصاص، أقلام فحم، وأسفلت؛ الأدوات اللازمة من أجل الساعات الهادئة اللامتناهية التي يقضيها «أوربابن» مع والده. يجلس على مقعد الكنيسة بأدب طوال الظهر، ويراقب يدَي والده وهما تتحركان. يقف أبوه فوق سلم في بعض الأحيان، ويقوم بأعمال في غاية الخطورة - إزالة شحار الشمع من الغيمة التي تقف عليها الأم العذراء، في مكان صعب الوصول إليه فوق مذبح جانبي؛ تعميق لون الجرح الذي خلفه الطاعون على فخذ القديس «روش» بفرشة مغموسة بالأحمر البني؛ تزويد حذاء القديس «كريسبين» ذي الطراز القديم بثقوب رباط من جديد؛ إنعاش اللون الزمردي المتقشر من عباءة القديس «إيليجيوس»؛ توضيح الزنابق الثلاث في رمل الصحراء بجانب قدمَي القديس «إيجيديوس» بطبقة خفيفة من الرصاص الأبيض السام المميت.

يرى ساقَي أبيه فوق السلم المتصاعد شيئًا فشيئًا، بنطاله الرث، نعله المهترئ، فيتراءى له أن أباه قد أصبح واحدًا من الشخصيات الشرقية المرسومة في اللوحات على الجدار. يسمع الفُرش تتحرك في حفيف ناعم يشتد أحيانًا بعض الشيء؛ سماء الإيمان الزرقاء السرمدية كبيرة في بعض الأحيان وتتطلب ضربات واسعة من الفُرش. ينفذ ضوء الشمس عبر الشبابيك ذات الزجاج المعشق بالرصاص على شكل حزم ضوئية ملونة، ويلقي بقعًا متنوعة الألوان على البلاط الرخامي الأسود. يرى ذرات الغبار

ترقص في الأشعة الضوئية الشفافة. يطلب منه أبوه فرشاة قياس خمسة، ينبش «أوربابن» في السحارة، يستل الفرشاة، يتسلق حتى منتصف السلم بحذر، ويمد يده بالفرشاة إلى أبيه الذي ينحني إليه انحناءة خطيرة. ينزل عن السلم بحذر، ويجلس على مقعد الكنيسة القاسي ويضع يديه بين ركبتيه. يعتدل «فرانسيسكس» في وقفته بصعوبة، يسعل لحظة قصيرة ويمسح ذقنه بكم قميصه، يغمس الفرشاة في الوعاء الحديدي المعلق بحزام بنطاله، ويرسم بضعة خطوط فاتحة الصفرة على غيمة باهتة اللون ينزل منها ملاك البشارة. إنها أيام هادئة لا نهاية لها. عندما يحين الظهر، يتشارك مع أبيه الشطائر التي جهزتها لهما أمه، دهن خنزير ونقانق دسمة إذا كان ذلك ممكنًا، جبن ماعز بائت قاسٍ في نهاية الشهر. يمضغان ويبلعان، ويشربان الماء من الإبريق المعدني المتهالك نفسه. الكنيسة مقفلة، لا أحد يستطيع الدخول إليهما. إنها جنة «أوربابن» الصغيرة. تتناهى الأصوات من الخارج في خفوت وغموض. عندما تدق الساعة، يسمعان خشخشة العوارض الدائرة ورفرفة الطيور في الركن العلوي من السقف.

يدندن هذان البائسان البشوشان، وهما يعودان إلى البيت في القبقاب المصنوع من خشب الصفصاف الرخيص، بأغانٍ مضحكة طوال الطريق. تخفخف أشجار الحور الرجراج والحور الأبيض على طول الطريق المغطى بغبار الفحم، فيقول الأب لابنه إن هذه الأوراق المتحركة في الهواء تبدو وكأنها أعداد لانهائية من الراقصات الصغيرات. يرفع جدي عينيه في اندهاش ويرى كيف أن الأشجار، التي كانت تشكل وحدة متكاملة قبل لحظة واحدة فقط، تتفكك وتتحول إلى أعداد لا تُحصى من هيئات غير معروفة تلوِّح له، مسرح تُعرض عليه مشاهد لا يمكن تصورها. يزدرد ريقه، يشعر بدفء يده المحاطة بيد أبيه.

* * *

يقف في المقبرة، بعد مضي ستين سنة، بقبعته تحت ذراعه، ودموع في

عينيه، وحبات مسبحته من خشب الورد بين أصابعه، يصلي بشيء من اللوعة لزوجته المتوفاة «جابرييله خايس». قبرها مزود بنوع من المزار الصغير، له شباك من الزجاج المعشق بالرصاص، صُوِّر فيه الروح القُدس على شكل حمامة بيضاء. في المشكاة أمامه، تمثال صغير من الرخام الأبيض للسيدة العذراء، وهي فاتحة ذراعيها للفاسقين والآثمين الراغبين في العودة إليها. صمم هذا التمثال بنفسه وطلب من نحات أن ينحته بناء على تعليماته. يهسهس إليَّ بأن أركن إلى الهدوء وأتوقف عن الركض هنا وهناك. لقد مشط التراب أمام القبر وسوَّاه في خطوط متدرجة جميلة للتو، وأنا أسير عليها بشكل أخرق. أعتبر المقبرة حديقة ألعاب. أهرول في دفء شمس يونيو من جانب أزهار سيف الغراب والزنابق، براعم الورد وأحواض البنفسج، من تحت شجيرات الأكاسيا وأشجار الدردار اليافعة، أقفز على البقع الضوئية التي تلقيها الأوراق الناعمة على رماد الدروب، وأضرب الملاك البرونزي الواقف في بداية صف القبور على ظهره كلما عبرت من جانبه، أتوقف عند قبر قديم وأتمدد بطولي كله على حجره الساخن من أشعة الشمس، إلى أن يأتي جدي ويأمرني بامتعاض أن أقوم من مكاني في الحال. أسأله من دون تفكير، وبسذاجة عمري، أين قبر والديه. ينظر إليَّ في ذهول بعينيه الهرمتين الثاقبتين، يهمُّ بقول شيء ما، يكبح نفسه على ما يبدو، يلتقط ذرة غبار من كمِّه الأزرق الملكي ثم يقول:

ـ هيا، دعنا نذهب إلى البيت.

بعد انقضاء نصف قرن من الزمن، يكشف لي والدي النقاب عن السر، عندما يعثر، لاندهاشه العظيم، على شاهدة القبر القديمة تلك، التي خبأها جدي ذات يوم في مكان يصعب العثور عليه. عندما أزور قبر العائلة، بعد مضي سنوات عديدة على ذلك الوقت، تكون الأرض مغطاة بطبقة خفيفة من الثلج، ينعكس لمعان النهار على تمثال مريم الأبيض فيبدو كما لو أنه شفاف.

* * *

غاليتي «جابرييله»،

إنه شهر يونيو، يوم جميل، أرى القوارب تبحر من مكاني هذا. أجلس إلى الطاولة الصغيرة التي دهنتها لاحقًا على شكل زخارف خشبية، لا بد أنكِ تتذكرينها. ذهبت إلى قبركِ ظهر هذا اليوم. كانت تمطر رذاذًا خفيفًا في بادئ الأمر، كما لو أن قطرات المطر تتطاير من السماء الزرقاء إلى الأرض. بعد ذلك مباشرة، طلعت الشمس ساطعة من جديد، والضوء الذي نفذ من الشباك ذي الزجاج المعشق بالرصاص في الجانب الخلفي من المزار الصغير على شاهدة قبرك، ذكرني بالأشعة الملونة التي كنت أراها في الكنائس في طفولتي. كان الأحفاد يمشون على الدروب، يعبرون بالملاك البرونزي الكبير الواقف في أول صف القبور الذي ترقدين فيه. رأيتهم يمشون على التل باتجاه مقبرة «كامبو سانتو». إنهم ليسوا على دراية تامة بهذه الأمور، يصيحون ويلعبون ولا يهدأون لحظة واحدة. وأنا أعود أدراجي رأيت سمُّورًا ميتًا بجانب قبر قديم متخلخل، فبدا وكأن كل الحزن الذي عشته منذ رحيلك تجمَّع في ذلك الحيوان المتصلب الميت الذي كانت بقع الطين تلطخ فروته الباردة. خطر في بالي: إنهم يصنعون تلك الريش الناعمة أيضًا من تلك الفروة. لا أزال الجندي الملتزم الذي كنته في السابق يا «جابرييله»، ولم أستطع إظهار أي عاطفة في حضور مريم والأطفال. في البيت، فتحت الأدراج التي بقي فيها كل شيء على حاله ـ كتاب الصلوات الخاص بكِ، بياضاتكِ، قلنسواتكِ الليلية. ستبقى هذه الأشياء في مكانها، مثل ضريح بسيط. لم تكن حياتنا الزوجية سهلة، وأنتِ تعرفين كم صارعت ضد الشياطين في أعماق كياني. لقد أعطانا ربُّنا الكثير من النعم يا «جابرييله»، ربما أقل مما كنا نرغب فيه، ولكن مع ذلك، أكثر من الكفاية حتى نرضى ونلزم الصمت.

* * *

كانت دروس المبارزة، التي تلقيتها بين الثامنة والثانية عشرة من عمري على وجه التقريب، تُعطى في الممر والردهة الواقعة خلف الباب الرئيسي مباشرة، في وقت محدد من الحادية عشرة إلى الثانية عشرة من أيام

السبت، بينما يعبق البيت برائحة الحساء الذي يُعد في المطبخ. كانت تقوم وراءنا دعامة الدرابزين الخشبية، التي تتألق فوقها أسطوانة القذيفة الكبيرة المُلمَّعة، المنحدرة من الحرب العالمية الأولى. انهمك جدي بصبر وتفانٍ في صنع نسختين خشبيتين من سيوف الشيش ذات النصل الرقيق، على مخرطته القائمة في الدفيئة القديمة، وزوَّد كلًّا منهما بمقبض رفيع، قصَّه من قطعة معدن وراح يدقه بمطرقة صغيرة إلى أن شكَّله في هيئة جميلة بعض الشيء، طريقة عمل سماها بافتخار مكتوم «حدادة على البارد». لم نكن نرتدي القناع، لذلك زوَّد رأس كلٍّ من السيفين بقطعة فلين، أخذها من سدادة زجاج النبيذ. كان يقف أمامي، في مريلته البيضاء الرمادية، يضم قدميه إحداهما إلى الأخرى، ويأمرني أن أفعل الشيء ذاته. يهتف بالهولندية حينًا وبالفرنسية حينًا آخر: «انتباه! استقم بقدميك! اشدد ظهرك! انظر أمامك بشكل مستقيم! أشهِر سيفك؛ واحد، اثنان». يصبح كل شيء فينا مستقيمًا مثل العصا، كما كان ينبغي أن يفعل في الأكاديمية العسكرية، التي درس فيها في تلك السنوات الرائعة من ١٩٠٨ إلى ١٩١٢. «خطوة إلى الأمام، عد إلى الوراء، طعن... جاهز. ثلاثة... كب!... ستة... بطح! هيا! إلى الأسفل! إلى الوراء! استرح!... انتباه!». أتنطط حوله مثل دمية متحركة في فيلم تاريخي، منتبهًا بحرص ألا أدير قدمَيَّ إلى الخارج، ولا إلى الداخل أيضًا، منحنيًا بركبتَيَّ باستحكام؛ لكنني على أهبة الاستعداد لأن أقفز سريعًا إلى الأمام أو الوراء، لأن أتفادى ضرباته الرشيقة بينما أحاول، حسب الوضعية التي أقف فيها، الإمساك بسيفي الخشبي في الوضع السادس، الرابع، الثامن أو السابع ـ التسميات الأربع لليسار واليمين من الأعلى واليسار واليمين من الأسفل. أنتبه في الوقت ذاته ألا أتلقى نقرة على معصمي، بهدف تذكيري بأنني يجب أن أتحكم بالسيف بحركات من معصمي وليس من ساعدي.

نستمر على هذا النحو ساعة كاملة، يحرضني على الهجوم أحيانًا،

لكنه لا يصد هجومي بل يتفاداه بمهارة، فأندفع بخط مستقيم إلى الأمام مثل عجل صغير، وأصطدم بدعامة الدرابزين، فيسرع برشاقة إلى تلقف أسطوانة القذيفة المتهاوية قبل أن تصل إلى رأسي ويقول: «لا يزال يلزمك كثير من التعليم». عثرت فيما بعد على أحد هذين السيفين مكسورًا في الدفيئة، في الحوض الكبير من التراب الذي تنمو فيه الدوالي البالغة ما يقارب قرنًا من العمر، والتي لم تعد تحمل ما يُذكر من العنب. كان يقف في صباحات الصيف تحت تلك الدوالي، يقطف العنب من هنا وهناك حسبما يشاء له هواه، ويلفظ قشره وبذره على الأرض. يفعل ذلك بصوت خافت، صوت بصق خفيف، لعله أصبح جزءًا من أعمق ذكرياتي عن سنوات الطفولة، إذ يحيط به سلام غير دنيوي. تحفُّ بهذا المشهد، إن صح التعبير، بقع من شمس صيفية، تربة دافئة، رائحة خفيفة من حمض الكربوليك وزيت المحرك.

* * *

مشاهد من طفولته، عام ١٩٠٠.

في جوربه القديم الفضفاض، وقبقابه الكبير عليه، ومريلته الرمادية، وبشعره المعقوص الشعث الشبيه بشعر البنات، وعينيه الزرقاوين الساذجتين، يقف عند البوابة الجانبية الصغيرة المفضية إلى فناء دير الراهبات، وينتظر بأدب وصول راهبة بوعاءين، أحدهما مترع بالحساء، والآخر بشرائح اللحم. يعتمل شيء من الشعور بالظفر في صدره وهو يدلف في غبش الغروب من جانب واجهات «دامبورت» المضاءة، يقطع السكة الحديدية عند حوض بناء السفن الكبير، يمرُّ بالمحطة التي يقلع منها القطار في زفير، يجتاز الأزقة الضيقة الواقعة بين جادة «لاند فان فاس» وطريق «ديندرموندسه ستين» وشوارع «بيكورف» و«زييم» و«فاس»، ميممًا وجهه صوب «الخروت بخاينهوف»، المجمع السكني للناسكات العلمانيات الواقع خلف ساحة صغيرة تنتصب فيها أشجار حور باسقة، سوف تُقطع بعد بضع سنوات من

ذلك الوقت. يقوم هناك في مكان ما دكان حلوى صغير، يضع الجرتين إلى جانبيه على الأرض، كي يلتقط أنفاسه ويملأ عينه من المأكولات اللذيذة المعروضة في الواجهة المضاءة بضوء باهت.

ثمة سكاكر بيلسان، حلوى جيلاتين، سكاكر كاراميل «كاترين»، سكاكر يانسون، مصاصات عرقسوس، أشرطة عرقسوس سوداء، حلوى حامضة وحلوة، وسكاكر فراولة حامضة، في برطمانات زجاجية مصفوفة أحدها إلى جانب الآخر. فجأة يقف رجل إلى جانبه، يتفرس في الطفل البائس ذي الوجه المتسخ، يرى الوعاءين الخاصين بدير الراهبات، ثم يلقي بضعة «بنسات» في الحساء، ويقول:

ـ هيا يا غلام، أخرجها واشترِ بها حلوى لنفسك.

يحدق «أورباين» في الرجل بذهول، يتردد لحظة، ثم يشمِّر كمَّه عن ساعده ويبحث في أعماق الحساء الدسِم الدافئ إلى أن يتحسس القطع النقدية. يخرجها ويضعها في فمه كي ينظفها بلسانه، يسدل كمَّه على ساعده الذي يتقاطر منه الدهن، يلحس أصابعه إلى أن تنظف، ثم يشتري بعضًا من الحلوى. يمم وجهه صوب المنزل وهو يتمطق بالحلوى اللذيذة. عندما يوشك على الوصول إلى البيت، يتعثر كعب قدمه بحافة الرصيف، فيقع الوعاء ويندلق منه الحساء، لا تستطيع أي حكاية أن تقنع أمه بأنه لم يستبدل بحسائه بعضًا من الحلوى. يمضي عقوبته بالجثوم في غرفة النوم الخانقة، جائعًا من دون عشاء، ينظر في غبش المساء إلى السطوح المتخلخلة على الطرف الآخر من الزقاق، ويرى كيف يتسلق حمام على زوجه.

* * *

كان بضعة من الشباب المتخرجين حديثًا يعرِّجون عليهم مرتين في الأسبوع. كانت «جمعية مار منصور دي بول»، وهي جمعية خيرية تقدم مساعدات للفقراء، ترسلهم إلى الأحياء الشعبية. كانوا في بعض الأحيان يأتون فقط من أجل تجاذب أطراف الحديث، يسألون عن أوضاع الأطفال

في المدرسة، وعما إذا كانت هناك أي شكاوى، وعلى العموم يجيئون وفي أيديهم بعض من الطعام أيضًا. ذات يوم، جاء اثنان منهم على غير المتوقع. كانت «سيلين» تعمل خادمة في الحي في ذلك الوقت، عند امرأة إيطالية تناديها بـ«دونًا سيلا». كان «أوربابن» وحده في البيت مع أخويه وأختيه. يشعرون بالملل، إذ إن فترة الظهر طويلة من دون أبيهم وأمهم. يخوضون في نوع من المراهنات على من يستطيع أن يأخذ أكبر قضمة من شطيرته؛ يحرز جدي فوزًا باهرًا. في اللحظة التي أخذ فيها أربع قضمات كبيرة إحداها وراء الأخرى وتكوَّر خداه مثل خدَّي القندس، ظهر فجأة رجلان شابان من «جمعية مار منصور دي بول» في المطبخ، يلتفع كل منهما بمعطف واسع ذي لون رمادي داكن يتدلى من كتفيه مثل جناحين متهدلين. هرب أخواه وأختاه بأفواههم المليئة بالخبز إلى الظلام الآمن تحت السلم، ووقف هو شبه مختنق أمام المحكمة ذات الرأسين، التي سألته بنبرة مهذبة لكن رسمية عما إذا كانت أمه موجودة في البيت. انحنى كل منهما بقامته الطويلة النحيلة فوقه، متأرجح الرأس ومتكلف الابتسامة. رأى جدي الشاب الأطول فيهما يكشف عن صف من أسنان مصفرَّة غير متناسقة. تعجَّنت مضغة الخبز الكبيرة والتصقت بسقف فمه على شكل كتلة لزجة. لم يستطع أن يمضغها بسبب امتلاء فمه أكثر من طاقته، وشعر بأنه يستحيل عليه أن يبلعها أيضًا، ولا يستطيع في أي حال من الأحوال أن يبصقها من فمه. أصابه الدوار. تناهت إليه أصوات أخويه وأختيه وهم ينفثون ويشهقون تحت السلم، سرى أثر من وعكة صحية في جسده. تولاه إحساس أن عينيه جاحظتان؛ كان الشابان يتفرسان فيه بحواجب مرفوعة.

ـ ما الأمر يا صبي، هل فقدت لسانك؟

غصَّ بالمضغة. تدفقت الدموع إلى عينيه. سمع الشاب الأطول يقول:

ـ هذا الصبي ليس طبيعيًا.

أخذت يد كبيرة، ذات عظام بارزة، تربت على كتف الولد على نحو أخرق. شعر جدي بأن تلك اليد غير مثبتة إلى أي مكان، بأنها تحوم وحدها في الهواء، وبأنها تكبر شيئًا فشيئًا وتوشك أن تمسك بخناقه. هز رأسه ذات اليمين وذات الشمال، كبح دموعه، هرول من المطبخ إلى الفناء، استفرغ الكتلة اللزجة مع الحساء البائت الذي تناوله قبل ذلك بقليل. عاد إلى المطبخ وقد أخذه الفواق من أثر الاستفراغ. كان الشابان قد غادرا المنزل. على طاولة المطبخ كانت ثمة بطاقة صغيرة مثلثة الشكل خُتم عليها بحبر أزرق:

صالح من أجل رغيف واحد.

أخذ البطاقة، دسها في مريلته، وركض إلى الشارع. كانت المسافة تبلغ أكثر من ربع ساعة سيرًا على الأقدام إلى المخبز، حيث يستطيع الحصول على الرغيف مقابل البطاقة. نسي أن يلبس شيئًا يدفئه فأخذ يرتعش من البرد. تصاعدت طقطقة قبقابه الخشبي عبر الشوارع. عندما وصل إلى المخبز، كان الخباز يوشك أن يغلق المحل. هرول إلى الداخل، ووقف أمام طاولة العرض، ورفع البطاقة بهيئة الظافر في الهواء:

ـ رغيف خبز من أجل أمي، لو سمحت.

تفحصت زوجة الخباز البطاقة، أمعنت النظر في الصبي المتضرِّج بالأحمر في ثيابه الرثة، أعادت البطاقة إليه وقالت:

ـ لن أستطيع مساعدتك. ليس عندي سوى بضعة أرغفة وقد خصصتها لزبائني الدائمين.

عندما وقف في الشارع مرة أخرى، سمع المرأة تدير المفتاح في القفل وراء ظهره. كان صفير القطار البخاري يتناهى من بُعد، من مكان قريب من بوابة «دامبورت». بدا وكأن الصوت يشق طريقه بصعوبة عبر رذاذ المطر. عندما رفع عينيه إلى السماء، رأى سربًا مثلث الشكل من الإوز البري، يرفرف بمهابة ملكية فوق المدينة الرمادية. هدَّأ نشيده الموغل في القدم من روعه بعض الشيء. لاح الشكل المثلث مثل سهم يشير إلى اتجاه الميناء، حيث

يلوح خط باهت من الضوء فوق السطوح والأشجار، شق مضيء يتسع في تمهل من انعكاس أنوار منخفضة في برودة غبش الليل القادم.

* * *

أطّلع الآن فقط على طفولته شيئًا فشيئًا، من خلال قراءة مذكراته، فتطفر انطباعات كثيرة في ذاكرتي إلى السطح، تقف في النور، تكتسب معنى، مغزى ولونًا ورائحة. أراه واقفًا أمامي فجأة على هذا النحو، شيخًا طاعنًا في السن؛ يريد أن يذهب إلى النوم. خلع مريلته وقميصه وقميصه الداخلي، فأرى ظهره الأبيض العاري للمرة الأولى والوحيدة في حياتي. يعجُّ جلده، من كتفيه حتى انحناءة ظهره، بتجاويف صغيرة وندبات داكنة الزرقة. تحين منه التفاتة ويقول بنبرة صارمة:

ـ هيا يا فتى، انصرف من هنا.

أغلق الباب ورائي. أسأله في اليوم التالي من أين جاءت آثار الجروح تلك: هل جاءت من الحرب؟

يقول باقتضاب:

ـ مِن صب الحديد. كنت في الثالثة عشرة من عمري، عندما بدأت بالعمل فيه.

* * *

أقرأ في مذكراته أنه لم يستطع مجاراة رفاقه في التعليم بسبب غيابه الكثير. كان أحد أسباب غيابه هو أنه غالبًا ما يجب أن يذهب إلى صيدلية الفقراء في ساعات الصباح، من أجل أن يحضر الأدوية اللازمة لأبيه المريض. يذهب بوصفة خطَّها الطبيب باللاتينية إلى الصيدلية القديمة، ويجلس على المقعد القاسي إلى جانب العشرات من الناس الذين وصلوا قبله وينتظرون أن يُخرج الصيدلي رأسه الأصلع المثير للإعجاب من وراء الحاجز الخشبي ويهتف: «ليتفضل الأول!» فيتعالى الضجيج ويدب الشجار عمن وصل أولًا. يثب عدد من الناس عن مقعده ويزاحم الآخرين. يصفق

الصيدلي الشباك لاعنًا. عندما يهدأ الهرج والمرج، يفتح الشباك من جديد ويسألهم عما إذا كانوا يستطيعون التصرف مثل أناس حضاريين قليلًا. فيصطفون في طابور واحد، ثم يختفي أحدهم وراء الآخر وهو يتمتم. يكون الصبي على العموم آخر شخص في الطابور، فيعود إلى البيت في نهاية النهار، وفي جعبته الستراموئيوم، البودرة السامة المصنوعة من نبتة الداتورا الصفراوية، وملح نترات البوتاسيوم ـ الأدوية المشكوك فيها التي كانوا يصفونها للمصابين بالربو في ذلك الزمان. يرى أباه جالسًا وراء الموقد المشتعل، منقطع الأنفاس، واضعًا يده على الأنبوب الدافئ؛ يضع جدي العلبة الملفوفة بورق رقيق في متناول يده، فيتركها أبوه في مكانها إلى أن تواتيه نوبة السعال التالية.

* * *

يعود مرة أخرى إلى وصف الكنيسة الخالية من الناس، بعد دوامه في المدرسة خلال أيام الأسبوع، بينما يقف والده على سلم خشبي صغير وينقّح القدم اليسرى للقديس «بطرس».

ـ أعطني الأزرق اللازوردي يا بني، أريد أن أنعش تلك الطية في عباءة القديس «بطرس»، وأعطني بعد قليل بعضًا من الكوبالت من أجل التظليل، هناك، إلى يمينك، على لوحة الألوان.

ثم يبدأ أبوه مرة أخرى بتهذيب اللون الأبيض المتقشر عن الزنبق إلى جانب الأم العذراء، وراء المذبح الرئيسي. إنها لوحة «البشارة» من جديد. تقف المرأة الشابة بملامحها الفلامندية ـ ذقن صغير، جبهة شاحبة عالية، أنف دقيق وعينان زرقاوان هادئتان ـ في ضوء سحابة ناضحة بالنور، غلالة سديم دبقة فضية اللون تطوق وجهها الورع. يقف الملاك إلى جانبها بغصن الزنبق، وجهه رجولي وأسمر، يطوق خصره حزام ذهبي اللون، شريط لامع يتصاعد في تعرج من خلف ظهره إلى السديم المقدس. كُتب على الحزام نصٌّ لم يعد بالإمكان قراءته، لا يزال ينمُّ عن بضعة حروف، رموز

قوطية من الطراز القديم من شأنها الاحتفاظ بالسر الإلهي. يجب أحيانًا أن يجهز قليلًا من الجص على لوحة صغيرة ذات حافة عالية، يحركه سريعًا بمكشطة بالية إلى أن يصبح كتلة طرية ناعمة، لبخة يجب أن يُجصص بها سريعًا، ويُستحسن بضربة واحدة متجانسة. بعد بضع دقائق، يُملس السطح بقطعة من الإسفنج الملفوف بمنديل صغير، وبينما يجف الجص، يعمل في التهذيب بريش، بخرقة من القماش، برأس إصبع أو إبهام، كل هذا بتناوب وسرعة، بتركيز وهدوء. الجو الورع الذي تنضح به هذه الساعات مقدس بالنسبة إليه. عندما يبرد الجو، ينفخ سحبًا من السديم في أشعة الضوء، فتتصاعد مثل البخور في أثناء قداس الأحد. يتحفَّز إيمانه بسحر الألوان الموجودة على لوحة الألوان القديمة الخاصة بأبيه، بحيازته على امتياز أن يبقى معه وحده في الكنيسة، بعد أن تُقفل البوابة الكبيرة خلفهما بالمفتاح الحديدي الثقيل، بدندنة والده الواقف هناك على السلم، وكأنه جزء من المشهد المنهمك في رسمه، وقد حلَّ بنصفه في السماء قبل الأوان، في سماء من الجص والدهان، من الروائح القديمة، من البرد والسديم، من الضوء النافذ من الأعالي المُلقى على أذرعهما وأكتافهما، كما لو أنهما يسموان إلى مشهد من مشاهد الكتاب المقدس. إنه الوله بفن الرسم، أسطورة شخصية، مؤامرة بين أب وابنه.

* * *

لو أن تلك الأوقات، التي كان يقضيها في الكنيسة بعد الظهر، شكلت نعيم صباه، فإن الجحيم لحق به سريعًا. بعد بضع محاولات فاشلة في إيجاد مكان يتعلم فيه صنعة، يذهب للعمل عند عمه «إيفاريست»، وهو «حدَّاد-خرَّاط-ميكانيكي». في البداية، يُكلف بمهمة تزييت المثاقب والمخارط، ونقل قطع الحديد: صفائح من الحديد دائرية ومربعة الشكل، قطع ثقيلة من الحديد المصبوب، قطاعات من الحديد الزاوي، ألواح حديدية صعبة الحمل. بعد مضي شهر، يُسمح له بالذهاب مع المعلم أو أحد الصنَّاع

لإنجاز مهمات خارج الورشة. بعد سنة ونصف السنة، يتقاضى خمسين سنتيمًا في اليوم.

يشهد حادث عمل فظيعًا؛ ابن الحداد السكران يقع على وجهه في الفرن المشتعل. يرى كيف أن الحداد، الواقف بظهره إلى الفرن يدق الحديد ولا ينتبه إلى ما حدث في بادئ الأمر، يلعن بينما يسحب ابنه من النار، لكن بعد فوات الأوان. ما يرونه إنما وجه محطم، كتلة متفحمة بملامح إنسانية غامضة، تخرج منها فقاقيع من سائل لزج ممزوج بلعاب مدمًّى. تبيضُّ عيناه مثل عينَي سمكة مقلية؛ يتحول فمه إلى فجوة سوداء يلمع فيها ما يدل على أسنانه العلوية. يأتي أحد الصناع بسطل ماء ويلقيه فوق رأسه. يحشرج الشاب المحتضر ويغرغر في حالة اختناق، بينما ينفذ الماء إلى أعماق جلده المحترق، ويلفظ أنفاسه الأخيرة، بينما يتلوى جسمه ويفرفر. تظهر بقعة داكنة على سرج بنطاله فجأة. يرتمي الأب على ابنه، يسحب رأسه مختفي المعالم إليه، يمسك بجسمه من كتفيه من دون أن يقول أي شيء. يبقى جالسًا من دون حراك، دقائق طويلة، متمتمًا فيما بينه وبين نفسه بلعنات لانهائية لا تكاد تُسمع. لا يرفع عينيه إلى أحد، وكأنه يريد أن يثقب نظرته في مقلتَي ابنه البيضاوين. يقف الصنَّاع والصبيان محملقين. يصيح فجأة من دون أن يرفع عينيه:

ـ اغربوا عن وجهي، جميعكم، اغربوا قبل أن أضيف إلى القتيل واحدًا آخر.

يدلف بعضهم وراء بعض إلى خارج المحل، حيث تسطع الشمس المنخفضة على الحظائر والأروقة.

كان هذا أول ميت يراه جدي في حياته. في ذلك الزمن لم تكن هناك مؤسسات تقدم الدعم النفسي للذين يتعرضون لصدمة؛ يمضي إلى البيت ويلزم الصمت طوال المساء.

في الأيام التالية، يذهب إلى ورشة الحدادة مرة بعد أخرى ويرى الباب

مغلقًا. لا يجرؤ على السؤال متى سيدفنون ابن الحداد. يسمع عن دفنه بعد مضي بضعة أيام، عندما يصادف واحدًا من الصناع عند البوابة في غبش الصباح:

ـ لقد رموه في حفرة كما لو أنه حيوان، اللعنة، في مكان خلفي من فناء بيتهم، ذهب راعي الأبرشية إليهم، لكن الحداد أمسك بخناقه.

تبقى ورشة الحدادة مغلقة أكثر من شهر، وبذلك تبقى الطلبيات على حالها. عندما يُستأنف العمل أخيرًا، يظهر في الورشة اثنان من الصنَّاع، وصبي واحد هو «أوربابين». يُسير العمل بهمة فاترة، يفرط العقد، تُلغى الطلبيات الواحدة تلو الأخرى، تقفر الورشة يومًا بعد يوم وتُترك المخارط من دون أن يقترب أحد منها. يُقدِّم آخر صانع ماهر استقالته. يأتي دور «أوربابين» فيغادر هو الآخر بعد بضعة أيام. لا يرفع الحداد حتى عينيه عن طاولة عمله، عندما يتلعثم الصبي بالاعتذار، ويخرج من الورشة، رافعًا كتفيه إلى أذنيه، مجرجرًا قدميه بطريقة غريبة بعض الشيء، كما لو أنه متبرز في بنطاله.

* * *

ثم تجري الأمور سريعًا. بعد بحث ومحاولات خلال بضعة أسابيع أخرى ينتهي به المطاف في معمل صب الحديد. عمل شاق. لا يكاد الصبي يبلغ الثالثة عشرة من عمره، يشعر في الأيام الأولى بالضياع في الضجيج الذي يصم الآذان، بين الرجال الذين يحملون قطعًا ثقيلة من الحديد، في الحرارة الحارقة عند الأفران والصياح والزعيق المتعالي من كل مكان، وسط الدعابات الفظة والدخان السام الذي يعشش على الرئتين. بعض الرجال مصابون بلمعان شاحب في عيونهم بسبب العمل في وهج النيران، وبعضهم الآخر بنوع من اعوجاج القدمين، لأنهم حلُّوا بأقدامهم في الحديد المنصهر بجانب الفرن. يشبهون عفاريت حميدة الخصال، تائهين في عالم سفلي، كادحين وأشداء، انطوائيين وحازمين. لا يسمحون للصبيان الصغار مثل «أوربابين» أن يسيروا بالسلال الثقيلة الملأى بالخردة فوق المعابر الضيقة،

يضعونه عند فوهة الفرن، كي يحافظ على توازن الحوض الخشبي الكبير بكل ما لديه من قوة، عندما يسيل الحديد المنصهر من المجاري المصنوعة من الصلصال في هذا الحوض الخشبي القابل للميل. يأتي الرجال ويقفون حوله، يسندون مغارفهم الخشبية الطويلة على الحوض؛ يجب على جدي أن يُميِّل هذه البوتقة الثقيلة بحذر، كي يستطيع كل منهم أن يأخذ منها حصة محسوبة من الحديد ويعود بها إلى قوالب الصب. تنقطع أنفاسه من شدة الحرارة، يحس كما لو أن عينيه تذوبان في محجريهما. عندما يخف تدفق السيل، يُسد المجرى من جديد بكمامة ترابية مدببة، مثبتة في رأس حربة. تطرطش النار وتهسهس وتبقبق على أطراف فوهة الفرن. في بعض الأحيان، تنقذف الكمامة من المجرى، فيبدو الأمر كأن نوعًا من الشياطين تنفث النار بعيدًا في المحيط؛ شرارات متطايرة، معدن منصهر يشق طريقه في رعونة فوق الأرضية ذات التراب المدعوس، انفجار بركان في نموذج مصغَّر. عندئذٍ يبذلون قصارى جهودهم في إلقاء مغارف كبيرة من الطين المبلل عليه، كي لا تنتشر النيران في أرجاء المبنى كله. يحدث ذلك في أحد الأيام: تنزلق الكمامة من المجرى عند فوهة النار المتآكلة، لا يوجد ما يكفي من التراب المبلل في الحاوية، يصيح الرجال قائلين لـ«أوربابين» إنه يجب أن يسحب الحوض إلى الوراء، ويمسكه بشكل مستقيم إلى أن يأتوا بالتراب من الفناء الداخلي. سرعان ما يفور التيار الناري من البوتقة، التي يحاول جدي أن يبقيها في وضع مستقيم بكل قوته؛ يجأرون بألا يترك البوتقة تميل، يشعر بالحرارة تبتلعه، يصاب بالعمى، يحترق حيًّا، يشعر بتلبد في رأسه، ثم فجأة، وبعد سماع ما يشبه عواء الريح في داخل رأسه، يحل سكون يصم الآذان. يفور تيار النار من الحوض؛ يُخيل إليه كما لو أن يديه قد اختفتا من الوجود. يشق الحديد المنصهر طريقه حول قدميه، يحس بقبقابه يطقطق تحت الضغط المتوهج ـ يفكر باعوجاج القدمين، لا يستطيع أن يترك مكانه، يحس بأن أشياء كثيرة تتحرك وراءه لكنه لم يعد يلاحظها، تطوقه الحرارة

كما تطوق أم طفلها، تهدهده، تخدره، يتلاشى الزعيق والصراخ من جديد، إلى أن تظهر بقع داكنة في الضوء السماوي الهائل الذي يغريه بالذهاب إليه؛ مجارف كبيرة من التراب تُقذف في كل مكان حوله وفي فوهة النار، ثم كمامة مدببة مثبتة برأس حربة في آخر الأمر، يعود ما يشبه الوعي، هسيس وبقبقة، شعور بالغثيان، أيدٍ عظيمة تمتد نحوه وأصوات تناديه: «تعالَ يا بني، تعالَ بسرعة». لكنه لا يحرك ساكنًا، يتمايل رأسه على كتفيه، فقد طال اللهب المنديل البارز من جيب بنطاله فأخذ يحترق مثل زهرة زرقاء هشة على جانبه. يرى النظرات الصاعدة لقديس رسمه والده على جدارية قديمة في كنيسة تنعم بهدوء يشبه هدوء يوم أحد؛ يريد أن يبقى جالسًا هناك إلى أبد الآبدين. عندئذٍ يجتاز أحدهم الطوق الترابي المضروب حوله، يشده من كتفيه، يمسكه من تحت إبطيه، ويسحبه. لكن قبقابه المتخلخل مثبت في الحديد المتجمد، يأتي أحد الرجال بعتلة حديد ويكسر القبقاب من حول قدميه. يشعر بهذه الأشياء كلها كما لو أنه في حلم، وعندما يحررونه أخيرًا من القبقاب المكسور ويحملونه إلى مكان آخر، يستفرغ ما أكله من طعام قليل في ذلك اليوم. يرقدونه في الفناء الداخلي تحت رذاذ المطر الفاتر، حيث يعود إلى وعيه شيئًا فشيئًا وينظر إلى السحب الرمادية العابرة من فوقه.

* * *

يكتب:

تغير شيء في داخلي منذ تلك اللحظة.

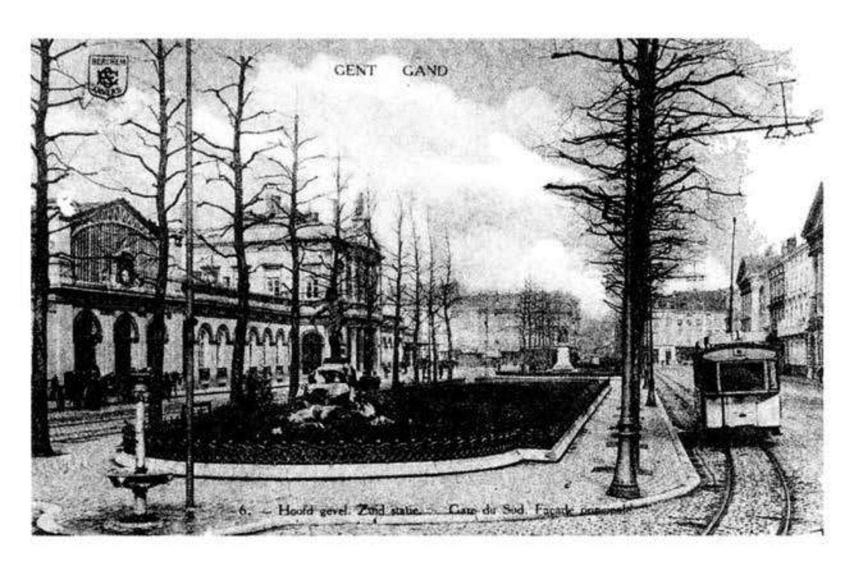
أتصور أن والدته لاحظت ذلك التغير في ذلك المساء نفسه: يمشي بطريقة مختلفة، هناك شيء في رقبته الآخذة بالتعضل شيئًا فشيئًا، وفي كتفيه المرفوعتين إلى أذنيه. إنه قصير القامة متين البنية، والعمل في صب الحديد جعله يميل إلى الصمت. ارتسم على ظهره أول التجاويف الصغيرة والندبات، الناشئة عن الشرارات التي تتطاير من النار المضطرمة وتحط على ظهور العمال. في ذلك المساء، ترى والدته اللمعان الموجه إلى الداخل في

عينيه. يجلس إلى مائدة العشاء يحدق أمامه، ولا يسمع ما يقوله الأطفال الآخرون. يقول إنه ليس جائعًا، يخرج إلى الفناء، يحدق من فوق الجدار المنخفض، ويرى بضع راهبات بتنانير سوداء مرفرفة في الهواء يعبرن وهن يتمتمن بعضهن مع بعض، طيورًا غريبة من عالم آخر. ينبعث صرير الباب الخلفي، يأتي والده ويقف إلى جانبه؛ لقد فقد كثيرًا من وزنه في الأسابيع الماضية، فتبدو قامته أكثر نحولًا إلى جانب الشاب المكتنز الذي يلف ذراعه بصمت حول كتفه.

* * *

أقرأ في الجريدة أن أحد السياسيين الشباب من خنت قد تقدم بخطة رائعة من أجل المدينة. تقول الخطة إن الطريق السريع الذي شُيد في الستينيات، وامتد حتى اخترق عمق مركز المدينة واختزل الحديقة العامة «زاود بارك» إلى نصفها بعد أن كانت في أوج عزِّها في يوم من الأيام، يجب أن يُلغى ويحل محله نفق تحت الأرض. هكذا فسيُرد اعتبار الحديقة العامة، المشيدة على الطراز الكلاسيكي للقرن التاسع عشر والتي سلبها الطريق السريع روحها، وستصبح «سنترال بارك» الخاصة بالمدينة، ورائدة فخورًا تنبئ بحقبة بيئية جديدة. شكَّل هذا الامتداد للطريق السريع إلى المدينة موضع خلاف منذ البداية؛ رأى المنتقدون أن هذا دليل على أن المدينة الإقليمية الشامخة تخلت عن كبريائها مقابل اكتساب المال. فعلى طول جادتَي «فرير أوريان» و«خوستاف كالير» الجميلتين، ارتفعت العمارات للطبقة ميسورة الحال، لكن هذه العمارات صارت تطل على امتداد الطريق السريع منذ ذلك الوقت. في الماضي، كان تمثال نصفي للشاعر الفلامندي العظيم «كارل فان ده فوستاينه»، ينتصب، تائهًا إلى حد ما، في حوض أزهار متواضع. وعلى مسافة قريبة منه، في الجزء المتبقي من الحديقة، يقوم تمثال الملك «ألبرت الأول» ممتطيًا جواده، وفي نهاية الحديقة، في المكان الذي قامت فيه محطة جميلة ذات يوم، تندفع مياه نافورة إلى أعلى وراء مبنى حديث؛ أتذكر رائحة

البيجونيا في الربيع، عندما لم يكن ذلك المبنى قائمًا بعد. اختفى قسم كبير من التاريخ حول حديقة المدينة هذه ـ خاصة حديقة الحيوانات المنحدرة من القرن التاسع عشر ومحطة القطار «زاود» الفخمة القديمة. حديقة الحيوانات القديمة، ببركها المائية وأحواض الزهر، وبمطعمها بيزنطي الطراز، اختفت عندما كان جدي في الرابعة عشرة من عمره. ارتفعت مجمعات سكنية بسيطة ذات باحات مشتركة من أجل الطبقة العاملة في المكان الذي كان يترامى فيه مرج «ماونك ميرسن». الأثر الوحيد المتبقي من حديقة الحيوانات القديمة هو حديقة «ماونك باركيه» الصغيرة الظريفة، بجسرها المقنطر وصخورها الاصطناعية، الواقعة في حي سكني نعِم بالهدوء ذات يوم، وأصبح مضطربًا في العقد الماضي بسبب وصول دار سينما هائلة. أتصور جدي وهو يعبر بها مع ابن الجيران ـ أقفاص الحيوانات المفترسة العابقة برائحة الجيف، والفيلة المنهَكة من العروض اللانهائية، البرجوازيين المستمتعين بمشاهدتها، مأخوذين برؤية الغرائب من دون أن يردعهم ما يردعنا في الزمن الراهن من وازع الضمير.



كانت محطة «زاود»، في النهاية الأخرى من الحديقة، فخر المدينة في ذلك الزمن؛ مبنى شبيه بالقصر يطل على ساحة كبيرة، ينتصب فيها التمثال البرونزي لأحد المصارعين، إلى جانب بركة مائية محاطة بالأزهار. كان جدي يذهب إلى هناك في ساعات الفراغ من بعد ظهر أيام الآحاد ـ كان السبت يوم عمل، فالأسبوع يتكون من ستة أيام عمل طويلة ـ ويتسكع مع ابن الجيران، ويتزحلق على الحواف الحجرية الزرقاء، ويراقب من أحد الأرصفة القطارات وهي تصل وتغادر، يجد سعادته في أن تزخه غيوم السخام والرماد التي تطلقها المداخن العريضة في القطارات البخارية، كأنما بحركات متشنجة لاإرادية. كان منظر محطة «زاود» من الداخل يبهر الأبصار: القسم الأوسط من الردهة الواسعة، بدعائمه الفولاذية وسقفه المائل المكوَّن من لوحات زجاجية عريضة من الطراز السائد في تلك الأيام، يشغله كله حوض فاخر تنمو فيه شجيرات النخيل والأزالية وشجيرات الزينة من شتى الأنواع تحت الضوء المتسرب من القبة الزجاجية. كانت الساحة الأمامية مضاءة ومفتوحة أيضًا، تنضح بالاعتزاز بالذات. هُدمت هذه المحطة في ١٩٣٠. في الوقت الراهن، عندما أخرج من مرأب صف السيارات تحت الأرض، أقف بوجهي إلى المكتبة العامة الحديثة على طرف ومركز تسوق على الطرف الآخر، حيث قام في الماضي فندق «بارك» الأنيق، قبالة المحطة. لا تشعر الأجيال الأصغر سنًّا بالفقدان حتى؛ أن تبدو الأشياء طبيعية هو نتاج من نتاجات النسيان الثانوية. أحاول أن أتصور كيف كان الوضع هنا قبل قرن من الزمن: صفٌّ من الحناطير، خيولها منتظرة بصبر ومخالي الشوفان معلقة بأعناقها؛ الحوذيون بشواربهم الإلزامية يشربون البيرة من أكواز خزفية صغيرة في الحانة؛ رائحة روث الخيول تفوح من كل مكان؛ المسافرون يدخلون ويخرجون من تحت القوصرة المهيبة في أعلى الواجهة، ولعل أرغنًا يدويًّا يصدح بموسيقى، وحمام جاثٍ على

خوذة المصارع البرونزي. لا أحد يستطيع أن يخمن، ولو مجرد تخمين بعيد، ما الذي سيحدث هنا بعد فترة لا تتجاوز عشر سنوات.

* * *

عندما تسير من هناك صوب أحياء المدينة المرتفعة، تصل إلى ساحة «سانت بيتر»، التي غالبًا ما كانت تُعرض فيها أحدث الصيحات في تلك الأيام: في أوقات الظهر من أيام الآحاد، كنت إذا ما دفعت بضع قطع من خمسة سنتات، استطعت أن تأخذ مكانك في سلة من الخيزران تحت منطاد كبير، يصعد بك في الهواء من جانب مجموعة من الأسلاك، يحوم هناك محافظًا على توازنه برهة قصيرة، فترى السطوح المنحدرة من العصور الوسطى في المدينة القديمة وهي تلوح في البعد، ثم يهبط بك من جديد إلى الأرض. كان الكبار في السن يقولون عنها: «صيحات سخيفة من طراز حديث. العجرفة تسبق السقوط». لكنَّ الشباب والجنود مفتولي الشوارب كانوا يرونها مشوِّقة ومثيرة. يذكر جدي بافتخار أنه استطاع هناك، عندما بدأ المنطاد يتأرجح في أثناء هبة ريح قوية، أن يصافح الطيار البلجيكي المشهور حينذاك «دانييل كينيت»، الرجل الذي كان يرعى ذلك المشروع. سوف يعود الطيار «دانييل كينيت» إلى الواجهة في لحظات غير متوقعة.

* * *

إن كانت «زاود بارك» قد شيدت بناء على الأسس الهندسية الكلاسيكية في إنشاء الحدائق، فإن حديقة القلعة، «سيتاديل بارك»، استُوحيت من الفلسفة الرومانسية في إنشاء حدائق تبدو طبيعية المنظر، على النمط الذي شيدت به حديقة الحيوانات القديمة. أدركت خنت أن معالمها قد تحددت تاريخيًا وفق النظرة العملية في التخطيط من ناحية، والرومانسية التصويرية من ناحية أخرى، فتركت ذلك يتجلى في أماكنها الخاصة بالاستجمام.

اختفت القلعة الكلاسيكية، التي منحت اسمها للحديقة، منذ

زمن بعيد، ما عدا بوابتها رومانية الطراز، وأفسحت المجال للحديقة المشهورة ـ الحق أن تلك القلعة كانت الثكنة العسكرية القديمة الآيلة إلى السقوط في ذلك الزمن، حيث لا تزال بضعة آثار من أساساتها ظاهرة للعيان ـ لكن الكهوف الرومانسية الأسمنتية خلف شلال المياه لا تزال قائمة حتى اليوم، وأستطيع أن أتخيل جدي وهو يتمشى في أيام صباه في هذا المكان، منتعلًا قبقابه، وشعره الخشن مسدل على رأسه، ويداه في جيبيه. ويقذف مع رفيقه حجارة مسطحة صغيرة، فتتقافز على مياه البركة التي يوقوق البط على سطحها.

أتذكر كيف كنت أنا نفسي أسير، في أوقات ما بعد الظهر من أيام الآحاد، ويدي في يد جدي الذي كان حينذاك يناهز السبعين من العمر، من تحت المقولة اللاتينية المكتوبة على تلك البوابة «لا أحد يتحداني ويفلت من العقاب»، ميممًا وجهي صوب المتحف، الذي أطلعني فيه على اللوحات الفنية المفتون بها؛ لعل أكثرها على الإطلاق كانت اللوحة الكبيرة الباهرة للرسام الفلامندي «إميل كلاوس»، التي رسم فيها مشهدًا من مشاهد الشتاء في عام ١٨٩١؛ إنها تُدعى «طيور الجليد»، صورة يطغى فيها الأصفر الفاتح والأبيض، تمثل بركة مائية تجمدت مياهها وغطتها طبقة رقيقة من الثلج، عليها ثلاثة صبيان، منتعلين قباقيب، مشغولين بزلاجاتهم الخشبية البسيطة. يرتدون ملابس سميكة ورمادية، يقف رجل ثلج على ضفة البركة، يلوح في البُعد صف من أشجار صفصاف مقلمة، وبيت ريفي منخفض. يصرخ الهدوء الصقيعي البرودة من الدهان: حفلة من الضوء والوضوح، يشعر لها بسعادة عميقة وينقلها إليَّ.

لم أدرك إلا بعد ذلك الوقت بكثير أنه أطلعني على مشهد من مشاهد السنة التي ولد فيها ـ ألم يولد في ٩ فبراير ١٨٩١، أي في شهر من شهور الشتاء القاسية التي رسم فيها «كلاوس» هذه اللوحة؟ أطلب سجلات الطقس عن ذلك اليوم من المؤسسة الملكية للأرصاد الجوية في بلدة «يوكل». يتبين أنه



كان يومًا بضباب قارس، ودرجة حرارة ما دون الصفر بقليل. أتخيل ذؤابات الضباب فوق ملتقى نهرَي «ليس» و«سخيلده»، والدته النفساء وهي راقدة في السرير، رائحة الموقد الذي لا يريد الاشتعال من جراء الضغط الجوي المنخفض، الطفل الوليد الملفوف في القِماط الصوفي، الذي وضعته الداية في المهد البدائي إلى جانب الموقد، والرسام «كلاوس» وهو يرسم لوحة تعبيرية بيضاء بياض قشر البيض، تمثل بركة متجمدة في الجوار، يتزحلق عليها بضعة صبيان؛ فتيان، لعل جدي صادفهم وهو طفل صغير عندما كانوا شبابًا.

* * *

أمامي، على مكتبي، يرقد حجر رمادي ثقيل، مميز الشكل. إنه مستطيل، طوله سبعة عشر سنتيمترًا، عرضه ثمانية سنتيمترات، وسمكه أقل من أربعة سنتيمترات بقليل. زواياه المدورة متماثلة تماثلًا كاملًا، سطحه من الأعلى والأسفل أملس تمامًا؛ صقَّلته عشرات الآلاف من السنين من التدحرج

العشوائي جيئة وذهابًا وسط الأمواج، وشكلته في أكمل صورة، كما لو أن يدًا بشرية هي التي أبدعت صنعه؛ يكاد المرء يعجز عن تصور مثال ملموس أكثر من هذا عن نشأة الكمال الطبيعي من المصادفة المحضة. رسم جدي مشهدًا فولكلوريًا على جهته العلوية المسطحة، بعد أن عاد من رحلته: رجل وامرأة في ملابس داكنة، تلوح وراءهما الهضاب، والبحر، وقارب شراعي طفولي. كتب في أعلاه حروفًا سوداء مرتعشة بعض الشيء، بفرشاة رفيعة: «رابالو».

أعطاني هذا الحجر في الوقت الذي كنت أجمع فيه الأحجار ـ لا بد أنني كنت حينذاك في نحو الثانية عشرة من عمري. لم يُثر المشهد المرسوم على الحجر اهتمامي في الحال؛ ما كان يهمني هو أن جدي رسم عليه شيئًا، مزوَّدًا بكلمة لم أفهمها، فقد نسيت سريعًا أنه أخبرني بأنها اسم مدينة في شمال إيطاليا.

بعد انقضاء عقد ونصف العقد من الزمن على موته، في الوقت الذي كنت أحاول فيه قراءة الأناشيد العصية على الفهم للشاعر «إزرا باوند»، عرَّجنا أنا وزوجتي، ونحن في طريقنا إلى فلورنسا، على مدينة رابالو. تنزهنا على ساحلها الصخري الصغير على مقربة من البرج القديم، ووجدت هناك ـ لدهشتي العظيمة في واقع الأمر، فأنت تكتشف مرة بعد مرة كم كنت أعمى عن تاريخك الخاص ـ أحجارًا بالشكل والحجم أنفسهما؛ كان قد التقط ذلك الحجر من هنا إذن.

في حياة الإنسان لحظات يشعر فيها بأن كل شيء في كيانه قد أصبح رهن التغيير؛ أتذكر ذراعي حول كتف زوجتي الشابة الجذابة، شعوري بانعدام الوزن والحرية؛ الشمس، الهواء، رائحة الطحالب والملح؛ إحساسي المفاجئ بأنني أتقمص جسد جدي على نحو شبه محسوس، في مكان وقف فيه إلى جانب زوجته الخجول المخلصة «جابرييله» بوشاحها الدانتيلي الأسود. كانا في طريقهما إلى روما، في رحلة من رحلات الحج التي نظمتها إحدى

المنظمات الكاثوليكية، ولم تكن رابالو سوى نقطة عبور، استراحة، لعلهم توقفوا فيها برهة قصيرة من أجل تناول الغداء والتنزه قليلًا. لا بد أنه التقط ذلك الحجر وهما يتنزهان في ملابسهما السوداء على الساحل الحجري، ولا بد أن «جابرييله» قالت له: «ولكن يا «أوربابن» يثقل عليك أن تحمله في حقيبتك، ما الذي تفعله يا عزيزي؟»، لكنه أبقاه في يده بعناد وصعد به إلى الحافلة ـ لا بد أن ذلك كان في أواسط الخمسينيات ـ وجرجر معه الحجر الذي يزن كيلوجرامًا ونصف الكيلوجرام طوال الطريق إلى البيت، حيث رسم عليه في وقت لاحق هذه الصورة ذات السمات السياحية، مثل تعويذة حملها معه من رحلة لم يبقَ شيء يُذكر من صورها. الغريب في الأمر هو أنه عندما رسم على هذا الحجر، لم يشعر بأي حاجة إلى توثيق تجربة خاصة به، بل رسم صورة فولكلورية وجدانية، تنطوي كما يبدو على شعوره بالسعادة في تلك اللحظة؛ طبعًا ثمة احتمال أن ما رسمه كان شيئًا رآه بالفعل، من يدري، ربما كان هناك شخصان يتجولان في مكان ما في ثيابهما التقليدية في واقع الأمر، ربما كان يومًا من أيام الأعياد، هذا شيء لا يمكن التأكد منه. هذه الرحلة إلى روما كانت الرحلة الوحيدة التي قام بها إلى خارج البلاد طوال حياته المديدة، باستثناء رحلاته إلى إنجلترا للنقاهة في أثناء الحرب العالمية الأولى، ورحلة إلى أوسلو، لا أعلم عنها سوى القليل، وهو ما كان يدعيه مرارًا وتكرارًا، أن الناس هناك يتكلمون لهجة تشبه نغمتها لهجة أهل خنت، من دون أن يفهم منها شيئًا؛ الأمر الذي تحققت منه في إحدى المرات من الكاتب النرويجي «جوستاين غاردر» في أثناء حديث لنا، وتبين أنه كان صادقًا فيما ذهب إليه. الحجر بالمشهد المرسوم عليه من رابالو هو الأثر الذي تبقى من رحلاته، تعويذتي الوحيدة، والأحجار تبقى صامتة في اللغات كلها بطبيعة الحال. وإذ إنه يكتب مذكراته حتى عام ١٩١٩ فقط، فإن ثلثَي حياته متوارٍ في هذا الصمت.

* * *

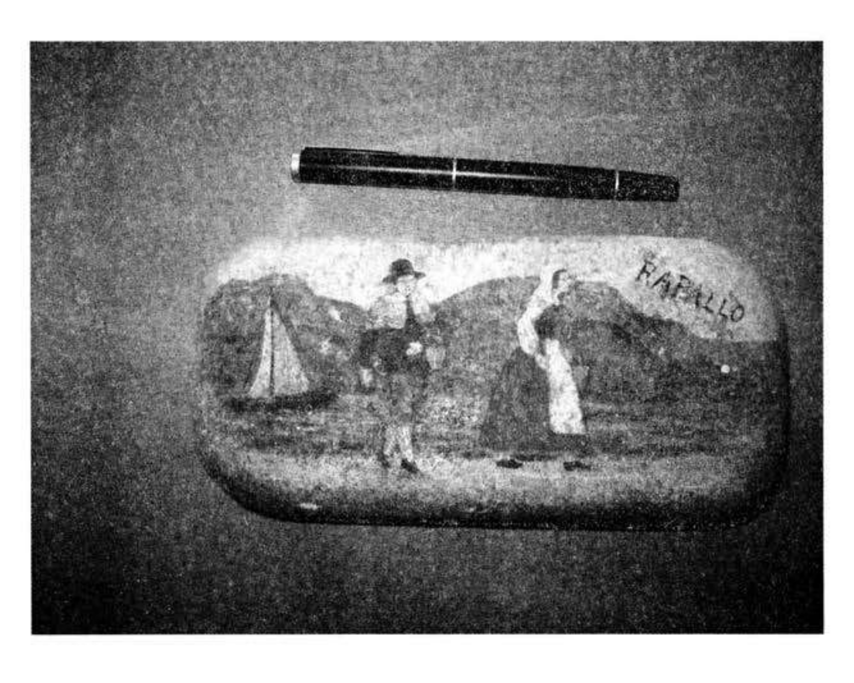
رابالو مدينة ريفية، لكنها مفتوحة على البحر. كان الفيلسوف «فريدريش نيتشه» يتجول على شاطئها، عندما واتته فكرة أن يكتب ملحمة بطولية، ليس عن «أمبادوقليس» (الذي لا بد أنه قرأ عنه في قصائد الشاعر «فريدريش هولدرلين»)، وإنما عن «زارادشت». والشاعر «إزرا باوند»، الذي تركت الحرب العالمية الأولى بصماتها عليه كما فعلت على جدي، انتقل إلى هذه المدينة عام ١٩٢٤، في الفترة التي حبلت فيها عشيقته، عازفة الكمان الأمريكية «أولجا رادج»، وتخلت عن مولودها لمربية، فلاحة تتحدث الألمانية. تسكع «باوند» بقلق واضطراب على الساحل، عاد إلى رابالو المرة تلو المرة، عمل فيها على كتابة أناشيده، بينما يتذمر في الراديو الإيطالي عن «الأوزورا»، الربا الذي يتعامل به اليهود، وانضم إلى حزب «موسوليني». حتى لقد قابل الدكتاتور الفاشي شخصيًّا بواسطة «أولجا»، وحاول أن يبيع أفكاره عن اقتصاد اليهود الربوي لـ«الدوتشي»، الذي تبين أنه أسكته بإشارة من يده تنم عن أنه يرى أناشيده أكثر «تسلية»؛ وهي طرفة عالجها «باوند» في وقت لاحق في أحد أناشيده بشيء من السخرية. وكتب «ويليام بتلر ييتس» عن التنجيم في رابالو؛ ورسم «أوسكار كوكوشكا» لوحة تكاد تكون انطباعية للخليج، وزاره «جيمس جويس» في إحدى المرات؛ وجعل «إلمور ليونارد» أحداث روايته البوليسية، «برونتو»، تدور في رابالو.

في ٢ مايو عام ١٩٤٥، بعد مضي أربعة أيام على إعدام «موسوليني» أمام الملأ، وفي حين لا تزال جثته الممثل بها، العارية والمفتوحة مثل ثور مذبوح، معلقة بجانب جثة عشيقته، عند محطة وقود في ميلانو، ألقى «الأنصار» القبض على الشاعر الفاشي في بيته في مدينة رابالو الشاعرية. وضع طبعة من كتاب «كونفوشيوس» وقاموسًا صينيًّا في حقيبته قبل أن يسوقوه من البيت. ادَّعى في أثناء تحقيق معه بعد أيام قليلة من اعتقاله أن «هتلر» كان «جان دارك» زمانه، وأن «الدوتشي» كان قائدًا «فقد عقله» ـ وهذا أقل ما يقال. ولأنهم اعتبروه عبقريًّا آل به المآل إلى الجنون، زجوا به

في قفص للحيوانات المفترسة في مكان قريب من مدينة بيزا. عندما كبر في السن وهذبته التجربة، ولدى عودته إلى رابالو، شعر بالخجل من ترهاته المعادية للسامية، فقال للشاعر «ألن غينسبرغ»:

ـ لم أكن مجنونًا، كنت أحمق.

لا أعلم في أي مقطع من المقاطع الغامضة الكثيرة في أناشيده، التي كتبها عن البحر، يتحدث عن مدينة رابالو الصغيرة. ولكن الشيء الأكيد هو أنني أقف في المكان الذي توارى فيه هذا الرجل، ذو العينين الزرقاوين والشخصية العنيدة مثل جدي، للحظة خلف الحاج الورع بقبعة «الفيدورا» على رأسه والحجر الثقيل في حقيبته.



لا يجمعهما أي شيء تقريبًا، وأجزم أن جدي لم يسمع حتى باسم «باوند» طوال عمره المديد، وعلى الرغم من ذلك كان هناك شيء مشترك بينهما، شيء يصعب سبر أغواره، تداعي خواطر سريعة توحي بها أشياء مترابطة

أبعد من أن يستطيع المرء وضع يده عليها، مثلما حدث معي عندما شبَّهت رأسه برأس «شوبنهاور» في تلك الصورة ـ شيء يتملص مني دائمًا وينتمي إلى أخلاق أخرى وعادات مغايرة. إنهم أناس عايشوا زمن الكوارث العظمى في أوروبا، فماذا عسانا أن نفهم عنهم؟ أمعن النظر في الحجر من جديد، أمرُّ برأس إصبعي على آثار الفرشاة بضرباتها الرقيقة، وأدرك أن لا شيء يعود إلى الوراء إن لم يكن محفوظًا في أشياء بكماء خرساء؛ الأحجار تتكلم أبلغ كلام. أقتفي آثار الفرشاة، وأتحسس حركة أصابعه على هذا الحجر الهامد البارد، مثلما تحسست جبينه بعد أن وافته المنية، وفكرت في رعب: «هل حدث أن أحسست بشيء أبرد من هذا الجبين؟ لماذا لا يفتح عينيه ويتحدث معي؟».

* * *

كما أن هناك أشياء اختفت في عالم الضياع، لكنها لهذا السبب أيضًا بقيت تشغل بالي أكثر فأكثر. لعل ذكرى ساعة الجيب الذهبية، التي أهداني إياها في عيد ميلادي الثاني عشر، من أشد الذكريات إيلامًا وأكثرها حضورًا. في اللحظة التي نزل فيها السلم، ودخل غرفة الجلوس بوجه متألق، عرفت أنه يحمل لي شيئًا خاصًا في جعبته. قال لي:

ـ افتح يدك.

ووضع فيها الجوهرة الثمينة بحذر شديد. شكرته، وصعَّدت فيه عينَيَّ، وهممت بمعانقته، فانزلقت الساعة من يدي وتشظت على البلاط. عاودني هذا المشهد مرات لا تُحصى، التعبير المرتسم على وجهه، الهلع الذي أصابه، تمتماته الخافتة باللعنات، هز رأسه ذات اليمين وذات الشمال، إغلاق عينيه، وغضبه المكبوت وهو يلملم القطع المتشظية ويضعها في جيب مريلته، ثم يخرج إلى الحديقة ليغيب عدة ساعات عن الأنظار ـ راودني هذا المشهد مرارًا وتكرارًا في ليالي الأرق، وفي كل مرة اعترتني الرغبة في أن ألطم نفسي على رأسي، وقد فعلت ذلك بالفعل في بعض الأحيان.

ولكنني الآن، وقد قرأت قصة هذه الساعة في دفتر مذكراته الأول الذي

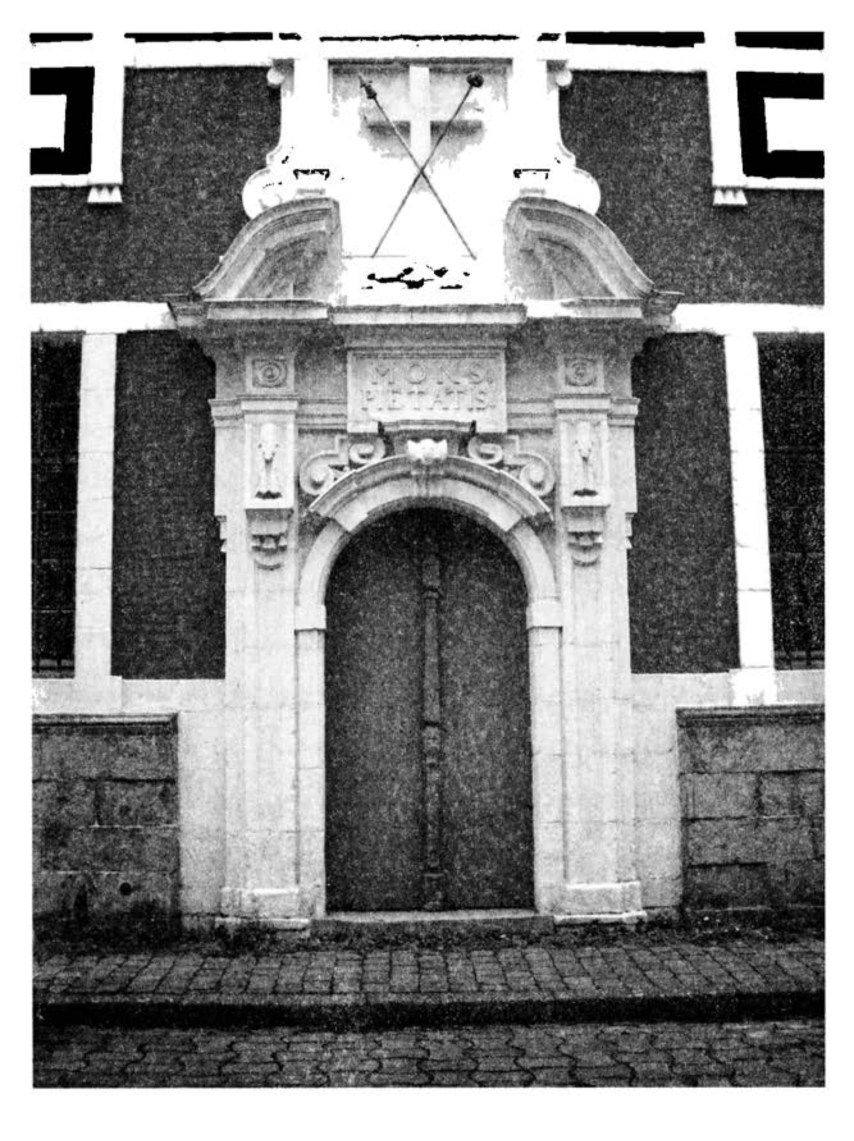
يصف فيه ما عاشه في طفولته، أحس بأن الذنب الذي ارتكبته في حقه في تلك اللحظة لا يُغتفر.

كانت الساعة من مقتنيات جد أبيه، وكلما اشتد الفقر عليهم، أعطاه أبوه وأمه بعضًا من الأغراض الثمينة من أجل أن يأخذها إلى محل الرهونات، الذي كان يُدعى، بما لا يخلو من الاستهزاء، «جبل التقوى»؛ اسم مسيحي وينطوي على شيء من الترف بالنسبة إلى غاياته المتواضعة. لا يزال «جبل التقوى» موجودًا حتى اليوم؛ بوشر في بناء المبنى الواسع من الطراز الباروكي عام ١٦٢٠، بأمر من الأرشيدوق «ألبريخت» وزوجته «إيزابيلا» المتدينَين، وافتتح عام ١٦٢٢، في زمن الفقر المدقع الذي جاءت به الحروب الدينية. يقوم المبنى ـ المرمَّم بشكل جميل، والذي لا تزال واجهته تحمل الكتابة اللاتينية لاسمه، «مونس بيتاتيس» ـ في شارع «أبراهام»، بالقرب من قلعة «خرافن ستيين» والحي الظريف «برينسن هوف» والشارعين القديمين «ده ليفي كاي» و«خيفاد»؛ ويُستخدم منذ عام ١٩٣٠ لحفظ أرشيف المدينة. يتألق هذا المبنى بإحدى أقدم الواجهات الباروكية في المدينة، ويشبه القصور الإيطالية إلى حد ما. كان على الصبي من عامة الشعب أن يسير مسافة طويلة جدًا كي يصل من طرف المدينة إلى مركزها التاريخي، وأظن أن هذا المبنى كان يبث الرعب في كيانه. ذات يوم، أعطاه أبوه الساعة المذكورة على مضض، وناشده الله بأن يحرص عليها ولا يوقعها من يده. عبر البوابة من تحت لافتة «مونس بيتاتيس» وقد أحكم شدَّ يده على الجوهرة الثمينة، ووضع الساعة على الطاولة أمام الراهبة المتجهمة، التي أعطته بعضًا من المال ووثيقة استلام مقابل ذلك، فعاد الولد بهما إلى البيت. في تلك السنوات العصيبة التي كان المرض يزداد فيها على أبيه يومًا بعد يوم، ذهب إلى «جبل التقوى» بما تملكه أمه من بضعة كتب فرنسية، بقلادتها ذات الحجر الكريم العاجي المفضَّض، المنقوش على هيئة الفتاة بتسريحة ذيل الحصان، دبوس الشعر المذهَّب العائد لأمها، لوازم مائدة من فضة، مفرش طاولة من الدانتيل من

الطراز «البروجي» حاكته جدتها في أواسط القرن التاسع عشر. بعد سنوات عديدة، عندما استطاع والده «فرانسيسكس» أن يدخر بعضًا من المال، أعطى جدي المبلغ نفسه الذي تقاضاه مقابل الساعة في ذلك الحين ـ كان «مونس بيتاتيس» يقدم القروض للفقراء من دون فائدة، يمكن قراءة ذلك على واجهة المبنى أيضًا ـ وأرسله إلى «جبل التقوى» ليفك الرهن عن ساعة أبيه، وهو يكيل لهم اللعنات على أنهم سلبوه تلك الساعة اللعينة، فقالت له زوجته وهي تفكر بعقد اللؤلؤ، العائد لأمها، المرهون لديهم:

ـ ولكن الإنسان المسيحي لا يلعن يا «فرانسيسكس».

عادت الساعة إلى أصحابها، وبعد أن مات أبوه في سن مبكرة، وضعت أمه الحزينة الساعة في يده، وأضافت أنه أصبح بذلك رجل البيت؛ وضعها في جيبه، وحملها معه تعويذة طوال تدريبه العسكري، حملها معه خلال سنوات الحرب الأربع كلها. نجت هذه التقنية الدقيقة من جحيم معركة «سخيب لاكن»، من فظاعة معركة «سانت مارغريت هاوتم»، عايشت الانسحاب الأسطوري إلى مشارف بلدة «يابيكه» وأوستنده، وما أعقب ذلك من سنوات جهنمية على جبهة إيزر، الممتدة من ساحل «مانيكنس فيره» إلى قرية «ستاوفكنس كيركه». كانت في جيبه عندما ركب البحر إلى ساوثمبتن وظن أنه ملاقٍ موته. أخطأتها الرصاصة بضعة سنتيمترات فحسب، عندما وقف في الطين على جبهة إيزر ينصب الأسلاك الشائكة وأصيب في مغبنه. ثم لقيت حتفها المخزي على يدي الصبيانية الحمقاء، في عيد ميلادي الثاني عشر، في اليوم الذي، الآن وقد قرأت مذكراته، سيبقى محفورًا في ذاكرتي على أنه اليوم الذي ارتكبت في حقه ذنبًا لا يمكن أن يُمحى. وأنا أدقق في التواريخ، أرى أنه لم يكد يمضي شهران على ذلك اليوم حتى بدأ بكتابة مذكراته، أي أنه قبل ذلك بفترة قصيرة فقدَ أغلى ذكرياته من جراء وقوعها من بين يديَّ.



في يوم رمادي أقود سيارتي إلى خنت، لا لشيء إلا لأهيم على وجهي من جانب ذلك المبنى، ألتفت إلى الوراء، وأسير من جانبه مرة أخرى، أقطع الشارع الهادئ وأمعن النظر في الواجهة المرممة بشكل جميل. لقد رقدت هنا ذات يوم، لقد ذهب بها إلى داخل هذا المبنى ذات يوم ـ هذا ما يطرق

به صوت في داخل رأسي ـ وأنا كسرتها، كسرت الميراث الذي كاد يكون قطعة أثرية عندما كان لا يزال طفلًا صغيرًا. ما الذي حل بالقطع المكسورة يا ترى؟ يمر من جانبي رجل مع كلب لاهث من سلالة «دوبرمان» مربوط إلى حبل، يتناهى إليَّ هديل حمام. لقد فات الأوان على الندم الذي يغمرني ويشعرني بالعجز.

* * *

في أوقات الظهر من أيام الآحاد في فصل الربيع، كان يصطحبني إلى ساحة «كاوتر» الكبيرة التي كانت تقام فيها حينذاك سوق الزهور على نطاق أضيق مما هو عليه اليوم، لكنه ما إن يصل إلى الساحة حتى يقف في الصف الأول، على العموم بالقرب من واجهة المعرض التجاري الشبيهة بواجهات مباني فيينا، يغرس عكازه أمامه، في هيئة أنيقة في بدلته الكحلية، عندما تبدأ الجوقة الموسيقية بالعزف على خشبة المسرح. كان يحفظ كل ما يقدمونه من عروض عن ظهر قلب، من دون أي خطأ، ورأيته يدندن معهم مرات عديدة، أو يهز رأسه وفقًا للإيقاع، عندما يعزفون موسيقى المارش أو مقطوعة من «الأرليزيين»، للموسيقار «جورج بيزيه»، ذات النغمة المترددة التي يعزفها بعضهم على آلات النفخ، فينتابك إحساس بأن عازفي المزمار، الكلارينيت، البوق، والرجل ذا الوجه الأحمر وهو ينفخ في البوق الأجهر منظم الإيقاع، يمشون على جسر متأرجح عالٍ، فوق ما ينهمر بغزارة من نهر المقطوعة الموسيقية المتطلبة جهودًا جبارة. يقول لي في كثير من الأحيان ونحن نغادر برضا وابتهاج بعد انتهاء العرض: «في إحدى المرات غنيت هنا في الكورال بقيادة «بيتر بنوا»».

«بنوا»، الشاعر الفلامندي العظيم والموسيقار الذي أَلَّف «أوراتوريو» عن نهر «سخيلده»! لقد حاز «جائزة روما» الشهيرة، أسمى تكريم يمكن أن يحصل عليه موسيقار، وقاد جوقة موسيقية على مسرح «ده بوفه باريزيان» في باريس الذي أسسه «جاك أوفنباخ»، وأسس هو نفسه مسرح الأوبرا

الهولندية الذي أصبح الأوبرا الفلامندية فيما بعد. توفي «بنوا»، الذي اعتاد جدي أن يسميه «برامس» الفلامندي، في ١٩٠١؛ لا بد أن جدي لم يكن يبلغ العاشرة بعد، عندما غنى في الكورال الاحتفالي. يزودني بحث بسيط بالسبب الحقيقي لذلك الاحتفال: بمناسبة زواج الأميرة «إليزابيث»، دوقة بافاريا، من أمير بلجيكا «ألبرت الأول» وزيارتهما الرسمية، التي اعتبرت جزءًا من مراسم الزواج، إلى المدينة الشامخة خنت عام ١٩٠٠، شُكلت جوقة موسيقية كبيرة من جوقات موسيقية للأطفال بعد تصفيات لازمة. لا بد أنه كان حدثًا عظيمًا؛ الأوركسترا التي قدمت عرضًا غنائيًا في ساحة «كاوتر» بهذه المناسبة كانت مثيرة للإعجاب، وكان من الضروري أن تليق بمقام الأميرة الشابة، وما يُعرف عنها في طول البلاد وعرضها من ذوق موسيقي رفيع وهيام بالموسيقى، الأميرة التي عندما أصبحت ملكة للبلاد، وهبت اسمها لواحدة من أرقى المسابقات الموسيقية في أوروبا، «مسابقة الملكة إليزابيث»، التي سمعتُ قائد جوقة موسيقية فلامنديًا مشهورًا يسأل الملك بشأنها قبل بضع سنوات:

ـ يا صاحب الجلالة، ألم يحن الوقت لأن تنهي هذا السيرك الذي عفا عليه الزمن؟

فكان رد الملك «ألبرت الثاني» ـ المسمَّى على اسم جده، زوج ملكتنا المولعة بالموسيقى «إليزابيث» الذي مات في حادث مؤسف ـ بأن أرسل غمزة ودية إلى الجالسين إلى مائدته، ثم قال بمزاج رائق لقائد الجوقة الموسيقية الوقح:

ـ أظنك شقيًا بعض الشيء، أليس كذلك؟

على كل حال، ترك العرض الذي قدمه الموسيقار الفلامندي العظيم في ساحة «كاوتر»، في خنت، عام ١٩٠٠ تأثيرًا غير قابل للزوال في جدي: كان «بنوا» يبلغ من المهابة أنه يستطيع ضبط الفرق الموسيقية للأطفال في خنت برفع أحد حاجبيه الكثيفين الأسطوريين بامتعاض. إذا ما نظرت في



اللوحة المشهورة التي رسمها له الرسام البلجيكي «يان فان بيرز الابن»، وهي دراسة رائعة عن شخصيته، رأيت مدى التأثير الذي يمكن أن يمارسه حاجباه الكثيفان، والعمق الذي تتسم به الهالتان تحت عينَي الموسيقار العظيم المرهَق. الحق أنه لا يمكن للمرء أن ينكر وجود شيء من الشبه بينه وبين الرأس الضخم الشهير الذي يعلو جسد «برامس» وهو في عمر متقدم،

ما عدا أن رأس «بنوا» «برامسي» أكثر من رأس «برامس» نفسه، هذا إذا ما ألقينا الكلام على عواهنه. في وقت لاحق، استمعت كثيرًا إلى عزف «بنوا» على البيانو الذي يشبه فعلًا عزف «برامس» إلى حد ما، واستحال عليَّ ألا أتخيل جدي وهو جالس بجانب الراديو في أيام الآحاد، وقد أغلق عينيه، ورفع إحدى أصابعه في الهواء، يصفر بهدوء مع اللحن المسهب، الأمر الذي لم يكن من السهل فعله بسبب الإيقاع البطيء. كان صفيره يعلو في بعض الأحيان، في اللحظات التي تغطس فيها الموسيقى إلى الأعماق، لكن هذا ما يحدث عادة، عندما تتحرك المشاعر بقوة.

* * *

كنا نذهب من ساحة «كاوتر» إلى «الفينزيانا»، صالون المثلجات القديم الملحق بمطعم، قرب قلعة «خرافن ستيين» المنحدرة من القرون الوسطى، وهو مبنى ظريف من الطراز القديم، حيث كان يشتري لي مثلجات البطيخ على الدوام. كانت «الفينزيانا» مؤسسة بحد ذاتها. يتردد عليها الشعراء، يشربون القهوة، يخوضون في النميمة، يتباهون بما لديهم في الخفاء من عشيقات في المنازل الفاخرة القديمة القائمة على طول قناة «كوبوره»، يقرأون الجرائد أو يشتكون من الطقس. كنت أرى هناك في أحيان كثيرة الموسيقار «الختيّ» المسن «لويس ده ميستر» ـ المنتمي إلى مدرسة الحداثة التي أنشأها «أرنولد شونبيرج»، لكنه مع ذلك يملك نظرة «بيتر بنوا» المؤثرة نفسها ـ وقد تصدَّر المجلس بوقار إلى جانب زوجته التي تصغره كثيرًا في السن، والتي يقال إنها كانت نادلة في ذلك الصالون الظريف في زمن سابق. ما يدعو للأسف هو أن «الفينزيانا»، التي كانت مَعلمًا بالنسبة إلى أجيال متعاقبة من محبي المثلجات في خنت اختفت عام ٢٠٠٦، ورافقني إحساس دائم بأن نهايتها قد بدأت عندما قرر صاحبها، «نيكي زانجراندو»، أن يجددها من الداخل؛ أن يحطم ديكورات جدرانها الخشبية بنية اللون، ويتخلص من أثاثها الأخّاذ المنحدر من ثلاثينيات القرن الماضي، ويضع

محله أغراضًا عصرية لا روح فيها. يبدو أن هذا الرجل ـ الذي لم يكن من أصل فينيسي قُحٍّ، بل قادم من إقليم «فينيتو»، أي من المناطق القريبة من «كورتينا دامبيزو» ـ لم يقدِّر قيمة ما أسسه من تقليد في المدينة الإقليمية الفلامندية، وتبين بعد فوات الأوان أن استسلامه المتهور لنزعة التجديد السائدة في تلك الأيام كان طعنة مميتة في صميم المبنى، الذي ستبقى ذكراه في قلبي مرتبطة بطعم البطيخ، الفاكهة التي لم تكن تجدها في تلك السنوات إلا عند الطبقة ميسورة الحال، وعلى هذا فإنني صرَّحت لجدي ذات يوم بأنني لا أعرف حتى شكل البطيخ، فما كان منه إلا أن اصطحبني إلى سوق الخضراوات القريبة واشترى في الحال بطيختين من نوع الكانتالوب ذي الرائحة الحلوة؛ عندما عدنا إلى البيت، قالت عزيزته «جابرييله»:

ـ هل فقدت عقلك يا «أوربابن»، من سيأكل مثل هذا الشيء؟

* * *

كان ولع جدي بالموسيقى يتجلى على شكل عواطف حزينة على العموم. كانت الموسيقى المحلقة لآلات النفخ في المقطوعة الغنائية «الأرليزيين» لـ«بيزيه»، ولحن «روزاموند» الشجي لـ«شوبرت»، ومقطوعة جوقة العبيد ذات الصيت السيئ في أوبرا «نابوكو» لـ«فيردي»، كلها تؤثر فيه بالمقدار نفسه، فتندى عيناه الزرقاوان بالدموع. كان «فاجنر» من ناحية أخرى يثير اشمئزازه وغضبه، وهكذا تمتع جدي، من دون دراية منه، بالذائقة الموسيقية نفسها التي تمتع بها الفيلسوف العظيم صاحب المطرقة، فقد كتب «نيتشه» هو أيضًا في آخر حياته أنه يُفضِّل نور الجنوب والتأكيد على الحياة والحب عند «بيزيه»، على الترنح الأفيوني الجرماني في الظلمة الروحانية عند «فاجنر». كان «أوفنباخ» يبعث السعادة في نفس جدي، وموسيقى المارش العسكرية تجعله ينتعش. كان يحفظ السيمفونية الرعوية لـ«بيتهوفن» عن ظهر قلب، ولا سيما الحركة التي يثيرها الوقواق المغرِّد في غابات فيينا المنعشة؛ لقد وضحت فيما سبق ما كانت مخيلتي الطفولية تصوره لي من تفاصيل ذات

رائحة كريهة عند سماع هذه المقطوعة، من جراء الحكايات التي سردها لي. ولكن لم تكن هناك أي مقطوعة موسيقية أغلى على نفسه من افتتاحية «الأرليزيين» لـ«بيزيه»: تبدأ هذه الافتتاحية بإيقاع المارش المتنقل الخاص بالملوك، يعقبه اللحن الشجي المتصاعد من قسم عازفي آلات النفخ ثم المنحى الدرامي، وحتى التراجيدي الذي يتخذه اللحن في تعاقب وثيق، لعله يحمل في طياته التعبير الدقيق عن شخصيته كلها. كان إلى ذلك يقول في بعض الأحيان: «إيه! النور في الجنوب! لا يمكنك أن تتصور ذلك!»، ثم يلزم الصمت من دون إضافة أي شيء آخر. من يدري، لعله كان يفكر في شاطئ رابالو. ما يلفت الانتباه في هذه المقطوعة الموسيقية هو أن هذه «الأرليزيين»، الفتاة من مدينة آرل التي تتسبب في موت المغرم بها، تشبه السيدة المخيفة الفاتنة «كارمن» في أوبرا «بيزيه» التي تحمل الاسم نفسه؛ تلك التي تسمي الحب بـ«الطائر المتمرد»، وتضع عشيقها أمام خيار: إما أن تعشقني، وسيكون عليك أن تحذر مرة، أو ألا تعشقني، وسيكون عليك أن تحذر ألف مرة. لكن هذا التشابه كان يُترك ليمر بصمت، نظرًا إلى الأعراف الرادعة السائدة في غرف المعيشة الفلامندية في تلك الأيام. وماذا كان عليه أن يفعل غير ذلك؟ فقد مرَّ عليه العشق الذي يلتهم حياة الإنسان وكواه بناره في الصميم. هذا ما كنت أشعر به بالفطرة في ذلك المنحى السوداوي الذي تأخذه تلك الافتتاحية العصية على النسيان، التي تملك من القوة ما تملكه أوبرا بأكملها.

* * *

الأماكن ليست مساحة فحسب، إنها زمن أيضًا. أنظر إلى المدينة بعيون أخرى منذ أن حملت معي ذكرياته. تستمر أفكاري في الحومان حول ساحة «كاوتر»، التي أعرفها منذ نعومة أظافري على أنها مكان للاحتفالات، مكان مرتبط بصباحات الأحد، بأريج الأزهار التي كان والداي يشتريانها، بموسيقى آلات النفخ من الطراز القديم على منصات الموسيقى متقنة

الترميم. لكنني الآن أبحث، في اللغة المقفلة للواجهات، عن مكان البيت الذي كان جدي يتجه إليه، في الأشهر القليلة التي عمل فيها صبيًّا صانعًا عند الخياط «تومبي» البروكسلي، ويرن جرس باب السيد «كاربنتير»، «الوكيل التجاري للألبسة». يصف جدي أن بيته كان يقوم «بمحاذاة نادي النبلاء الأدبي المشهور في ساحة «كاوتر»». يمكن العثور على هذا المبنى بسهولة: كان النادي الأدبي الفلسفي الخاص بشكل حصري تقريبًا بالنبلاء متمركزًا فيما يُعرف بفندق «أوتيل فاليجان» منذ ١٨٠٢، وهو مبنى مشيد على طراز الروكوكو، مرمَّم على نحو جميل بلون قريب من «صفرة ماريا تيريزا هابسبورغ»، ولا يزال يتألق في ساحة المدينة الكبيرة؛ يقوم، على جانبَي واجهته، تمثالا «أبولو» و«ديانا»، الثنائي المألوف: يقف «أبولو» إلى اليمين في تمثيل للفنون، و«ديانا» إلى اليسار في تمثيل للصيد ـ الفن والصيد، النشاطان اللذان يروق للنبلاء ممارستهما منذ قديم الزمان، ولا سيما من أجل ما يحيط بهما من هالة التميز.



لكن في أثناء عملية ترميم عام ١٨٨٤ «بُدل رأسا» التمثالين، حسبما يعلمني أحد المواقع الإلكترونية، وما يلفت الانتباه هو أن «أبولو» أوكل إليه قوس «ديانا»، واضطرت «ديانا» بدورها أن تتعلم العزف على القيثارة. لا ريب أن هذا التبديل الإجباري للمهن جدير بالانتباه، ويدل بما لا يدع مجالًا للشك على سعة الأفق التي كان نبلاء المدينة المثقفون يتسمون بها في ذلك الزمن. حتى يومنا الراهن، تتخذ الحلقة الأدبية فرنسية اللغة «كرينج فاليجان» من هذا العقار مقرًّا لها، وهي من آخر ما تبقى من البرجوازية الناطقة بالفرنسية، المتلاشية في خنت؛ عالم شبه مغلق، سمته الحنين إلى الماضي، كانت الكاتبة «سوزانا ليلار» واحدة ممن أرخوا له في كتاب تحكي فيه عن ذكرياتها. كتبت «ليلار» أيضًا «اعترافات مجهول»، رواية قصيرة أبدع المخرج «أندري ديلفو» في تحويلها إلى الفيلم العاطفي السوداوي «بينفينوتا»، عام ١٩٨٣، من بطولة الممثلة الفاتنة التي لا تُنسى «فاني آردان»، والموسيقى الرائعة للموسيقار النابغة «فريدريك ديفريس». موقع التصوير الجميل هو واحد من أبهى المباني القائمة على قناة «كوبوره»، منزل كبير غامض ذو حديقة مسوَّرة، لو كان لديَّ ما يكفي من المال لاشتريته بكل سرور.

لا يمكن العثور على منزل «الوكيل التجاري للألبسة» في ساحة «كاوتر» بالسهولة نفسها؛ هل قام إلى يمين «نادي النبلاء» أم إلى يساره؟ إلى اليسار أقف أمام محل تبهرني حروفه ذات اللون الأخضر الفاقع السام، فلا تدعوني إلى الدخول إليه فحسب، وإنما إلى الخروج منه في الحال أيضًا، وقد زُوِّدت بتواصل فوري بالإنترنت. شوَّه طابقه الأرضي بلوحات رخامية سوداء من نوع رخيص، تنم عن انعدام الذوق الذي يبدو أن التجار الجشعين يتسمون به بالفطرة في أنحاء العالم كله. ولكن طوابقه العلوية الأربعة، المزود كل منها برواق جميل، تدل بما لا يدع مجالًا للشك على أن هذا المبنى كان منزلًا برجوازيًّا شبيهًا بقصر من قصور القرن التاسع عشر.

إلى اليمين يقوم مبنى ضخم أصبح من أملاك أحد البنوك. هذا المبنى، الذي يغطي عرض واجهته كله ما يزيد على عشرة شبابيك زجاجية، يبلغ من الضخامة أنه على الأرجح لم يُصمم ليكون منزلًا للسكن، حتى في زمن ما قبل الحرب العالمية الأولى، عندما كان عرض مظاهر الثروة الخاصة بوقاحة على عامة الناس لا يزال يُعد سلوكًا أخلاقيًا. أراهن إذن على المبنى الواقع إلى اليسار، أتصور كم كان الطابق الأرضي، الصارخة بشاعته الآن، جميلًا وأنيقًا في تلك السنوات القليلة التي أعقبت عام ١٩٠٠، فيتراءى لي الصبي ذو الثلاثة عشر ربيعًا الذي يجب أن يركض من هناك إلى هنا، مقابل عشرة سنتيمات في اليوم، في قبقابه الخشبي وجوربه الأسود المتدلي، بأكداس ثقيلة من الألبسة الجاهزة، ويرن جرس بيت السيد «كاربنتير». يفتح له أحد من خدم المنزل، امرأة على سبيل الافتراض، تستلم منه الحزمة الثقيلة، تشكره بفرنسية مطعمة بلكنة أهل خنت، وتغلق الباب؛ لعلها تضع في يده سنتيمًا إضافيًا أو سنتيمين، لا أدري. يركض الصبي عائدًا أدراجه إلى بيت الخياط، الذي أصبح عنوانه نهب الضياع، ويجب عليه في الحال أن يحز الحطب لسيدة المنزل المتطلبة، ثم يشعل الموقد ويجيء بالفحم، يركض بعد ذلك راجعًا إلى ورشة الخياطة، حيث يُكال له التوبيخ بسبب تغيبه الطويل وعودته بيدين متسختين. يرسله الخياط بلهجة فظة إلى المدرسة ليجيء بابنه إلى البيت. يعمل هذا الشيء يوميًا بعد مضي فترة من الزمن، ويجب عليه أن يحمل حقيبة الكتب عن السيد البرجوازي الشاب، ويحرص جيدًا أن يمشي خطوتين وراءه، وإلا تلقى ضربة من عصا المشي التي يستعملها الفتى، وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره بعد، بعنجهية تليق بـ«مارسيل بروست».

لم يُدوِّن الحكاية التالية، لكنني سمعته يسرد مرارًا كيف جاءت أمه إلى ورشة الخياطة بعد شهرين وأخذته من هناك. ظهرت في وسط الصالة فجأة، فارتبك «أوربواين» الخجول، الذي رأى أنه يتعرض لما يكفي من العقوبة،

حتى يدفع ثمن صرامة أمه أيضًا. ولكن هيهات، فهي لا تتنازل حتى بإلقاء نظرة على الخياط المتفرس فيها من فوق النظارة المثبتة على أنفه. تغرس نظرها في عينَي ابنها، المتربع على إحدى طاولات التفصيل الكبيرة يحاول خياطة الأزرار على قطعة من فضلات القماش، وتقول له:

ـ هيا يا بني، لن تعمل هنا بعد اليوم، فلنذهب إلى البيت.

فيحملق الخياط من فوق نظارته في المرأة الأبيَّة من عوام الشعب، في قبقابها الخشبي، كما لو أنه اكتشف صرصورًا على الأرض، ويقول لها بالفرنسية من عليائه:

ـ «مدام»، هل لكِ أن تتصرفي بأدب...

فتقاطعه قائلة:

ـ «موسيو تومبي»، لك أن تحشر العشرة سنتيمات، التي تعطيها له في اليوم، في مكان دافئ، بكل أدب.

وتسير بخطوات واسعة، وقد أمسكت يد ابنها المصعوق وأخذت تسحبه وراءها، تخرج من الورشة وتصفق بابها.

يبدو من هذه الحكايات كلها أنه كان معجبًا بأمه إعجابًا عظيمًا. يصف شموخها المرة بعد المرة، رباطة جأشها، العقدة المهيبة في شعرها الأسود، الطريقة التي كان الناس يفسحون لها الطريق بها إذا ما رأوها قادمة، كيف تخترق كل ثرثار بعينيها الملونتين بالرمادي الفاتح، من دون أن تنبس ببنت شفة، إلى أن يجر أذياله في خجل. يسير في ذلك اليوم إلى جانبها بقلب خافق وقد ساوره شعور عظيم باسترداد حريته. إنه إنسان مطيع بطبيعته أكثر منها، ولم يتخلص من شعوره بوضاعة منزلته حيال الطبقات الاجتماعية الأرقى طوال عمره. كان كل شيء في حياته ينم عن شعوره بالخنوع وعدم الثقة بالنفس، الذي غالبًا ما كان يصطدم اصطدامًا أليمًا مع شعوره بالكبرياء التي ورثها عنها. حتى في عمر متقدم، كان إذا ما جاء طبيب العائلة لعيادته، قام قبل ساعة من وصوله بتنظيف المقبض الجرار لجرس البيت الكبير، مسكة

الباب الرئيسي، أسطوانة القذيفة العتيقة الموضوعة فوق دعامة الدرابزين، بحيث يلمع كل النحاس في داخل البيت وحوله في الضوء، على شرف وصول «السيد الدكتور»، الذي يقف أمامه في وضعية الاستعداد، عند إجراء أبسط الفحوصات، كما لو أنه واقف أمام الطبيب المتجهم الذي فحصه عام ١٩٠٨ ليرى إن كان مؤهلًا للدراسة في الكلية العسكرية.

* * *

لم يستطع قَطُّ أن يتجاوز تلك اللحظة الصادمة. في أحد المساءات، عندما كان في نحو العاشرة من عمره، استيقظ على صوت بابهم الهش وهو يطرق بقوة، وصرخة أمه، وأصوات رجال متهيجة في البيت. حبا عن سريره، ونزل درجات السلم على رؤوس أصابعه؛ رأى والده جالسًا أو بالأحرى مائلًا على كرسي هناك، في المطبخ، تحت ضوء المصباح الباهت، و«رأسه غارق في الدم والجراح» كما اعتاد أن يقول دائمًا إذا ما سرد هذه الحكاية على مسامعنا، ما جعلني أربط هذا المشهد منذ نعومة أظافري بالترتيل الكنسي المعروف لـ«باخ» عن السيد المسيح المعذَّب. كان أحد الرجال يمسك منديلًا مبللًا في يده، ويحاول أن يربِّت بحذر على حاجبه المفلوق والنازف بشدة؛ وآخر يتحدث إلى «فرانسيسكس» بكلمات مشجعة بينما يصطاد سنًّا مكسورة من بين شفتيه النازفتين؛ وقع رأس أبيه على صدره، فأسندته أمه بيديها. ولأنه اندفع إلى المطبخ وهو يصيح «بابا! بابا!»، أمسك أحد الرجال بالصبي الذي أخذ يقاوم في محاولة للإفلات من بين يديه، وطلب منه أن يعود إلى سريره؛ لكن أمه، الساندة رأس زوجها وهو يكاد يغمى عليه مرة بعد مرة، قالت إنه يستطيع أن يبقى، فقد رأى كل شيء وانتهى الأمر. لم يحر جوابًا عن أسئلته المرعبة، فقد كان الجميع مشغولًا بأبيه الجريح الذي نقلوه في تلك اللحظة إلى الكرسي الخيزراني الخاص به وأعطوه قليلًا من الماء. كان الدم قد سال إلى عنقه، وتورم أنفه، وجرى الدم على شفتيه المفلوقتين أيضًا، وحتى على سترته المخملية بنية اللون، والتصق الدم في شعره أيضًا.

الدم في كل مكان، والده، صديقه الرقيق، بطل جداريات «الفريسكو» في الكنيسة! سمع جدي جوانب من القصة بفكر مشوش، لكنه لم يستعد هدوءه إلا عندما قالت أمه للرجال إنها تستطيع التعامل مع الوضع وحدها، وذهب الرجال إلى البيت بعد التأكيد على أنهم سيعودون في اليوم التالي للاطمئنان على حال «فرانسيسكس»، وعاد والده إلى وعيه شيئًا فشيئًا وقد رُبطت عصابة حول رأسه، فهدأ روع «أوربباين» بعض الشيء وسمع حقيقة ما حدث.

كان والده قد ذهب في ذلك اليوم مع بضعة من أصدقائه القدماء إلى ما يُسمى «بوتييس ماركت»؛ مهرجان الخزف السنوي في قرية «سخيله بيله»، وفي طريق العودة ـ كانوا يذهبون إلى الأماكن كافة سيرًا على الأقدام، لذلك لم يعودوا إلى المدينة إلا عند اقتراب الغروب ـ توقفوا في حيِّهم القديم في جادة «هيرنس» ليشربوا كأسًا من البيرة. كان ذلك من الأشياء التي قلما يفعلها والده، ولكن حسنًا، فقد كان يومًا من أيام المهرجان، في أوائل الصيف، ولن يموت من شرب كأس صغيرة من البيرة. في الحانة أخذوا يغنون الأغاني، وإذا بما يسمى «الخادم» يقف عند طاولتهم، ويسألهم عما إذا كانوا يستطيعون أن يغلقوا أفواههم القبيحة. وضرب في أثناء ذلك كأس واحد منهم بيده وأوقعها عن الطاولة. لم يكن ينبغي أن يفعل ذلك، فقد كانت كأس العملاق «لويس فان دن بروكه». وقف هذا الأخير عن مجلسه بطوله كله، أمسك بخناق النادل، وسأله ماذا يريد. هتف النادل:

ـ أنا لا أتلقى أوامري منك، أيها الكاثوليكي القذر.

وحاول أن يوجه له صفعة، لكنه قبل أن يستطيع رفع ذراعه، تلقى ضربة طرحته على بوفيه الحانة. خرج متعثرًا بخطواته وهو يلعن ويشتم. طلب «لويس» كأسًا أخرى وكان هذا كل ما في الأمر. عندما خرجوا من الحانة بعد نصف ساعة، كان الظلام قد أسدل ستاره. عندما بلغوا قناة «ريت خراخت» باغتهم خمسة رجال بالهجوم، بقيادة النادل. هجم النادل نفسه على «لويس»

من الخلف. أمسك «لويس» بالرجل وقذفه في قناة «ريت خراخت» كما لو أنه دمية. عندما تسلق الرجل من القناة وهجم على «لويس» بسكين، وجه له «لويس» ضربة أخرى. في تلك الأثناء كان الآخرون ينهالون ضربًا على «فرانسيسكس»، يجلس اثنان منهم على صدره ويرفسه الآخرون أينما استطاعوا. انقض العملاق عليهم، فرَّق شملهم بالضربات والركلات، التقط قبعة النادل من الأرض، وضعها على رأسه على سبيل التذكار، ثم أخذ مع الرجلين الآخرين، اللذين كانا قد أطلقا سيقانهما للريح وعادا بعد نهاية العراك بحذر، يجرجرون «فرانسيسكس» إلى البيت وهو شبه مغمى عليه. في البيت، رأى «لويس» أن ثمة اسمًا في القبعة، فتبين أنه اسم اشتراكي بارز. حكم «قاضي السلام» على الرجل بالسجن سنة مع وقف التنفيذ ـ الأمر الذي لم يؤدِّ إلى تحسين العلاقات المتوترة أصلًا بين الكاثوليكيين والاشتراكيين.

كانت الاشتراكية بالنسبة إلى أناس من شاكلة أهل جدي لا تعني سوى تهديد، عنف، شغب، وخوف. كان اضطراب اجتماعي يسود في المدينة منذ عدة سنوات؛ يخرج «الحُمر» في بعض المساءات في مسيرات عبر أحياء الطبقة العاملة ـ يصفهم جدي بنفور واشمئزاز ـ تتعالى أصواتهم بالغناء، تنطلق الصرخات، تهاجمهم الشرطة ممتطية الخيول، تنشب اشتباكات. في إحدى المرات، جذبوا شرطيًا من فوق حصانه، وأشبعوه ضربًا. ركض جدي في قبقابه من أمام السائرين في المسيرة، فوصل إلى البيت منقطع الأنفاس، وصفق الباب وراءه. يكتب باستياء في دفتر مذكراته:

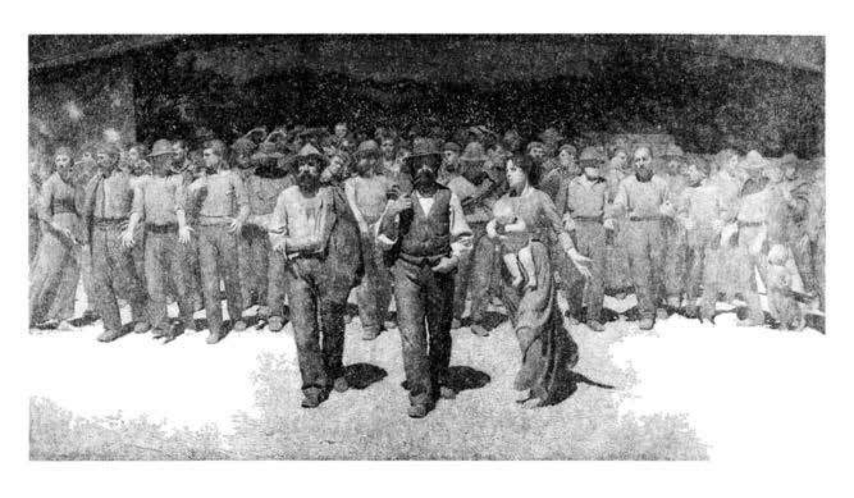
عشنا في زمن انتفاضة الهمج.

تم استدعاء الجنود المسرَّحين من الخدمة العسكرية ليحملوا السلاح من جديد ويُنهوا الإضراب الكبير في مدينتَي لالوفير وشارلوروا ويقمعوا بذلك الانتفاضة الشعبية المصاحبة له «بحد السيف». كان الناس يتحدثون عن الكارثة الكبيرة في منجم الفحم في بلدة «هونو» الوالونية، عن الظروف

اللاإنسانية التي يعمل فيها عمال المنجم هناك، عن الصيادين الذين يغرقون في نهر أوستنده، عن الأطفال المستنزَفين في مصانع النسيج الذين تُقطع أصابعهم في أثناء التقاط رؤوس خيوط الكتان من تحت آلات التمشيط، عن المشوهين من العمال في صناعة الصلب، والعُرجان الذين فقدوا القدرة على العمل وأخذوا يذوون في بيوتهم، عن الكوارث الأخرى اللانهائية التي كان العمال يتعرضون لها في ذلك الزمن. لكن أن يخرجوا في مظاهرات احتجاج، فهذا ما لم يكن ليخطر في بالهم، كانوا يشمئزون منها، وينسحبون إلى داخل حيواتهم الهادئة البسيطة.

تصل الأمور في خنت نفسها في هذا الوقت إلى اشتباكات دموية بين الاشتراكيين والشرطة. تتأجج المشاعر؛ يسقط قتلى من الطرفين. يسمعون في مساءات الصيف الطويلة «أصوات الخطباء الحُمر وهم يحرضون العمال في مجمعات العمال السكنية المغلقة، حيث يحتشد النوع الخبيث من الناس كي يفضفض عن أحقاده تجاه من يعلوه قيد أنملة في المركز والمكانة».

يظهر أحيانًا ذوو الدماء الحامية ويرعدون بأن من حقهم أن يستولوا على المال أينما وجد، وبأن لهم أن يذهبوا إلى الأغنياء أنفسهم ويطالبوهم بذلك، ولمَ لا يُضرب الحديد وهو حامٍ؟ الأمر الذي يجعل قلب جدي ذي العشر سنوات ينقبض من الخوف: عما قليل سوف يغضب كل أولئك الوِسام من السادة والسيدات ولن يعود عند أبيه وأمه عمل. هكذا، أرست نبرة العقيدة الكاثوليكية السائدة في تلك الأيام قواعدها في عائلته: الحُمر أناس حُسَّاد، عوام لا يعرفون حدودهم ولا مكانهم في هذا العالم، يسكرون حد العربدة، يجعرون ويثيرون الشغب عوضًا عن أن يكونوا على رأس عملهم بخضوع. يبدو أن القصد من المظاهرات الأولى بث مزيد من الرعب في كيان العمال الصغار الخائفين: كل مسيرة «يتقدمها صفان من العناتر ذوي العضلات المفتولة، كل صف مكون من اثني عشر عنترًا، يمسحون الشوارع من قوارعها حتى أرصفتها. كل عائلة تريد العيش في هدوء تغلق بابها على نفسها».



تدلي الكنيسة أيضًا بدلوها في الموضوع كي تعرقل أي احتمال للتفاهم بأسرع وقت ممكن: النزاعات من هذا النوع تغذي ماكينات الدعاية للطرفين بشكل جيد، الزمجرة التي تتعالى من منابر الوعظ لا تقل تصعيدًا عما يحدث في الشوارع. في أيام الآحاد يخطب راعي الأبرشية «فاندرمالن» قائلًا إن الزناديق الكفار يريدون، «أعزائي المؤمنين»، قتل المسيحيين من جديد وإلقاءهم إلى الأسود، مثلما فعلوا في زمن الرومان. على الرغم من أن جدي كان صبيًّا ينتمي إلى عامة الشعب، وبقي طوال حياته فخورًا بانتمائه بطريقة أو بأخرى، فإنه لم يكن يتحدث عن «الزمرة الحمراء» إلا باشمئزاز؛ عدو خطير، يتهمهم بأنهم لا يعرفون التحضر، ولا يحترمون الله ولا وصاياه، وليس لديهم إحساس بالعدل. يتقزز من لغتهم الخشنة، ومن تجديفهم على الله، ومن أنهم لا يستعملون أكثر من ثلاثمائة كلمة طوال عمرهم، وينتهكون حرمات الأماكن بالنزاعات والشتائم، ويبددون رواتبهم على الشرب في الحانات ما إن يستلموها باليد، عوضًا عن أن يذهبوا بها إلى البيت بدافع الوفاء، كما يفعل والده، ويعطوها لعائلاتهم:

> كانوا يهتفون «فليسقط الطغاة»، لكنهم في الوقت نفسه يتصرفون مثل الحيوانات، ويشمتون بمصائب الآخرين بهمة لم تعرف الفتور قَطُّ.

يُدوِّن في مذكراته بمرارة أن أعضاء مجالس بلدية، وأعضاء برلمان، ووزراء، يُعيَّنون من بينهم في زمن لاحق، ولكن هؤلاء النواب الجدد الذين انتخبهم الشعب لا يكادون يفكُّون الحرف، فيضطرون إلى طلب المساعدة من أولئك الناس أنفسهم الذين كانوا يلعنونهم في البداية. كان الانشقاق، الذي أحدثته الكنيسة في صفوف العمال من الشعب، يتعمق ويزداد عند حدوث مثل هذه الأمور، ولكن كل ما استطاع جدي أن يراه وهو طفل صغير، كان أباه طريح الفراش برأسه المتورم والمعصَّب بالشاش. وقسا قلبه الفتي على من أسماهم فيما بعد «أعداء النظام والقانون».

في سنوات الخمسينيات تظهر هذه الصدمة على شكل هلوسة تستمر فترة من الزمن. يتحدث طوال الوقت عن ميكروفونات ركَّبها الاشتراكيون في بيته بهدف التنصت عليه، وعندما يخبر كل من يريد الاستماع إليه أنهم طلبوا منه أن يصبح وزيرًا عن الحزب الديمقراطي المسيحي، لكن الحُمر يتنصتون عليه في عقر داره، يحين الوقت لتدخُّل الطبيب المعالج. يُدخل إلى مركز «سلايدنغه» للصحة النفسية، ويتلقى خمس صدمات كهربائية كعلاج. يعود إلى البيت محطم المعنويات، تمضي أسابيع طويلة لا يتحدث فيها مع أحد، يجلس باكيًا في الدفيئة تحت الدوالي الصغيرة الخضراء. تطفو الذكرى إلى السطح بين الحين والآخر، يضرب بقبضتيه على الطاولة، ينفجر غاضبًا على «الرعاع» من الحارات الشعبية ـ مع أنه هو نفسه ينحدر من تلك الحارات ـ يشتم أبناء الطبقة البروليتارية ويصفهم بـ«الأوباش» و«العرابدة»، فيرى أهل بيته أنه من الأفضل، لإحلال السلام المنشود، أن يبعدوا الجرائد كافة عن متناول يده، ويجنِّبوه الاستماع إلى الأخبار في الراديو قدر المستطاع.

مع نشوب الخلافات حول موقف الملك «ليوبولد الثالث» عام ١٩٥١، ومتابعة الأخبار يوميًّا على التلفزيون في وقت لاحق في الستينيات، تُنكأ جراحه القديمة مرة تلو المرة. يبدو أن الصراعات بين الاشتراكيين

والكاثوليكيين تسير هذه المرة جنبًا إلى جنب مع الصراع بين الوالونيين والفلامنديين، الأمر الذي يذكره بالإهانات التي تعرض لها في الكلية العسكرية. يسمع أن الشيوعيين الروس حطموا الأيقونات القديمة في الكنائس، فقأوا عيون القديسين، وقتلوا قساوسة. يُخيل إليه في كل مرة كما لو أنهم يريدون قتل والده الميت في قبره، أجل، حتى إنهم يريدون تحطيم لوحاته الجدارية إذا ما سنحت لهم الفرصة؛ إنه انتهاك للمقدسات، لا أكثر ولا أقل. يطيش رشده للمرة الثانية، يهذي، ويُدخل إلى المصحة النفسية مرة أخرى. يتلقى صدمات كهربائية من جديد.

عن السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، ليست هناك شهادات مباشرة منه هو نفسه، إذ إنه يسكت عن كل ما هو مهم في واقع الأمر؛ ما بقي هو قطع أحجية غامضة، مشكوك في صحتها، حكايات وذكريات متنوعة سردتها عمَّاتي، وأولادهن، ووالداي. ظل الألم الذي عاناه من كل هذه الأمور متقدًا، وظهر عندما وبخني، وأنا تحت تأثير الفكر اليساري في أثناء دراستي الجامعية، بأنني أرمي كل ما فعله والداي من أجلي وراء ظهري. بالنسبة إليه، فقد حطمت للمرة الثانية ذكرى من الذكريات العزيزة على نفسه.

ليس عبثًا ـ هذا ما خطر في بالي لاحقًا ـ أنه وُلد في السنة التي ظهر فيها المنشور البابوي ذائع الصيت «ريروم نوفاروم»، وهو بيان أصدره البابا «ليون الثالث عشر» عن «الأمور الجديدة» في الكاثوليكية، التي أصبحت ذات توجهات اجتماعية بين عشية وضحاها، بعد أن كانت داعمة للنبلاء والأرستقراطيين على مدى قرون طويلة، في محاولة من الكنيسة لقطع الطريق أمام صعود النقابات الاشتراكية، وذلك باستنساخ المطالب الاشتراكية مع إضافة تعاليم عن الأخلاق والطاعة إليها، تتسم بالنوع نفسه من الصرامة الذي تسبب في إحداث مجافاة بين جدي وغير المؤمنين من أبناء جلدته.

* * *

يقف أمام خزانة الحلاقة المدهونة بالأبيض الخاصة بوالده في الحجرة الصغيرة المحاذية للمطبخ. يحاول لأول مرة في حياته أن يحلق الزغب النامي على خديه. ينظر في المرآة الصغيرة الملطخة بنقط سوداء، فيرى شابًّا مكتنز الجسم متين الهيئة، بشعر كثيف منتفض، وعينين زرقاوين متقدتين، وتلوح هنا وهناك بثرة كبيرة بين الزغب الأشقر على فكيه. يقف وفي يده موسى حلاقة مستطيل الشكل، شحذه بحرص في بادئ الأمر، كما فعل أبوه أمامه، على شريط من الجلد، علقه بإبزيم على مقبض الباب كي يتمكن من إحكام شدِّه. إنه يناهز الخامسة عشرة من عمره، لكنه سيبقى قصير القامة. سيظل يدَّعي حتى آخر يوم في حياته أن طوله لم يكتمل بسبب الأوزان الثقيلة التي حملها في معمل صب الحديد عندما كان صبيًا في الرابعة عشرة من العمر. يأخذ فرشاة الحلاقة، يغمسها في الزبدية الكبيرة المحتوية على ماء الصابون الفاتر، ويفركها على خده الأيمن. يكشط الزغب عن خده على نحو أخرق، ماسكًا الموسى في يده الضخمة ذات الأظافر المؤطرة بالسواد. يبدو وكأن حيوانًا مجهولًا يوقظ شيئًا في كيانه، شيئًا لا يزال غافيًا ويبدأ فتح عينيه في خمول، وقد أُزعج في سباته الطفولي؛ حلم لا يزال واهيًا ودافئًا، مثل أول نسيم صيفي في شهر مايو، يعبر جسده المرتعش، هناك في تلك الحجرة الباردة المحاذية للمطبخ، دفءٌ ينتشر من فمه حتى أذنه ويجرحه، يلدغه، فيصبح على وعي بجسده مرهف الإحساس. يشعر كيف أن ذاك يحمو ويقسو في بنطاله. يمسح الصابون عن خده، يربِّت على بشرته الملتهبة بحجر الشب ذي اللون الأبيض المائل إلى الزرقة، الجاهز على الرف الخشبي الخشن، يفرد الصابون على خده الآخر، يشد جلده بيده اليسرى مثلما شاهد والده يفعل ذات مرة. في تلك اللحظة، وبينما تغطي رغوة الصابون البيضاء أحد خديه، يرى وجه والدته وراءه في المرآة. تحدق في ابنها وقد انبهرت أنفاسها وانجلى بريق في عينيها الشاحبتين، تلاحظ أنه رآها في المرآة. تلتقي نظراتهما. يقف والموسى أمام وجهه وينظر في

عينيها. يرى كيف أن التعبير المنجلي في عينيها يلين، يتحول إلى نوع من الضحك لا تحرك معه عضلة ساكنة، تتغير نظرتها فحسب، مثل نفحة ضياء تلوح بين غيمة رقيقة لحظة قصيرة، نفحة ما إن تنجلي حتى تنزلق وتختفي قبل أن تراها بوضوح وبشكل جيد. لقد انسحبت من الحجرة، وأغلقت الباب بهدوء.

* * *

تشرف امرأة شابة على الموت في المنزل المحاذي. إنها تكابد المرض منذ شهور عديدة، تشتكي ألمًا في ظهرها، وفي بطنها. لديها أربعة أولاد تعوزهم العناية. يسكر زوجها، «هنري» الجلف، الذي يمتهن النجارة، ويبقى خارج البيت حتى وقت متأخر من المساء. تبلغ المرأة الشابة، «إميلي»، الخامسة والثلاثين من العمر. تقف في مطبخها هزيلة وشاحبة؛ تدق على الجدار الرقيق في طلب النجدة؛ تصرخ من الألم وتتمنى أن تموت. تأخذ «سيلين» طفلتها الرضيعة من حضنها، الطفلة التي ولدت قبل الأوان واسمها «هيلينا». ترضعها من صدرها، لأنها لا تزال ترضع ابنتها الصغرى «ميلاني». لم يكن إرضاع الأطفال لسنوات طويلة من الأمور الاستثنائية، إذ إن إرضاعهم يوفر إطعام فاه من الأفواه. تتدهور صحة الجارة سريعًا في الأسابيع التالية. حينما تأخذ لها «سيلين» شيئًا من الطعام، تكاد تفرغه من معدتها في الحال. تصرخ من الألم عندما يريد أحد مداواة التورم في خاصرتها. لعلها ماتت من جراء ما لم يتم تشخيصه من ورم خبيث في عضو من أعضائها الداخلية، حسبما أستطيع استخلاصه من حكاية جدي عنها، فقد ظهرت دُمَّلة سوداء على بطنها عند موتها.

يأتي زوجها «هنري» بأولاده الآخرين إلى بيت «سيلين»، لا يعرف ماذا يفعل بهم. لا بد أن ذلك يشكل حملًا إضافيًا يثقل كاهلها: أولادها الخمسة، بالإضافة إلى الأولاد الأربعة من البيت المحاذي. تستنزف قواها فعلًا بعد مضي عدة أسابيع. لا يتحمل «فرانسيسكس» رؤية زوجته وهي تنهار، فيدخل

بيت «هنري» السكير المنطرح في كرسيه ـ ليس للبيوت عتبات ولا تقفل الأبواب في الحارات على الإطلاق ـ ويطلب منه أن يضع أولاده في إحدى الجمعيات الخيرية المتوافرة في المدينة. يفعل ذلك على مضض، وينتقل هو نفسه من الحارة بعد مضي فترة من الزمن. يصطحب معه ابنه الأكبر، أما ابنته الكبرى «ليوني» فتأتي إلى «سيلين» مرتين في الأسبوع للعمل معها في تصليح الملابس، فتكسب من هذا العمل بعضًا من النقود. هكذا يصبح لدى جدي أربعة إخوة غير أشقاء، ما يعني أن يطعم والداه الفقيران تسعة أفواه في أثناء العُطلات. لم يكن يتحدث عنهم كثيرًا، ما عدا أن الابن الأكبر، المدعو «يوريس»، استطاع الالتحاق بالمدرسة الإعدادية بعد انقضاء بضع سنوات، بمساعدة مالية من إحدى المنظمات المسيحية، الأمر الذي كان يحسده عليه قليلًا في سرِّه. أصبح «يوريس» شابًّا متشكيًا بعض الشيء، عاشقًا في كل الأوقات، يحب الفتيات لكنه لا يجرؤ على التقرب منهن، أرعن وصعب الإرضاء، ينتقد دائمًا هذا أو ذاك، لكنهما لا يزالان يتمشيان أحيانًا، أحيانًا نادرة جدًّا، قرب محطة «زاود»، ويستعيدان ذكريات أيام النعيم الماضية، عندما كانا يهيمان معًا في أوقات الظهيرة من أيام الآحاد في شوارع المدينة الآمنة. سوف يلتقي أحدهما الآخر للمرة الأخيرة في ضوضاء لندن الصاخبة في مارس ١٩١٥. أحدهما، جدي، عائدًا من فترة نقاهته الأولى بطلًا من أبطال الحرب؛ الآخر، أخوه غير الشقيق، المتعلم، محط إعجابه، هاربًا من الحرب بعد وفاة زوجته المصابة بفقر الدم، وسوف يلقى حتفه عبثًا في مكان قريب من لندن.

يكتب «أوربين» في سن الشيخوخة بخط يده الجميل المرتعش:

> كان الطالب المثقف صديقي. كنت لا أزال معجبًا به أيما إعجاب، مثل السابق، لم أكترث إن كان مريضًا أو في أوج صحته، كان أملي في حياة أفضل.

* * *

وقف «فرانسيسكس» شهورًا عديدة على سقالات صنعها بنفسه، في الكنيسة الصغيرة في المدرسة الداخلية للبنات التابعة لـ«جمعية بنات المحبة لمار منصور دي بول». بيَّض الجدران بماء الكلس، دهن زخارف الأعمدة بطبقة رقيقة ذهبية اللون بحرص وعناية، رمم المشاهد القديمة من الكتاب المقدس ورسم حتى عدة مشاهد إضافية. حصل على الموافقة بأن يستأنس في مكتبة المدرسة بالكتب المحتوية على النقوش والصور التي تجسد شخصيات الكتاب المقدس. رسم رسومات أولية على الورق، تمرَّن على رسم الأيدي بكل الوضعيات الممكنة. رسم أيضًا رؤوسًا لا تُحصى ـ رؤوسًا منحنية، مستمعة أو ناظرة، وجوهًا محدقة في طفل، في أفعى ميتة، أو في كافر في النار، وجوهًا ينبغي أن تكون كتومة ومتأملة. يستخلص أن الرسامين العظماء يمكن أن يُعرفوا من التعبير الذي يرسمونه في عيون شخصياتهم، فيعمل قصارى جهده كي يقارب هذا التأثير: كيف لك أن ترسم نظرة الشخص الذكي؟ أي الخطوط يجب أن ترسمها لتحقيق ذلك؟ غالبًا ما يعمل بقطعة فحم يمسكها بين فكَّي ملقاط معدني صغير؛ على الطرف الآخر من الملقاط ثمة ممحاة متناهية الصغر، يرسم بها الأجزاء ذات اللون الفاتح بمحي الأسطح المرسومة في تدرج. يقول لابنه:

ـ انظر، أستطيع أن أرسم عن طريق المحي.

إنها تقنية المحي التي يعلمني إياها جدي في زمن لاحق عندما نذهب معًا إلى الحدائق العامة والجنائن وننهمك في الرسم.

اشترى «فرانسيسكس» كل الأدوات اللازمة، أرسل الصبي الذي وُضع في خدمته ليأتيه بالصبغ باهظة الثمن. أخذ يزن، يجرِّب، يغربل، يمزج، يرقق وينقِّي حتى حصل على المزيج الصحيح. جرَّب الألوان على بضع لوحات صغيرة صنعها لهذا الغرض، وراح يقارن، ويتأمل، ويبدأ من جديد. أثلجت السماء، حلَّ الصقيع وذاب، أمطر الجو، هبت

الرياح، وجاء الطقس الدافئ، و«فرانسيسكس» مزروع على سقالاته يومًا بعد يوم، طوال هذا الوقت. رسم وهو مستلقٍ على ظهره رسمة على السقف؛ خليط من غيوم وألبسة متطايرة، من أشرطة زينة ملونة ووجوه مبهمة، «عيد إلهي» يذكِّره بموسيقى سماوية، موسيقى الأفلاك، موسيقى في خياله، موسيقى في يديه المتشنجتين الباردتين، موسيقى الخط، الحف، المسح، التسوية، الطي، حزم الضوء والشعر، موسيقى الحيوانات الأسطورية الواقفة حول الحدث أو المستلقية حوله: كلب صغير بخطم ذي لون بني فاتح، رافعًا عينيه إلى قديس؛ أيل هارب ذو قرون رقيقة رهيفة أمام شجرة توت، يبدو كما لو أنه لا يلامس الأرض حتى، كما لو أنه متحول إلى الحصان الرباني ذي القرن الواحد في خرافته بالغة الجمال. موسيقى الزمان، موسيقى الألوان والظلال، موسيقى من دون صوت، فقط نغمة تهمهم في البُعد، متناهية من دبيب المدينة حول الكنيسة الصغيرة الهادئة، التي يعيش فيها في خلوة مع أفكاره وأحلامه. تمضي أسابيع متتالية يعود فيها إلى البيت بظهر متيبس من الوقوف منحنيًا إلى الوراء في أثناء الرسم، أيام يتقاطر فيها الدهان على لحيته ويتخثر بينها في كتل مؤلمة، ينقط على فمه أيضًا في بعض الأحيان، فيضطر أن يبصق الدهان المر من فمه ـ ما جعله يفكر في تخفيف كثافة الدهان بلعابه، الأمر الذي أعطى تأثيرًا رائعًا حقًّا هنا وهناك، خاصة في عباءة السيدة العذراء ذات اللون السماوي التي تتمنى، والحق يقال، أن تأخذها عن كتفيها وتلفها حول كتفَي زوجتك.

أنهى العمل أخيرًا بعد شهور عديدة، وعرضه بفخر متواضع أمام عينَي رئيس الدير الفظ، الذي دعا رئيس أحد الأديرة المجاورة للحضور بهذه المناسبة. يعاينان العمل، يبدو عليهما الرضا، لكنهما لا يحاولان إظهاره كثيرًا ـ يجب ألا تضخم رأس إنسان بسيط بإغداق الثناء عليه وإلا خرج عن الطاعة. تبدي راهبات دير «مار منصور دي بول» الطيبات تحفظًا أقل.

يدرن عيونهن إلى السماء، وقد أملن رؤوسهن إلى الوراء مثل القديسة «تريزا» في نشوتها للنحات «جان لورينزو برنيني»، يقفن إلى جانب رسام الكنائس المرتبك «فرانسيسكس» ويُخجلن تواضعه بإطرائهن الرنان وعيونهن المبجِّلة. تسمع المنظمات المسيحية في المدينة بقصة النجاح الذي حققه الرسام البسيط القادر على إنجاز مثل هذه الأشياء الخارقة. يستدعيه «الأب» مدير «ملجأ الصم والبكم» للحضور، ويكلفه بمهمة جديدة على الفور.

ـ «فرانسيسكس»، لديَّ خبر جيد لك.

ـ نعم، يا أبانا المبجَّل.

ـ بوسعك أن تذهب للعمل سنة واحدة في ليفربول، إنه مشروع كبير في أحد الملاجئ.

ـ أين تقع ليفربول، لو تكرمت، يا أبانا المبجَّل.

ـ في إنجلترا يا «فرانس»، سوف تراها.

ـ لكنني، يا أبانا المبجَّل، لا أستطيع أن أترك زوجتي وأولادي ورائي.

ـ سيدفعون لك جيدًا يا «فرانس»، وتستطيع كل شهر أن ترسل لأسرتك من المال ما يزيد على ما تكسبه هنا في ستة أشهر. أمهلك ثمانية أيام للتفكير بالموضوع، شاور زوجتك. سيرافقك نجار خبير ومترجم. هيا! إنها الساعة الثانية عشرة، اذهب في وقت أبكر إلى بيتك، إلى أسرتك.

ـ نعم يا أبانا المبجَّل. شكرًا، «ميرسي» يا أبانا المبجَّل.

عندما يظهر في الثانية عشرة والنصف في المطبخ فجأة، تكاد «سيلين» تموت من الرعب:

ـ ما الأمر؟ لماذا عدت في هذه الساعة؟ هل حدث شيء للأولاد؟

يأخذها بين ذراعيه، يهدئ من روعها، يخبرها بما سمعه قبل قليل.

ـ أنت فقدت صوابك يا «فرانس»، هناك لا يوجد سوى الضباب والهواء الملوث من المصانع، هذا لن يناسبك بسبب الربو الذي تعانيه.

ـ لا، اطمئني، يقول المدير إنه مكان كبير، حديقة أستطيع أن أتمشى فيها، ولن أعمل أكثر من ثماني ساعات في اليوم. ستتحسن صحتي هناك، سوف ترين.

يشحب وجه «سيلين» وترتعش شفتها السفلى. لا تدري كيف تتصرف؛ تلتفت إلى الوراء، تستقيم بظهرها، تسير إلى الطرف الآخر من المطبخ، تنحني، تأخذ مغرفة من الفحم، تمسك الخُطاف الصغير لترفع غطاء الموقد، وتلقي الفحم في الفتحة المتوهجة. تتطاير سحابة من شرارات ناعمة صوب وجهها فتغمض عينيها نصف إغماضة. يرى «فرانس» فجأة أن فيها شيئًا من شيطانة، شيطانة جميلة جذابة، في هذا الضوء المتقد المنعكس في عينيها الشاحبتين، ويعتريه شيء من الخوف مما هو قادم.

ـ لا بأس يا «فرانس»، لا بأس.

لا يعودان إلى الحديث في ذلك المساء.

تجلس «سيلين» في الأسابيع التالية يومًا بعد يوم إلى ماكينة الخياطة. تخيط له ثلاثة بناطيل للعمل، ثلاث سترات من الكتان الخشن باللون الرمادي الداكن، بدلة من أجل أيام الأسبوع، وبدلة من أجل أيام الآحاد. تذهب معه ذات سبت وتشتري حقيبة سفر كبيرة، من محل قريب من ساحة «سانت ياكوب».

ـ هل ستبقى مخلصًا لي يا «فرانس»؟

ـ آه يا مجنونة. تعالي هنا.

يأخذها بين ذراعيه، يداعبها على ظهرها، هكذا في وسط الشارع، على مرأى من الناس الذين لا شك في أنهم سيعيبون عليهما هذا الفعل.

تمضي أيام متتالية من الأسبوع التالي وهما يذهبان لزيارة عائلته وعائلتها. لا تنتهي الأسئلة الحمقاء والدعابات الساخرة. يتبادل نظرة هادئة مع «سيلين». يبدو كما لو أنهما خلقا نوعًا مغايرًا تمامًا من التفاهم خلال الأسابيع الماضية، شيئًا أعظم وفي الوقت نفسه أرهف، لكنه أيضًا يبث الرعب في قلبيهما إذا

ما نظر أحدهما إلى الآخر. يستلقي أحدهما بجانب الآخر في المساء، لا ينبس أي منهما ببنت شفة. يداعبها في الظلام، يحس بأن أحد خديها مبلل. يقول فيما بينه وبين نفسه: «حتى في السرير تحافظ على استقامة ظهرها، عما قليل ستنكسر مثل عود جاف». يداعبها من جديد، تقول:

ـ لا بأس يا «فرانس»، لا أريد أن أنجب طفلًا آخر وأنت في إنجلترا.

هكذا يبقى كل منهما مستلقيًا على ظهره إلى جانب الآخر مفعمًا بالرغبة، يحدق في الظلام، يستمع إلى أنفاس الآخر المنتظمة، يكبت رغبته إلى أن يطلع نور الصباح. في النهار تجلس واضعة يديها في حضنها ولا تسمع شيئًا من الأحاديث الدائرة حولها. ترى نفسها وحيدة في السرير الكبير، فترتجف بالفعل، تتخيل الظلام القذر الخبيث البارد، تدير نفسها على الجنب، وتطبق عينيها.

تقدم له هدية في اليوم الذي يسبق يوم السفر: موسى حلاقة، قطعة من صابون حلاقة، شريط من الجلد لشحذ الموسى، كتلة من حجر الشب، وحقيبة من القماش ليضع فيها أدوات العناية الشخصية البسيطة هذه.

ـ ولكن يا عزيزتي «سيلين»، ما كان ينبغي أن تفعلي هذا.

ـ لا تضيِّعها يا «فرانس»، أنت تعلم أنني أؤمن بالخرافات.

* * *

يصعب على جدي أن يودع أباه؛ يتذكر ذلك اليوم، كما لو أنه أمس، عندما جلس هذا «الإنسان هزيل البنية، رقيق الطبع» قبالة أمه في الحنطور المتأرجح المظلم، الذي يتسرب إليه ضوء بسيط فحسب عبر شق صغير، يضفي على وجهَي الزوجين الصامتين قتامة وحميمية، كما لو أنهما شخصان في لوحة من لوحات «جورج دي لاتور». تمطر السماء في قرية «زبي بروخه»، لا يبكي، ولا تبكي أمه أيضًا، لكنه يشعر بأنه يفقد شيئًا إلى الأبد. يودع بعضهم بعضًا في مكان عالٍ على جانب طريق عشبي، تحت رواق حيث يجلد المطر وجوههم بغزارة أكبر، تحت غيوم من الدخان

والشحار التي تطلقها القاطرة البخارية، ثم يراقبان القامة المنحنية وهي تجرجر حقيبتها إلى داخل القطار. على طريق العودة الطويل، وبينما تقرقع العجلات على الطرقات الحجرية اللانهائية، تضع أمه يدها على ذراعه وتقول:

ـ الآن أنت رجل البيت يا فتايَ الكبير.

يكتب:

لقد حدث فراغ كبير في أسرتنا.

أصبحت الدقات الرتيبة اللانهائية المنبعثة من ساعة الوقواق، التي تلقاها أبوه هدية من أحد أبناء عمومته في أحد الأيام، والتي رفع أثقالها النحاسية بحرص كل مساء، تملأ أيامهم، تمضي بالوقت الذي يجب أن يجرجروا أنفسهم عبره، تمضي بالصباحات العسيرة التي تنتظر فيها أمه رسالة ولا تبطئ خطوات ساعي البريد أمام بابهم. وكانت إذا ما أبطأت خطواته، قفزت عن مجلسها، التقطت الرسالة من الأرض خلف الباب، وذهبت بها إلى غرفة الجلوس المظلمة، التي لا يضيئها سوى مصباح زيتي صغير، وجلست تقرأها وحدها، في حين يغادر أولادها إلى المدرسة. يدق قلبها في حنجرتها. تتدلى خصلة مرسَلة من شعرها أمام وجهها وهي تقرأ الخرابيش التي كتبها زوجها على نحو أخرق:

> لا تزال الليلة طويلة أمامي، وأنا جالس هنا وحدي تمامًا. أبذل جهدًا كبيرًا في إيجاد الكلمات المناسبة، سامحيني. أكتب رسالتي لكِ بقلم الرصاص أولًا ثم أنقلها إلى الورق، في المرة الثانية أجد صياغات أفضل كي أخبركِ بما أفعله هنا. أبدأ اليوم بالعناية بنفسي ثم ألبس ملابس أنيقة، كما لو أنني ذاهب لزيارة شخص رفيع المقام، وألبس تلك السترة الجميلة التي خيطتها لي. أقيم هنا ليس بعيدًا عن الكنيسة التي يجب أن أرسم فيها. إنه مكان بارد وخاوٍ، لكنني آمل أن أجعل منه شيئًا راقيًا. عندما يكون الطقس سيئًا، أصلي لكِ «الصلاة الربانية» هناك. كل ليلة أذهب في التاسعة والنصف إلى السرير وأفكر فيكِ.

أرى على جهة الغرب البحر الكئيب دائمًا وأبدًا، يلوح من بعيد.
بارككِ الربّ وحفظكِ يا «سيلين»، أنتِ والأولاد أيضًا.

* * *

يزداد تقرُّبًا إلى أمه. هناك ذكرى عن عاصفة رعدية في الصيف تبقى على هيئة مشهد يصور حياتهما معًا. بينما يرقد الأولاد الصغار في أسرَّتهم، ويخبر أمه في الفناء الصغير عن ملاهي «الهرج والمرج» التي يرتادها رفاقه في معمل صب الحديد بعد نهاية الدوام، وتسأله أمه في مزاح عما إذا كان هو أيضًا ينظر إلى البنات، وإذ ببرق يومض في الجو القاتم الدافئ، من دون سابق إنذار، يعقبه رعد يصم الآذان بعد بضع ثوانٍ، تمامًا في اللحظة التي يقسم لها إنه لا يفعل ذلك ولن يفعل ذلك أبدًا، لأنه لا يريد أن يرى أحدًا سواها، فيضيع المعنى العاطفي الذي تنطوي عليه كلماته في الضوضاء المفاجئة. ترفرف حمامات الغابة هابطة من فوق رؤوس الحور الأبيض المتأرجحة ذات اليمين وذات الشمال في زقاق ما خلف البيت. في حين يركضان إلى داخل البيت، ينهمر المطر بغزارة على السطح، الفناء، الشارع، عالمهما المُغلق الذي يُضاء في لمعان خيالي. في فسحة السلم، في اللحظة التي تهم فيها «سيلين» بالذهاب إلى الصغار الذين استيقظوا من النوم في رعب، لتهدئ من روعهم، تنفتح نافذة بعنف كبير، يخبطها إطارها في وسط وجهها بينما يتدفق المطر إلى الداخل. تترنح لحظة، تستعيد توازنها، تجري المياه فوق درجات السلم. يرى الدم على جبينها في ومضات البرق، يدفع أحدهما مع الآخر النافذة لإغلاقها، لكن القفل مكسور. يطلب منها أن تبقي النافذة مغلقة أمام الريح الهائجة وسيول المياه المتدفقة، ينزل السلم مهرولًا ويبحث عن إسفين بين الحطب كي يدقه في فرزة النافذة. يصعد السلم من جديد قافزًا ثلاث درجات في كل خطوة، يدق الوتد الخشبي في الشق، بينما تعوي الريح فوق البيت ويقرقع القرميد المنقلع من السطح في الليل.

يقفان هناك أحدهما مع الآخر، مبللًا بمياه المطر حتى جلده، في بيتهما الهش. تضم «سيلين» ابنها إلى حضنها.

يكتب الرجل السبعيني:

> بينما تشدني أمي الجميلة إلى صدرها على هذا النحو، غمرتني عاطفة عظيمة، وأخذ قلبي يخفق بشدة؛ كنت أفتقد أبي كثيرًا، رأيت الدم على جبين أمي، مسحته عنه ووجدت نفسي أنشج بالبكاء؛ ليس هناك ما يؤثر في صبي أكثر من رؤية أمه القوية بضعف فتاة صغيرة ورؤيتها تكابد الألم. ضحكت أمي بحنان وقالت: «أنت رقيق الإحساس مثل أبيك تمامًا، إنه مجرد خدش بسيط، يا ابني الأبله»، وتخللت بأصابعها شعري المبلل بالمطر. والآن وأنا أكتب هذه السطور أجد نفسي أنشج بالبكاء مرة أخرى عندما أتخيل أمي في ومضات البرق الزرقاء في تلك الليلة، واقفة أمامي على مدى لحظة طويلة من دون أن تحرك ساكنًا، مثل صورة قديمة وجميلة.

والآن وأنا أقرأ هذه السطور، يحضرني فجأة ما قاله لي ذات يوم: حاولت أن أرسم أمي من ذاكرتي مرات عديدة، لكنني لم أوفق في ذلك قَطُّ، لم أستطع أن أضبط تعبير وجهها بدقة كافية، مزقت اللوحة في آخر مرة، ورميتها في الموقد «اللوفاني». من ناحية أخرى، رسم لوحة «مادونا على الكرسي» للرسام «رافائيل» خمس مرات على الأقل، وأصبحت نظرة الطفل اللائذ بذراعَي أمه أقل وضوحًا في كل مرة.

* * *

في زمن سابق، كان قد ذهب مع صديق من معمل صب الحديد لزيارة ابن عمه الأكبر. كان ابن عم صديقه يعمل في معمل الجيلاتين القديم. وقد قال له:

ـ ينبغي لك أن تأتي ذات مرة لترى كيف نصنعه، لن تنسى ذلك ما حييت.

هكذا يمما وجهيهما صوب المعمل في وقت فراغ ما بعد ظهر أحد الأيام. كان ذلك في شهر أكتوبر الأزرق الذهبي، كانت أشجار الكستناء على طول

الزقاق القديم تبلغ من السكون في الجو الدافئ، كما لو أن العالم ذاته حابس أنفاسه من أجل أن يكون بمقدور الأحياء، الذين لهم عيون وأنوف وحواس، أن يحسوا بكل تفصيل من تفاصيل الجمال العابر الذي يزخر به هذا اليوم، من دون أن يفوتهم أي شيء. أخذ جدي، الذي كان يشعر بسعادة عظيمة ما إن يستطيع قضاء وقت فراغ ما بعد الظهر مع صديق، يثب وثبات جنونية، يغني أغنية عن شحرور وشحرورة، أهزوجة تنطبق على شاب وشابة، يرقص على جانب الطريق الذي تنبت عليه الأعشاب البرية الذابلة من عشبة العنزة وبقدونس البقرة، وهكذا، وبعد سباق أخير على من سيبلغ بوابة المصنع الكبيرة الصدئة أولًا، يصلان أمام حجرة الحارس، الذي ينظر إليهما من وراء الشباك المغبَّر، ويسأل ما الذي جاء بهما إلى هنا.

أجاب صديق جدي:

ـ جئنا لزيارة «ألفونس»، ابن عمي.

ـ هل ترتديان أحذية مناسبة؟

خلع جدي، الذي لم يكن على دراية بالموضوع، إحدى فردتَي قبقابه ورفعها أمام النافذة الصغيرة. غمغم الرجل بشيء غير مفهوم، ثم أومأ باتجاه المبنى الكئيب. انفتحت في تلك اللحظة البوابة الصدئة على مصراعيها، وتدحرجت عربة ضخمة إلى الخارج. أحدثت عجلاتها الخشبية المكسوة بطبقة من الحديد ضجيجًا يصم الآذان على الطريق الحجري. توجه الحصان «البرابانتي»(*) الذي يجر العربة في خط مستقيم صوبهما، فقفز كل منهما إلى جانب. كان الزبد يرغي حول اللجام، بينما ينتفض الحيوان برأسه الضخم الكئيب، وتتلألأ عيناه بشيء من هاجس صفراوي بين غِمامتَي الجلد على الطرفين. تسلل الصبيَّان إلى الداخل. انبعث الصرير من مفصلات البوابة الثقيلة، عندما أغلقها رجل يرتدي

(*) نسبة إلى مقاطعة «برابانت». (المترجمة).

سترة من الجلد ليس لها كمّان. نظر إليهما من دون أي تعبير على وجهه، وأشار إليهما أن ينصرفا من هناك.

فقط عندما استدارا شاهدا الكومة الكبيرة في الفناء الداخلي، فتجمدا مذهولَين. كانت رؤوس الحيوانات من مختلف الأنواع والأحجام مكدسة وسط الساحة الداخلية القذرة في كومة هرمية الشكل. رؤوس أحصنة، أبقار، أغنام، وخنازير تلمع في كومة لزجة آخذة في التشعث، تزحلقت من العربة للتو. يطنُّ حولها حشد من ذباب سمين، حشد كثيف وجهنمي فيبدو كما لو أنه سحابة لامعة بالأزرق تهمهم حول تلك الرؤوس. إنها رؤوس ذات عيون كبيرة مطفأة وكأنها دمامل محدقة، عيون دامية، عيون مفقوءة، نظرات ميتة، حدقات عمياء تتلوى فيها الديدان البيض، ولكن ليست تلك العيون فحسب، بل هناك عدد هائل من الأفواه، والأخطام، والأنوف التي يتقاطر منها مخاط بني اللون، كذلك الألسنة البارزة، الخياشيم الدامية، القرون المكسورة والكتل عديمة الشكل. سرعان ما انقطعت أنفاسهما من الرائحة النتنة المنبعثة منها. اقترب منها رجل يرتدي سترة رمادية مليئة بالبقع، وقفازَين سميكَين بكمين يمتدان حتى الكوعين. أمسك بضعة رؤوس في غير اكتراث، من قرونها، من آذانها أو أخطامها، غرس أصابعه في رقبة مقطوعة كي يتمكن من حملها، حشر يده في محجر عين خالٍ. ألقى ما يقارب عشرة رؤوس في عربة خشبية طويلة يتسرب منها السائل الدموي، ودفعها عبر بوابة مفتوحة إلى داخل المبنى المشيد بحجر الآجر. بقي الصبيَّان يحدقان في كومة الرؤوس العالية علو أمتار وهي تتشعث ببطء. بدا لهما وكأن الأكسجين، هذا العنصر الشفاف الذي لم يكونا حتى على دراية بوجوده من قبل، ينفر من أوعيتهما الدموية، من رئاتهما، عيونهما، وقلبيهما، ويحل محله سائل كثيف خانق سيبقى ملتصقًا بهما إلى الأبد.

من دون أن ينبسا ببنت شفة، سارا بخطى متثاقلة على الأرض القذرة صوب صالة المصنع، حيث يتصاعد مزيج من أصوات مبهمة؛ نصال

معدنية تتحرك جيئة وذهابًا، طرق يطغى على كل شيء كما لو أنه طرق أجسام بأوانٍ كبيرة، ورنين مدمدم مرتعش في مكان ما في الخلف، في ظلام ما بعد الضجيج. عندما اعتادت عيونهما الضوء الخافت، رأيا عشرات الرجال، واقفين في صف واحد إلى طاولات طويلة، يفرزون الرؤوس عليها حسب نوع الحيوان. رؤوس الأحصنة عند رؤوس الأحصنة، الأغنام عند الأغنام، الخنازير عند الخنازير، كانت أصوات طرق ودحرجة مكتومة تتصاعد من الكتل العظمية التي بدت وكأنها تلفظ مزيدًا من السوائل وهي تُقذف وتتدحرج إلى نهاية الصف الطويل، حيث يقطِّعها رجال ضخام بسواطير كبيرة إلى ثلاث قطع. كانت سترات الجزارين هؤلاء ملطخة بأوساخ تبدو من شدة سماكتها كما لو أنها منحوتة من حجر سائل من نوع ما. يلقون قطع الرؤوس في أوانٍ كبيرة موضوعة على نيران تشتعل على مستوى أدنى بنصف طابق، حيث ينهمك رجال آخرون في تزويدها بمغارف الفحم. تلمع وجوههم في الوهج الأصفر المنبعث من النيران المضطرمة في الحفر.

في هذه اللحظة فحسب يلاحظ الصبيَّان أن شيئًا ما يتحرك حول أقدامهما، ينسل، يدب جيئة وذهابًا. إنها حشود من ديدان بيضاء واقعة من الرؤوس، تزحف في طبقة سميكة على الأرض. نظرا إلى قباقيبهما المفتوحة، ثم إلى أحذية الرجال ذات الرقاب العالية. أخذا يخبطان أقدامهما على الأرض باشمئزاز، رأيا أن هذا الفعل يزيد القاذورة لزوجة، راحا يدبدبان بأقدامهما، من دون أن يجرؤا على الخطو خطوة إضافية. رآهما رجل، يفرز الرؤوس بإحدى يديه ويأكل شطيرته بيده الأخرى القذرة بكل هدوء، فأشار إليهما بالانصراف من هناك. عبر من جانبهما الرجل صاحب العربة وكاد يصطدم بهما مرة أخرى، وألقى حمولته أمام أقدامهما. تدحرج رأس ثور أسود إلى أن اصطدم بقائمة طاولة، ما لبثت أن زحفت الديدان البيض عليها مثل جيش لا يُقهر، أُرسل من عالم آخر

إلى هذا المكان كي يغطي كل شيء ويلتهم كل ما يعترض طريقه إلى أن يُجهز على الأخضر واليابس. إنه تعتيم في وضح النهار، مادة مظلمة تتمخض عن شيء يصعب تسميته، نفاية تُحول إلى نفاية، موت إلى قذارة.

عندما همَّ الصبيَّان بالخروج من المبنى، اعترض طريقهما ابن العم، الذي ضرب «أوربابن» على كتفه وهدر:

ـ شيء يستحق المشاهدة، أليس كذلك؟

بينما يوشك «أوربابن» على التقيؤ من رائحة اليد النتنة التي حطت على قميصه، أومأ بنعم، خروف وديع لم يعد قادرًا على الثغاء، ومستعد لفعل أي شيء، مقابل أن يتوقف هذا الشيء. لكنه لم يتوقف. اصطحبهما ابن العم إلى الجهة الخلفية من الصالة، حيث طغى فجأة صوت العجلات الطاحنة وأشرطة التشغيل الجلدية العملاقة الآخذة في التراقص في علو وهبوط، على طرق الرؤوس بالأواني والطقطقة الجافة ذات الوتيرة المنتظمة المنبعثة من السواطير. كانت القاذورة المطبوخة تنسكب هنا في أحواض، فتدور في دوامة مثل حمم بركانية بينما تمتصها فتحة وتبتلعها في جوفها، وما يخرج على الطرف الآخر من الفوهة القذرة الصدئة هو أساس الجيلاتين، حسبما هتف ابن العم في أذنيهما. ينسكب في براميل مدورة، سعة كل منها خمسون لترًا، تُغلق بأغطية دائرية، يثبتها بالبراغي رجال يرتدون قفازات كبيرة من الجلد.

أومأ ابن العم، الذي بدا واضحًا أنه مشرف على الصالة الكبيرة، بإيماءة عريضة من يده إلى ساحة داخلية، نمت أعشاب هزيلة بين حجارتها، وتكدست فيها جلود حيوانات في انتظار أن تدبغ في صالة أخرى على مسافة قريبة. عبرت عربة كبيرة، يجرها حصان، ملأى بالبراميل محدثة ضجيجًا. قال:

ـ هذا الشيء اللذيذ يذهب إلى شركة تصنيع، حيث يصفُّون القاذورة ويجرِّدونها من رائحتها، ويرسلونها من هناك إلى مختلف الأماكن

في عرض البلاد وطولها لتُستعمل في منتجات شتى. يوضع في الكريمات باهظة الثمن التي تدهنها السيدات الراقيات على أنوفهن وخدودهن.

ندت عنه ابتسامة ساخرة:

ـ يوضع في زجاجتك من الصمغ العربي، وفي السكاكر التي تمصها بحرص وكأنها الغذاء المقدس، يوضع في المُرَبّيات التي تعدها لك أمك، وأنت تدهنها على خبزك من دون أن تدري أي شيء. أنتما متخمان بكل ما يتقاطر من هذه الرؤوس من فضلات يا صاحبَيَّ، أنتما متخمان بهذه النتانة كلها، لكنكما لا تعلمان ذلك، لأنهم يستطيعون إزالة رائحتها الكريهة وتصفيتها وتعقيمها إلى حد ألا تعلم أن ما تمصه بفمك الصغير المستلذ هو الموت بعينه، إنها الوساخة نفسها التي تدلكها السيدات الراقيات على صدورهن الرهيفة.

تطاير الزبد من فمه:

ـ كل هذا شيء واحد ولا شيء غيره، لكن الناس لا يعلمون ذلك، وإنه لأمر حسن ألا يعلموا، وإلا توقف العالم عن الحركة.

ضحك، كاشفًا عن أسنانه الصفراء، أخذه الفواق وهو ينظر بإشفاق إلى الصبيَّين المذهولَين، وانجلى في نظرته بريق شيطاني، بريق ذكَّر جدي بجنون العنزة العبثي في فنائهم الصغير في المدينة. إنها الضحكة العبثية البلهاء نفسها، التي تظهر أمام عينيه لاحقًا، في ظروف أشد بؤسًا، عندما يحوِّم بين النوم والصحو في الوحل قارس البرودة، ويفكر بالأشياء التي رآها في ذلك اليوم ـ قذارة العالم التي امتصها على الرغم منه.

وأخذت كل الأعشاب البرية من بقدونس البقرة وعشبة العنزة، كل النباتات التي تتمايل على جانب الطريق، مثل حشد من ملائكة هائمة، تهتف لهما بأن العالم لم يبلغ هذا الحد من السوء بعد ـ كل ما يهسهس، ويتحرك، ويحيا على قارعة الطرقات في أواخر ذلك الصيف، حيث يهدل

الحمام السلحفائي هديله الرتيب فوق الحور الفضي المهفهف بهدوء، وآخر الفراشات من نوع الأدميرال وصدفة السلحفاة، والعصفور الهازج على شجرة إجاص ـ بدا وكأنهما لا يسمعان ولا يبصران، وكأنهما مسلوبان من كل الحواس. كانا يسيران بصمت جنبًا إلى جنب، وودع أحدهما الآخر بإيماءة من رأسه فحسب، حينما افترق طريقهما عند أول بيوت المدينة التي بدت متخلخلة في شمس الأصيل، ينيرها الليل الفتي بضوء مائل أصفر، كما لو أن شخصًا يضيء مصباحًا كبيرًا على العالم من أجل أن يكشف سرًّا لا يريد أحد أن يراه.

* * *

يبقى شيء يجول في خاطره في الأيام التالية. إنه منظر رؤوس الحيوانات في الساحة الداخلية القذرة. في ذاكرته، ينسكب ضوء الظهر الخفيف على كومة القبح الباهرة للأنفاس تلك، وما يراه هو ألوانها، درجاتها الطفيفة، أدق التدرجات في الضوء والظل، الرمادي والأحمر، البني الداكن والأزرق الليلي، الأحمر المائل إلى السواد من شدة الاحمرار، الأصفر الخفيف الموشك على البياض لجزء صغير من فروة سليمة بالقرب من خطم ميت. يرجع بمخيلته إلى أحد الكتب القديمة التي رأى أباه يتصفحها ذات يوم، على وجه التحديد إلى لوحة بقيت في ذاكرته حتى عندما كان صبيًّا صغيرًا: «الثور المذبوح»، للرسام المشهور «رمبرانت». وتلك اللوحة، التي ليس فيها شيء يمكن أن يوصف بالجميل في واقع الأمر، هي التي تتحول إلى مشهد زاخر بالقوة والجمال. هذا التناقض هو الذي ينخر في كيانه. بينما يحدق في فوهة النار المستعرة في معمل صب الحديد، وترقص الشرارات حوله مثل طيور النار، يتضح له شيئًا فشيئًا أن صدمة اشمئزازه من تلك الكومة من اللحم المتعفن، المنذرة بالشؤم، المليئة بنظرات ميتة، أيقظت في كيانه ما أخذ يجذبه، يؤلمه، يفتح مجالًا جديدًا في نفسه. وُلدت في كيانه لهفة تبدو أكبر منه هو نفسه. إنها اللهفة إلى الرسم بقلم الرصاص والألوان. وفي

اللحظة التي يعي فيها ذلك، وهي تمامًا اللحظة التي يمسك فيها مغرفة ثقيلة أخرى ملأى بالحديد المنصهر، يحس كما لو أن ركبتيه تخران تحته. يباغته هذا الإدراك الفجائي بقوة شديدة تنطوي في الوقت نفسه على شيء من الإحساس بالذنب. إنه الإدراك بأنه يرغب في فعل ما يفعله أبوه، ممتزجًا بالألم المرِّ الوخاز من شوقه لأبيه، من رغبته في رمي المغرفة المليئة بالنار المتوهجة على الأرض، في الحال وعلى الفور، والركض إلى مكان يتسم بالهدوء والنور، مكان شبيه بالكاتدرائيات والكنائس التي جلس فيها عند أبيه، أيامًا عديدة في سنوات طفولته، بينما يهذِّب أبوه يد ملاك، ويتسرب النور عبر الشبابيك المعشقة بالرصاص على شكل أشعة ملونة، ويبلغ من الهدوء أن أخفت حركة من حركات الفرشاة على الحائط تملأ الفضاء برمته. إنه ينبجس من داخله مثل شهقة بكاء، مثل صدمة كهربائية مؤلمة متصاعدة من قرارة نفسه، من المكان الذي أخذ فيه اللاوعي كل ما يلزمه من وقت حتى ينضج قبل أن يخرج إلى حيز النور، هناك في الضوضاء الجهنمية، ضجيج الطرق والصياح، الجر والقذف، الطقطقة والقرقعة؛ يحلم بهدوء سماوي، هناك وسط الصالة المظلمة في المشغل المتأجج بالنار المليء بالأطياف الكادحة.

ويبكي. بنتحب، بينما يضغط يديه المتألمتين على المقبض الخشبي الخشن اللعين الممتد من تلك المغرفة الملعونة الملأى بالنار، ويحاول استجماع تركيزه، الحفاظ على رباطة جأشه، فعل ما يجب فعله؛ لكنه يعرف في تلك الومضة أنه لا يريد فعل ما يجب فعله أكثر من هذا، يعرف أنه يريد أن يكون مثل أبيه الغائب. أريد أن أرسم بقلم الرصاص والألوان، هذا ما يطرق به صوت في داخل نفسه، أريد أن أرسم، أريد أن أتعلم الرسم، ويصارع مع تلك القوة الداكنة التي تزلزله وتنقِّيه. وطوال ذلك اليوم، بينما يصنِّف الحديد، بينما يأكل شطائره أو يسير على المعابر الوعرة التي يهدج عليها جميع الرجال في معمل صب الحديد بتثاقل ومشقة، مثل حمير

وأغنام مطيعة، على مدى اثنتي عشرة ساعة طويلة من العمل، طوال ذلك اليوم لا يتفوه بكلمة واحدة.

ـ أأنت مريض يا «أوربابن»؟

يهز رأسه بلا.

يتركونه وشأنه.

بينما يسير إلى البيت، في وقت متأخر للغاية مرة أخرى لأن أحد الزبائن المتطلبين أصرَّ أن تُنقل سبائكه الجاهزة إلى بيته في اليوم نفسه، يحس أنه يعرج في مشيه. كان قبقابه قد تصدَّع من شدة الحرارة، وانغرزت شظية مؤلمة في باطن قدمه اليمنى. يصل إلى البيت ولا يتفوه بكلمة واحدة. يذهب إلى غرفته، يحبو إلى سريره بصمت. يفكر في أبيه ويطلق العنان لدموعه.

* * *

يلتحق في عام ١٩٠٦ بدروس الرسم بقلم الرصاص، مع أن أباه نصحه مرارًا وتكرارًا ألا يفعل ذلك، يذهب بعد الساعات المرهقة في معمل صب الحديد، إلى المدرسة المسائية «سانت لوكاس»، ويتلقى من «الفرير بروفيسور دو ديسان»(*) دروسًا لانهائية في «سحب الخطوط، سحب الخطوط دائمًا وأبدًا»، الأمر الذي يزعجه أشد الإزعاج ويصيبه بالإحباط بعد مضي فترة من الزمن؛ هذا ليس ما يحلم به. يتذكر بشيء من الشعور بالذنب نهي والده: «افعل أي شيء تريده في حياتك، لكنني أناشدك الله ألا ترسم لا بقلم الرصاص ولا بالألوان، هأنتذا ترى الوضع الذي آلت إليه. أنت لا تعيش في فلورنسا القرن السادس عشر، لا تنسَ ذلك». لكن ما يحسم الأمر هو ذكرى الساعات التي قضاها في الكنائس مع أبيه، الذي يزداد شوقًا إليه يومًا بعد يوم. هكذا ينكب على ورق الرسم، مرتين في الأسبوع في الأشهر التالية، وقد احمرَّ وجهه وأمسك في يده الضخمة الخرقاء قلم جرافيت براه

(*) «الراهب أستاذ الرسم» بالفرنسية. (المترجمة).

بسكين الجيب الخاص به. التمارين الأولى هي خطوط مستقيمة، خطوط مائلة إلى اليمين، خطوط مائلة إلى اليسار، خطوط عمودية، خطوط متقاطعة، خطوط على مسافات مختلفة. وعندما يحرز بعض التقدم، تبدأ التمارين نفسها بقلم الفحم.

ـ «روكومانسيه، أوربابن»! أعد الرسم!

خطوط، خطوط، خطوط. يرى الخطوط عبر النوافذ، الخطوط عبر الغيوم، الخطوط في عيون رفاقه، الخطوط في أحلامه.

ينام فوق ورقة الرسم، ويحلم ببحر من حديد منصهر تتدحرج أمواجه برؤوسها المزبدة النارية على شاطئ أسود لا متناهٍ. بعد الدرس المسائي لا يكاد يبصر الصبيان الآخرين وهم يتجاذبون أطراف الحديث ويغادرون إلى مكان ما لاحتساء كأس من الشراب. يذهب إلى البيت، يرى الخطوط، يكره الخطوط. يتراجع في عمله، فقد أتلف قالب حديد مرتين في الأسابيع الماضية، وتعرض إلى التعنيف من رئيس العمال. بعد مضي فترة من الزمن يغيب عن الدروس على نحو منتظم، ويتعرض إلى التعنيف من «الفرير بروفيسور» هذه المرة، عندما يعود للالتحاق بالدرس مرة أخرى. يكظم خيبة أمله، يرقد مع أفكاره في سريره، بينما تقرقع ماكينة الخياطة في الطابق الأرضي، إذ إن أمه يجب أن تكسب مزيدًا من المال كي يكون بوسعها دفع تكاليف دروسه: أيستحق الأمر كل هذا العناء؟ أهذا كله من أجل سلسلة لانهائية من خطوط بليدة؟ كيف له أن يرمم يد ملاك في يوم من الأيام، إذا ما بقي إلى أبد الآبدين يسحب خطوطًا على قطعة ورق من نوعية رديئة؟ يتحمل ابتسامة رئيس العمال الساخرة المعتادة باستسلام وهدوء، عندما يذهب إليه ويخبره بأنه يستطيع معاودة العمل ساعات أطول في المساء. لكنه يكسب صديقًا من تلك الدروس: صبي بُترت ذراعه اليمنى إثر حادث على ماكينة نسيج، لكنه يستطيع أن يرسم بيده اليسرى أحسن منهم جميعًا. يعمل شيئًا من تلك الخطوط ـ توليفات كاملة، منوعات موزونة، اختلافات في الطول

والسمك والغلظة، خطوطًا تتدرج من البهوت الشديد حتى الدكنة الشديدة، خطوطًا لها شخصية، خطوطًا طويلة وقصيرة، جيشًا من خطوط تتحدث لغة لا يستطيع المرء سماعها ولكن لهذا السبب يستطيع رؤيتها على نحو أفضل بكثير، طبقة فوق طبقة، كما لو أنه يرى فيها فضاءات كاملة، أبعادًا ومنظورات لامتناهية. تصير حشودًا وجيوشًا، أفواجًا متقدمة إلى الأمام. تصير صروحًا قائمة في خيال الصبي وحده ذي الذراع الواحدة، سواري على طول طرقات، صفوفًا لانهائية من شبابيك في ثكنات عسكرية مرئية من جانب، مدينة مستقبلية، إنشاءات معمارية منشودة، مستوى فوق مستوى، عالمًا منظورًا تستطيع أن تتيه فيه، بينما لدى جدي تظل مجرد خطوط مستقيمة. لذلك نجح الصبي في نهاية الفصل الدراسي وانتقل إلى الصف الأعلى: رسم مربعات، مكعبات، مستطيلات، معينات، ثم أحجامًا. ومرة أخرى يعمل معجزات من تلك التمارين الحمقاء، مخازن زاخرة بصناديق محاطة بالألغاز تشتهي أن تفتحها كي ترى السر الذي ينطوي عليه هذا النوع من الرسم ـ مربعات ثم مربعات، غرف وصالات مفتوحة في نماذج مصغَّرة، مشكاوات، مربعات مقعرة ومربعات محدبة، كيف يفعل ذلك؟ بدا كما لو أن الصبي يحلق في رؤيا مرة بعد مرة، ضرب من منوعات موسيقية من الفحم والخيال، مائلًا بجذعه ميلًا خفيفًا، كما لو أنه على استعداد دائم للقفز إلى الداخل، إلى الأعماق الخفية للعالم المنهمك في رسمه. كانت قرمة ذراعه المبتورة على الجهة الأخرى من جسمه، تلك القرمة التافهة تحت ذلك الكُم المدروز بدبابيس، تتحرك معه في حركات طفيفة، ترسم نوعًا من دوائر صغيرة، من تلقاء نفسها، مدفوعة بقوة غريبة، وتبدو كما لو أنها تغذي في الخفاء الخطوط البارعة التي ترسمها اليد الأخرى، وتمدها بالمعنى والقوة بطريقة أو بأخرى. رأى جدي كم هي هزيلة تمارينه بالمقارنة مع تمارين الصبي، ولعل إعجابه به أدى إلى إحباطه وفتور همته. لكنه في الوقت نفسه بقي يتذكر العزيمة التي توسَّمها في الصبي، الذي لعله استطاع

أن يأتي بتلك التوليفات كلها، حتى من دون مساعدة «الفرير العزيز»، لأنها لم تكن حتى من الواجب المقرر، كانت شيئًا ينبثق من يده مباشرة، عالمًا من دون سبب أو علة، شيئًا يتشكل من تلقاء نفسه.

كان في بعض المساءات من أيام الجمعة يعبر بخطوات بطيئة من جانب واجهة «أوفنباوم» في ساحة «فرايدخ ماركت» ـ محل بيع أدوات الرسم يقوم حتى اليوم تحت اسم «ده خاودن بلاوم» ـ حيث تُعرض أرياش سمور، فراجير وأقلام رصاص، صناديق صغيرة وفُرش، قماش كتان، ودفاتر رسم، في الواجهة المضاءة بضوء خفيف، فيقف جدي واضعًا يديه في جيبيه، وينظر في تحسُّر إلى ذلك الجمال كله، إلى الحلم الذي لفظه مرة أخرى.

* * *

وإذ بالصبي ذي الذراع الواحدة يقف إلى جانبه في أحد الأيام:

ـ لماذا لم تعد تأتي إلى الدرس يا «أوربااين»؟

يرفع كتفيه، يلزم الصمت، ويحدق في الواجهة.

يقول الصبي:

ـ تعالَ معي، ابدأ من جديد.

يهز رأسه بعناد علامة النفي.

ولكن عندما ينصرف المبدع ذو الذراع الواحدة، يأخذ نفسًا عميقًا، يستجمع شجاعته، ويدخل المحل ويشتري من مصروفه الهزيل ـ كان يتنازل عن أجرته بشكل كامل تقريبًا لأسرته ـ دفتر رسم وبضعة أقلام رصاص جديدة.

في الأسبوع التالي، يدخل متجر الكتب الأنيق الواقع في الزاوية بين شارعَي «فولدرز» و«فيلد»، حيث تعرض كتب الفن في واجهة العرض. يتصفح بعضها، ينظر حوله في اضطراب بين الحين والآخر، يتشبع بالصور الموجودة فيها، يمتصها ويخزنها في رأسه، ينظر إلى الأيدي والعيون في لوحات «أنطون فان دايك» الساحرة؛ إلى الشعور، العمائم، الملابس

المتطايرة، الأكتاف المشدودة العضلات، الأفاعي في طور التزاوج في لوحات «تيبولو»؛ إلى النظرة التي نكستها فتاة بحزن في لوحة الرسام الفلامندي «ياكوب جوردانس»؛ إلى التعبير الغريب المرتسم على وجه أحد المتفرجين داخل لوحة لـ«بييرو ديلا فرانتشيسكا»؛ إلى القناطر الرهيفة المصممة على طريقة «أندريا بالاديو» في الفيلّات القائمة في خلفية الجداريات؛ إلى الدجاجات الفرعونية والطواويس المزهوة بأنفسها في أفنية الدواجن المجازية للرسام «ملخيور دو هونديكوتر»؛ إلى الألوان والأشكال الراقصة أمام عينَي روحه المشوشة.

فجأة، يقف صاحب المحل في ذلك الوقت «أدولف هوسته»، المعروف في المدينة كلها، إلى جانبه، ينظر إليه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، يرى ملابسه المتسخة، يشم رائحة الحديد والشحم النفاذة المحيطة به، ينزل عينيه إلى قبقابه الخشبي فوق أرضية محله الخشبية الجميلة ويقول:

- إلى متى تنوي أن تبقى هنا وتلامس كتبي باهظة الثمن؟ إذا كنت لا تنوي شراء شيء يا «موسيو»، فأرني عرض كتفيك.

يخرج من المحل مهانًا، يلعن فيما بينه وبين نفسه، يعتريه شعور مفاجئ بأن لديه مهارة كافية أن يرسم تلك الرسوم الأولية والنقوش كلها، تلك اللوحات والجداريات، من الذاكرة. انتظر، سوف ترى ما سأفعله. يسير إلى البيت، يخرج دفتر الرسم من الدرج، يجلس إلى طاولة المطبخ، وبينما الأطفال الآخرون يلعبون لعبة «اللقيطة» أو يختبئون حول ساقَيه تحت الطاولة، يحاول رسم رأس من الكتاب المقدس، إله رعد، بطريرك، أحد يتمتع بالقوة كي يكسر اللعنة. تخرج من تحت يديه خربشة فظيعة، وجه مشوَّه يثير السخرية، شيء وثني قبيح يشبه الرأس المنتهك لثور ميت. يرمي الورقة باهظة الثمن، الملطخة بخطوط مشوشة، في المجمر المتوهج داخل الموقد «اللوفاني» المزمجر.

يرسم طوال الشتاء، عندما يبقى لديه قليل من الهمة بعد تناول العشاء.

في البداية يحاول رسم يده الموضوعة على الطاولة، تصبح مخلبًا مشوَّهًا شريرًا، مخلب «غرفين» أو حيوان أسطوري من هذا القبيل، ويروق له أن يشوهه أكثر، إلى أن يتحول إلى مخلب مثير للرعب فعلًا، يعرضه على أعين الأطفال: «انظروا، وحش!». يبدو صراخهم مثل تشجيع له. يرسم قدر حساء، فتصبح كتلة مضحكة من خطوط مائلة حمقاء من الفحم. تصير بصلتان كتلتين من فحم حجري من نوع ما. حسنًا، فليرسم إذن كتلًا من فحم حجري من بنات أفكاره، كومة من الكتل، هذا أيضًا ليس بالأمر السهل، إذ يجب عليه هذه المرة أن ينتبه ألا تشبه هذه الكتل الفحمية بصلًا. التفاح يشبه شيئًا فشيئًا التفاح. ماذا لو رسم قلم الرسم الموضوع على الطاولة، هيا من دون إبطاء، يرسمه بظل خفيف على طوله، وهو ذا سحب الخطوط يعود عليه بفائدة. يتغلب على الإهانات الحميمة رويدًا رويدًا، ويبدأ بإيجاد المتعة فيما يفعل. يجد المتعة فيما يخفق فيه أيضًا، إذ إنه يقوده إلى شيء مختلف. وفي ذلك التغيير الدائم في الأشكال، في ذلك التحول المتحرك، إعادة التشكيل المستمر، والتنوعات في الأشكال ذات الصلة، ينفتح عالم أمامه في شهور الشتاء الطويلة تلك، شيء يستطيع أن يعود إلى البيت من أجله بعد نهارات العمل الطويلة، شيء يبدأ يتطلع إليه منذ استراحة الظهر، بينما يتناول شطيرته مع قهوته الفاترة، ويحاول صم أذنيه عن الضحك المجلجل والقصص الجريئة عن الأيدي المتلمسة ما تحت تنانير النساء، الثقوب في أبواب المراحيض، الخادمات الشبقات في الحجرات المحاذية للمطبخ، الأرداف الرشيقة للأفراس عند الحانة، ومواضيع جميلة أخرى من هذا النوع.

يجلس أمام المرآة ويحاول رسم رأسه. ما يحملق فيه بسخرية من الورق، بعد ساعة كاملة من الخربشة، والمسح، والتظليل، ومحاولة ضبط الخطوط العريضة، هو وجه يبلغ من القبح أنه لا يتمالك هو نفسه من الضحك. تأتي أمه وتنظر من فوق كتفه، فيسرع إلى إخفاء الورقة.

ـ هيا يا أبله، دعني أراه.

ـ لا يا أمي، أرجوكِ، لا تفعلي.

يفكر بالصبي ذي الذراع الواحدة، بعالم الأحلام المكون من الخطوط والمربعات.

يخفي أوراقه الملأى بالشخبطة في أعماق درج من أدراج الخزانة الجدارية القديمة في غرفة نومه، تحت ملابسه الداخلية وجواربه. يبدأ من جديد في اليوم التالي. يبدأ من جديد ومن جديد، طوال الشتاء كله. يحل الربيع، يذهب الآخرون للتنزه، للسباحة، يذهبون في أيام الربيع الأولى الدافئة للإبحار مع الفتيات في قوارب صغيرة في نهر «لِيس»، أما هو فيرسم، يجلس في البيت وحده، بينما الجميع في الخارج، حيث السحب البيضاء المبحرة والهواء الذي يسحر المدينة بدفئه. يرسم ويحرز تقدمًا، وينتابه إحساس في بعض الأحيان وهو جالس هناك، وحده تمامًا، بقدرة في داخله، بقوة عظيمة عميقة تُشعره فجأة بأنه شخص، شخص يستطيع فعل ما لا يستطيعه الآخرون. يُخيل إليه أنه بلغ قمة الجبل بشق الأنفس بعد شهور طويلة من العناء. «لا ليس بعد أيها الساذج»، هذا ما يقوله صوت آخر في داخله، «إنها ليست القمة على الإطلاق، إنك لا تزال على الطريق، في مكان صغير على سفح الجبل، مكان تستطيع أن تلتقط أنفاسك فيه، تنظر إلى الأسفل وتقول: لقد قطعنا على الرغم من كل شيء مسافة كبيرة». تملأه هذه الفكرة بافتخار صامت، لكنه عندما يرفع عينيه إلى الأعلى، بعبارة أخرى، عندما يفكر بنسخ اللوحات التي رآها في متجر الكتب الذي طردوه منه، يعلم أن ما ينتظره طريق طويل شديد الانحدار، ولكن حتى ذلك لم يعد يثير الخوف في نفسه. يدرك كم أنه مشتاق إلى رؤية أبيه من جديد كي يطلعه على بضعة من رسوماته الأولية. إذ بات واضحًا أن أمه أفشت له في رسائلها منذ زمن بعيد ما يفعله هنا في الخفاء. يريد رؤية أبيه، يريد رؤية أبيه من جديد. يستغرق في نوم عميق لا أحلام فيه.

* * *

كانت مشاويرنا لمتجر الكتب «هيركينراث»، خليفة «أدولف هوسته»، فيها شيء من طقوس مقدسة. لم يكن جدي يلمِّع حذاءه الأسود أكثر مما يفعل عندما كنا «نذهب إلى «هيركينراث»». لم يكن يدخل مكانًا وهو في هيئة أشد أناقة وفخامة من الهيئة التي كان يدخل بها ذلك المتجر، بينما السيد «هيركينراث»، المعروف بصداقته للشاعر الفلامندي الشهير «كارل فان ده فوستاينه» في أثناء حياته، يقف في الجهة الخلفية من المحل ويعيد عددًا من الكتب، التي أخرجها الزبائن، إلى أماكنها في الصف. في حين ترمقه زوجة صاحب المحل بنظرتها الرقيقة المتعالية بعض الشيء، كان يتصفح عددًا من الكتب بشيء من تبجيل هادئ، يقف أمام كعوب الكتب المتألقة، يستنشق الهواء بروية عندما يرى ما يثير إعجابه. لم يكن يغادر المحل على الإطلاق من دون أن يشتري شيئًا. تتوه نظرة السيدة الناطقة بالفرنسية، متعَبة قليلًا من التهذيب، على قبعته «الفيدورا»، عكازه، بدلته الكحلية، ربطة عنقه الفراشة الفنية المبهرجة بعض الشيء، بمزيج من التعاطف والإشفاق. بينما تمرر باستخفاف يدها المزينة بخاتم على غلاف رواية للكاتبة «سوزانا ليلار» موضوعة فوق كتب مكدسة إلى جانب صندوق الدفع، تنتظر حتى يفرد عملاته الورقية المطوية ويمدَّ إليها يده باثنتين منها. تلف الكتاب بورق التغليف الجميل الخاص بمتجرها الأرستقراطي الفخم، وتعطيه إياه بابتسامة شحيحة، وكلمات بالفرنسية لا تكاد تُسمع: «أو روفوار، موسيو»، علامة على رغبتها الطيبة في أن تراه إنسانًا ذا قيمة، حتى وإن كان يتكلم الهولندية القديمة، والمنمَّقة بشكل مبالغ فيه. يأخذ منها الكتاب الذي يضم لوحات من مدرسة «فونتينبلو»، ينحني لها انحناءة طفيفة، يمسك بيدي ويقول: «هيا يا بني، فلنذهب إلى «الفينزيانا» ونأكل «كريم آلا جلاس»».

ترددت أنا نفسي على متجر الكتب «هيركينراث» مرات لا تُحصى، وقد اشتريت منه بضعة إصدارات باهظة الثمن، مطبوعة على ورق رقيق، من السلسلة الفرنسية «لا بلياد»؛ كتبي الأولى عن الفلسفة، وبضعة مجلدات

قيِّمة تضم نسخًا عن لوحات فنية، ودراسة عن «تينتوريتو». لم يكن لديهم سوى القليل من الكتب المكتوبة بالهولندية، وما كان موجودًا منها في الواجهة الجانبية أقرب إلى الإخفاء منه إلى العرض. رأيت فيها ذات يوم نسخة من كتابي الأول، تائهًا بين دليل سياحي وكتاب عن رحلات إلى الفضاء، وغمرني الحزن عندما فكرت بالصبي الفقير المنتعل القبقاب الخشبي، الذي وقف يتصفح الكتب هنا ذات يوم، وأروه طريق الباب، والذي عاد إليه مرارًا في زمن لاحق في هيئة سيد نبيل صغير. صدر كتابي الأول بعد مضي ستة أشهر على وفاته. لم يخمن في حياته أنني سوف أنشر أي شيء. على الطرف الآخر من الشارع، في محل المخبوزات على طريقة فيينا للخباز اليهودي «بلوخ»، كانت النسوة من الطبقة ميسورة الحال يتناولن «الكرواسان» المدهون بالزبدة مع القهوة المصبوبة من إبريق فضي، بينما يقرأن كتابًا اشترينه من محل «هيركينراث»؛ وضعن ورق التغليف الذي طوينه أربع طيات بأناقة على الطاولة إلى جانب أيديهن المزينة بالخواتم. كن يبلغن من الغنج أنهن ينطقن الهولندية باللكنة الفرنسية، فبدلًا من أن يقلن «تسعة عشر فرنكًا» يقلن «تسا تاش فروانج».

* * *

يعود أبوه من ليفربول في يوم دافئ الطقس، هادئ الريح.

يذهب جميعهم إلى محطة «زاود» لاستقباله. كان لا يزال بمقدور جدي أن يصف عودته بدقة بالغة، بعد مضي عشرات السنين على ذلك اليوم، كما لو أن مشهد فيلم قديم يُعرض أمام عينيه: يدخل القطار، بهسيس صاخب وقرقعة متصاعدة من عجلاته، تحت سقف المحطة ويتوقف بصرير، مطلِقًا سحابة من الدخان والبخار. يقفون على رصيف المحطة بين حشود غفيرة من الناس، وقبل أن يشرئبوا بأعناقهم بشوق ولهفة إلى أبيهم، يُقبل عليهم مع زميله «براكه»، ذي الشارب، وهما يلوحان بيديهما. تسرع «سيلين» إليه، فتتجرجر معها ابنتها الصغرى «ميلاني» الماسكة بتنورتها. ترتمي في

أحضان زوجها باندفاع يبلغ من القوة أن صغيرتها تقع على الأرض. ينظر «فرانسيسكس» إلى الصغيرة، التي يبدو عليها أنها لا تتعرفه سوى على نحو غامض. يُخرج بعضًا من السكاكر من جيب سترته. يجلس الزوجان في الحنطور المتجه بهم إلى البيت، وينظر أحدهما إلى الآخر بارتباك. يدوِّي الحوذي بالسوط. لا يستطيعان التحدث بسبب قرقعة العجلات المغطاة بطبقة من الحديد على الطريق المرصوف بالحجارة، وطقطقة حوافر الحصانين. عندما يدخلون شارعهم، يرون حشدًا من الجيران قد تجمعوا أمام بيتهم. يصفق بعضهم بيديه، لكن عندما يترجل «فرانسيسكس» من العربة شاحب الوجه متعب الابتسامة، متكئًا على زوجته، يسود الصمت. يشد بعضهم على أصابعه في عجالة ويضع بعضهم يده على كتفه في أثناء عبوره بهم. تشكرهم «سيلين» بإيماءة من رأسها، يحمل الحوذي الحقيبة الكبيرة إلى ممر البيت، تضع «سيلين» بعضًا من القطع النقدية في يده. يدخلون بيتهم المتواضع ويغلقون الباب. في البيت يكون أحد الأعمام وإحدى العمات قد زيَّنا غرفة الجلوس بزينة مصنوعة يدويًّا، ويتصاعد البخار من قدر كبيرة من الحساء فوق الموقد في المطبخ. ينظر «فرانسيسكس» حوله برهة طويلة من دون أن يتفوه بشيء، وكأنه مندهش من رؤية كل شيء على النحو الذي احتفظت به ذاكرته: الرقعة الهزيلة من العشب في الفناء الكبير، حجرة الماعزة، الكناري والحسون اللذان يقفزان في القفص البسيط. لا يكاد يسمع الأسئلة التي يطرحها عليه أفراد أسرته، يلتفت إليهم باستغراب، يأخذ «ميلاني» الصغيرة بين ذراعيه. ترتبك الطفلة؛ تضع يدها الصغيرة في استحياء على خده المكسو بشعيرات لحية شائكة. تغار البنت الكبرى، «كلاريس» وتنزعج بعض الشيء، يقهقه «جول» و«إميل»، يزدرد «أوربابن» شيئًا ويلزم الصمت. تحتار «سيلين» ولا تعلم ماذا تفعل. ثم يرتمي الاثنان من جديد أحدهما بين ذراعَي الآخر. يراقب الأطفال أمهم بخجل وهي تخترق شعر أبيهم بأصابعها وتقبله من عنقه. يفك نفسه من بين ذراعيها، يسير إلى الممر،

يفك الحزام عن حقيبة السفر الكبيرة، يعطي الصبيان كرة قدم من الجلد، والبنات لوحة ذات خطاطيف وأرقام، معها حلقة لإلقائها حول الخطاطيف، ويعطي الصغار حصانًا خشبيًا غريبًا بثقوب في جسمه ـ حصان طروادة، نحته «براكه» على حد قوله. يسحب الذيل من جوف الحصان الصغير، يريهم كيف يمكنهم أن يضعوا الذيل في الثقب الصحيح بعيون مغمضة، يقف الأطفال ويحدقون بذهول إليه. ثم يخرج علبة صغيرة ويقدمها لـ«سيلين». اشترى لها بنقوده القليلة قلادة مع حجر كريم منقوش. تضع الحجر الكريم أمام صدرها بينما تنظر إلى نفسها في المرآة.

ـ أنت مجنون. تعالَ إلى هنا.

عندما يجلس في الكرسي الخيزراني الذي كان يجلس فيه دائمًا في الماضي، تتشاحن البنتان على الجلوس في حضنه. يجول بذقنه ذي اللحية الشائكة على خدودهما، ما يدفعهما إلى التلوي والقهقهة بين ذراعيه.

تذهب «كلاريس» إلى الفناء، تفك الماعزة، وتأتي بها إلى داخل البيت.

يربت أبوهم على ظهر الماعزة، يداعب ما بين قرنيها بأصابعه، ويقول:

ـ لقد شاخت ماعزتنا «بِت».

يحدق في الخارج من جديد برهة طويلة.

تقول «سيلين»:

ـ انظر إلى ابنك الأكبر أيضًا، كان أكثر واحد فيهم يفتقدك. بقي يساعدني طوال هذه الفترة بكل إخلاص. أهمل أصدقاءه كي يساعدني في تسيير أمور البيت. وتعلم شيئًا سيدهشك.

ثم تقول له:

ـ هيا يا «أوربابن»، أرِه رسوماتك.

في البداية يشحب لون جدي ويصبح أبيض، يهز رأسه بلا، ثم يرى النظرة الطالبة في عينَي أبيه، فيذهب متنهدًا ويأتيه بالرسوم. يأخذ «فرانسيسكس» حزمة الأوراق منه، وينظر في الرسوم واحدة، واحدة. رسوم وجهه، دراسات

يديه، الرسوم الأولية التي جرب فيها وضعيات مختلفة: ساق مثنية، جذع مختزل من منظور مائل، قطعة قماش متطايرة، أشجار شعواء، ملاك مع بوق. بعضها ركيك، ولكن بعضها الآخر متقن ومعبِّر.

ثم يحدث شيء لم يكن جدي يتوقعه بأي حال من الأحوال: ينفجر أبوه بالبكاء، يضع الأوراق على الطاولة، ويضم ابنه إلى حضنه بقوة تبلغ من الشدة أن أنفاسه تنقطع لحظة قصيرة. يدفع ابنه عن حضنه، ينظر إليه، يريد أن يقول شيئًا، يبدأ بالبكاء من جديد، يحاول أن يقول شيئًا مرة أخرى، ولكن لا يخرج من فمه سوى بضع جُمل مشتتة غير مفهومة.

تقول «سيلين»:

ـ تعالَ يا «فرانس»، تعالَ اجلس.

يضغط على يد ابنه، ويحدق فيه بصمت، يقول في آخر الأمر:

ـ لا تؤاخذني يا بني. لا تستطيع أن تتصور شعوري بعودتي إلى البيت. كل شيء مألوف ومع ذلك مختلف.

ينظر عبر النافذة من جديد، يبدو عليه أنه استغرق في أفكاره.

يسعل؛ سعال أجش محشرج. تناوله «سيلين» سلطانية من الحساء؛ تشعر كم أن يديه باردتان.

ـ يداك باردتان جدًا يا «فرانس».

ـ أعلم يا عزيزتي، هذه هي حالي منذ شهور، كما لو أنه معشش في عظامي.

يسمعون عازف الأرغن المحمول من مكان ما في الشارع. يسأل «فرانسيسكس»:

ـ ألا يزال هو أيضًا على قيد الحياة؟

على السطح المنخفض للحجرة المحاذية للمطبخ، ترفرف الحمامات بصخب، يعبث ذكر الحمام هادلًا. تناوله «سيلين» كأسًا من الشراب:

ـ تفضَّل، اشرب هذه الرشفة، سوف تُشعرك بالدفء.

يجرع الشراب من فوره، يغص به، يسعل.

تربت «سيلين» على ظهره براحة يدها، وتسأله:

ـ هل تريد كأسًا أخرى؟

يومئ بالإيجاب، يرتشف من الكأس الصغيرة التي ملأتها له مرة أخرى. تحشرج أنفاسه وتصفّر.

ثم ينهض عن مجلسه فجأة، كأنما تذكر شيئًا منسيًّا، يريد أن يُخرج ما تبقى من أغراضه من الحقيبة. لكن «سيلين» تقول إن عليه أن يرتاح أولًا، ليكون بمقدوره الذهاب إلى «الفرير إيكونوم»(*) في اليوم التالي من أجل أن يطلب عملًا. يغمغم معترضًا في أول الأمر، ثم يرى زوجته ترسل الأطفال إلى الشارع قائلة:

ـ اذهبوا والعبوا ساعة في الشارع، أبوكم متعب.

تفك عقدة مريلتها السوداء وتقول له بينما تتألق عيناها:

ـ هيا، إلى فوق.

تسحبه من يده، ويتبعها بما يشبه الإذعان على درجات السلم.

يكتب جدي:

> هكذا عاد أبي الغالي ودخل حياتنا من جديد. بينما يصعد درجات السلم بظهر منحنٍ خلف أمي، والبهجة تغمرهما، رأيت أن شعره خفّ كثيرًا؛ بدا مسنًّا بالنسبة إلى رجل في السابعة والثلاثين، بوجهه حاد الملامح والهالتين الدكناوين تحت عينيه. في تلك السعادة العظيمة برؤيته مرة أخرى، تسلل خوف إلى داخلي، خوف لن يغادرني أبدًا.

* * *

يخرج من البيت ويهيم على وجهه في الشارع. إنه خريف ١٩٠٧. يبلغ السابعة عشرة من عمره بعد بضعة أشهر. يسود السكون في حارات خنت الداخلية؛ يعيش الناس حياتهم الهادئة، المغمورة، الملأى بالمشاغل

(*) الراهب المسؤول عن الشؤون الاقتصادية. (المترجمة).

الصغيرة. في أمريكا يتحدثون عن «ذعر المصرفيين»، الأزمة الكبيرة التي حلَّت بالمصارف إثر التلاعب بالأوراق المالية لشركة «يونايتد كوبر». يضخ «بيربونت مورجان» و«روكفلر» الأموال في المصارف المتدهورة، لا يتوقف انهيار سوق الأوراق المالية إلا بشق الأنفس. في مصر يحصل «اللورد كارنارفون» على الموافقة بالبدء في الحفريات في مدينة طيبة. يصل إلى هولندا القيصر الألماني «فيلهلم الثاني» على سفينة حربية، يَعد الملكة «فيلهلمينا» بأن ألمانيا ستحترم حياد هولندا في حال اندلاع حرب. ولكن من ذا الذي يتحدث عن حرب؟ المغني المتجول الإيطالي يغني في الحارة:

أعيش من أجل الفن، أعيش من أجل الحب
لم أؤذِ أي روح حية في حياتي

يلقي «أوربابن» قطعتين من خمسة سنتات في صندوقه المعدني المتدلي من الشريط الجلدي تحت العربة الصغيرة.

* * *

في المساء، حسبما يكتب جدي، ذهب إلى أبيه الراقد في السرير ورسم إشارة الصليب على جبينه وهو يقول الكلمة السحرية: «بارَبوحفظ». إنها كل ما تبقى في لغتهم اليومية مما كان في يوم من الأيام «باركك الرب وحفظك»، مرفقة برسم صليب على الجبين بالإبهام؛ صيغة بالية، شيء أبله وغير مفهوم بالنسبة إلى الغرباء عن العائلة، شيفرة سرية تهدئ من روع القلب عندما تهب عاصفة رعدية في الليل. رافقتني «بارَبوحفظ» مساءات لا تُحصى في سنوات طفولتي، شأنها في ذلك شأن حجر مصقول متبقٍّ مما كان ذات يوم صخرة مدببة السطح في البحر، انتهى به المطاف بعد عشرات الآلاف من السنين على طاولة صغيرة بجانب سرير المريض الذي يتركه وراءه عندما يستغرق في النوم، وهو مريض بالذكريات التي يضيع فيها، من دون أن يستطيع مقاومتها، مرة بعد مرة في الليل.

يتناهى الصرير الخفيف المنتظم، المنبعث من نوابض سرير والدَيه، عبر الحائط الرقيق، مثل موسيقى أفلاك متناهية من بعيد، يهدهده إلى نوم من دون أفكار ومن دون أحلام.

* * *

كُلف «فرانس» بعمل سوف يستغرق سنتين كاملتين، في جمعية أخرى من جمعيات «إخوان المحبة»، واقعة في الجهة الغربية القصوى من المدينة؛ عمل في مستودعات ومخازن تحتاج منجوراتها الخشبية إلى طبقة جديدة من الدهان، ويحتاج الزجاج المكسور في نوافذها القديمة التي لا تُحصى إلى تغيير. قَبِل «فرانس»، الذي تعاوده أزمات ربو حادة على فترات منتظمة، هذا العمل على مضض. كان يجب عليه في كثير من الأحيان أن يقف ساعات طويلة على سلالم متخلخلة عالية، في التيار الهوائي العابر من فتحات الشبابيك المكسورة، ينزع شظايا الزجاج من الإطارات القديمة، يزيل المعجون القديم بسكاكين غير حادة، يقص لوحات زجاجية جديدة ويركّبها محل القديمة. يفقد توازنه بين الحين والآخر، عندما يمد يده إلى أداة من أدوات العمل، فيسرع في ردة فعل إلى الإمساك بما يمنعه من السقوط، بحيث تعرض إلى جراح مختلفة لأنه أمسك في كل مرة بإطار زجاجه مكسور. بالإضافة إلى ذلك كان يضطر إلى إيقاف عمله بشكل مستمر، لأن القساوسة يكلفونه بأعمال أخرى من شتى الأنواع. هكذا استغرق ذلك العمل المزعج في المستودعات قارسة البرودة فترة طويلة.

كان يعدُّ الأيام، لأنه سمع أنه يستطيع بعد إنجاز هذه المهمة أن يرمم جدارية في صالة الطعام الكبيرة في دير «إخوان المحبة» ويضيف إليها «رسومًا مع زخارف» من بنات أفكاره ـ جدارية «فريسكو» كبيرة منحدرة من القرن الثامن عشر أصابتها الرطوبة بالتلف. هذا ما كان يناسبه. بدأ بأعمال الترميم على فترات متقطعة إلى جانب العمل الشاق، ووجد بهذه الطريقة إيقاعًا متغيرًا مكّنه من التقاط أنفاسه بضعة أيام بين الحين والآخر.

هكذا، كان يجلس في المساء بجانب الموقد في المطبخ، ويرسم الرسوم الأولية للشخصيات الإضافية، معتمدًا على الصور التي وجدها في مكتبة القساوسة. تصوِّر الجدارية الكبيرة السيد المسيح عندما كان رجلًا شابًّا؛ في الخلفية، يقوم مبنى يشبه المباني الشرقية نوعًا ما، في حديقة زُينت أشجارها وشجيراتها بأكاليل احتفالية من أوراق الشجر. تسير فتيات وفتيان من الخدم، المحمَّلين بسلال من الفاكهة والخضراوات، صوب طاولة طويلة مترعة بالطعام والشراب يجلس إليها فلاحون بملابس رثة. يقف المسيح نفسه في مقدمة الجدارية، يحيي المسنين ذوي الأسمال البالية والأطفال بتحية من يده. هناك نص تحت هذا المشهد، يعيد «فرانسيسكس» تخطيط هذا النص المكتوب على شريط متماوج بعض الشيء، ملون بلون دم الثور، بحاشية مزركشة بالذهب. النص مقتبس من «إنجيل لوقا ١٤، ٢١ و٢٣»، من حكاية الرجل الغني الذي لا يلبي أصدقاؤه دعوته إلى وليمته، فيقول لعبده: «اخرج عاجلًا إلى شوارع المدينة وأزقتها، وأدخل إلى هنا المساكين والجُدْع والعُرْج والعمي. اخرج إلى الطرق والسياجات وألزمهم بالدخول حتى يمتلئ بيتي».

* * *

أبحث في الإنترنت عن عناوين الأديرة والجمعيات العائدة لجماعة «إخوان المحبة»، أجد عناوين في خنتبروخه، في «أوستاكر»، وفي خنت، وأجد جمعية باسم «سانت فرانسيسكس»، لكنها تقع في مدينة مورتسل. لا أعثر على أي دير كان يقع في غرب المدينة، أو لا يزال، دير يمكن أن يكون «فرانسيسكس» قد عمل فيه. هل أخطأ جدي؟ أعرِّج على أديرة وجمعيات مختلفة. لم يحدث أن رأى أحد جدارية من هذا القبيل في صالة الطعام؛ لقد اكتست الجدران بطبقة جديدة من الدهان قبل الحرب العالمية الثانية أو جرى ترميم وإصلاحات. هناك احتمال دائم أن يكون شيء من هذا القبيل قد وُجد فعلًا قبل قرن من الزمن، أجل، ولكن من الصعب إزالة الدهان عن

الجدران من أجلي، أنا أفهم ما يريدون قوله، أليس كذلك؟ نعم، ولا يوجد شيء من هذا القبيل محفوظًا في الكتب أو الأرشيف، هم آسفون، فإنهم مضطرون إلى المغادرة، شكرًا على التفهم، إلى اللقاء.

* * *

جدارية «الفريسكو» هي رسم يجب أن يُنجز على جدران مطلية بالجص حديثًا. تُستخدم الألوان على مادة الجص المبللة وتُترك حتى تنشف معها. يعتمد هذا الفن برمته على التخمين الصحيح للألوان التي ستظهر بعد جفافها، إذ في حال البلل تميل الألوان كلها إلى الدكنة، الرطوبة تجعل الأزرق والأحمر أكثر زهوًا وتركيزًا، وتجعل الأصفر والأخضر أكثر بهوتًا. لنفترض أن إحدى الفتيات السائرات في خلفية المشهد الكبير الذي يرمِّمه «فرانسيسكس»، قد تآكلت إحدى ساقيها بسبب الرطوبة. يجب عليك أولًا أن تطلي الجدار بجص مخفَّف جدًّا إلى أن تختفي البقعة الرطبة الداكنة، أو على الأقل أن تبهت قدر المستطاع، من دون أن يظهر أي نتوء في السطح، ومن دون أن تظهر أيضًا آثار الفرشاة في الجص المدهون حديثًا. ويمكن لهذا الأمر أن يكون خادعًا جدًّا، ففي بعض الأحيان لا تظهر هذه الآثار إلا عندما يسقط الضوء بميل على السطح، فيجب والحال هذه أن تُهذِّبها بصنفرة في غاية النعومة. بعد ذلك يجب أن تعيد رسم الساق، ولكن ليس بدرجة اللون التي تراها أمامك؛ يجب أن تجرب مركَّبات عديدة من الألوان بدرجات مختلفة على لوحات صغيرة مطلية بالجص حديثًا ومرقَّمة بعناية. يجب أن تترك هذه العينات حتى تجف، يمكن أن تستغرق هذه العملية في الجو الرطب أكثر من أسبوع. عندما تجف، تستطيع حينذاك فحسب أن ترى إذا كنت قد حصلت على اللون المطابق تقريبًا، إذا لم تحصل على النتيجة المرجوة، فيجب أن تجرب عينة أخرى على اللوحة التي تليها. على هذا النحو، سرعان ما امتلأت صالة الطعام بعشرات اللوحات الصغيرة قيد التجفيف،

كلها بدرجات مختلفة من الألوان. هكذا عمل جدي الأكبر بدقة متناهية على ترميم ساق مفقودة، الثنيات ذات اللون الأزرق الرمادي في ثوب أبيض، تفاحة ذات لون أصفر فاتح على أحد الأطباق، بقعة عشب في الظل. في كل مرة، كان عليه أن يمعن النظر في العينة الموجودة على اللوحة الصغيرة ويضعها إلى جانب البقعة التي يجب إصلاحها على الجدارية. كان عندما تنير شمس الأصيل داخل الصالة، ويسبح الجدار الشرقي في ضوء أحمر خادع، لا يستطيع العمل إن لم يلصق جرائد قديمة على الشبابيك العالية، ولكن حتى هذا الأمر يمكن أن يخدع البصر: في الصباح، عندما يحتوي الضوء على مزيد من درجات الأزرق المختلفة، يتبين أن الإصلاحات لم تنجح بشكل كامل وأن لونها يختلف اختلافًا بسيطًا عن الأصل. فلا يبقى أمامه إلا أن يلونها بقليل من الدهان المخفف بعض الشيء، بأكبر دقة ممكنة، أو، عندما يتبين أن اللون مال إلى الدكنة أكثر من اللازم، يمر عليه بطبقة رقيقة جدًا ومخففة من اللون الأبيض، ثم، كي لا يطغى الأبيض، يمسح القسم الأكبر من هذه الطبقة بإسفنج ناعم، قبل بضعة أيام من جفافه الكامل. ضربة واحدة من الفرشاة أكثر من اللازم، تعني العودة إلى نقطة الصفر والبدء من جديد.

هكذا مضت أسابيع وهو يعمل على ترميم بضع شخصيات على جدار واحد فقط، من دون أن يستأنس بنموذج أو نقش، لكن «إخوان المحبة» كانوا متحمسين، يأتون إلى «فرانس» بسلطانية من الحساء الساخن من حين إلى آخر، ويبالغون في الثناء عليه، فيرتبك ولا يعرف أي موقف يتخذ.

* * *

بعد مضي ستة عقود على ذلك الوقت يكتب جدي في مذكراته:

> لقد كبرت في السن، وأظن أنني اكتسبت من الخبرة ما يمكنني من إبداء رأي عن الفن، فقد بقيت أرسم طوال عمري. حسنًا إذن، الوثيقة هنا أمامي، إنها رسمة ملونة للجدارية المرمَّمة، مبينة عليها إضافاته. أزداد

تبجيلًا لأبي الذي توفي عن عمر مبكر جدًا، وأشعر بوخز في قلبي، عندما أرى مدى الحب الذي لوَّن به يد الفلاح الطاعن في السن، فقد كان كل إنسان، مهما كان بسيطًا، يستحق من انتباهه ما يستحقه الآخرون. وأفتقده، خاصة وأنني أنا نفسي أقترب شيئًا فشيئًا من النهاية، أفتقده أكثر من أي وقت مضى خلال حياتي المديدة.

وأنا أتساءل، وأتساءل منذ زمن بعيد، عما إذا كان يسكت عمدًا عن أن أباه طلب منه حينذاك أن يقف أمامه في وضعية المسيح الشاب، الذي كان عليه أن يصلح إحدى كتفيه ورقبته. طرحت هذا السؤال لاحقًا على عمتي العجوز الصارمة «ميلاني»، أخت جدي، التي بلغت من العمر مائة وثلاث سنوات ولم تتذكر من ذلك الزمن سوى تفاصيل غامضة، هناك في شقتها الواسعة في جادة «فرير أوربان» قرب «زاود بارك»، حيث تربعت على عرشها، رفيعة المنزلة صافية الفكر، آخر شاهد على زمن ضاع إلى الأبد. لا، ولم تتذكر أيضًا المكان الذي قام فيه ذلك الدير، فقد كانت صغيرة جدًا عندما توفي أبوها، لم تسمع منه أي شيء عن رسم أولي ملون لتلك الجدارية، لكنَّ أخاها أخبرها عنه. بينما تتحدث إليَّ عمتي «ميلاني» وقد حملت فنجان الشاي بأناقة في يدها الضامرة، المزينة بخاتم ناعم من الماس، تراءى لي جدي، العامل الصغير في معمل صب الحديد، وقد لفَّ ملاءة مهترئة حول كتفيه المكتنزتين، ووقف في وضعية المسيح في صالة الطعام الباردة تلك في السنوات الهادئة قبل الحرب العظمى، ووقف أبوه أمامه يرسمه بهدوء، وأحسست أن هذا المشهد يتحول إلى ذكرى في ذهني، الرسام الذي يرسم رسامًا، كما لو أنني عشته في الواقع وأستطيع استحضار ذكراه، الآن، هنا، الآن وأنا أكبر في السن شيئًا فشيئًا، ويحيا الأموات أكثر فأكثر على جدارية لا تُمحى، قصة رمزية ليس بوسع أي روح حية أن تتذكرها أو تراها من جديد، لكنها منطبعة في نفسي.

ـ ثمة رقصة في السماء.

هذا ما قالته بالفرنسية عمتي «ميلاني» الجريئة، أصغر الأولاد في السن، آخر العنقود، وضحكت ضحكتها المئوية الشبيهة بضحكة البنات.

* * *

يتدهور وضع والدي الغالي بسرعة كبيرة. أرقد ساهدًا في الليل. أسمع من جانبي في السرير أنفاس أخي الأوسط «إميل» المنتظمة وأشعر بها. تنام أختاي «كلارسيا» و«ميلاني» في «قبة النوم»، الواقعة في أكثر الأركان بعدًا عن سريري، خلف ستار قابل للطي. يقبع مهد أخي الصغير «جول» إلى جانب الباب. يؤرقني إرهاق محموم؛ تجول مشاهد من معمل صب الحديد في رأسي. يلقي مصباح الشارع ضوءه الباهت بخط مائل على جانب اللوحة الخشبية في رأس سريري. ترسم النافذة في الغبش الليلي صليبًا أسود اللون على الجدار المطلي بالجص الأبيض. الدخان المنبعث من المصباح الزيتي الصغير يملأ الغرفة. لا أزال أسمع طقطقة القباقيب على رصيف الشارع، وأحاول أن أخمن، من الطريقة التي يكح بها عابر السبيل، إن كان رجلًا أم امرأة، شابًا أم طاعنًا في السن. فراشي متشقق عند نهاية السرير، يخِزُني القش المجزوز المنبثق من حشوته بين أصابع قدمي مثل الشوك. معمل صب الحديد قائم في الشارع على مسافة ليست بعيدة عن بيتي، بوابته الثقيلة تُقفل في الليل. يقوم مقهى «ده ماوس هوند»، الذي تتردد عليه بنات الهوى، إلى جانبه، قبالة مجمعات العمال السكنية ذات الباحات المشتركة. أسمع الموسيقى في خفوت، يغني معها شخص في الشارع: «"تيك تاك" تغني الطواحين بأجنحتها... تستمر بهدوء في دورانها»... بعد برهة من الزمن أسمع والدي يتنفس بصعوبة وهو يتسلق السلم، عما قليل تعود أمي إلى الغرفة، تغطي الصغار مرة أخرى بهدوء، وترسم على جباههم إشارة الصليب، وتطفئ المصباح الزيتي القائم على رف الموقد. بعد ذلك أنصت إلى كلب الراعي وهو يعوي في بيته الواقع في القسم الخلفي من فناء معمل صب الحديد، إلى صفير القطار المتناهي من بُعد، قرقعة العجلات الحديدية إذا ما صعدت القاطرة البخارية الثقيلة بميل في المنعطف الكبير صوب الميناء. ولكن أكثر من هذا كله، أنصت إلى أنفاس أبي اللاهثة المصفِّرة، أستطيع

سماعها جيدًا، إذ إن باب غرفة نوم والدي يبقى مواربًا على الدوام، من أجل الهواء النقي الذي هو في أمَس الحاجة إليه. ثم أبدأ بالصلاة، ساعة كاملة في بعض الأحيان، أتوسل إلى الله أن يحمي أبي، أن ينقذ روحه ويشفيه إن أمكن. أمرِّر حبات المسبحة عبر أصابعي وأنا أتمتم بـ«الصلاة الربانية»، يتبلل وجهي بالدموع في بعض الأحيان. يا ربنا الودود، نجِّ والدي، أتوسل إليك، أتوسل إليك، يا أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك... أستغرق في نوع من الخدر، وعندما أصحو منه، أسمع أمي تنفض الرماد من مجمر الموقد في المطبخ في الطابق السفلي، تسعِّر النار بالمنفاخ، كي تسخن الحليب لزوجها على جناح السرعة. تصعد بفنجان حليب ساخن إلى فوق. أسمعها تتحدث إلى والدي:

ـ هيا، اشرب قليلًا، سيعود بفائدة على حنجرتك. ارتح برهة أخرى، كل شيء سيكون على ما يرام.

عندما أنهض من فراشي، ألقي نظرة خاطفة على غرفة والدي في أثناء عبوري بها. ينام أبي على جنبه بهدوء، انزاحت البطانيات القديمة عنه. أدخل الغرفة على أطراف أصابعي، أرتب البطانيات بعناية، أغطي بها أبي، ثم أتسلل إلى الطابق السفلي. تنظر إليَّ أمي نظرة فيها من التطمين ما يزيح كل العبء عن كاهلي. أعانقها، أمضي إلى مضخة الماء فأغسل وجهي، أشرب فنجانًا من قهوة الهندباء، أرتدي سترة العمل، ألقي حقيبة ظهري التي وضعت فيها أمي ما جهزته لي من الشطائر على كتفي، أحشر قدمي في قبقابي عند الباب الرئيسي، وأخرج إلى الشارع الصباحي. إنها نهاية شهر يناير، أصبحت أعياد رأس السنة وراء ظهورنا، سرعان ما يحل «الكرنفال»، فيخرج الناس في المساء إلى الشوارع في ثيابهم التنكرية، يهرجون ويمرجون على مدى أسبوع كامل، تتطاير القصاصات الورقية على الأرصفة مثل آخر عاصفة ثلجية، ممتقعة اللون ومتسخة الهيئة. يضج مقهى «ده ماوس هوند» بالمحتفلين السكارى. في نهاية شارعنا، يقف رجلان من الشرطة على أهبة الاستعداد؛ كلاهما على ظهر جواده، بسيف معلق بالحزام، ويراقب الجماهير المحتفلة.

في الأيام التالية يسود هدوء غير عادي في المدينة. يبدو كما لو أن الناس جميعهم يبقون في منازلهم ويلعقون جراحهم.

تشارف الأيام الدافئة الأولى من الربيع على القدوم. بشائر ربيع، سماء زرقاء تبحر فيها السحب البيضاء فوق المصانع الكئيبة. ثمة أمل يجول في الحارات والشوارع. ساكنو الحي يأتون بعلب الصابون البني، وينظفون الغرف المتسخة بالشحار من أثر إشعال المواقد على مدى شهور طويلة. النوافذ مفتوحة على مصاريعها في الحي كله. تُجهز علب الدهان وسطول الكلس، تُدهن جدران الأفنية الصغيرة في المدينة بالكلس الأبيض للحماية من السموم، تُزوَّد من الأسفل في أغلب الأحيان بحاشية لامعة من القار للحماية من الرطوبة. الروائح مألوفة، الناس أكثر ابتهاجًا، والعصافير المزقزقة تتهافت فوق السياجات الخضراء المزدهرة بالبراعم وتطير إليها ومنها. يُسمَّد التراب الأسود القاحل في الأفنية بروث الأحصنة الذي يمكن جمعه بسهولة من الشوارع. وسط هذا العالم البسيط، الباعث على الأمل، يزداد خوفي على وضع أبي، ومن شدة ما يثقلني الخوف ويشلني أتمنى لو يكون بمقدوري أن أفضفض عنه للأشجار والشجيرات. لا يتوقف سعاله الخبيث منذ ثلاثة أيام. في النهار يجلس مرتجفًا بجانب الموقد المتوهج، وفي الليل يرقد لاهثًا في سريره مسندًا ظهره المتألم إلى ثلاث وسائد. يرتسم خط أزرق على لثته، علامة على تسمم بالرصاص، أصيب به من جراء عمله الكثير بالرصاص الأبيض، الأمر الذي يفاقم في أغلب الظن من ضيق تنفسه. يأتي الطبيب لعيادته كل يوم، يأتي الأهل والجيران ويسألون أمي عن وضعه. تتهامس الجارات أمام الباب الرئيسي. تغلق أمي الشجاعة الباب بصفقة قوية. في البيت تسود رائحة مثيرة للغثيان، رائحة المرض. تلطخت الجدران المدهونة بالكلس الأبيض بجانب السرير، الذي يرقد فيه أبي، بالعشرات من بقع الدم التي تطايرت مع سعاله القوي، خلال الأسبوع الماضي. بجانب سريره، تقوم أطباق صغيرة من مرق اللحم، وفناجين شاي، لم يلمسها، كعك أخذ منه اللين كل مأخذ، فاكهة لم يمد يده عليها. يأتي مدير الدير و«الفرير إيكونوم» من دير الرهبان لزيارته:

ـ كنت تعمل على أحسن ما يرام في الآونة الأخيرة يا «فرانس»، نأمل أن تعود إلينا سريعًا، لقد جفت لوحاتك الصغيرة بالعينات بشكل جيد.

يلهث أبي بصعوبة أكبر، كلما حاول أن يوضح أنه يعلم وضعه جيدًا:

«أنـ... أنـ... أنـ... أنـ...» طوال اليوم إلى أن يفقد الجميع صوابه. تقف أمي خلف الكرسي الخيزراني، الذي يجلس فيه بعد الظهر ويئن طوال الوقت، واضعة يديها على مسند الظهر. تشرد نظرتها إلى الخارج، في أرجاء الفناء، إلى رؤوس الأشجار التي تتمايل في الجو الرمادي الباهت. تتأرجح الأغصان المزدهرة بالبراعم ذات اليمين وذات الشمال في أمطار أبريل الرعدية، مثل أذرع عارية مرفوعة إلى السماء. تأطرت عينا أمي بالاحمرار، لكن لا تخرج أي شكوى من بين شفتيها. يتأثر المدير و«الفرير إيكونوم»:

ـ سنفعل كل ما بوسعنا يا مدام «سيلين»، سندعو لزوجكِ كثيرًا، لأنه عزيز علينا.

ترفع أمي كتفيها.

في الليلة التالية، أسهر مع أمي على رعاية أبي. يتسبب استنزاف قواه في التهاب مميت في الرئتين. في بداية القرن العشرين لم يكن هناك ما يخفف معاناته، لا مضادات حيوية، ولا بنسلين. في ١٩٠٨ كنت تجد الستراموني، زيت الكافور، الكحول، وحبوب القطران على الخزانة الصغيرة بجانب سرير المصاب بداء عضال في الرئتين. تعطيه أمي كوبًا آخر من الحليب بالسكر عسى أن يستجمع قواه، وتجبره على أن يشرب على الأقل شيئًا منه، الحليب الذي لا يستطيع أن يبلعه إلا بصعوبة بالغة، ويلفظ نصفه مع السعال على الفور. يتسبب السكر في تهييج حنجرته، والحليب في تحفيز جسمه على إفراز مزيد من البلغم الخانق، لكننا لم نكن ندرك هذا بعد في ذلك الزمان. أصبح التنفس بالنسبة إليه عملًا منهكًا، ينقبض جسمه العلوي كله وينكمش من أجل أبسط جرعة من الهواء. بسبب نقص الأكسجين في دمه، ينبض قلبه أكثر من مائة وعشرين نبضة في الدقيقة، على مدى أربع وعشرين ساعة في اليوم. لقد جف فمه، وتشققت شفتاه. تجحظ عيناه في كل مرة يعجز فيها عن أخذ جرعة من الهواء، على مدى ثلاثين ثانية في بعض الأحيان. يذوي أمام عيوننا؛ يضمر وجهه ويصبح أنفه بحدة أنف مومياء. يعتدل في السرير ويقول:

ـ «أوربابن»، عليك أن... أحضر عصا... عصا ملساء... واغرزها في حنجرتي...

تصرخ أمي:
ـ «فرانس»، أرجوك، لا تفقدنا عقولنا!
لم أرها في حياتي على هذا النحو. تشد شعرها، تعصر مريلتها كما تعصر خرقة، تركل إطار السرير أو تضرب بقدميها المكسوتين بجورب أسود على الأرضية الخشبية وقد أخذ منها الغضب اليائس كل مأخذ. في غبش الفجر، يظهر راعي الأبرشية على الباب ومعه الزيت المقدس، في الوقت ذاته ينكسر شيء في نفس أمي. تدعو أبانا المعظم للصعود إلى الطابق العلوي. تجثو على ركبتيها بجانب إطار السرير وتدعو، بينما يتمتم الكاهن بالصلوات، ويهذي أبي وهو لا يكاد يدرك شيئًا مما يحدث. تبعث المصابيح الزيتية المغطاة بالشحار الأسود دخانها في الغرفة المغلقة الخانقة. أمام الباب الرئيسي تنهمك الجارات في «الثرثرة وطق الحنك»، حسبما تقول أمي بغيظ مكظوم. بعد مضي ساعة يصل الطبيب بحنطوره الصغير. يأمر بإدخاله إلى المستشفى على الفور. لا يصل الطاقم الطبي إلا في وقت متأخر من النهار: ثلاث راهبات وممرضان، يحملون أبي إلى النقالة الخشبية. تلفه أمي بمعطفين، بمعطفه ومعطفها.
ـ هكذا أفضل يا فتاي، كي لا تبرد أكثر من هذا.
يرفع شفته العليا في محاولة لرسم ابتسامة على وجهه الشاحب. يطوف بناظريه علينا ويقول لزوجته متقطع الأنفاس:
ـ إلى اللقاء يا حلوتي. سأعود... سريعًا...
يختفي الباقي في نوبة سعال تجعله يلفظ البلغم.
يسحبون النقالة الخشبية بصعوبة إلى مكان تحميلها في القسم الخلفي من الحنطور. نجلس أنا وأمي على المقعد. يمسك أبي بيدي، يتلعثم ببضع كلمات لا أستطيع سماعها من شدة قرقعة العجلات ووقع الحوافر على الأرض. أحني رأسي بنعم، يضغط أبي على أصابعي.
عندما يرقد في المستشفى، ويملأون السجلات بالبيانات الشخصية ونسلِّمهم ملابسه، نعود أنا وأمي أدراجنا من دون أن نتفوه بكلمة. تسحبني معها إلى داخل كنيسة «العذراء سيدة الأحزان السبعة». تشعل بضع شموع، تجثو على ركبتيها، تستغرق في تمتمة تبدو وكأنها تدوم قرونًا من الزمن. في آخر الأمر تنكب على وجهها وتبقى في هذه

الوضعية. أجلس إلى جانبها، واضعًا يدي على ظهرها. أرفع عينيَّ إلى النوافذ ذات الزجاج المعشق بالرصاص، وأرى الظلام يرخي سدوله. يتناهى صوت أطفال يلعبون في الساحة الصغيرة أمام الكنيسة. من شدة ما تشتعل الشموع أمام تمثال العذراء بهدوء، تبدو كما لو أنها متجمدة. تحت التمثال ثمة نص مخطط بالفرنسية على شكل أخرق: «أيها المرتعش، الجأ إلى الله لأنه هو الشافي». لا تنهض أمي إلا بعد هبوط الظلام. تقول:

ـ تعال.

نيمم وجهينا صوب البيت، حيث ذهب الأطفال الصغار إلى الفراش من دون أن يتناولوا الطعام. أجلس برهة طويلة على حافة السرير بجانب أمي. لا نتفوه بكلمة واحدة. قبل التاسعة من صباح اليوم التالي نقف أمام بوابة المستشفى. تسير الراهبات بشيء من الحرج في ذهاب وإياب في الممر الطويل ذي السقف العالي. يضعن الثياب التي جئنا بها يوم أمس على طاولة يجلس طبيب وراءها. يقول:

ـ سيدتي العزيزة، أرجو ألا تفزعي. هذا ما أراده ربنا الودود. كان زوجكِ مصابًا بما نسميه «السل المستعجل». لقد وافته المنية في الساعة الثالثة من الفجر. شدِّي حيلك واعتني بأولادك، هذا ما يريده ربنا الودود منكِ.

ويدفع صوبها مسبحة زوجها ومحفظة نقوده. ملابسه الداخلية موضوعة في صرَّة صغيرة. تتضرج أمي، ثم تنسحب. تأخذ الصرَّة الصغيرة، تتلعثم بشكل تلقائي:

ـ ميرسي دكتور.

وتخرج مترنحة من المستشفى.

أحاول أن أسندها في الشارع، لكنها تتهاوى من بين ذراعي مثل دمية رخوة. أساعدها في الوصول إلى مقعد صغير بجانب حوض يزدهر فيه السوسن والنرجس في صفوف فاقعة من الأزرق والأصفر. تبدأ بالنواح فجأة، كما لو أنه انفجر في داخلها في هذه اللحظة، تنوح بقوة تبلغ من الشدة أنني أعتقد أنها على وشك الاختناق. تركل الأزهار بفردة قبقابها، وتولول:

ـ لا أريد هذا، لا أريد هذا، لا أريد هذا.

أحاول أن أهدئ من روعها، لكن محاولتي تزيد الطين بلة. ينتفض جسمها ويرتج كما لو أن شيطانًا يجول ويصول في داخلها. أمسكها من كتفيها. بعد أكثر من ربع ساعة يصيبها من الإنهاك ما يجعلها تسكت. تنظر إليّ، يبدو كما لو أن عينيها الملونتين بالرمادي الفاتح تهيمان في رأسها. تقول:

ـ أرملة في الثامنة والثلاثين، لا أقدر على هذا، لا أريد هذا.

وتستغرق في النواح والعويل من جديد. انفكت عقدة شعرها التي ضفرتها بمنتهى العناية في الصباح، فتبدو متوحشة بعض الشيء. لا أعرف ما ينتابني من مشاعر؛ لا أستطيع أن أبكي بأي حال من الأحوال؛ أشعر بغصة في صدري، كتلة غريبة قاسية لم تكن موجودة من قبل وتبلغ من الصلابة أنها لا تتزحزح من مكانها وتؤلمني ألمًا لا يوصف. ها هي «روزا» تقبل علينا، خالتي التي أوكل إليها رعاية البيت، ترى على الفور ما الذي حدث. تساعد أمي المتحجبة على النهوض، وتسحبها معها. تسير أمي إلى جانبها تحت الأشجار على طول قناة «كوبوره» وهي تترنح مثل دمية بأطراف متحركة. ما تنفك تقف عن السير وتبدأ بالنحيب من جديد، تخر ركبتاها تحتها بضع مرات فتتهاوى على الأرض. يسرع رجل إليها ويهم بمساعدتها على النهوض؛ تخربش يده بقوة وتزعق بأن يغرب عن وجهها. أتلعثم بهراء: بأن الأطباء قد أخطأوا، بأن أبي على الأرجح مستغرق في غيبوبة، بأنني سأعود إلى المستشفى في الحال لأتأكد من ذلك، وبأنني... تدفعني أمي دفعة قوية:

ـ اسكت يا «أوربابن»، أرجوك، أسمعني سكوتك ولو مرة واحدة، بالله عليك.

السكوت. هذا ما نفعله على مدى أسابيع متتالية؛ لا نتحدث في البيت خوفًا من جنون أمنا، التي انعزلت عن كل شيء وعن كل الناس. في الصباح تحمم أولادها من دون أن تتفوه بكلمة واحدة؛ تضع أكواب الحليب أمامهم بصمت، وفي المساء عصيدة الشوفان والحليب الرائب. تترك غسل الأطباق لـ«روزا»، تذهب إلى السرير حتى قبل أولادها وتنام حتى الصباح التالي. لم تعد ترسم إشارة الصليب على جباههم قبل النوم، تبدو كما لو أنها إنسان آلي، شبح، خيال يشبه أمي على نحو غامض لكنه

خيال يستحيل التحدث إليه. في إحدى المرات، بينما تجلس إلى الطاولة وإذ بها تعوي مثل ذئب جريح:

ـ آه يا «فرانس»، آه يا فتاي المسكين.

تنكمش على نفسها وهي ترتعد بقوة. تستفرغ ما في معدتها بجانب كرسيها. ننظر نحن الأطفال إليها بفزع؛ تبكي «ميلاني». أساعد أمي للوصول إلى غرفتها. تدق الرياح الربيعية على الشبابيك دقات واهنة. أنصت إلى القرقعة الغريبة، يراودني إحساس بأن هيكل البيت القديم يتحرك بهدوء في الليل الطويل الذي لا يُطاق. عند بزوغ أول خيوط الفجر ينشد شحرور على السطح، يبدو كما لو أنه يمتص الهواء، هواء العالم كله، الهواء الذي لم يكن بوسع أبي استنشاقه.

بعد ثلاثة أيام، بعد جنازة الفقراء، أعود إلى معمل صب الحديد. لا يسألني أحد أي شيء، لكن الرجال يرفقون بي، يحملون عني أثقل القطع. أعود إلى البيت في المساء، أجد أمي نائمة في الكرسي الخيزراني الخاص بزوجها. شعرها الأسود الطويل مسدل، منفوش على نحو غريب حول وجهها الشاحب، مثل شعر إلهة من آلهة القدر. اقتحمت الماعزة المطبخ؛ امتلأت الأرض ببقايا الخبز الممضوغ والخضراوات المقروضة. لا أحد من أخوَيَّ وأختَيَّ في البيت. أربط حبلًا حول عنق الماعزة من دون أن أحكم شده، وأسحبها ورائي إلى خارج البيت. أدخل إلى مقهى «ده ماوس هوند»، وأسأل رئيس السقاة عما إذا كان يريد أن يشتري الماعزة منا. لا يثير ضجة حول الموضوع، يقول إنه لا يرى أي بأس فيه. ينبش في صندوق النقود، ويعطيني ثلاثين فرنكًا مقابل ماعزتنا العجوز «بِت»، مبلغ كبير جدًّا في واقع الأمر، لكنه يتبين أن هذا ما كنا نحتاج إليه بالضبط، كي نسد به رمقنا في الأسابيع الأولى. عندما أعود بالنقود إلى البيت وأعطيها لأمي، تحدق فيها كما لو أنها لا تعلم في الوهلة الأولى ما هي.

ـ ميرسي، «أوربابين».

ترتقي درجات السلم، تدخل غرفتها، تغلق الباب. تمضي نصف ساعة ثم تعود إلى الطابق السفلي. أجلس، واضعًا يديَّ بين ركبتيَّ، أحدق عبر النافذة إلى الخارج. تقول:

ـ خذ.

وتعطيني ساعة أبي الذهبية، ساعة الجيب التي كانت مرهونة عند «جبل التقوى» وفككت الرهن عنها. تقول:

ـ اعتنِ بها يا «أوربابن»، إنها الشيء الوحيد المتبقي من ميراث عائلتنا.

تختفي في الطابق العلوي من جديد، لا تظهر حتى اليوم التالي.

* * *

بعد أن نقلت الصفحات السابقة إلى الكمبيوتر، رقدت ساهدًا في سريري، ورأيت على صفحة الليل زمانهم، عالمهم المندثر، تظهر قاماتهم أمامي، في صباح أول يوم من أيام سنة جديدة يتساقط الثلج فيه، قامات أولاد «سيلين» و«فرانسيسكس» الخمسة، الذين كانوا قد بلغوا سن الشيخوخة عندما كنت لا أزال طفلًا صغيرًا، إنهم يتوافدون إلينا: عمتي «كلاريس»، بشعر متموج أبيض مضموم في عقدة، مرتجفة، في يدها عكازها الأسود اللامع، إلى جانبها زوجها «فونس» الذي لا يتوقف عن سرد النوادر وتدخين الغليون، وهو شخص صاخب ما ينفك يظهر في مطبخنا، من دون سابق إنذار، وقد زمَّ بنطاله عند الكاحلين بمشبك دراجات من الطراز القديم، تحيط به رائحة تبغ غليونه الحلوة، ينتصب شعره الأحمر الشائب على رأسه متنافر التضاريس؛ العم «جول» الذي يعاني ضيق التنفس، أخو جدي الأصغر، ترافقه زوجته الناهدة «ليونتين»، التي تشرب «الجين» في كؤوس كريستال في منتهى الصغر طوال اليوم، وعندما ترى أي شيء، تضع يدها السمينة على صدرها العظيم المغطى بالدانتيل ولا تزيد على قول: «أوه يا ربي، أوه يا إلهي»؛ العم «إميل»، أخو جدي الأوسط، الذي لا أتذكر سوى أنه جالس في كرسي مغبَّر، يعاني الشلل الارتعاشي؛ أراه يشعل عود ثقاب مرة بعد مرة، على أمل إشعال عقب سيجاره من جديد، لكن يده ترتجف على شكل أمواج بطيئة، فيطفئ بذلك عود الثقاب في كل مرة، إلى أن ينهض جدي، الذي يكبره في السن لكنه يفوقه في الحيوية

مائة مرة، ويشعل له عود ثقاب، فيصبح بوسع «إميل»، المكابد ضيق النفس هو الآخر، أن يمتص النار إلى داخل عقب سيجاره، نافثًا سحابات صغيرة من الدخان في إيقاع منتظم، فيبدو في كل مرة كما لو أنه يسحب الشعلة إلى داخل جسمه لحظة قصيرة، ثم ينفثها على شكل نفحات صغيرة من الدخان؛ في آخر الأمر، تأتي آخر العنقود، عمتي «آني»، حرف النون غير مشدَّد، كما يحلو للأنيقة «ميلاني» أن تسمي نفسها في عمر متقدم، إلى جانبها زوجها «أوديلون» المتطيب بالعطر بشكل مبالغ فيه، الحلاق الذي يتهامسون عنه بأن يده طويلة، وبقي شعره متماوجًا أسود حتى بعد أن جاوز السبعين بكثير. وأخيرًا وليس آخرًا، الرجل الذي يدور كل شيء حوله، أكبر الأبناء الصبيان، جدي إلى جانب زوجته المتبسمة بصمت «جابرييله»، التي جرى التقليد أن تجتمع العائلة كلها في بيتها، في صباح أول يوم من أيام السنة الجديدة. كانوا يجتاحون البيت أحدهم وراء الآخر، يخبطون بأحذيتهم الثقيلة بقوة على البساط الصغير عند الباب ويمسحونها عليه بصخب، يصيحون قائلين لأمي إنهم سيحولون بيتها النظيف الأنيق إلى حظيرة حيوانات. يصطحبون معهم رائحة الثلج والهواء البارد، رائحة النفتالين التي تعبق بها معاطفهم الشتوية الداكنة، المنسوجة من الجوخ النمساوي، فروة المنك والأستراخان، وكذلك رائحة الخزامى وصابون مارسيليا. قاماتهم الداكنة أكبر مما هي في الواقع، إذ إن الهيئات من هذه الشاكلة تكبر مع أجسامنا فيما بعد بشكل لاإرادي، وعلى هذا فإن الناس الذين كانوا بالغين في سنوات طفولتنا، يشبهون آلهة قديمة منقرضة تبقى تطل علينا من العلياء. كانت الدعابات تُطلق باستمرار، ويمضون للجلوس متنهدين متأففين: «نحن لا نصغر في السن يا «أوربابين»، أليس كذلك؟».
يسترجعون الذكريات، يستحضرون الحكايات التي ترافقها قهقهات مجلجلة في أغلب الأحيان ما تلبث أن تؤول إلى السكون، ويحل محلها تفكير ملي وتمتمة بـ: «نعم، نعم يا عزيزي، نحن مُسيَّرون لا مخيرون في

هذه الحياة». وتنبعث تنهيدة من هنا وهناك، إلى أن يهتف «فونس» قائلًا لأمي إنها صارت تبخل عليهم بشراب «الإكسير» في السنوات الأخيرة، فتُملأ الكؤوس من جديد، وتطوف حلوى «المادلين» و«أصابع السيدة» في جولة جديدة، يعيد «فونس» البهجة إلى الجو بدعابة مشبوهة، فتقول عمتي «كلاريس» وهي تهز رأسها يمنة ويسرة: «كم أنت قذر يا «فونس»»، بينما يضحك الآخرون خلسة، وينظر جدي عبر النافذة إلى الخارج باستهجان، وأنا لا أفهم شيئًا مما يتحدثون عنه. أتمنى لو كان بمقدوري الآن أن أسمع حكاياتهم من جديد بكل تفاصيلها، إذ كانت لي حينذاك عينان لا تبصران وأذنان لا تسمعان، أنا الطفل المذنب الحاضر في تلك الغرفة من دون أن يلفت انتباه أحد، والذي حطم ساعة أبيهم المتوفى بعد بضع سنوات من ذلك الوقت. سرعان ما امتلأت الغرفة تحت «اللانترنو» ـ كما كان يحلو لهم أن يسمُّوا ضوء نافذة السقف ذات الزجاج الملون المعشق بالرصاص ـ بدخان السيجار والغليون، وفرغت بالقدر نفسه من السرعة زجاجة «إكسير أنتويرب». جيء بشراب «الجين» إلى الطاولة نزولًا عند طلب «ليونتين»، قال «جول» وهو يضحك بشيء من سخرية:

ـ هذا أفضل، حتى إنه يشفي الأمراض المعوية عند الأحصنة أكثر من الإكسير.

كانت أمي تروح وتجيء بـ«الحلويات والموالح» على حد تعبيرها، بينما يتحدثون عن أطفالهم وأحفادهم، عمن وافته المنية في السنة الماضية، وكم أنه شيء لا يُصدق، عمن اقتنى جهازًا من تلك الأجهزة ذات الطراز الحديث، «تلفزيون» حسبما يقول «جول» باستهزاء، وكم أنه شيء غير ضروري أو في غاية الأهمية وباهظ الثمن، وعن المشكلات في التقاط البث الإذاعي ذي الطراز القديم في المدينة، فتقول «ميلاني» بغنج ودلال إنها لا تشتري سوى أغلى الأشياء، لأن الأشياء الرخيصة تكلفك أكثر في آخر الأمر، فيهتف «جول»:

ـ أختنا المدللة «ميلاني» باذخة مثل أمنا الراحلة.

فيعارض جدي:

ـ أمنا لم تكن باذخة على الإطلاق، ما الذي تقوله يا رجل!

بلغت «كلاريس» من العمر مائة وست سنوات وهي ترتجف وتتلعثم، صافية الذهن هادئة الطبع كما كانت على الدوام؛ «ميلاني» مائة وثلاث سنوات، مهمومة الخاطر وأنيقة المظهر حتى آخر يوم في حياتها؛ جدي التسعين من عمره، شديد البأس رهيف المشاعر؛ توفي «جول» و«إميل» في أواسط السبعين من عمريهما. كانوا كلهم أشداء يتغلبون على مصاعب الحياة، قوَّاهم شظف العيش في طفولتهم وبؤس سنوات الحرب، مسيحيين حتى أعماق أرواحهم، لكنهم على القدر نفسه من العقلانية والسخرية الرزينة إذا ما تعلق الأمر بظروف واقعهم المعاش. كان حسابهم للزمن يتسم بالمقدار نفسه من البساطة والنجوع، يحسبون بقياس: «كان ذلك قبل الحرب العظمى» أو «كان ذلك بعد الحرب العظمى بسنوات». لم يكونوا يتحدثون عن الحرب العالمية الثانية كثيرًا، وماذا يمكنهم أن يقولوا عنها؟ لقد عانوا الجوع، أكلوا الخبز المعمول من النفايات وقشور البطاطس، رأوا ثعابين مائية سميكة سُمك الذراع في نهر «سخيلده». عاملهم الألمان دائمًا بأدب، إذا ما صادفوهم في أثناء جولات تفتيش فجائية، لا، ليس ثمة شيء عن ذلك، آه، صحيح، قُصف ما يدعى منجم الملح الواقع هناك، لكن هذه الحقائق ليست بذات أهمية.

يجلسون، يصمتون، يتنهدون، يضحكون، يكحون، يبلعون شيئًا، يأخذون رشفة أخرى، يقولون: «نعم، نعم يا عزيزي، غريبة هي الدنيا، أليس كذلك؟». أرى أيديهم المستريحة في حجورهم، بعضها مغضَّن، يحيط جلد متخشن متسخ بالأظافر، وبعضها الآخر ناعم أو شاحب، لكنني لا أستطيع رسمها كما كان جدي يستطيع أن يفعل. يحيط بقاماتهم الداكنة نور غير دنيوي من نوع غريب، النور الراسخ المنبعث من الأشياء التي لا يمكن أن تعود. لقد

رحلوا، اندثروا، تخلخلت شواهد قبورهم في بعض الأماكن. شهدت بيوتهم إصلاحات أو طالها هدم، أصبحت عناوينها طي النسيان، تغيرت الشوارع التي عاشوا فيها إلى حد يصعب التعرف إليها، توقفت الساعة، انكسرت أتراسها، وأنا أحاول أن أعمل شيئًا من الأجزاء التي جمعتها، مدركًا أنه لن يكون بمقدوري أبدًا أن أجعلها تعمل من جديد، تدق من جديد، تحيا كما كانت على مدى قرن كامل.

* * *

يستغرق الأمر بـ«سيلين» ستة أشهر لتستقيم بظهرها ويبدو عليها أنها عادت إلى حياتها. لا بد أن ذلك كان في أواخر الصيف، في يوم في أوائل أغسطس. مضت شهور الصيف من دون أن تلاحظها؛ انطباعها غامض بالوقت الذي يمر، بالضوء العابر، بالليالي الحارة المليئة بالأحلام المشوشة، انتفاضها من النوم وهي غارقة في العرق وإحساسها بسموم الحزن واللوعة تغمر كيانها. صارت نحيفة، ما أضفى عليها مزيدًا من الشموخ بطريقة أو بأخرى. أخذت بضع شعرات بيضاء تلمع في عقدة شعرها المتألقة، هذا أيضًا أكسبها مهابة، لمحة عن طهارة النفس وقوة العزم. كلما عبرت بمشجب الملابس القائم في الممر، مرت بأطراف أصابعها على معطف زوجها الميت، الذي بقي معلقًا هناك طوال ذلك الوقت. في إحدى المرات، رأت عراكًا بين طائرين في السماء فوق الحقول الواقعة وراء البيت؛ غراب لا يتوقف عن مهاجمة عقعق. ينعق الطائران نعيقًا جهنميًا ويدور أحدهما حول الآخر في بعض الأحيان، يبتعدان بحركة انسيابية، يندفع أحدهما إلى الآخر باستماتة في محاولة أن يصيبه بمنقاره المطبق في أثناء هذا الاندفاع السريع. وقفت تشاهد الحلقات التي يتحرك فيها الطائران. رأته منظرًا جميلًا وقويًا، حرَّك شيئًا في داخلها، إن صح التعبير، أشعرها بصفاء جديد، كما لو أن ماء نقيًا منعشًا أخذ يتدفق عبر جسمها الآسن النائم. جالت بعينيها فيما حولها، أطلقت تنهيدة عميقة،

راودها شعور بأنها صحت من تخدير دام شهورًا طويلة. كان البيت قد نال منه الوسخ والفوضى كل منال، وتغبَّشت النوافذ وعلاها الغبار. ارتعبت من المنظر. ظنت طوال الفترة الماضية أنها تقوم بكل ما عليها من واجبات كما اعتادت أن تفعل دائمًا. أين الأولاد؟ هل خرجوا ليلعبوا في الشارع من جديد؟ أين يتسكعون؟ كان عليها أن تعترف بأنها لا تعلم. كانوا غالبًا ما يتناولون الطعام عند الجيران، يتأخرون في العودة في المساء بعد دوام المدرسة، فتضطر أن تذهب من باب إلى باب لتستدعيهم إلى البيت قبل وقت النوم. رأت فجأة أن هذا أمر مهين ولا يُطاق. عاشوا في الفترة الماضية من المدخول الزهيد الذي يأتي به ابنها الأكبر، وقد نفد آخر المدخرات منذ زمن بعيد. كان «أوربابن» أيضًا يأكل خارج البيت، حتى إنها لم تعرف في أي مكان.

عاودت النظر فيما حولها باستغراب، ثم في سماء أغسطس الفاترة. كان الطائران قد تواريا عن الأنظار، وبضع غيوم منخفضة تعبر من فوق السطح واعدة بالمطر، وإذ بها تتوق إليه، إلى السير تحت المطر الصيفي. خرجت إلى فناء البيت ووقفت هناك. تساقطت أولى القطرات. رفعت وجهها إلى السماء وأخذت تبكي بصمت. أراحها البكاء، جعلها تتنفس، خلق فسحة في داخلها. أحست كما لو أنها اتحدت مع الهواء المحيط بها. بلعت ماء المطر، تركته يسيل من خديها إلى رقبتها، أحست بتأثيره المهدئ مثل البلسم على الجرح. الجرح الحارق الذي تكتوي به روحها، النار المشتعلة التي يجب أن تنطفئ. بدأت السماء تمطر بغزارة شديدة، انهمرت المياه بقوة عارمة إلى الأرض. فتحت يديها، ورفعتهما براحتين مبسوطتين في الهواء. تدحرج هزيم رعد بعيد على صفحة السماء. تبللت ملابسها السوداء السميكة حتى آخر خيط فيها. ارتعشت بشعور ممتع ـ شعور لم تعرفه منذ زمن بعيد. عندما توقف المطر الرعدي، دخلت البيت. كانت رائحة ملابسها نتنة. صعدت إلى غرفة نومها، خلعت ملابسها كلها، وارتدت ملابس أخرى.

كانت تلك هي اللحظة التي استقامت فيها بظهرها.

راحت تلملم البيت. رأت قفص الطيور فارغًا؛ أين ذهب الحسون والكناري؟ فاتتها حقيقة أن ابنتها الكبرى «كلاريس» رأتهما ميتين ذات يوم، فرمتهما في سلة القمامة بصمت. حتى لقد فاتها أن معطف زوجها لم يعد معلقًا في الممر منذ شهر، وإنما في خزانة ملابسها في الطابق العلوي. لم تدرك ذلك إلا في تلك اللحظة. ظنت أنها مرت بأصابعها عليه في صباح ذلك اليوم. كيف أمكن أن يحدث هذا كله؟ لم تتذكر شيئًا، كانت خاوية، لكنها أكثر صفاء ونقاء لأول مرة منذ زمن بعيد.

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، وصلت إلى بوابة «إخوان المحبة» في قرية «أوستاكر». سُمح لها بالدخول. سألت مدير الدير عما إذا كان لديهم عمل لها. رد بالإيجاب. كان بوسعها أن تخيط الملابس لمستشفى الأمراض النفسية الذي يديره «إخوان المحبة». في ذلك اليوم نفسه، سارت تلك المسافة كلها إلى مستشفى الدكتور «جوزيف خاوسلاين» القريب من قناة «ده نيوه فارت»، وحصلت على أعمال الخياطة. بين الحين والآخر كانت هناك طلبيات غريبة: يجب في بعض الأحيان أن تُدرز الأكمام الطويلة حد الإفراط بعضها فوق بعض. وضعت ماكينتَي خياطة في الحجرة الواسعة المحاذية للمطبخ، استطاعت أن تستعير إحداهما من المستشفى، واشترت الأخرى بالتقسيط. كان ما إن يذهب الصغار إلى المدرسة ـ كان «إميل» يعمل مساعد صانع مع «أوربايْن» في معمل صب الحديد ـ حتى تصل «ليوني»، البنت الكبرى للجارة التي ماتت في ريعان شبابها في زمن سابق، لتساعدها مقابل أجر زهيد، ثم تبدأ طقطقة الماكينتين وقرقعتهما. تحكي «ليوني» الحكايات البلهاء والشائعات طوال النهار؛ لا تشاركها «سيلين» في الثرثرة كثيرًا، لكن من الواضح أن هذه الحكايات تبعث الهدوء في نفسها، وتصرفها عن أفكارها، كما أن العمل يتحسن يومًا بعد يوم. كانت مواعيد الدفع

دقيقة، والأجر لا بأس به. بدأ وضعهم المالي يشهد شيئًا من البحبوحة من جديد.

في أحد الأيام، وبعد تسليم دفعة جديدة من خمسة أثواب، تذهب «سيلين» برفقة «ليوني» الثرثارة إلى سوق «لانغه مونت» لشراء حذاء لنفسها. أول حذاء جميل لها منذ طفولتها؛ يستغرق بها الأمر ساعة كاملة لتقرر أي حذاء تريد، مع أنه لا توجد سوى أربعة نماذج معروضة للبيع تناسب قياسها. ترى هذا التبذير تصرفًا سخيفًا في واقع الأمر، لكنها في الوقت نفسه تشعر بسعادة رعناء تدغدغ روحها. تختار حذاء له رباط، عالي الساق، لونه أسود خامد. تقول ضاحكة:

ـ أشعر بأنني أصبحت مثل سيدة متغطرسة تمامًا.

وتتألق عيناها الشاحبتان بسخرية برهة قصيرة، لأول مرة منذ زمن بعيد.

* * *

يدق رجال بابها في أحيان كثيرة، للدردشة معها في أمور الحياة إن كانت تحتاج إلى ذلك، «أليس كذلك، يا مدام «سيلين»؟». إنهم سادة من منزلة رفيعة، إنهم موظفون بسطاء، إنهم عمال عاديون، يبدو أن هناك وفرة في الرجال الأرامل في المدينة الذين سمعوا بموت زوجها. «أنتِ لا تزالين في غاية الجمال وتعيشين هكذا وحدكِ تمامًا، هذا لا يليق بامرأة مفعمة بالحيوية مثلكِ، قلت لنفسي أذهب ذات مرة...».

فتقول: «أنا على خير ما يرام، لا تكلف نفسك أي عناء»، وتمسك بمعطف الرجل الذي علقه للتو على ظهر كرسي وتناوله إياه. يدق بعضهم بابها في بعض الأحيان، ماسكًا قبعته في يده، يطلب يدها مباشرة متلعثمًا، مرتعشًا، وقد تضرج وجهه بالأحمر. تستمتع أحيانًا، تتأثر أحيانًا، تستغرق في الضحك أحيانًا. تنزعج غالبًا وتصفق الباب في وجوههم. يعود بعضهم وهو يجر أذيال الخيبة، يطلب بعضهم الآخر أن تفكر في الموضوع، يُسمعها

أحدهم من حين إلى آخر عبارات خبيثة. حتى «الموسيو الدكتور» يأتي في زيارة في إحدى المرات، تستشف نواياه من ابتساماته المختلسة، وتستيقن الأمر بعد إيحاءاته بمدى الضرر الذي يلحق بصحة المرأة إن لم يعاشرها رجل على فترات منتظمة، فتقول له:

ـ أيها السيد الدكتور، هل نسيت قسم أبقراط الذي أقسمته، أم يجب أن أذهب إلى زوجتك وأتحدث معها على انفراد؟

لا يعرف الرجل كيف يختفي من بيتها على جناح السرعة.

تذهب إلى المقبرة وحدها، هذا ما تريده هي نفسها. تبقى فيها ساعات طويلة في بعض الأحيان.

ـ ماما، ماذا تفعلين هناك طوال الوقت؟ كان الجو قد أظلم، عندما عدت إلى البيت.

ـ أتحدث مع أبيك يا «أوربابن». أفضفض عن قلبي.

ـ هل تخبرينه أيضًا عن كل هؤلاء الخُطَّاب الذين يدقون بابكِ؟

تجيب وهي تضحك:

ـ نعم، أخبره عن كل شيء.

في الأسبوع التالي، تأخذ معها علبة من الدهان الأسود من أجل أن تدهن الصليب الحديدي، على القبر البائس، بطبقة جديدة من الطلاء. تنهمك في العمل برهة طويلة، تفكر طوال هذا الوقت بأن جسم حبيبها «فرانس» لا يبعد عنها سوى متر واحد. في أي هيئة يكون الآن يا ترى... تصيبها هذه الفكرة بالدوار. تعتريها رغبة في أن تنبش القبر بأظافرها. نائم أبدي، هذا ما تفكر به، نائم أبدي، اللعنة، اللعنة، إنه في منتهى القرب مني. تكز على أسنانها بقوة تكاد تسحقها. بعد ذلك تسحب نفسًا عميقًا، فقد استنزفها الإغراء القاتم في استخراج تابوته من القبر. تغمض عينيها، تنتظر حتى يختفي الدوار، تتابع الطلاء بصبر. تغمغم:

ـ يا رسامي المسكين، هأنذا التي يجب أن أرسم الآن صليبك بالدهان، انظر إلى هنا لتراني.

عندما تفرغ من العمل، ترفع عينيها، وإذ بها ترى تلك النظرات كلها المرتسمة في الصور الباهتة على القبور. يعتريها شعور بأن عيونًا لا تُحصى لأموات لا يُحصون مصوبة نحوها. يحضرها بيت الشعر: «لا يُحصون من أفناهم الموت»، لكنها لا تستطيع أن تتذكر أين قرأته. ترتعد أوصالها. لم يبقَ أحد في المقبرة. هل مضت هذه الفترة كلها وهي جالسة هنا؟ بدأ الظلام يرخي سدوله. يجب عليها أن تسرع كي تصل إلى بوابة المقبرة قبل أن يغلقها الحارس. لا تزال جالسة القرفصاء، تهم بالنهوض، تهب هبة ريح، تسمع من خلفها خشخشة عنيفة تأتي من بعيد، تقترب منها من بين القبور بسرعة كبيرة. تقول فيما بينها وبين نفسها: «آه يا إلهي، إنه الشيطان؛ ساعدني يا «فرانس»، جاء الشيطان ليأخذني، ما الذي فعلته حتى أستحق كل هذا!». ترتعد أوصالها، تنهض من قرفصائها، ترتجف من أخمص قدميها حتى قمة رأسها. تصدمها قطعة ورق كبيرة الحجم رمادية اللون في ظهرها، تطلق صرخة، تنزلق الورقة مثل يد ضخمة، يد قذرة متلمسة، فوق ذراعها اليسرى، ثم تطير متابعة طريقها بين القبور، وتعلق في شجيرة مفرفرةً مثل حيوان لا شكل له. تشعر بقلبها يخفق في صدغيها. تهرول بأقصى ما تستطيع من سرعة وقد أخذ الاضطراب منها كل مأخذ صوب البوابة. ينتظرها الحارس حتى تخرج، متمتمًا:

ـ ليلة سعيدة يا مدام.

ويصفق البوابة المصرصرة وراءها.

منذ ذلك اليوم تصطحب ابنها الأكبر، عندما تذهب إلى المقبرة.

تقول له ضاحكة:

ـ يجب أن تحميني من الروح الشريرة. تصور أن تأتي وتأخذني، فماذا تفعل عندئذ؟

تضحك من جديد، لكنه يرى الخوف يلمع في نظرتها الشاحبة التي يصعب عليه سبر أغوارها.

يكتب جدي الشيخ في مذكراته:

كانت أمي تطارَد مثل فراشة نادرة مشتهاة.

كانت تقفل الباب الرئيسي بالقفل على مدى شهور طويلة، حتى في وضح النهار.

* * *

لا بد أنه لم يكن قد مضى زمن طويل على ذلك اليوم، عندما بدأ والد «ليوني» يأتي لأخذ ابنته بنفسه في آخر النهار. في أحد الأيام، يطلب من ابنته أن تسبقه إلى البيت، يقف بهيئته الخرقاء الثقيلة في المطبخ، ويداه تعتصر إحداهما الأخرى، ويطلب يد «سيلين». تنفجر بالضحك وتقول إن مثل هذا الشيء لا يمكن أن يخطر لها على بال. يلح عليها ويقول إنه يكسب قوت يومه جيدًا، وإنها تحتاج إلى قليل من المساعدة، وإنه أرمل وحيد وهي أرملة... تقاطعه وتقول إن هذا مستحيل. لكن «هنري» يعود مرة أخرى؛ بعد فترة من الزمن تمنعه من المجيء لأخذ ابنته بعد دوام عمله. تمضي فترة هدوء، ثم تتوالى الرسائل، التي تسلمها إليها «ليوني» بشيء من الخجل المقهقه في كل مرة. رسائل مكتوبة على نحو أخرق، خطابات غرامية قصيرة بأسلوب رسمي مثير للضحك، مليئة بالأخطاء اللغوية، ما الذي يجول في رأسه؟ ترمي الرسائل في سطل الفحم، ترى «ليوني» تعض على شفتها السفلى. تمضي ستة أشهر وهو يرسل عشرات من الرسائل التي تزداد لهجتها نزقًا وعتابًا بمرور الوقت، ثم يعود مرة أخرى ويقف أمامها، بقبعته في يده ووجه متضرج بالاحمرار. يتقدم بعرض ذي مدة محددة: يمهلها شهرًا واحدًا لتفكر في الموضوع، وإلا منع ابنته من العمل معها. تُسأل «ليوني» عن رأيها، ترغب عن التدخل في الموضوع، لكنها تتمتم في آخر الأمر بأنه قد يكون شيئًا جميلًا إذا ما أصبحت «سيلين» أمها، وتمتلئ عيناها بالدموع.

تستقيم الأرملة الأبيَّة بظهرها بالطريقة الخاصة بها هي وحدها، تصمت ثلاثة أسابيع طويلة، ثم تقول: «فليكن، إذا كان لا بد من ذلك».

يذهل جدي، يمتعض، يستغرب، يندهش. يكتب بتذمر في مذكراته عن هذا الرجل الجلف الذي دخل حياتهم، الذي يكسر الكؤوس، يوقع شوكته من بين يديه، ليس لديه إحساس بالموسيقى، ولا أي إحساس بالرسم والجمال على العموم، لا يحمد الله على النعمة في أثناء الجلوس إلى الطاولة، يلتهم طعامه بشراهة، ثم يمضي فيجلس في الكرسي الخيزراني الخاص بوالده الغالي الراحل، «ويترك الحبل لريح أمعائه على الغارب» ـ انتهاك صارخ يثير الغثيان. فجأة، يرى والدته لغزًا، مخلوقًا خرافيًّا، كتابًا مغلقًا أمامه، لا يستطيع أن يتصور أن يكون هناك شيء بينها وبين هذا الشخص. يبقى على هذا التصور ما يزيد على السنة، إلى أن يسمع حديثًا بينهما عن غير قصد في صباح يوم من أيام الآحاد. إنهما عائدان من القداس للتو. ترتدي والدته ثيابها الخاصة بيوم الأحد وقد وضعت زهرة بيضاء في عقدة شعرها السوداء اللامعة. إنها في بداية الأربعين، متألقة في أوج شبابها. يسمع «هنري» يهمهم:

ـ تعالي هنا مرة واحدة، امنحيني نفسكِ ولو مرة واحدة يا «سيلين»، أنتِ تحطمينني بهذه الطريقة.

تجيب:

ـ أنت نلت زواجك من أجل خاطر الأولاد، مثلما طلبت أنت نفسك يا «هنري»، وما اشترطته عليك منذ البداية كان واضحًا. لن تقرب مني. إذا كان هذا لا يعجبك، فعد إلى حظيرتك وعش فيها وحيدًا من جديد، وضع أولادك في جمعية خيرية من جديد.

يسمعه جدي يرد عليها:

ـ سأحطمكِ ذات يوم.

في تلك اللحظة يتدفق الدم إلى رأس جدي ويعمي عينيه، يندفع إلى

غرفة الجلوس ويرى والدته وقد انجلت ضحكة ساخرة في عينيها، وتغمز له. يدور «هنري» على عقبيه، مثل كلب تلقى ضربة على رأسه، يختفي من البيت، يجلس كل ما تبقى من النهار في الحانة.

* * *

هكذا أصبح الأرعن «هنري ده باو» زوجها الثاني، زوج والدة جدي الأبيَّة، وتحمَّل مجافاتها على مضض، وهكذا انتهى المطاف باسمه على شاهدة قبرها، التي جاء بها جدي من المقبرة في سنة من سنوات الخمسينيات. توفيت «سيلين» في ١٩٣١، لعل عقد استئجار قبرها انتهى بعد خمسة وعشرين عامًا، وبدلًا من أن يجدده، جاء بالشاهدة إلى البيت وخبأها في أعمق السراديب تحت منزله. إذا ما صح هذا الحساب، يجب أن يكون قد فعل ذلك في عام ١٩٥٦، كنت حينذاك أبلغ خمس سنوات من العمر. على حد زعم والدي، جاء بالشاهدة من مقبرة ختنبروخه بعربة يدوية، عربة خشبية مائلة من الطراز القديم لها مقبضان خشبيان طويلان، مركبة تافهة القيمة في غاية الثقل كنت أضع فيها أختي الصغرى وأتجول بها في زمن لاحق. كانت المقبرة تقع تقريبًا قبالة البيت الذي كان يعيش فيه في ذلك الزمن، ولكن على الجهة الأخرى من النهر. لذلك لا بد أنه ذهب تلك المسافة كلها ليصل إلى الجسر القائم على «سخيلده»، يجتاز انحدار الجسر بتلك العربة الثقيلة، ثم يمشي بها ما يقارب الكيلومتر ليصل إلى المقبرة الكائنة خلف كنيسة ختنبروخه، يحمل الشاهدة الثقيلة، ويحمِّلها في العربة، ثم يعود بها تلك المسافة كلها ويقطع الجسر ويصل إلى البيت، قاطعًا في المجموع نحو أربعة كيلومترات بعربة يدوية خرقاء ذات عجلة خشبية تكاد تنوء تحت ثقلها، حاملًا خلال نصف تلك المسافة عبئًا ثقيلًا. بالإضافة إلى ذلك، كان يمكن للشاهدة الرخامية أن تتكسر عند أي حفرة في الطريق، فاللوحات الرخامية عندما لا توضع على جنبها، يمكن أن تنكسر مثل البسكويت. لا بد أنه صرف نصف نهار وهو يجرجر ذلك الثقل قبل أن يوصله إلى البيت في آخر الأمر.

عندما أتخيله وهو يكدح في شق طريقه على طول ضفتَي نهر «سخيلده»، حاملًا في عربته اليدوية شاهدة قبر والدته الميتة، التي كان يرى أن قدسيتها انتهكت ظلمًا بسبب اسم زوجها الثاني، الذي لم يستطع أن يقبل به على الإطلاق، تحضرني القصة التي أخبرني بها مرات عديدة، كلما صدحت متتالية «بيير جينت» للموسيقار «إيدفارد جريج»، والحق أنها كانت تصدح مرارًا وتكرارًا. كانت واحدة من المقطوعات الموسيقية المفضَّلة لديه، ويغني معها على الدوام. يقول عندئذ: «اسمع كيف يذهب «بيير جينت» بأمه الميتة في عربة يدوية إلى السماء: بوم بوم بوم، بوم بوم، بوم بوم... بوم بوم بوم، بوم بوم بوم... إنه يسير على الإيقاع، يذهب بأمه الغالية الميتة عبر الجبال والغيوم إلى السماء. «بيير جينت» يأخذ أمه إلى السماء!». ويقود الموسيقى بإيماءات عريضة كما يفعل قائد فرقة موسيقية غير محترف. بعد مضي سنوات اشتريت أنا نفسي تلك المتتالية، مدفوعًا بالحنين إلى حد كبير، أسطوانة فونوجراف رُسمت جبال وغيوم على غلافها الأمامي بسذاجة. عندما أمعنت النظر في نص الغلاف، رأيت لدهشتي العظيمة أن الحركة الرابعة، التي كان جدي يدندن معها «بوم بوم بوم»، تسمى «في مجلس ملك الجبل» في واقع الأمر. أخذت أبحث عن المشهد الذي يأخذ فيه «جينت» والدته الغالية «أوسه» إلى السماء، فاكتشفت حينذاك فحسب أن «بيير جينت» لا يفعل ذلك على الإطلاق، كل ما يفعله هو أنه يروي لوالدته المحتضرة، في المسرحية التي تحمل الاسم نفسه من تأليف «هنريك إبسن»، حكاية الحفلة المقامة عند ملك الجبل، ويوهمها في هذيانها الأخير بأنه يأخذها في زلاجة، عبر الخلجان الضيقة وأشجار التنوب، إلى هناك، إلى قلعة «سوريا موريا» الخرافية، وليس إلى السماء المسيحية، حتى وإن كان القديس بطرس يقف على البوابة، وترى «أوسه» الربَّ في صورة غامضة في نزعها الأخير. وقفت بشيء من الذهول والأسطوانة في يدي. لماذا اختلق جدي نسخته الخاصة من هذه الحكاية وكيف اختلقها؟ عندما كشف لي والدي النقاب عن الطريقة التي

جاء بها بشاهدة قبر والدته إلى البيت، بدأت حينذاك فحسب أفهم أن هذا التحريف لقصة «بيير جينت» من دون قصد على الأرجح، والرحلة الآثمة التي قام بها لإحضار شاهدة قبر والدته، ومن ثَم دفنها في الخفاء، ينطوي على مأساة لا أستطيع سبر أغوارها إلا على وجه التخمين: الحب الغيور الذي كان يكنُّه لوالدته بعيدة المنال. كانت الروح الشريرة التي ارتعبت منها والدته وظنت أنها جاءت لتأخذها، في اليوم الذي حطت فيه قطعة ورق داكنة كبيرة على ظهرها مثل يد شيطانية، قد أصبحت في خيال جدي يد «هنري» القذرة، التي بقيت تحاول أن تلمس والدته وباءت جميع محاولاتها بالفشل. ولكن أكانت «سيلين» نفسها تقصد شيئًا آخر في ذلك اليوم، لم يستطع هو حينذاك سبر أغواره؟ لماذا اضطربت كل ذلك الاضطراب ولماذا سمته بيد الشيطان؟ أكانت تشعر بالذنب في ذلك الوقت؟ هل دخل «هنري» حياتها بتلك السرعة بعد موت والده؟ كان ذلك شيئًا لا يمكن أن يخطر في بال ويستحيل أن يحدث.

تنفتح هاوية بعد هاوية في هذه الدوامة من الأسئلة. عندما أتجول في يوم جميل من أيام أكتوبر في مقبرة خنتبروخه، باحثًا عن أسماء الراحلين من أفراد عائلتي، وأتساءل أين قام قبر والدة جدي في يوم من الأيام، أتعثر بعد بحث طويل بشاهدة قبر «نابليون ده باو»، نعم هو بذاته، ابن خنت الذي كان في حياته محاميًا وباني جسور ذائع الصيت، وإذ بذكرياتي الحانية إلى الماضي تنفجر كلها في ضحكة. أنظر إلى الجهة الأخرى من النهر، بين رؤوس الأشجار المتمايلة، فأرى البيت الذي لا يزال يعيش فيه بسلام الشاهد الوحيد الباقي على قيد الحياة: والدي. تحيط بالبيت القديم حفريات بناء موحلة، تحت رافعات متأرجحة في الأعالي، إذ إن حيًّا سكنيًّا جديدًا يُشيَّد بكل قضه وقضيضه. لو لم يكن بيته، البيت الرومانسي الذي قضيت فيه سنوات طفولتي، قائمًا في تلك الهيئة الواضحة من اليتم كبيت «أوسه» الصغير، بين تلك المنشآت الكبيرة قيد التشييد، لصعُب عليَّ أن أتعرف

هذه المنطقة. إوز بري، بضع بجعات تتحرك بتثاقل في الطين الملوث على الضفة، دجاجات ماء متوترة في الوحل الأسود المشبع بزيوت التشحيم. طبيعة منتهكة، ذكرى. أدندن: «بوم بوم بوم، بوم بوم بوم» وأنا أسير صوب بوابة المقبرة القديمة. ولكن في غسق المساء، وأنا مستغرق في «آداجيو» موت «أوسه» لـ«إيدفارد جريج»، هذه المعزوفة المتفردة في نواحها على أم ميتة، أرى بعين خيالي الأطياف القديمة تتألق في هيئات ضخمة في الأعالي، مثل خيالات على جدران كهف، تضخمت على نحو غريب بفعل نار لا أعرفها.

* * *

لم أتذكر إلا بعد سنوات كيف سحبني جدي إلى خارج البيت ذات مرة ليريني كوكبة الدب الأكبر. قال بالانفعال المبتهج الذي كان يغمره عادة في مثل تلك اللحظات:

ـ انظر إلى هناك، هل ترى تلك العربة اليدوية الكبيرة؟ إنها الدب الأكبر.

نظرت في بادئ الأمر بكل بساطة إلى أنامله الملطخة بألوان زيتية كحلية، لكنني بعد ذلك رأيت متوازي الأضلاع الكبير ذاك ينساب عبر قبة السماء الهادئة، في الجو المعتدل في مطلع تلك الليلة من ليالي سبتمبر. قال مجادلًا:

ـ الكوكبة ليست على شكل مقلاة عميقة، كما يدعي كثير من الناس، إنها أشبه بعربة يدوية من النوع القديم المنسي، تصعد أطرافها في ميل بحيث تشبه سرير طفل من الطراز القديم، عربة يدوية في هيئة سرير طفل، والمقبضان الخشبيان الطويلان يظهران في النجوم الممتدة من الكوكبة. إنها العربة اليدوية التي شيَّع فيها «بيير جينت» أمه إلى السماء.

علمت لاحقًا أن تلك العربة اليدوية من النوع القديم لم يكن لها مقبضان يمتدان من جهتها العلوية، كما هي الحال في الكوكبة، بل يمتدان من تحت مساحة التحميل كي يستطيعا تحمُّل الثقل؛ شيء منطقي حسب قانون الروافع. دعونا لا نتصرف مثل الأطفال: إذا كانت الكوكبة تشبه شيئًا فإنها

تشبه عربة تسوق في سوبرماركت. ولكن هذا الضرب من المواربات، سواء بقانون الروافع أم بدونه، لن يستطيع النيل من بريق هذه الذكرى. رأيت أن تشبيه الكوكبة بدب كبير أمر أقل قبولًا من تشبيهها بمقلاة عميقة. سآخذ العربة اليدوية إذن. خطر في بالي لاحقًا أن الإنسان يصبح بهذه الطريقة شاعرًا سيئًا: عندما لا يكون بمقدوره أن يسبر أغوار ذكرى من الذكريات، يضطر إلى تكديس مقالٍ عميقة، دبة، عربات تسوق، أمهات متوفَّيات، زلاجات، «بيير جينت»، وعربات يدوية، بعضها فوق بعض في رأسه. وفي ذاكرتي بقيت أنظر إلى إصبع جدي الممدودة من جديد، في كل ليلة تتألق فيها نجوم صامتة.

* * *

في الركن الأيسر من الفناء، بجانب النافذة القديمة، يمتد المزراب التوتيائي لصرف مياه المطر من السطح المنخفض، ينتهي على ارتفاع قامة رجل من الطابق الأرضي، فوق برميل كبير يتلقف الماء. البرميل ممتلئ إلى نصفه على العموم، إذ إن الوالدة تسحب منه الماء في أيام الجمعة، اليوم الذي تغسل فيه الملابس، عمل يستغرق نهارًا كاملًا. عندما يسقط رذاذ خفيف كثيب، يتدفق الماء في البرميل في دفقات صغيرة متقطعة، أشبه ما تكون بسلسلة من قطرات ضخمة، كل واحدة أثقل من الأخرى. بلوينك... بلوينك... بلوينك... بلوينك... كويككك...

يوقعني خيالي في أحابيله. أسمع دقات على البيانو تتناهى من ذلك البرميل الساحر نصف المملوء، الذي يلمع فيه الماء بالسواد عندما ينساب الهلال عبر الغيوم، كما لو أنه أعمق من أعمق آبار مياه المطر. أرى كرات البلي تتدحرج إلى الأسفل على سلم من الرخام في ممر عالي السقف، مضاء بالنور في أحد الأديرة، إنه فصل صيف وأبي يضحك لي... مخروطات من كريستال، سلاسل لؤلؤ متدلية من ثريا، تتمايل في نسيم الصيف، يرتطم بعضها ببعض وتجلجل «جينك جانك جل» مثل دموع متجمدة على قناع في حفلة تنكرية... لا، لقد أخطأت... إنه

وقع سقوط الماء في البرميل، موسيقى تدغدغ أذنيَّ، مثل نغمات راقصة على مدرَّج موسيقي... بلوينك... بلوف... بليك بليك بليك... بلونز... بلوب... بلوينك...
أبذل قصارى جهدي كي أصم أذنيَّ عن الصراخ والشجار الدائر في المطبخ.

* * *

أخرج بطاقة صغيرة ملطخة بآثار الأصابع من تحت الغطاء القديم على مكتبه وأحدق فيها.

«أوربابن جوزيف إميل مارتين».
جندي في الفوج الثاني على الخط الأمامي، العمر: سبع عشرة سنة وتسعة أشهر.
السرية الأولى ـ الكتيبة الأولى.
تسجيل / رقم: ٥٥٢٣٨
طالب في الكلية العسكرية التابعة والكائنة في «كورتري ـ كورترايك»
حُرر في خنت، الأربعاء، الحادي عشر من نوفمبر ١٩٠٨.

* * *

لا يفصح عما إذا كان قد سجل في الكلية العسكرية في «كورترايك» كي يتخلص من الوضع المتوتر في المنزل، لكنه يكتب أن العمل في معمل صب الحديد قد أصبح يكلفه مشقة كبيرة. يتطرق أيضًا إلى الحديث عن صبي صانع جديد يتغزل بابنة صاحب المعمل، الأمر الذي يحرمه على ما يبدو من الفرص العادلة كافة للازدهار في الورشة. يصاب في فترة القلق والغموض هذه بأولى نوبات ضيق النفس، «إرث من أبي يواصل العيش في كياني». قبل بضعة أسابيع، كان قسيس من قساوسة الأبرشية قد استطلع نواياه: «ألا يشعر بأن الرب يناديه؟»، وأضاف القسيس بنبرة جافة: «إذ إنه بالنسبة إلى صبي مثلك، لا يملك شهادة ولا مالًا، ليس أمامه سوى طريقتين كي يتحرر من عبوديته، إما أن يصبح جنديًا أو قسيسًا».

يحس جدي أن هذا الكلام ليس له علاقة بنداء مقدس على الإطلاق، بل بشكل من أشكال المصلحة الشخصية التي لم يسبق له أن أحس به بهذا الوضوح. حسنًا إذن، إما جندي أو قسيس. يشارك بتحفيزٍ من الكاهن اليسوعي، صياد النفوس، «فان أكر»، في نوع من الخلوة عند اليسوعيين على مدى أسبوع كامل، يتراءى له خيال والده تحت شجرة توت صغيرة خضراء مزدهرة في حديقة الدير. يجافيه النوم في صومعته، يطرق صوتٌ رأسه ساعات طويلة «جندي أو قسيس»، ويحسم أمره، عندما يعود إلى البيت بعد أيام من الصلاة والمواعظ والترانيم. يقرر الالتحاق بالكلية العسكرية التي تستغرق الدراسة فيها أربع سنوات في المجموع. أربع سنوات يلبس فيها ملابس جيدة، ينتعل أحذية جيدة، يأكل طعامًا جيدًا، لا يضطر إلى جرجرة الأثقال والعمل مثل العبيد، لكنه يخضع للترويض من رقباء متقلبي المزاج، ينفذ أوامر سخيفة بإتقان لا تشوبه شائبة، يلفت الانتباه بما يتميز به من دقة، وأمانة، وانضباط، يتعرف لأول مرة في حياته إلى شباب من الطبقة العليا ـ شباب يعيدون إليه بأناقتهم ورونقهم، ولكنتهم الفرنسية، واستقلالهم المالي، ولطفهم المتعجرف، ما انتابه في متجر الكتب «أودلف هوسته» من شعور عميق بالتردد وانعدام الثقة بالنفس. يرى فيه قادته سريعًا خصال العسكري الحقيقي، فهو شخص ينجز أفضل من الآخرين، يفوقهم في الدقة والإقناع، والتواضع وعزة النفس في الوقت ذاته. لذلك يزيدون الضغط عليه. في بعض الأحيان يتعرض للعقوبة بسبب لطخة طين على بنطاله أو حذائه العسكري الطويل، بينما يفلت الآخرون من مثل هذه العقوبة. لا يُشعره هذا الأمر بالمرارة. يجلس في الزنزانة، حجرة صغيرة في الفناء الداخلي تحت شجرة زيزفون معمرة، ويغني الأغاني التي يتذكرها من سنوات طفولته. يقف في اليوم التالي باستعداد، وعزم لا ينثني، أمام القائد الثمل ذي العينين المضرجتين بالأحمر، الذي يقول له بالفرنسية:

ـ حسنًا يا «مارشان»، انصرف، عد إلى خدمتك.
يجيب بالفرنسية:
ـ شكرًا سيدي القائد. اسمي «مارتين» وليس «مارشان»، أمرك يا سيدي القائد.
ـ اخرس، «مارشان»، اللعنة!

* * *

«وبهذا» ـ يكتب الشيخ «أوربابن مارتين»، وهو جالس بأريحية في غرفته العلوية الصغيرة، أمام النافذة المطوقة بالدالية، والمطلة شرقًا على القوارب الكبيرة المبحرة بهوادة في نهر «سخيلده الأدنى» ـ «ينتهي الجزء الأول من حياتي». إنه فصل الربيع من عام ١٩٦٨، عندما يكتب هذه العبارة. لقد شرب القهوة مع ابنته للتو. ذهب أحفاده إلى المدرسة متأففين متذمرين كعادتهم. البيت هادئ. يقضم بسكويت «السبيكولاس». يُذاع في الراديو أن ثمة اضطرابات في باريس، لا يكاد يسمع ما يُذاع. يشدو عصفور نشيده الرتيب في مكان ما من حديقة الجيران الزاخرة بالنباتات. إنه يوم هادئ بسحب بيضاء. يشعر بشيء من الحزن في هذه الأيام. يفكر بزوجته المتوفاة «جابرييله». يتمنى لو كان بمقدوره أن يخبرها عن كل شيء مرة أخرى: «عما حدث في الحرب يا «جابرييله»». «أعرف يا «أوربابن». لقد أخبرتني به عشرين مرة يا رجل!». فيلزم الصمت. يمسك بأرياشه، يحرك بقع الألوان الصغيرة من اللازورد، محروق سينا، أليزارين، ونابل الأصفر، كي يزيل القشر الذي تشكل على الرسمة في أثناء الليل. يمضي إلى لوحته، يقف أمامها، ويلون بضع أوراق في شجر دردار يحيط بقلعة صغيرة متداعية لم يكمّل رسمها بعد. «أعلم ذلك يا «جابرييله»، يا فتاتي، كان ذلك في الماضي البعيد».

لكنه يبقى جالسًا في ذلك اليوم. يتراءى له مرة أخرى مظهره وهو يصعد هضبة «كاتن بيرخ» في خنت، في أثناء فحص قبوله في الكلية العسكرية، برفقة شاب يخضع للامتحان ذاته. لا يستطيع أن يتذكر اسمه، ماذا كان

يُدعى؟ هل كان «ألبرت»، «آدالبرت» أو «روبرت»؟ «بييركه»، نعم، ولا يتذكر أكثر من هذا.

* * *

يشتد ساعده في المبارزة، وفي إصابة الهدف على مسافة ثلاثمائة متر (يرتاب فيه ضابط تعرض لإهانة منه، فيأمر بالتحقيق في بندقية هذا المجند الذي يبدو أنه مدرَّب إلى حد بعيد). يتعلم الفرنسية بحكم الواقع المرير من قادته الذين يكيلون له الإهانات، ومن الشباب البرجوازيين المتعجرفين، لكنه من ناحية أخرى يمقت الجلافة الفظة التي يتسم بها كثير من الفلامنديين الريفيين السذج، الذين يقضون الليالي هائمين في الحانات، يقرصون الفتيات من أردافهن، ويتقيأون في أسرَّتهم. يصادق شابًا بسيطًا من أصول والونيَّة، سيراه على الجبهة بعد ست سنوات يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يتمرغ في الطين بطريقة فظيعة. ويطيع الأوامر ـ حتى عندما يجأر بها القائد الثمل: «سيلانس» بينما لا يحرك أحد ساكنًا. ولكن ذلك «السيلانس»، تلك الكلمة، أراها مكتوبة في دفتر مذكراته على نحو مغاير تمامًا، إنه يخطئ في كتابتها، يكتبها «سيلينس». تقفز الكلمة من الصفحة أمام عيني. كيف استطاع أن يخطئ مثل هذا الخطأ؟ ثم يتضح لي شيء غير معقول: إنه يخلط «سيلانس» بالاسم الذي يلاحقه دائمًا وأبدًا: اسم والدته «سيلين». «سيلانس»، «سيلين»؛ «سيلينس».

أظل أحدق في هذه الكلمة الغريبة، كما لو أن ضوءًا مسلطٌ على البئر المظلمة في روح جدي. لمحة عن شعوره بالوحدة، حنينه المكبوت، صرخته إلى والدته، مخنوقة في هذه الكلمة الأخاذة التي ما هي بكلمة: «سيلينس». أراه جالسًا إلى طاولته، يقضم بسكويت «السيكولاس». يكتب ويصمت.

> سأصمت وأكون قويًا يا أماه، أنا الذي صمدت معك في وجه العاصفة الرعدية في تلك الليلة الصيفية، وكنت الرجل الوحيد في حياتك وفي البيت، عندما تلألأ المطر على شعري وشعرك، وأصبحت حبيبك

الوحيد لحظة من الزمن، «بطلك الصغير»، كما طاب لك أن تسميني.
أنا الذي سأكون رجلًا في هذه الظروف المفروضة عليَّ رغمًا عني، أنا البعيد عن كل ما هو مألوف عندي.

يدوِّن كاتب التاريخ المتواضع:

«سيلانس»، «سيلينس». ساد صمت، لم أجرؤ فيه حتى على السعال أو مخط أنفي، كانت أوسمة الشرف على صدر القائد العسكري تصلصل مثل الصفيح.

* * *

يُنهي دراسته العسكرية بعد أربع سنوات من التدريب المهين، ومن الامتثال الخاضع لأهواء السكير المزمجر «بيليير» المزعجة، والتمارين اللانهائية في الطين والرمل، والليالي التي لا تُحصى من ألم العضلات، والنوم والأرق في المهجع قارس البرودة. يصبح قوي البنية، وشامخ الكبرياء، وقليل الكلام. يُسرَّح من الخدمة، يسلِّم بندقيته وبدلته العسكرية في مستودع الودائع في مدينة تيرموند. يعود إلى البيت، يتلقى استدعاء بعد بضعة أشهر للخدمة في الجمارك في المنطقة الحدودية شمال «زيلزاته». تلقي والدته رسالة الاستدعاء في الموقد «اللوفاني»: إذا كان يظن أنه يجب أن يخاطر بحياته من أجل القبض على لصوص المواشي المسلحين في الليل، ويقامر بصحته بالرقود في كيس نوم لليالي متتالية تحت المطر بين القنوات المائية في الأراضي السبخة، فيجب ألا يعتمد عليها. لم يُسرَّح من الخدمة حتى يفرِّط بحريته في الحال. يهز جدي رأسه بنعم ويصمت.

بعد مضي بضعة أسابيع، يتقدم للعمل في السكة الحديدية، ويعين حدادًا في ورشات ختنبروخه. إنها سنة فاترة، سنة من النظام والهدوء، يتعلم كيف يتعامل مع زوج والدته على نحو أفضل. يتنزهان معًا في بعض الأحيان على ضفة «سخيلده» ويتعلم أحدهما أن يفهم الآخر من بضع كلمات. إنه يناهز الثانية والعشرين من عمره، وترى أمه أن الوقت قد حان لأن يبحث عن

فتاة جميلة الطلعة وحسنة التربية لاتخاذها زوجة. غالبًا ما يهيم على وجهه في شوارع المدينة، المقلوبة رأسًا على عقب تحضيرًا للمعرض العالمي الوشيك، «لاغراند إكسبو إنترناشونال»، الذي من شأنه أن يضع خنت على الخارطة العالمية. ثمة حديث عن خلافات على التنظيم والتنفيذ. سرعان ما تمسك البرجوازية الناطقة بالفرنسية بزمام الأمور، خاصة وأن الألمان يفكرون بالاستثمار في المشروع بشكل فعال، ما يدفع البرجوازيين الفلامنديين في طور النشوء إلى لعب الورقة الألمانية، لمعرفتهم أن الشعب الجرماني الشقيق يدعمهم في صراعهم، من أجل الحصول على حقوقهم، ضد هيمنة البرجوازية الناطقة بالفرنسية في عقر مدينتهم. على هذا النحو تتضارب المصالح الألمانية والفرنسية بشكل مباشر قبيل المعرض العالمي في خنت؛ في ضجيج المعارض العالمية في العقود الأولى من القرن العشرين، يشكل هذا الأمر نذيرًا من نُذُر الشؤم بما هو قادم. لكن لا أحد يسبر عمق ما يحدث، في الخصام الدائر في خنت في هذا الوقت، ويرى فيه ما يرمز إلى شيء آخر، غير الحرب الفرنسية الألمانية قبل أربعين سنة والصراعات التي دارت بينهما في الماضي. يُهيمن الفرنسيون في آخر الأمر بسبب ضغط البرجوازية الناطقة بالفرنسية في خنت، ينسحب الألمان من لجنة التنظيم. يصبح المشروع فرنسي اللغة بشكل كامل، بسوء في الإدارة وفوضى في التنظيم. لا أحد يشعر بالحاجة إلى معرض من هذا النوع في واقع الأمر، ما عدا المدينة الطموحة نفسها. يتذمر البرجوازيون الفلامنديون الناشئون ويهمهمون بأن العدو من الشعب نفسه؛ تصبح الطبقة العليا من البرجوازية بعنجهيتها فرنسية اللغة عنصرًا «غريبًا عن الشعب» في قلب مجتمعها. تظهر الصدوع الأولى بين أبناء المدينة بشكل ملموس، ولا سيما في مشروع كان من المفترض أن يظهرهم وحدة متجانسة. ترتفع منشآت لانهائية من الطين كي تبدي للعيان أمجاد العالم الجديد والعالم القديم، بكل ما فيهما من تنوع في النسيج الاجتماعي. إنها الحقبة الأخيرة من الخطاب

الاستعماري الطنان والنزعة الغرائبية المزيفة المرافقة له. يُزج بجماعة من السنغاليين في قرية مشيدة على نموذج قرى السنغال، لكن بوابة هذه القرية الأفريقية أشبه ما تكون ببوابة قلعة جرمانية. تتسبب إقامة السنغاليين في استياء عام من جراء شائعات تقول إن «فتيات معيّنات من خنت» يذهبن إلى «سيتاديل بارك» وينظرن بنظرات غزل إلى «الزنوج ممشوقي القامة» المثيرين للإعجاب. عندما يعرب بعضٌ من هؤلاء عن رغبته في البقاء في خنت بعد انتهاء المعرض، يُزج بهم سريعًا في سفينة متجهة إلى أفريقيا. يحضر أيضًا وفد عن هنود «إيغوروت» من الفلبين. يصفهم الكاتب «الخنتي» العظيم «سيريل باوسه» بأنهم هجناء من قرود ومنغوليين، معتمدًا في وصفه على حدسه. يقيم هؤلاء الهنود الفقراء هم أيضًا في منشأة خاصة، مشيدة على طراز المباني الفلامندية في القرون الوسطى. بعد المعرض، الذي يدوم من أبريل إلى نوفمبر، يُرى بعضٌ من هؤلاء الهنود يتسول في الشوارع؛ يموت منهم رجل شاب بسبب عدم قدرته على تحمُّل الطقس القارس وبسبب، حسبما تكتب الجرائد بحماسة، حنينه إلى البرية. الشاب يُدعى «تيميخيخ». في عام ٢٠١١، بعد مضي ما يقارب مائة عام على موته، وبعد جدالات في المجالس، والهيئات، والمنتديات الإلكترونية، تسمي مدينة خنت نفقًا تحت السكة الحديدية القريبة من محطة «سانت بيتر ستاشيون» باسم هذا المنكوب تعيس الحظ، الذي عُرض على شكل نموذج عن الحقبة الاستعمارية في أثناء المعرض العالمي. حتى لقد حضر مراسم الافتتاح وفد فلبيني، عبَّر عن امتنانه العميق المتواضع لسعادة رئيس البلدية وحضرة مدير السكة الحديدية.

* * *

يهيم «أوربابن» على وجهه بين الجماهير، في شهور الصيف من عام ١٩١٣، واضعًا يديه في جيب بنطاله الخاص بيوم الأحد، يختلس النظر إلى الفتيات الأنيقات من العائلات المرموقة في خنت، من دون أن يجرؤ

على التحدث إليهن. إنه إنسان مؤمن حتى الصميم ومنكفئ على نفسه. يجلس على مقعد بين الحين والآخر، بدفتر رسم صغير في يده، ويرسم ما يراه. عثرت بين الإرث الذي تركه وراءه على رسوم أولية للوحة صغيرة لا أزال أتذكرها بوضوح: صورة رجل أسود، بوجه مغضَّن وعفيف مثل مسيح دنيوي، يحدق بنظرة داكنة إلى الأرض. هل رسم واحدًا من ضحايا المعرض العالمي الغرباء، واحدًا التقاه في المدينة؟ على حد علمي، كانت اللوحة الصغيرة معلقة في غرفته العلوية على الدوام، فوق الباب مباشرة، في المكان الذي يجب أن يُعلق فيه صليب المسيح حسب العادة ـ عندما زرت والدي في الآونة الأخيرة، كانت اللوحة قد اختفت، وحل محلها بالفعل صليب صغير من الخشب. أين اختفت تلك اللوحة فجأة؟ لم يعرف والدي الجواب أيضًا، ولكن في ذاكرتي ستظل الصورة الكئيبة عالقة في ذلك المكان على الدوام. لم أفهم رمزية ذلك الوجه الغريب قَطُّ، ولا حدث أن سألت جدي عنها، لأنني أدرك الآن فحسب، وأنا أكتب هذه السطور، أنه من المؤكد كان هناك شيء آخر، ربما لقاء أو حديث مع واحد من أولئك الناس الذين عُرضوا من دون خجل ولا حياء ـ مثل أشياء كثيرة أخرى لم يكن يتحدث عنها، لكنه من المؤكد كان يفكر فيها في فترات الظهر الهادئة من أيام الآحاد، بينما يهدهد برنامج الأوبرا في الراديو أفراد أسرته إلى غفوة خفيفة يُنسى فيها كل شيء.

* * *

يحتفل برأس السنة الجديدة ١٩١٤ مع أسرته. يسرد حكايات قوية عن الجيش، بينما يصغي إليه إخوته وأخواته الذين يصغرونه في السن بإعجاب شديد. في ربيع ذلك العام، يتزوج أخوه غير الشقيق «بوريس»، الراضي بقدره كموظف يعاني فقر الدم في مكتب، فتاة يراها «ورعة ومرحة الطبع» لكنها لن تنجب أبدًا. يسجل «أورباين» في دورة رسم مسائية مرة أخرى، ويحالفه التوفيق أكثر من المرة الماضية. ما إن تمضي ثلاثة أشهر حتى يُسمح

له بالرسم من موديلات حية ـ شباب يلتفعون بمآزر فضفاضة، يقفون أمامه مثل تماثيل يونانية، مستندين إلى منحوتات من جذوع شجر مغضنة مغطاة بالغبار. يتعلم من «الفرير بروفيسور» أن المرء يجب أن ينتبه لعضلات ما تحت الجلد عندما يرسم الأطراف، وأن «ليوناردو دافنشي» ابتكر قياسات معينة لجسم الإنسان في نطاق عام، وأن المرء يجب أن يحاول رسم الملائكة بشيء من المصداقية، بعبارة أخرى، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار الطريقة التي يثبت بها الأجنحة على لوح الكتفين، إذ إن العضلات لها صلة وثيقة بهذا الأمر. فهذه الكائنات لا تطير عبثًا؛ التشريح يتضمن ما هو أكثر من الجسم، هذا ما يضيفه على نحو ملغز.

* * *

يموت ابن عم «سيلين» في مقتبل عمره بشكل مفاجئ. إنه شهر يوليو من عام ١٩١٤. بينما يعمل الرجل، وهو عامل كهربائي، في مقصورته، أصابه مس كهربائي من كابل ذي جهد عالٍ ومات على الفور. لا توجد مواصلات عامة من مكان إقامتهم إلى بلدة «إفرخم» التي سيُدفن فيها. تطلب «سيلين» من ابنها الأكبر أن يذهب نيابة عن أسرتهم. هكذا يسير بمفرده على الطريق البالغ طوله أكثر من عشرة كيلومترات، ثم يقطع القناة من خنت إلى تيرنويزن بالعبَّارة. يحضر أناس قلائل مراسم الدفن المتواضعة. ما إن يحضر القداس في الكنيسة ويقدم العزاء حتى يرجع أدراجه. الطقس رائع. عندما يقطع القناة مرة أخرى، يمشي في السهل الرملي الممتد على طول ميناء «بورت آرثر». يعبر بالنصب التذكاري للقبطان الطيار «دانييل كينيت»، الذي سقطت طائرته مزدوجة الأجنحة في هذا المكان. لا يزال يتذكر الحادث جيدًا، على الرغم من مضي أربع سنوات عليه. في صباح ذلك اليوم، ذهب إلى الميناء، نزولًا عند طلب «كينيت» بعد رحلة المنطاد في ساحة «سانت بيتر»، من أجل حضور العرض الجوي الذي كان قد أُعلن عنه قبل وقت طويل، رمزًا للعصر الجديد، للجسارة التي تتألق بها المدينة،

للأمل في مستقبل باهر في القرن الجديد. عرَّج في طريقه إلى سهل «بورت آرثر» على مزار «سيدة لورد» في «أوستاكر»، وفي اللحظة التي وقف فيها أمام كهف العذراء بيدَين مطويتين إحداهما فوق الأخرى، عبرت الطائرة مزدوجة الأجنحة من فوقه، على ارتفاع أقل من مائة متر، بسرعة البرق: كان «كينيت» يقوم برحلات تجريبية قبل العرض الجوي الذي من المفترض أن يضفي تألقًا على مهرجان خنت في ذلك اليوم. كانت رحلة الطيران الحقيقية، المقررة في التاسعة والنصف، ستصل إلى أوستنده، عن طريق قناة خنت-بروخه-أوستنده. كان من المزمع أن يهبط «كينيت» هبوطًا احتفاليًّا على الشاطئ، أمام العائلة المالكة مباشرة التي ستكون بانتظاره هناك. كان «أوربابن» يقف قبل التاسعة والنصف بقليل، في ذلك اليوم العاشر من يوليو ١٩١٠، بين الجماهير المنتشرة يحملق في السماء، عندما أقلعت طائرة «فارمان» وسط تصفيق عالٍ وصيحات تشجيع. فجأة بدأت الطائرة تميل، انقلبت بسرعة، وسقطت فوق شجرة بعد لحظات قليلة. كان الدوي هائلًا، اخترقت الطائرة رأس الشجرة، طقطقت الشجرة، طارت الأغصان في الهواء، تبعثر سرب من عصافير الدوري في جميع الاتجاهات. في الصمت غير الواقعي الذي ساد في تلك اللحظة، أسرع عدد من الناس إلى مكان الحادث. لم يكن قد بقي شيء سليمًا تقريبًا من الطائرة. أخرجوا «كينيت» المصاب بإصابات بليغة من بين الحطام. نقلوه بعد الإسعافات الأولية إلى العيادة الخارجية الملحقة بالمستشفى في جادة «كاستيل». عاد إلى وعيه، استطاع حتى أن يتكلم، وأُجريت له في اليوم التالي عملية جراحية ناجحة في غشاء بطنه المشقوق وكليته المتأذية، لكنه مع ذلك توفي في ١٥ يوليو إثر توقف قلبه عن الخفقان، من المحتمل نتيجة التوتر بعد العملية الجراحية. وقف جدي أمام بوابة المستشفى بعنقود عنب في سلة صغيرة، لكنهم لم يسمحوا له بزيارة المريض المشهور. كتب له رسالة خرقاء يتمنى له فيها الشفاء العاجل، وقرأ خبر وفاة «كينيت» في الجريدة بعد مضي عدة أيام.

كان للخبر وقع شديد عليه بطريقة أو بأخرى. كان «كينيت» بالنسبة إليه مثال الشجاعة ومثال ما يسميه هو نفسه بـ«الرجولة».

الآن، بعد أربع سنوات، وفي شهر يوليو الصيفي من جديد، يقف لحظة قصيرة أمام الكتلة الحجرية الضخمة المزودة بكتابة منقوشة، المغروسة على سبيل التذكار في السهل المترامي الأطراف على طول الميناء. يلقي تحية عسكرية. تحوم حول النصب التذكاري حشود من الفراشات، ينشد طائر دج على شجرة من أشجار الحور الرفيعة القائمة على الطرف اليمين. وراءها بقليل تشيع الفوضى في الطبيعة؛ يُشيَّد رصيف كبير ثانٍ للسفن. على مسافة من الدرب الوحيد الذي يسلكه عبر الأحراش والشجيرات المبعثرة هنا وهناك، تقوم مخازن مؤقتة بآلات كبيرة من الطراز الحديث. يقرأ على أحد هذه المخازن بالفرنسية «شركة الخرسانة المسلحة». يكتب في مذكراته:

كانت منتجًا جديدًا، لم يسبق لنا أن سمعنا به في ذلك الزمان.

(سرعان ما يسمع به: لأن خرسانات الحصون المحيطة بمدينة لييج لم تكن مسلحة بالحديد، لم تستطع الصمود في وجه القنابل الثقيلة وقذائف الهاون الألمانية). الطريق مقفر، يتناهى إلى مسمعيه شدو طائر النقشارة الرتيب من مكان ما بين الأحراش. يبعد مزار «سيدة لورد» في «أوستاكر» أقل من كيلومتر واحد؛ إنه على مرمى يزيد قليلًا على طلقة رصاص من مسافة طويلة، هذا ما يخطر في باله ـ ما يقارب سبعمائة متر في ذلك الزمان. تميل الشمس إلى الغروب، تظل حرارة اليوم متوهجة على الطريق الترابي والطبيعة المهجورة المحيطة به. تقوم على الطرف الأيسر من الطريق مصطبة ليست عالية، إنها نوع من السدود أو الحواجز. يلفت انتباهه أن عشبًا فتيًّا يبرز من بين الرمل الهش، الأمر الذي يدل على وجود رطوبة في هذا المكان.

يرى فجأة بضع قطع من الملابس مكدسة بعضها فوق بعض، باللونين الأبيض والأزرق. يقول فيما بينه وبين نفسه: «لونا ملابس السيدة العذراء».

يخطو بضع خطوات في ذلك الاتجاه مدفوعًا بالفضول، يصعد فوق الحاجز المنخفض، ويلاحظ بركة من المياه وسط الرمال، وعلى الفور يتلقى ما يسميه في مذكراته «أكبر صدمة في فترة شبابه». فتاة في نحو الثامنة عشرة من العمر تنهض واقفة، مصدومة، في البركة. تصل المياه إلى ما تحت ركبتيها بقليل. يقف في ذهول ـ إنها المرة الأولى التي يرى فيها امرأة شابة عارية من الملابس. أما هي فتنظر إليه بشيء من الترقب، بشيء يشبه الاعتذار. ما يقف أمامه شيء لا يستطيع أن يصدقه، قامة تفتح عالمًا مغايرًا تمامًا في كيانه، عالمًا يحرص على أن يبقيه مغلقًا، بدافع من الورع والكبت المرافق له. تقف الفتاة في ضوء الشمس المائلة إلى الغروب، وتبدو أنها في حالة ترقب، ولكن لا يلوح عليها أنها خائفة. لا يعرف كيف يتصرف. يكتب:

> يجب أن أعترف بأنني ارتبكت أشد الارتباك، فقد غمرتني أفكار من شتى الأنواع. هل رأتني قادمًا؟ لماذا لم تبقَ تحت الماء؟ لماذا وضعت ملابسها على بُعد عشرات الأمتار من الضفة، فوق حاجز على مرأى من عيون الجميع؟

أتضمر ما يسميه هو «نوايا غير عفيفة»؟ ألا تعرض نفسها لخطر أن يتحرش بها أحد العمال وهو في طريقه إلى البيت؟ ليس ثمة شجيرة ولا جذع شجرة مقطوع في المكان؛ لا يحميها سوى الحوض المنخفض في هذا المكان المقفر الموحش في هذا العصر الدافئ. يبدأ العرق يتصبب منه، تنظر الفتاة إليه بما يشبه ابتسامة. يتلعثم باعتذار، يشعر بياقة قميصه تضغط على عنقه، يومئ لها بأن لا بأس في الأمر، يدور على عقبيه، ينظر إلى الفتاة مرة أخرى. لم تُبدِ حراكًا طوال هذا الوقت، لم تفعل شيئًا سوى أنها رفعت ذراعها اليسرى ببطء ووضعتها على صدرها. يرى الذؤابة الشقراء الداكنة تحت بطنها، الانحدار الطفيف المظلّل في سرَّتها الصغيرة، الخط المقوس في أسفل صدرها الفتي الذي يظهر من تحت

ذراعها، الكتفين المشدودتين والشعر المتطاير بنعومة فوقهما ـ كل هذه الأشياء التي لا يعرفها سوى من لوحات قرون ماضية، أو بالأحرى من رسومات في كتب مغمورة. وأما أن تظهر أمامه في هيئة مخلوق يتنفس، وعارٍ، وواضح! يفهم في طرفة عين جانبًا من سذاجته غير المعقولة. يريد أن يسألها ألا تخاف أن يحدث لها شيء. لا يعثر على كلماته، تمر دقيقة تطول إلى ما لا نهاية قبل أن يومئ بأنه سيغادر، يتسلق الحاجز على الفور، يحث خطاه، يحس برأسه يدور به. ينظر إلى الوراء بعد خمسين مترًا. يبدو أنها خرجت من البركة؛ يرى رأسها بارزًا من فوق الحاجز، وعينيها تتعقبانه «مثل سنجاب فضولي من وراء شجرة». يتابع سيره بخطى سريعة، يدق قلبه في حنجرته. يشعر فجأة بأن النهار الخامل، والشجيرات، والسهل الوحيد، أشياء غير حقيقية.

يصل باضطراب شديد إلى المزار، يعبر بالألواح الخزفية الرنَّانة المكتوب عليها عبارات الشكر حتى يبلغ الكهف، يرى تمثال الأم العذراء، يحس بوخز في صدره، يستل مسبحته من جيب بنطاله، ويتمتم بالدعاء عسى أن يهدأ باله. يقول فيما بينه وبين نفسه: «أنا عسكري، أنا عسكري، رأيت عذراء، رأيت فتاة يا أم الرب، لم تكن صورتك، بل امرأة مثل النساء في لوحات «جورجوني» و«تيتسيانو»، رأيت فتاة عارية حية، ظهرت لي من العدم، ملابسها باللونين الأبيض والأزرق، آه أيتها الأم العذراء، ماذا فعلتِ بي؟». من شدة ما تطرق هذه الأفكار رأسه الخافق، يتساءل في ارتياب، بعد مضي عدة ساعات وهو جالس في غرفته في البيت، هل ما رآه كان حقيقيًا: ألم يكن توهمًا من جراء الحرارة، الوحدة، مراسم الدفن التي حضرها قبل الظهر، النظرة الجانبية التي رمقته بها واحدة من بنات عمومته، ذات شعر أشقر داكن، ترتدي الأسود وتصلي بورع على كرسي خيزراني على الجانب الآخر من صحن الكنيسة؟ ألم يكن امتحانًا من شيطانة خبيثة؟ يحاول أن يرسمها من ذاكرته، فيتشوش أكثر، ويمزق الورقة، ويضطر إلى أن يسحب مسبحته خمس دورات وهو

يتمتم بالصلاة قبل أن يركن الجزء السفلي الثائر من جسمه إلى الهدوء بعض الشيء. يجب أن أكون عفيفًا، يجب أن أكون عفيفًا، لا يعرف لماذا يجب أن يكون عفيفًا، لكنه يجب أن يكون، يجب أن يكون.

قبل شهر من ذلك اليوم، كان الشاب الصربي «غافريلو برينسيب» قد اغتال الأرشيدوق النمساوي «فرانز فيرديناند» في سراييفو، وقاد بذلك كل العالم، على النحو الذي يعرفه جدي، إلى الدمار، لكنه لم يكن على حال من هدوء البال يستطيع معها قراءة الجرائد. كان يحبِّذ أن ينظر إلى الأمهات العذراوات المتوردات بعض الشيء في لوحات «رافائيل» و«بوتيتشيلي»، ويعصر شعوره بـ«يجب أن يكون» في راحة يديه.

* * *

إنه شهر يناير عام ٢٠١٢. ذهبت بضع ساعات إلى مقبرة «آلسيمبرخ فورست»، في جنوب بروكسل، لأنني توصلت في أثناء البحث أن قبر «دانييل كينيت» المهمل موجود هناك، البطل الذي سقط بطائرته في المكان الذي رأى فيه جدي أول مرة ـ وربما آخر مرة ـ في حياته فتاة شابة وهي عارية من الملابس، قبل اندلاع الحرب العظمى ببضعة أشهر فحسب. «إيكاروس» و«أفروديت»، هذا ما خطر في بالي، شيء لا يُصدق من شدة جماله. لذلك قدت سيارتي إلى المقبرة التي شاءت المصادفة أن تكون على مقربة من المكان الذي انعكفت فيه على الكتابة فترة طويلة. كيف انتهى المطاف بـ«كينيت»، الشاب والوني الأصل، المنحدر من بلدة «جومي»، والضيف المرحب به في خنت، في مقبرة مهملة في جنوب بروكسل؟ لم يكن هناك أحد أستطيع أن أطرح عليه هذا السؤال.

إنه يوم صافٍ من أيام الشتاء. أشجار الزان اللامعة تنوح ببرود في الريح خلف جدار المقبرة، تتبعثر أغصان متطايرة وبرك طينية على الدروب، فقد هبت عاصفة قوية في اليوم السابق. في أحد الأماكن سقطت شجرة على بضع شواهد قبور قديمة؛ تكسَّرت بعض بلاطاتها القديمة، تلمع البرك الموحلة

في القبور المفتوحة. يبدو الضوء نفسه كما لو أنه مغسول، مصفًّى. تخلخلت الشواهد القديمة ومالت بعضها إلى بعض، بحيث لا يمكن قراءة العبارات المنقوشة عليها، وغطت بقع طحلبية بيضاء متحجرة حروفها القديمة. طايرت الريح أصص أزهار بلاستيكية إلى بقعة طينية بجانب ضريح؛ تكسرت ثلاثة صلبان خشبية وتشابكت أجزاؤها، لا يمكن تمييزها من النفايات سوى من الأسماء المكسورة من نصفها. تآكلت الأخاديد العميقة في الدروب المنحدرة من شدة العاصفة الهوجاء. أُغلقت الطرق المفروشة بالحصى هنا وهناك بأشرطة حمراء وبيضاء من البلاستيك. المقبرة مرتَّبة بنظام عجيب. الرقعة الأقدم المحتوية على الأضرحة التذكارية محاطة بجدار، ترقد وراءها بقليل قبور الجنود في أنصاف دوائر؛ هناك أماكن عشبية مفتوحة لا تخدم أي غرض على ما يبدو، ترقد على حافة بعضها شاهدة قبر واحدة من دون أي إشارة عليها. على مسافة أبعد قليلًا يحيط صف من أشجار السرو برقعة تكدست فيها آلات معطوبة وأزهار أقحوان ذابلة. لا يلوح الأسى على أي شيء هنا في واقع الأمر، كل شيء ينم عن الفناء اللامبالي والهادئ. أعبر بقبور تحمل أسماء من قبيل «كورليونه»، و«سخيافوني»، و«ده فلامينك»، إلى أسماء من قبيل «مرازيك ماراسكو»، و«دودو»، حتى «يونيوم»، «توبيونسكي دولتوف»، «بيرشوفال» و«كالوت»، أتجول ثلاث مرات في حقل الموتى الموحل من دون أن أعثر على شاهدة قبر «كينيت» الرمادية البسيطة. لعلها ترقد بين عشرات الشواهد الصغيرة المطمورة تحت طبقة سميكة من اللبلاب، والتي لا تستطيع أن تخمن وجودها إلا من انتفاخ بسيط في المعترش الأخضر. ليس هناك أي شخص أستطيع أن أسأله عن مكانها، فالمكتب الصغير مغلق؛ أحاول التحدث إلى امرأة عجوز، لكنها تبلغ من الصمم أنها لا تفهم ما أقول، حتى عندما أصرخ في أذنيها المعترشتين بالزغب. لا أعثر على شاهدة القبر إلا بعد انقضاء شهور، في أثناء بحث للمرة الألف، وأجد عليها جناحَي ملاك من دون جسم.



أقود سيارتي إلى ميناء خنت في اليوم نفسه، كي أرى النصب التذكاري المقام لـ«دانييل كينيت»، ومن المحتمل أيضًا بركة الماء التي خبر عندها جدي «التجلي» قبل زمن قصير من الحرب، على الحافة القصوى من العالم القديم؛ لا بد أن يكون قد بقي من هذا المنظر الشاعري ما أستطيع لمسه. ينتهي المطاف بي في فوضى المرور على الطريق الدائري المحيط بالمدينة، أنساب مع التيار، بين الشاحنات النافثة سحابات من السخام، باتجاه مخازن الحبوب الكبيرة القريبة من الطريق الصناعي. لقد تلبدت السماء بالغيوم وأصبح الطقس صقيعي البرودة. يتعرف «الجي بي إس» طريق «دانييل كينيت». يوصلني إلى أرض محايدة في وسط منطقة الميناء المهجورة، حيث ساحات صناعية غامضة، مستودعات بضائع، سياجات، جبل ضخم من خردة الحديد بجانب طريق «فارمان»؛ المسمى على اسم

صانع الطائرات الفرنسي «هنري فارمان»، الذي صمَّم طائرة «كينيت» مزدوجة الأجنحة. بعد قليل من البحث أعثر على النصب التذكاري في المكان الذي سقط فيه «كينيت» بطائرته. يقف الحجر التذكاري يتيمًا بجانب شارع «سينجل»، حيث تقف عشرات الشاحنات الصفراء والحمراء في صف واحد. يرتفع برج كهرباء شاهق وراء النصب التذكاري مباشرة، فيختزل معنى هذا الحجر العالي أمتارًا والمنحوت في الجرافيت الأزرق الخشن، إلى نسب تافهة. تقف امرأة شابة بشعر مموج أحمر داكن، في سترة جلد وبنطال جينز، وقد انهمكت في التصوير في الهواء القارس؛ ما عدانا نحن الاثنين لا تُرى روح حيَّة في هذا المكان. تركب المرأة سيارتها وتغادر. لم نتبادل كلمة واحدة، لكن رمق أحدنا الآخر بنظرة خاطفة مدفوعًا بفضول غامض. من بحق السماء يمكن أن يأتي إلى هذه الساحات المهجورة في يوم ضائع من أيام الأسبوع؟ من يمكن أن يتجول حتى مائة متر سيرًا على الأقدام في هذا المكان، في عالم لم يعد يوفر أي بُعد إنساني؟ أجيل النظر فيما حولي: لا شيء غير فضاء مغمور مهمل، شأنه شأن تلك الفضاءات التي خلَّفتها الصناعات الكبرى في أرجاء العالم كله. أضرار جانبية في الفضاءات. البركة البسيطة التي رأى فيها جدي طيفه الشاعري، مطمورة في الأعماق تحت الأسمنت المسلح لمخازن القمح. لعلها لم تكن أكثر من حدبة صغيرة في الطبيعة آنذاك، أجهزت عليها الحفَّارات من غير اكتراث في أثناء توسيع الميناء قبل عقود من الزمن.

أنضم إلى ازدحام مرور مرة أخرى، لقد بدأت ساعة الذروة، لأذهب من هناك إلى مزار «سيدة لورد» في «أوستاكر». في المزار أتهاوى أنا نفسي في ذكريات طفولتي: فندق «لورد» ذو الطراز القديم الغريب، الكاتدرائية الداكنة ذات الأعمدة الرفيعة الشرقية الطراز على طول الصحن، في كل مكان العبارات المنقوشة في تمجيد السيدة مريم، الألواح الصغيرة بالأسماء، الألواح التذكارية الكثيرة لتلك الفتاة الفلسطينية التي حبلت من

دون نطفة بشرية قبل ألفَي سنة فأنجبت إلهًا إنسانًا. أشتري منشورًا يضم صلوات لـ«العذراء سيدة الأحزان السبعة»، صلوات جدي المفضَّلة. لا يُرى أي شخص في المكان. يرخي الظلام الشتوي سدوله في الخارج، تهب رياح شديدة البرودة. أسير إلى الكهف الذي أراه أقرب بكثير إلى الكاتدرائية مما أتذكر، لكنني أسمع، وتمامًا على النحو الذي احتفظت به ذاكرتي منذ سنوات طويلة، الرنين المرتعش نفسه المنبعث من الألواح الخزفية اللانهائية المكتوبة عليها عبارات الشكر، المعلقة في صفوف لامحدودة على السياج الممتد على طول الدرب المفروش بالحصى المحيط بالمزار، وهي تتأرجح في الريح ويرتطم بعضها ببعض برفق ولين، موسيقى رقيقة من الزمن البعيد تنهمر عليَّ بكل ما يملكه المنسي من قوة. ينتصب أمام الكهف الذي يقوم فيه تمثال الأم العذراء، تمثال صغير للقديسة «برناديت سوبيرو»، المرتدية هي أيضًا ملابس باللونين الأبيض والأزرق. تجلس الفتاة الروحانية في وضعية الصلاة، في ميل بسيط إلى الوراء، مطوية يديها إحداهما مع الأخرى، ورافعة رأسها إلى الطيف في الكهف المحاكي للكهف الأصلي؛ السيدة مريم نفسها محاطة بعدد وافر من اللمبات الصغيرة، اللمبات التي لم تكن موجودة بعد، من دون شك في ١٩١٤. لا بد أنه وقف يصلي هنا، والعرق يتصبب منه، في حرارة آخر النهار. أحاول في خيالي أن أسلك الطريق الذي سلكه من البركة، حيث الفتاة العارية من ملابسها الزرقاء والبيضاء، إلى هذا المزار، ولكن محاولتي تذهب أدراج الرياح: الطريق الدائري، المباني، الساحات الصناعية، السياجات، الشوارع، السكة الحديدية، كل هذه الأشياء تقطع ذلك الطريق، شأنها شأن قوة وحشية قطعت مسار أغنية قديمة، والتقنية الحديثة التي دكَّت الذكريات في كل مكان برعونة.

على طول الدرب المحيط بالمزار، تقوم سبعة كهوف أصغر حجمًا تتجسد فيها مشاهد الورع. تتشنج أصابعي من البرد، أشد ياقة معطفي

حول عنقي كي لا أصاب بالزكام. أدخل الدكان المقفر المضاء بضوء مائل إلى الصفرة، الذي تباع فيه التذكارات الدينية، أشتري لوحًا تذكاريًّا صغيرًا بخمسة عشر يورو. أختار نصًّا محايدًا: «بدافع الامتنان». لم تعد الألواح التذكارية تُصنع من الخزف الرنَّان، بل من الفخار الرخيص، ربما يصنعها أطفال صغار مؤمنون إيمانًا عميقًا في ظروف قاسية في دولة من دول العالم الثالث. تسأل البائعة الشقراء شقرة داكنة، في نحو الخمسين من العمر، إن كنت أريد مشبكًا صغيرًا كي أعلق به اللوح على السياج. أجيب بالنفي. تضع مع ذلك مشبكًا صغيرًا في ورق التغليف. أضع اللوح المغلَّف في جيب معطفي، وأسير مغادرًا الساحة المهجورة. يسير ديك إنجليزي إلى جانبي طوال الوقت باستياء، وكأنه يحذرني ألا أفكر حتى مجرد تفكير بالنظر إلى دجاجاته الثلاث التي تحجل وراءه. لا أزال أتلكأ بعض الشيء في المغادرة وأجيل عيني فيما حولي. لم يسبق لي أن شعرت بالسرعة التي تفنى بها حياة الإنسان بهذا العمق. لا أعلم أي شيء عن الفتاة التي وهبت جدي تلك الذكرى المخضَّبة بالروحانية بتجليها الخارق، لا اسمها، ولا أصلها، ولا شكلها، ما عدا عباراته شبه المصدومة التي يصف بها قامتها الناهضة من المياه ـ إنها تجلِّي الهيئة الإنسانية بكل ما تحمل من نقاء، مجهولة الهوية إلى حد يؤهلها أن تكون الصورة التي يمكن أن يطلقها الإنسان إلى الفضاء الخارجي كي تعطي ساكني الكون من غير البشر فكرة عن الهيئة التي يكون عليها الكائن البشري وعما يمكنهم أن يتوقعوا رؤيته إذا ما حطوا رحالهم على هذا الكوكب. إنها الصورة الأخيرة التي تجسد العالم الشاعري القديم، الذي ولَّى إلى غير رجعة بعد مضي بضعة أيام، يدندن راديو السيارة بأخبار اليوم في أذنَيَّ، لكن الهدوء يطغى على كل شيء، بينما أقود سيارتي، التي لم يسبق أن قدتها بهذا الهدوء، منفصلًا عن كل شيء وعن كل شخص، كما لو أنني عائد من شيء في غاية العذوبة وعصي على التصور، متصالح مع

حقيقة أن كل شيء قد تلاشى. في الكاتدرائية قرأت في كتاب قدَّاس، ثم وضعته في جيبي في الخفاء:

أنا سقيتك ماء الخلاص من صخرة
وأنت سقيتني مرارة وخلًا
قدوس الله، قدوس الذي لا يموت
ارحمنا.





٢

١٩١٤-١٩١٨

١

لماذا أسمع عزف ذلك الأرغن في رأسي طوال الليل؟

يطير إوز بري عابرًا السماء، مرة بعد مرة. توافدت طلائع الإوز قبل غبش الفجر بقليل، في اللحظات قارسة البرودة قبل طلوع الفجر. طارت فوق الحقول وهي توقوق، وأجنحتها تلمع في الأشعة الأولى للشمس الآخذة في الشروق. أرتجف إلى درجة أنني أشعر بعظامي تطقطق في جسدي. في البُعد تفتح السماء مروحة رقيقة بلون رمادي، وردي، وأثر برتقالي خفيف. يعوم فوقها البياض الطفيف الذي ينضح به السديم المتصاعد من الحقول.

إنه الخامس من أغسطس ١٩١٤. قبل أربعة أيام، في نحو الرابعة صباحًا، سمعنا طرقًا شديدًا على باب البيت؛ عضو في المجلس البلدي ورجل شرطة؛ صوت أمي المرتعب الخافت؛ وأنا الذي أنزل السلم وأراها واقفة على الباب المفتوح بشعر مشعث وروب منزلي ملفوف بسرعة على جسمها. مُنحت عشر دقائق لأظهر عند الباب بـ«كامل حلتي العسكرية»، كما سمَّاها رجل الشرطة. سيوجه شخص شباب الحي كلهم إلى الساحة القريبة التي يجب التجمُّع فيها. لا أقول شيئًا؛ لا تقول أمي شيئًا. تأخذني بين ذراعيها بقوة، تحضنني برهة طويلة، أشم رائحة النوم في أنفاسها، ورائحة أديمها. تتركني. أرى نظرتها الشاحبة، التي لا يسبر غورها.

أقفز في ملابسي من دون اغتسال، أسحب مشطًا عبر شعري. أنا «أوربان جوزيف إميل مارتين»، برتبة عريف، عمري ثلاثة وعشرون عامًا. درست أربع سنوات في الكلية العسكرية. أعلم ماذا يجب أن أفعل، أعرف كيف أطيع من دون أن ترمش لي عين، أستطيع الوقوف من دون حراك في المطر والبرد ساعات طويلة.

يتوافد مزيد من الإوز إلى سماء ما فوق الأراضي، بعضه يوقوق في الغبش، ولا يتوقف عزف الأرغن ذاك في رأسي. أرى هناك، وراء بيت مزرعة منخفض، طيور الزقزاق تطير فوق الحقول؛ تبدو حائمة مثل قصاصات من الورق في الريح، ولكن ليست هناك ريح، لا تتحرك ورقة من أوراق الشجر. ينبعث برد الصباح من الأرض. أسمع اصطكاك أسنان من جانبي. تخترق أنفي رائحة غامضة من روث البقر، ممتزجة بالرائحة القارسة اللاذعة المنبعثة من حقول الشمندر المبللة بالندى. أكد ضباطنا أننا سنكون في بيوتنا قبل حلول الشتاء. يجب على حاميتي العسكرية أن تساعد في حماية الحدود. هذا كل ما أخبرونا به.

في يوم الاستدعاء ذاك، خرجنا من الشارع في صف واحد، نحو عشرة شباب من الحي أحدهم وراء الآخر. تولانا نوع من اندهاش مقهقه واستحوذ علينا هياج مشوِّق. كان عدد لا يُحصى من الشباب قد احتشدوا تحت السقف العالي في محطة «زاود» وصلوا إليها في سير عسكري. تسود بلبلة في صفوفهم، يلغطون بالصراخ والنقاش كما لو أنهم أدركوا للتو ما الذي يوشك على الحدوث. بينما أقف بين شباب حارتي وأنتظر معهم، ظهرت خالتي «روزا» وهي تتمايل يمينًا ويسارًا بين الحشود. تحمل صرَّة تضم جوارب طويلة ومناديل جيب، وزمزمية صغيرة فيها قهوة فاترة. كانت عيناها مؤطرتين بالاحمرار، قالت بسبب الركض في برد الصباح. تتتابع عربات قطار في سلسلة لانهائية على طول رصيف المحطة، تطلق قاطرات بخارية صفيرها

ورائحة الفحم الحجري والسخام، يتزاحم الشباب المحتشدون باحثين عن وحداتهم العسكرية؛ عايشت تلك اللحظات الأخيرة قبل المغادرة من دون أن أعي أي شيء، فقد جرى كل شيء بسرعة كبيرة. رأيت شابًّا يبكي إلى جانب والده. رأيت جعبة واقعة على نهاية الرصيف، تدحرجت منها بضع شطائر من الخبز، داستها الأقدام المسرعة وحولتها إلى عجين في الحال. رأيت دجاجة، دجاجة بيضاء تقطع السكك الحديدية في البُعد، وديكًا بنيًّا أحمر في أعقابها. اكتظت مقصورات القاطرة بالحقائب والصُّرر. جلس أحدنا لصق الآخر مثل السمك المعلَّب. تحرك القطار بلهاث بطيء، وتوقف مرات لا تُحصى في الطريق. ما لبث أن أصبح الجو حارًّا حرارة خانقة؛ لم يكن ثمة سبيل إلى فتح الشبابيك، إذ في حال فتحها سيهب سخام القاطرة ودخانها إلى داخل المقصورة.

وصلنا قبيل الظهر إلى تيرموند. فُرزنا في مجموعات عشوائية من اثني عشر شخصًا، في اللغط الذي أثاره العساكر المتصايحون بعضهم إلى بعض. راح كل شخص يدفع ويسحب كي يستطيع البقاء بالقرب من عدد من معارفه على الأقل.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، صودرت إسطبلات، وسنادر، ومستودعات في أرجاء المدينة كلها. انتهى المطاف بي مع عدة شباب من الحي في سندرة جزار، تتسرب إليها أشعة الشمس من بين قرميد السقف. كان أغسطس في تلك السنة شهرًا جميلًا ودافئًا. لم يتوقف صوت النواقير، الزمجرة بالأوامر، أبواق الشاحنات التي تشق طريقها في الفوضى الآخذة ببطء في الاستقرار. رقدنا بصمت على رزم التبن، التي ألقيت في الداخل على جناح السرعة.

أمضينا النهار في انتظار. قبيل المساء، وُزعت حصص الطعام على أماكن وجود الجنود، حصلنا على بعض من الخبز والحليب فقط، كمية قليلة جدًّا لاثني عشر رجلًا. طلب الجزار من ابنته الممشوقة أن تأتينا بأربع قطع من

النقانق المقلية وبعض من الأحشاء المسلوقة. التهمناها كلها في صمت، أدرنا أنفسنا على جنوبنا، وغرقنا في النوم حتى قبل أن يشتد ظلام الليل.

مضت ثلاثة أيام من دون أن يحدث شيء. قبيل الظهر من اليوم الرابع، استُدعي الفوج كله إلى اجتماع كبير. كانت حقائب ظهر جديدة موضوعة في صفوف طويلة من أجلنا، فوق كل منها بندقية، ورصاصات، وعلبة كعك. كان الضباط قد وقفوا مراقبين، وصاحوا بالأوامر بالفرنسية:

ـ كل أربعة إلى الأمام! احمل... سلاح!

غادرنا قبل السابعة بقليل من صباح اليوم التالي، بروح مرحة لأن الأمور تتطور. لم يستطع أحد منا أن يخمن أن المدينة الصغيرة الآمنة التي تركناها قبل قليل سيحولها الألمان بأكملها إلى رماد بعد شهر واحد. بعد أن مشينا ساعات، تناهى حينذاك فحسب أصوات الدوي إلى صفوفنا: كنا نسير صوب مدينة لييج، يقال إن «العدو» قد حشد كامل قواته حول حصون «بونسيل»، «فليماله»، «هولونيه»، «لانتين»، «شودفونتان»، وقلاع محصنة أخرى بالقرب من المدينة. كان الألمان يريدون فتح ثغرة في هذا النطاق من الحصون المحيطة بالمدينة؛ يضحك البعض ويدعي أن هذا الأمر مستحيل، ويقول آخرون إن النطاق قد كُسر فعلًا قبل فترة من الزمن؛ إذا تبين أن العدو قد اخترق النطاق بالفعل، فسنكون نحن أول من يصطدم معه. كان ضباطنا يُخرسون كل من يحاول أن يطرح سؤالًا إضافيًا عن هذا الأمر.

سرنا طوال النهار حتى انفقأت البثرات في أعقاب أقدامنا وسال منها السائل الدافئ في جواربنا الخشنة. وبخنا أحد الملازمين:

ـ يا جحاش، أنتم تخنَّثتم من طول الجلوس في بيوتكم بجانب أمهاتكم.

سرنا عبر قرية «لوندرزيل» وقرية «ستيين أوكرزيل». أخذنا هناك قسطًا من الراحة نصف ساعة، وعبَّأنا قناني المياه الخاصة بنا من جدول ماء. تابعنا السير عبر قرية «آود هيفرليه» إلى عقر مدينة لوفان. كان شارع

«ستانسي» مهجورًا. بلغ صدى خطواتنا المنعكس على واجهات البيوت من الصخب، أنه أملأنا شعورًا بالقوة. أخذنا استراحة أخرى في آخر النهار، غارقين في العرق، بوجوه شديدة الاحمرار، وياقات مفكوكة بعنف، وأحذية عالية الساق رفسناها من أقدامنا، عابسين من الألم، مدة خمس عشرة دقيقة فحسب، فأخذت أقدامنا تتورم، وآلمتنا أكثر عندما انتعلنا أحذيتنا من جديد.

بحلول الغسق، بعد سير مضنٍ قارب الثمانين كيلومترًا، وصلنا إلى «هاكه دوفر»؛ قرية صغيرة بعد مدينة تينن مباشرة. كان الهواء يبلغ من النقاء والهدوء أن الأشجار تبدو وكأنها محبوسة في نوع من زجاج غير مكتمل الانصهار. تحوم طيور السنونو في السماء، ويرقص البعوض فوق القنوات المائية. لم أعد أفكر بأي شيء. عسكرنا في بيت مزرعة كبير، تتجول الأبقار السائبة في ساحتها الداخلية حول الزرائب. طلبنا من الفلاحة قليلًا من الحليب؛ هزت رأسها بلا، تمتمت بأنها تحتفظ بالحليب لليوم التالي. صعد أحدنا وراء الآخر السلم المتخلخل إلى سندرة التبن المعهودة إلينا. جوع ضارٍ؛ اضطراب وجدال بالفرنسية بين الضباط في الساحة الداخلية. تم اعتراض مؤنة الجيش في مكان ما، لكن لا أحد يعرف أين. بلغ جندي والوني الأصل من الشجاعة أن أخرج رأسه من أحد الشبابيك وصاح بالفرنسية:

ـ جيش أحمق!

عُزل عنا في الحال، سمعناه بعد برهة قصيرة يصيح ويبكي في أحد الإسطبلات.

حاول قائدنا بنبرة مؤدبة بالفرنسية بعد مضي ساعة من الزمن:

ـ سيدي الضابط، أليس هناك ما يأكله أولادي؟ إنهم يتضورون جوعًا.

أجاب الضابط بالفرنسية:

ـ اخرس يا «فاشيرول».

وبصق في الرمل.

في الليل أدلينا السلم المتخلخل من فتحة السندرة، تسللنا إلى الخارج، نهبنا البساتين في الظلام، أكلنا الفاكهة حتى التخمة، عدنا منهكي القوى إلى سندرة التبن، سمعنا صرير الجرذان تحتنا، وحيوانات الزغبة بين قرميد السقف فوقنا، الطنين الرتيب لبعوض حائم قرب أذني.

* * *

لكن ها نحن نرقد هنا منذ أيام، وراء حقل قمح يمنعنا من الرؤية. نتدرب تدريبات ميدانية في أوقات محددة، يبدو أن الغاية الأساسية منها إشغالنا وإرهاقنا. قطعنا الأشجار القائمة على طول الطرقات الرئيسية بصورة منهجية، ووضعناها بعشوائية على الطرقات لمنع أي هجوم مباغت، الأمر الذي لم نصدق حدوثه في واقع الأمر. يحصد الفلاحون القمح في حقولهم هنا وهناك، في البرودة الهادئة التي ينضح بها الصباح الصيفي، تقترب أحيانًا ضربة مناجلهم البطيئة ثم تختفي من جديد؛ الهسيس الوحيد المنبعث من السنابل الكثيرة الآخذة في الوقوع بمحاذاة نصل المنجل الحاد، لا يتخلله سوى خوار بقرة ترعى في المرج الصغير أو نباح كلب في البُعد. تعود طيور السنونو إلى الحومان في الجو الدافئ، وفي الأعالي أظن أنني أرى طائر القوبعة يطير صاعدًا.

يلوح الأزرق فوقه، الأزرق النقي الذي يذكرني باللوحات الجدارية التي كان يرسمها أبي الراحل. لا شيء يوحي بما نسمعه هنا مرة بعد مرة: بأننا في حرب. لا شيء سوى سلام شهر أغسطس المتألق، شهر الحصاد، الإجاص الأصفر والدبابير، الذباب الذي أصبح أكثر كسلًا والصباحات أكثر إنعاشًا، البقع المضيئة المتمايلة برقة وسلام في أوراق الشجر.

بينما أرقد مغفيًا ومستغرقًا في أحلام اليقظة في الشمس، يأتي من يسمى بـ«الناطق الرسمي» ويقف بجانب القائد. يهمس بشيء في أذنه ويشير إليَّ.

ـ «مارشان»!

أقفز من رقودي في ارتياع، أقف في وضعية الاستعداد.

ـ نعم سيدي القائد، اسمي «مارتين» وليس «مارشان».

ـ «مارشان»، اخرس يا أحمق!

يتمتمان من جديد، بينما يوجهان نظراتهما صوبي.

ثم يحدجني بنظرة فاحصة عدوانية بعض الشيء، ويقول بتمهل بالفرنسية:

ـ جاءت السيدة الوالدة لتقول لك صباح الخير يا «مارشان».

يربّت بسوطه على حذائه عالي الساق ويبتسم ابتسامة متكلفة.

أخرج من الساحة الداخلية، وها هي أمي واقفة هناك، شامخة وأبيّة كما هي دائمًا، ضامة شعرها الأسود في عقدة متألقة، مرتدية أجمل ملابسها السوداء، منتعلة حذاءها الأسود المهترئ، وتتدلى سلة من ذراعها.

يأخذنا إلى مكان خلف السياج الأخضر بعيدًا عن مرأى الجنود الآخرين.

تقول:

ـ اجلس يا «أوربابن»، ليس لدينا سوى ربع ساعة.

تطوقني بذراعيها، تنظر إليَّ برهة طويلة. تبتسم. تقول:

ـ سرت عبر الحاميات العسكرية من دون أن يعترضني أحد. سألت عما إذا كنت أستطيع أن أتحدث إلى الملازم. وانظر، هأنذا هنا.

وتغدق عليَّ بابتسامة عريضة.

أقول:

ـ ماذا؟ هل سرتِ تلك المسافة كلها من...

ـ مهلًا يا صغيري. لقد قضيت الليلة في بلدة «جريم بيرخن».

ـ لكن يا أمي، اليوم عيد ميلادك...

تحني رأسها ضاحكة، تخرج الحليب والكعك من السلة.

بينما تنظر إليَّ مشرقة الأسارير، ألتهم كل شيء بشراهة.

أقذف زجاجة الحليب الفارغة إلى داخل القناة. نجلس بصمت أحدنا إلى جانب الآخر.

يعود القائد بعد مضي ربع ساعة، يغمغم بشيء لأمي، يقول انتهى وقت الزيارة. يزمجر لي بأن أنضم إلى مجموعتي. يبتسم لأمي ابتسامة متكلفة من جديد:

ـ آسف يا مدام.

تنهض أمي عن مجلسها، ترسم صليبًا على جبيني، وتقول:

ـ «باربوحفظ» يا «أوربابين».

تناولني سلة مغطاة بمنديل، تمشي من جانب القائد وكأنه مجرد هواء، وتختفي خلف صف الأشجار، في حين أعود أدراجي إلى الساحة الداخلية. أجد في السلة صفًّا من الشطائر، صفًّا صغيرًا من ملابس داخلية، وبضعة قمصان مكوية حديثًا، وتمثال «برناديت سوبيرو» في منتهى الصغر. أضع التمثال الصغير في جيب بنطالي؛ سيبقى في جيبي إلى اليوم الذي تخترقه رصاصة، هو وعظم فخذي على السواء.

أظل مهمومًا طوال ما تبقى من النهار. إنه التاسع من أغسطس، يوم أربعاء، الشمس مشرقة، عيد ميلاد أمي. أسير عائدًا إلى الإسطبلات في الجهة الخلفية من فناء المزرعة، فأرى الجميع ينظر إلى السماء باشمئزاز وارتياع. في الشرق يعوم منطاد ضخم وغير واقعي، مثل مشهد في حلم، عبر زرقة الظهر الرقيقة بتمهل؛ ينساب بعد برهة قصيرة بمهابة ملكية أمام الشمس، ويلقي بظله على وجوهنا المرفوعة. يتخطى قلبي دقة من دقاته: سمكة الحلم هذه، الحائمة فوق رؤوسنا بهدوء، أعظم، وأشد روعة، وأكثر تهديدًا من المعارك التي تخيلتها من قبل. يزمجر الضباط:

ـ اجتماع.

نقبض على بنادقنا وجعابنا، نسمع دويًّا في البُعد، انفجارات، سقوط قنابل. يدمدم هدير غامض ويغمغم عبر الهواء، يتدحرج فوقنا مثل محدلة ساحقة، يعضُّنا في أحشائنا، يجعل الجدران تهتز. في البُعد، ينزلق الطيف غير الدنيوي، الذي أصابنا بالذهول، من دون ضجة ويختفي عن الأنظار:

تتصاعد سحابات من الدخان الأسود في الشرق، تدوِّي انفجارات بالغة العنف، تتهاوى الطيور من السماء كأنما أصابها الرصاص، تضرب المواشي بأرجلها على الأرض بارتياع وتتخبط في سلاسلها في الحظائر، إنها أول مرة تتوقف فيها قلوبنا عن الخفقان من شدة الذعر والذهول.

بعد انقضاء ساعة، يصل ساعي البريد العسكري، يتهاوى على الأرض في الساحة الداخلية منقطع الأنفاس مستنزف القوى. يبلغنا بسقوط القلاع المحيطة بلييج، يخبرنا عن إضرام النيران وقتل المدنيين الأبرياء. يبدو أن الحكايات عن عمليات انتقام عشوائية من هذا القبيل يتناقلها الناس في كل مكان. نسير ثلاثين كيلومترًا أخرى صوب الشرق.

في الواقع، بدأ الجنرال «فون إيميش» الهجوم على الحصون المحيطة بلييج قبل أربعة أيام؛ أغار من الشمال والجنوب على حد سواء في محاولة ضرب حصار حول الحصون، مستخدمًا أساليب من بينها شق طريق بين حصنَي «بونسيل» و«أورته». لأننا كنا نعسكر في غرب المدينة، لم نرَ أي شيء من هذا كله. تبين أن الفرقة الثالثة قد تعرضت للهجوم عند حصن «إيفنييه». ها هو ذا دوي يعبر الهواء بانتظام دقات الساعات لم نسمع مثله من قبل، يهز الأرض تحت أقدامنا، يُحسسنا بأننا أخف من أوراق شجر في الهواء. تشعر بأنك على وشك التغوط في بنطالك في المكان الذي تقف فيه. لم أدرك إلا بعد ذلك الوقت بكثير أننا كنا من أوائل من سمعوا ذلك الدوي الهائل من المدفعية العملاقة «ديك بيرثا» المشهورة. أجهزت هذه المدفعية بالاشتراك مع الهجوم الجوي ـ ظاهرة جديدة كليًّا اختزلت الحصون المحصَّنة إلى جروح مفتوحة بلهاء ـ على المقاومة البلجيكية في لييج، التي كان يُعتقد أنها لن تنكسر، خلال بضعة أيام فحسب. في الخامس عشر من أغسطس، عطَّلت قدرات حصن «لونسين» باستهداف مستودع البارود فيه. لم يكن الأسمنت مسلحًا بالحديد بعد، الأمر الذي شكل طعنة مميتة في خاصرة الصروح القديمة، البقايا الأخيرة من الزمن

البريء. عادت بي الذاكرة إلى ذلك المخزن في ميناء «بورت آرثر» الذي رأيته في اليوم الذي، بدا حتى في ذلك الوقت وكأنه موغل في الماضي البعيد، رأيت فيه الفتاة في البركة، المخزن المكتوب عليه بالفرنسية: «خرسانة مسلحة».

* * *

نقف في الترتيب الميداني، الحربة مثبتة على البندقية. يزمجر الضباط أوامرهم بالفرنسية. عندما يفرغون من الزمجرة والزعيق، يترجم قادتنا هذه الأوامر إلى الهولندية. يصدر أمر بأن نتراجع إلى الغرب. في الطريق نسمع أن جميع الحصون تقريبًا قد سقطت وأن المقاومة باتت من الأمور المستحيلة. يستخدم الألمان المدافع الثقيلة من عيار ٤٢ سنتيمترًا، التي لا نعرفها على الإطلاق، فتحوا بها ثغرات في حصون لييج كلها، تلك المعاقل من الطراز العتيق التي تستطيع الصمود في وجه مدافع من عيار ٢١ سنتيمترًا على أقصى تقدير.

يصيح قائدنا:

ـ العدو يقترب. أثبت شجاعتك.

يخفق قلبي في حنجرتي. أشعر بغثيان فظيع.

يقول الأحول «رودي» من شارع «الوسي» في خنت:

ـ جبناء، نحن جبناء، كان علينا أن نتقدم إلى الشرق كي ندعم الفرقة الثالثة، اللعنة.

لا يرد أحد بشيء؛ مضجرٌ تراجعُنا إلى الغرب على الطرقات الريفية الوحيدة المقفرة، في أغسطس الجاف، أغسطس المنهَك الكسول. تعبر بنا امرأة بالقرب من بلدة «فاريمه»، تومئ إيماءات هائجة وتصيح بشيء لا نستطيع فهمه. نرى وراءنا سحابات دخان سوداء تتضاءل شيئًا فشيئًا.

نصل إلى تينن قبل المساء بقليل. تُصادر المباني، نرقد على بلاط الأرض منعش البرودة في الممرات الخالية في إحدى المدارس. أخرج شطائر أمي

من حقيبة ظهري، أتقاسم ما لديَّ مع الشباب الذين أصبحوا في عهدتي. لا أحد ينطق بكلمة واحدة؛ سرعان ما يرتفع شخير الجنود المنهَكين.

ألاحظ تغيرًا في موقف قادتي خلال الأيام التالية. ينظر الضباط إليَّ بانتباه أكبر، يتحدث قادة المجموعات معي بمزيد من الاحترام. يحيطونني علمًا بما ينوون فعله بين الحين والآخر، يسألونني مع أي من الرجال أفضِّل أن أعمل كي أشكل معهم مجموعة من القناصة. أعلم أن هذا التغيير لم يتأتَّ من دراستي أربع سنوات في الكلية العسكرية فحسب، ولا بقدر كبير من الطريقة التي أسيطر بها على الرجال الذين في عهدتي، وإنما يتأتى على وجه الخصوص مما تركته أمي المرموقة الواثقة من نفسها من انطباع عند العسكريين.

* * *

في ١٥ أغسطس، نعسكر في قرية «سانت مارغريت هاوتم»، شمال تينن مباشرة. قبل حلول المساء، كُلفت بقيادة ثمانية رجال استطعت أن أختارهم بنفسي، يجب أن أتولى معهم حراسة جناح الفوج في أقصى اليسار، بتشكيل طاقم لحماية الجهة الشرقية. في مكان على جانب الطريق من قرية «فيسن آكن» إلى تينن، نصبنا خيمة لصق الجدار العالي لأحد البيوت، يجب أن يمر بها جميع العابرين من هذا الطريق، نتحقَّق من هوياتهم بشكل عام، لكننا ندقق في أشكالهم وتصرفاتهم على وجه الخصوص ـ كل شخص يمكن أن يكون جاسوسًا، هذا ما أكده لنا قادتنا. كان الألمان يمنحون مكافآت مالية للمنشقين عن الجيش، وهناك حديث عمن ارتكب الخيانة العظمى هنا وهناك، حتى لقد نُفذت عقوبة الإعدام ببضعة ممن خانوا الوطن.

يصادف هذا اليوم عيد انتقال مريم العذراء إلى السماء، يُقام القداس في الهواء الطلق. أرى اللاجئين جاثين على ركبهم، بعضهم يبكي، وبعضهم الآخر يحدق بجمود في المذبح المقام بشكل ارتجالي مؤقت في الحقل.

يحاول الكاهن أن يخطب بكلمات مواسية، تعويذات تطير مع الهواء الصيفي إلى البعيد. في اليوم نفسه، يصل أوائل الجرحى إلى موقعنا مترنحين. ثمة صبي يتقيأ دمًا تحت شجرة.

لأن الساحة منحدرة هنا مثل هضبة منخفضة، نرى سلاح المدفعية في صفوف منتظمة في الحقل الواقع في الأسفل، والجنود يروحون ويجيئون.

تمضي الأيام التالية في اضطراب وانتظار. تردنا أخبار مروِّعة من مدينة هالن عن عمليات انتقام من المواطنين العاديين، الذين يُتهمون تعسفًا بأنهم من المقاومة ويُعدمون بطلقة رصاص في الرقبة، في الشوارع، في المستودعات، في الأقبية وغرف الجلوس. يُنقل أوائل المصابين من الجنود إلى المعسكر، يقام مستشفى ميداني. يبدأ أحد الأطباء بإجراء عمليات بتر لأطراف الشباب بعد سقيهم الشراب إلى حد الثمالة، بأدوات جراحية في منتهى البدائية. امتلأت أيام أغسطس الآمنة بالصراخ والعويل خلال أيام قليلة. نسمع دوي مدافع الهاون من مكان قريب من هالن، تنتشر رائحة اللحم المتفحم فوق الحقل المكسو بالندى في المساء. في ١٧ أغسطس يردنا خبر تدمير حصن «لونسين» قبل يومين. لا يكاد يغمض لنا جفن، ويعترينا نوع من الإغماء المحموم. يزحف كثير من الجنود صوب تينن تنفيذًا لأوامر القادة. لا نرى أيًا منهم يعود.

* * *

في ١٨ أغسطس، أخذت الأرض ترتج بعد الظهر. وضع الأحول «رودي» من شارع «لوسي» أذنه على الأرض، قفز من مكانه وصاح:

ـ إنهم يقتربون! يقتربون!

هرعنا إلى الإمساك ببنادقنا، رأينا القنابل الحارقة تنهال على مدينة تينن في البُعد. فجأة، انغمرنا حرفيًا بطوفان من الناس الصارخين والنائحين والصائحين:

ـ أنقذونا! أنقذونا!

وقلبوا حاجز التفتيش الذي نقف فيه في ذعرهم. كانت ممرضة في ملابس سوداء تركض وراءهم وتصيح بالفرنسية:

ـ «كوشيه فو»! «كوشيه فو»!

كانت تحاول أن توضح لهم جميعهم أن ينبطحوا على الأرض، لكن معظم الناس لم يكونوا يعرفون الفرنسية، فتابعوا ركضهم من دون التفات ـ للقاء حتفهم.

كان اجتياح القوات الألمانية يشبه «الحرب الخاطفة». رأينا في أقل من ساعة واحدة نوعًا من جدار معدني متحرك، ارتفع الدخان ونار المدافع أمامنا؛ كانت أعدادهم الكثيرة كاسحة، يقتربون بغمغمة مكتومة كما لو أنهم يعلنون يوم الحساب. ارتمى جنودنا، المنسحبون من المواقع الأمامية بذعر، في أحضاننا فاقدين صوابهم من شدة الخوف، يصرخون بأننا يجب أن نطلق سيقاننا للريح. أوقف ملازم بضعة منهم، ثم اقتيدوا بعيدًا عن أعيننا؛ كنا نعلم أنهم سيخضعون لعقوبة شديدة بسبب تخليهم عن مواقعهم.

رأينا في السهل الواقع في الأسفل كيف أن ثلاثة من مدافعنا تتفجر دفعة واحدة وتتحول إلى شظايا؛ تطايرت القطع الحديدية حتى صفوفنا. أخذ أحد الشباب من مجموعتي يتلوى فجأة، مثل المجنون، ويصرخ ويبكي: انقطع ساعده الأيسر من جراء وقوع قطعة من الحديد عليه. اقتحم المساعد الأول موقعي بشكل فجائي سريع، وأمرني بأن أجمع رجالي وأتقدم بهم في الحال إلى مقر قيادة الفوج ٢٢ على خط المواجهة الأمامي، الذي يبعد عنا ثلاثة أو أربعة كيلومترات. صاح أحد الشباب:

ـ هذا انتحار!

جُرجر من الصف وطُرح على الأرض. انطلقنا، سرنا من جانب السياجات الخضراء وأطراف القنوات نختبئ وراء صفوف الأشجار في أغلب الأحيان، وننبطح على الأرض بين الحين والآخر بسبب القنابل التي تسقط أقرب فأقرب. بعد أن قطعنا كيلومترًا ونصف الكيلومتر، في طريقنا إلى ضاحية

«خريمده» في تينن، بدأت نيران الجحيم تشتعل فعلًا. كان جنود بضمادات دامية حول رؤوسهم يرقدون على جانب الطريق ويصيحون طالبين النجدة؛ يزعق صبي مصاب في ساقه بأنه يموت من النزيف. لم يكن أحد يملك الوقت كي يلتفت إليهم.

بدأت الهجمات تُشن علينا من الطرفين وتحاصرنا. تابعنا الركض. جاء جندي مشاة للقائنا، صاح بأننا مجانين، وهتف بي:

ـ هل تريد أن تموت؟ انظر وراءك!

لم يكن يلحق بي سوى ثلاثة من رجالي الثمانية. تابعنا السير بانحناء، كنت أعلم أن مقر الضباط قائم في المزرعة اللائحة في البُعد، فركضت صوبها. كان الجرحى المتأوهون يجلسون على عربات يدوية وراء جدار دمر القصف نصفه، ولكن كان هناك أيضًا لاجئون محبَطون من قريتَي «أوبلينتر» و«خريمده»، أمهات مع أولادهن الصغار. ناداني رفيقي «رودي» من ورائي:

ـ تابع يا «أوربابن»، نحن على وشك الوصول.

عندما أصبحنا على بُعد بضع مئات من الأمتار من المزرعة، أردنا الاختباء وراء صف من أشجار الحور. عبر هسيس غريب من فوقنا، مثل ريح عاصفة، أطاح بأربع أشجار. تهاوت الأشجار في دويٍّ هائل بشكل عشوائي بعضها فوق بعض على الطريق؛ مات واحد من رجالي الثلاثة المتبقين على الفور. كان ضابط من الفوج ٢٢ ينبطح مع فصيلة صغيرة من الجنود وراء ساتر ترابي ارتفع من جراء سقوط الأشجار. حبا نحوي على يديه وركبتيه. أبلغته بأنني تلقيت أمرًا بالحضور إليه مع ثمانية من القناصة المُدرَّبين في عهدتي، وبأننا وصلنا نحن الثلاثة فقط، أخبرته بأنني أرى أن هذا عمل جنوني. نظر إليَّ لحظة وقال:

ـ صحيح، هذا لا طائل فيه. لم يبقَ شيء نستطيع إنقاذه.

كانت القذائف والقنابل الحارقة تمطر حولنا؛ نحس بأن غشاء الطبل في آذاننا يوشك على الانفجار، تحترق البيوت والأشجار في المحيط كله،

يهب دخان الحرائق صوبنا، يكتم أنفاسنا ويعمي أبصارنا عن كل شيء في وضح النهار.

بقينا منبطحين حتى وقت متأخر من النهار؛ تحول المكان حولنا، بغاية السرعة، إلى نوع من الأرض القاحلة، طبيعة بدائية امَّحى عنها كل أثر من آثار الحضارة في بضع ساعات قليلة. قبيل المساء، عندما أخذ لمعان أحمر يتوهج ويمور في سماء تينن، و«خريمده» و«سانت مارغريت هاوتم»، بدأنا بانسحاب أقرب إلى الحبو منه إلى المشي. جيش مشتت، نوع من حشرات بشرية تجر أذيال الخيبة بانكسار وهي تنتحب، تشهق، تتقيأ، تبكي، نعبر في الظلام المتزايد بالحفر التي لا يزال دخان البارود ينبعث منها، أنصاف أموات.

كان عليَّ أن أقدم تقريري للمساعد الذي أمرنا بالتقدم إلى الأمام؛ المساعد أول «دونيول»، وهو رجل صارم، تحدث إلينا من عليائه، من صهوة جواده الأشهب الرشيق، بالفرنسية بطبيعة الحال، ثم نبح قائلًا لي:

ـ «مارشان»، ترجم!

ـ أمرك سيدي القائد. اسمي «مارتين» سيدي القائد.

ـ وأنا أقول «مارشان»، اخرس يا قذارة.

استغرق بنا الأمر حتى الفجر حتى بلغنا الخطوط الأخيرة. كان العدو يتقدم بحركة محاصرة، نجونا بمعجزة من بين فكَّي هذه الكماشة. أجريت نقاشًا مع الضابط بصوت هامس قائلًا إن هناك الكثير مما نتعلمه من هذا العدو. العتاد الحربي ذو التقنية العالية الذي لا ينقصنا فحسب، بل ولم نره في حياتنا أيضًا، الذخيرة الهائلة من القنابل الحارقة مع القوات البرية المتقدمة التي لا تتوقف عن إطلاق النار، المدافع الرشاشة التي نجهلها تمامًا، الهاونات الثقيلة، استراتيجية التطويق السريع، حفر الخنادق العميقة التي يستطيعون سوق أعداد كبيرة من الأسرى عبرها بعضهم إلى بعض، الرعب النفسي وإحباط المعنويات اللذان تثيرهما جيوشهم بشكل مقصود عن طريق إشاعة البلبلة

في كل مكان، إعدامهم العشوائي للمواطنين وأسرى الحرب، انبثاقهم من الأطراف كافة في الآن ذاته. أحنى الضابط رأسه بالإيجاب، وطلب مني أن ألحق به عندما يطلع النهار. جرجرنا أنفسنا وقد استنزفت قوانا إلى ما وراء «فيسن آكن»، ورقدنا على الأرض التي لا تزال دافئة ونمنا بضع ساعات، بين الجنود الآخرين الذين يرقدون مبعثرين، وراء بضع كومات من التبن بالقرب من بلدة «باوترسم».

عندما أردنا أن نسجل حضورنا عند المساعد أول «دونيول» بعد الساعة السادسة بقليل، أبلغونا أنه لقي مصرعه مع مرافقه «دونويل».

بلغت بي الحماقة أن أسأل عما إذا كان قد سقط مزيد من القتلى.

قال الضابط بالفرنسية:

ـ أتريد أن تقول مزيدًا من الهراء يا «مارشان»؟

ـ لا تؤاخذني سيدي القائد.

جرت المباحثات في جو مضطرب عما نستطيع فعله. كانت قواتنا قد هلكت منذ أول صدام مع العدو، ولم يبقَ أمامنا سوى القيام بهجمات مباغتة صغيرة على أجنحة الجيش المعادي، آملين في إحباط معنوياتهم وترك الانطباع لديهم بأننا جيش غير منهزم. فعلنا ذلك بنجاح لا بأس به على مدى أسبوع واحد: وجهنا ضربات موجعة لقوات الخطوط الألمانية هنا وهناك، ولكن هذا الأمر جعل العدو ماكرًا، ومتيقظًا، وحانقًا. كانوا في كثير من الأحيان يقتلون المواطنين العزل بدافع من انتقام أعمى. تعلمنا حرفيًا أن نرتاب في الجميع: كان الألمان يرسلون جواسيس يرتدون بدلات جنودنا القتلى، يتحدثون الفرنسية بركاكة مع الفلامنديين، ويتحدثون الهولندية بركاكة مع متحدثي الفرنسية، على أمل أن يخدعونا بهذه الطريقة ويسحبوا منا المعلومات. عندما قتل أحد جنودنا جاسوسًا من هذا النوع ورأى الآخرون بدلة الجيش البلجيكي التي يرتديها القتيل، دب الذعر في صفوفهم لحظة قصيرة. كان ضباطنا ينهالون علينا بالشتائم طوال اليوم، يقولون إن سذاجتنا

هي التي تسببت في هزيمتنا في «سانت مارغريت هاوتم». عندما نريد الإجابة بأننا فعلنا كل ما بوسعنا، يزعقون بنا بأن نغلق أفواهنا.

أحيانًا، كان علينا أن نتقدم خمسة عشر كيلومترًا أو أكثر في سرعة قصوى من أجل إثارة مناوشات مع العدو الذي يتبين أنه استعد لكل شيء، الأمر الذي كلفنا عددًا كبيرًا من الجنود في كل مرة وعرضنا لمزيد من التوبيخ.

بعد أسبوع خارت قوانا، وأدركنا الجوع الشديد، وأُحبطت معنوياتنا. كنا نُطارد بشكل ممنهج إلى الخلف؛ إلى ما وراء آرسخوت، فيرختر، هاخت، بورتميربيك.

هناك أخذنا قسطًا من الراحة بضعة أيام، وحصلنا أخيرًا على مؤنة لائقة. أصيب عدد من الشباب بإسهال حاد وتقيؤ شديد، من جراء شرب الماء من القنوات المحتوية على الجثث.

كانت جعبتي قد تصلَّبت من الطين والوسخ؛ غسلنا أغراضنا في مزرعة مهجورة. وجدت أدوات الرسم الخاصة بي، التي كنت نسيتها تقريبًا، قلم فحم وقلم رصاص؛ الأوراق القليلة التي جئت بها من البيت كانت ملطخة بأكملها ببقع الطين. ذهبت بغصة مريرة في حلقي وجلست إلى جذع شجرة، ورسمت الطبيعة المدمرة، أكوام القذارة، الحفر التي أحدثتها القنابل، الجثث، قرمات الشجر المحطم، الحصان الميت الذي رأيته عالقًا في شجرة دردار متكسرة، بجسم مستقيم، رأسه الدامي نصف الممزق، الملتوي بشكل مرعب، يبرز أمام السماء الصباحية الباردة، قوائمه متشابكة مع ما تبقى من الشجرة مثل أغصان غريبة. تحت بطنه المفتوح النتن المليء بالذباب، لا تزال بضعة ألواح خشبية من عربة متشظية تتدلى من قطعة من الحبل. عدت بذاكرتي إلى الحفيف الهادئ، الباعث على الطمأنينة، الذي كان يصدر عن يد أبي وهو يمر بها على الورق، ويرسم رسومات أولية بسلام في ظهر يوم أحد بعيد، واغرورقت عيناي، اغرورقتا بدموع بلغت

من الحرقة اللعينة أني جعَّدت الورقة في شكل كرة صغيرة، وقذفتها بعيدًا عني وأنا أطلق اللعنات.

ـ هل كل شيء على ما يرام يا «مارشان»؟

في ذلك اليوم نفسه أصدر الملك أمرًا بانسحاب القوات البلجيكية من حول حصون أنتويرب، لكننا بقينا معسكرين بشكل مؤقت بالقرب من بورتميربيك. سمعنا من اللاجئين المحبطين أن الألمان نفذوا المزيد من عمليات انتقام بحق المدنيين في آرسخوت على شكل إعدامات ميدانية. كانوا يسوقون جميع الأهالي في قرية يختارونها بشكل عشوائي، يأمرون الرجال المرتعشين بتنظيم أنفسهم في صفوف، يعلنون أن حساب درجة مقاومتهم يساوي الثلث، فيطلقون طلقة في عنق واحد من كل ثلاثة رجال، ويجبرون النساء والأولاد على أن يسحبوا جثث آبائهم ويدفنوهم. النساء اللاتي يفقدن السيطرة على أنفسهن، يُضربن بعقب البندقية حتى الموت، بينما يمسك أولادهن الصغار بتنانيرهن. في والونيا، كانت الفظاعات المرتكبة بحق المدنيين أعظم حجمًا وبشاعة؛ كان ثمة رجل يحمل على سبيل البرهان قبعة نتنة حد الغثيان لا يزال دماغ أخيه المبعثر ملتصقًا فيها. كانت الخسائر في صفوف القوات البلجيكية كارثية إلى درجة أننا لم نستوعب حجمها إلا تدريجيًّا. سقط عدد هائل من الرجال من الفوجين الكبيرين فضمَّهما الضباط في فوج واحد لم يكن أكبر بكثير من فوج في الظروف العادية. هذا الأمر أكد لنا شكوكنا بأنه لم يبقَ سوى النصف من جيشنا خلال أسبوع واحد فقط.

ألمَّ الكابوس بـ«سخيب لاكن» بعد مضي بضعة أيام، في الأسبوع الأخير من شهر أغسطس الفظيع ذاك.

٢

في يومنا هذا، يكاد يستحيل عليَّ أن أتصور تلك الطبيعة المهجورة التي كنت أتقدم فيها مع رفاقي الثمانية الجدد من الكتيبة الثالثة من الفوج الثاني على خط المواجهة. على مقربة من بورتميربيك، تملص رجلا الشرطة اللذان يرشداننا من مسؤولياتهما، أحدهما وراء الآخر خلال مسافة لا تتجاوز كيلومترًا ونصف الكيلومتر: جاء الأول إليَّ وأخبرني بابتسامة مزيفة أن قدمه تعرضت لالتواء مفاجئ، أما الثاني فقد قال بصريح العبارة إنه خائف، لأن ممتطي الجواد يشكل هدفًا أسهل من جندي المشاة. لم أضيِّع كلمة واحدة على هذا الأمر، أومأت بيدي إيماءة توحي بأنهما يستطيعان فعل ما يريدان. تابعنا تقدمنا بحذر. كان عليَّ أن أذكِّر رجالي باستمرار بأن يغيِّروا اتجاه سيرهم، مثلما تفعل أرانب برية في حقل مفتوح. اكتشفنا كشَّافة من الألمان على مقربة من مقدمة الجيش. أخذ عقلي يعمل بكل ما لديه من طاقة، فقد كان عليَّ أن آخذ قرارات مصيرية في غاية السرعة. قطعنا طريق «اليوفنسي ستيين»، انعطفنا باتجاه الجنوب الغربي صوب كامبن هاوت. استطعت أن أرى من أشياء شتى تركتها قواتنا وراءها أنها قد تابعت سيرها في الاتجاه الخاطئ. ساد اضطراب وذعر في كل مكان. في غابات «سخيب لاكن»، المكان الذي تمنيت لو أجلس فيه وأنهمك في الرسم من شدة الجمال الذي تنضح به الشجيرات والأشجار الصيفية، عبرنا ببركة ماء يرقد بجانبها معطف

أزرق خاص برمَّاح، متروك قرب ركام رملي أصفر. في البداية ظننت من بعيد أنه جندي بسلاح في وضعية التلقيم. وجهت إليه بندقيتي بشكل غريزي، لكنه تبين أنه واحد من كمَّي المعطف ممدودًا على الأرض. تراءت لي كومة الملابس باللونين الأزرق والأبيض عند بركة الماء في «بورت آرثر»، التي رأيتها قبل أقل من شهر. خُيل إليَّ كما لو أن ذلك كان قبل عصور موغلة في القدم، شيئًا من عالم فقدناه هنا خلال بضعة أيام.

أوغلنا في أعماق الغابة التي تؤمن لنا الحماية. حلَّ المساء، صعَّب الغبش تقدمنا إلى الأمام؛ استحال علينا الوصول إلى كامبن هاوت. كانت الأرض تعج بنوع من كرات البلي الرصاصية؛ آثار متبقية من شظايا وقذائف شديدة الانفجار تدل على أن معركة قد خيضت في هذه الغابة. تسقط قذيفة على مسافة أقل من مائة متر منا بين الحين والآخر. ترتج الأرض؛ نرى التراب يتناثر، الأشجار تقع على الأرض وهي تطقطق، نسمع أحيانًا صرخات بعيدة. تابعنا تسللنا في الغبش المتزايد. ارتفع صوت إطلاق النار وبدا كما لو أنه يقترب منا. توقفنا عن المسير في المكان المتفق عليه. كانت العربة المغطاة الخاصة بفوجنا قد تمركزت هناك، الله وحده يعلم من أين أتت. أمرت رجالي بأن يضعوا بنادقهم في رزم، وأن يرابط اثنان منهم في حراسة الجهة الشرقية. قدمت تقريري. وصل بضعة ضباط بهدوء، ساحبين خيولهم من لجامها. حصل الجميع على خبز وجبن لتناول العشاء. وصلت كتيبة فدائية أخرى بعد برهة قصيرة، رأيت لدهشتي العظيمة ابن عمي «رينيه» بين الرجال، ابن عمي «إيفاريست» الثاني، الذي رأيت ابنه الأول يموت حرقًا في نار الفرن. كان «رينيه» شاحب الهيئة مستنزف القوى. لم يكن هناك متسع من الوقت لأن يتكلم أحدنا مع الآخر. نام الضباط على رزم من القش جيء بها من العربة المغطاة، نمنا نحن جنود المشاة على الأرض. لم يُسمح بإشعال الضوء بأي حال من الأحوال؛ كان هناك مصباح صغير فقط معلق تحت العربة المغطاة، يلقي بضوء باهت على راية الفوج الملقاة

بين الحربات بعدم اكتراث. لم أستطع النوم. رأيت وجوه الجنود النائمين تلمع مثل النحاس في الضوء الطفيف، يكسوها لون دافئ مثل الذي تراه في لوحات «فرانسيسكو جويا»؛ الجانب المظلل من وجوههم النائمة يبدو أسود مثل وجوه الزنوج. أخرجت دفتر الرسم من حقيبة ظهري بهدوء، رسمت عدة رسوم أولية سريعة، هدَّأني الرسم بعض الشيء. في زمن لاحق، بعد الحرب، استأنست بوجه من وجوه أولئك الشباب في رسم وجه المسيح بألوان زيتية.

لا بد أنني غفوت بعد ذلك في الحال، إذ إنني قفزت من النوم على انفجار هائل. أحدثت قنبلة حفرة بجانب العربة المغطاة، تبعثرت الحربات في كل مكان، تطايرت بضع آلات موسيقية محطمة من داخل العربة المغطاة، وطار الأسد الذهبي من فوق رايتنا. تأكدنا من عدم وجود إصابات، ثم عدنا إلى الرقود؛ كانت الأرض المكسوة بالطحلب ناعمة ومنعشة. لأننا بقينا نسمع هسيسًا مستمرًّا، قرر أحد الضباط قرابة منتصف الليل بأن يصعد عدة جنود إلى ما بين رؤوس الأشجار ليقوموا بالحراسة. لم ننم كثيرًا بعد ذلك الوقت. في الساعة الثانية من الليل، بدأنا نهدم المعسكر من دون ضجة قدر الإمكان. في هذه الأثناء كان الفوج كله يتجمع من الجهات كافة؛ ينضم الجنود في أمواج كبيرة بعضهم إلى بعض، متوافدين عبر الغابة بخطوات هادئة وحفيف ناعم. رأينا بيت مزرعة تضطرم فيه النيران، في البُعد، على حافة الغابة، تتوهج ألسنة اللهب الصفراء في الأعالي وتتطاير منها شرارات تتفرقع في جميع الاتجاهات.

شكلنا جبهتين، اتجهت إحداها صوب لوفان والأخرى صوب بروكسل. اكتشف كشّافنا بعد برهة قصيرة أننا اقتربنا مسافة تقل عن ثلاثمائة متر عن موقع ألماني. بدأ فوجنا يحفر الحفر بهمَّة محمومة من أجل تغطية نفسه. بين الحين والآخر تتطاير رصاصات عبر غبش الفجر. تصطدم رفوشنا بجذوع الشجر، يسير العمل ببطء وضجة كبيرة. ازداد التوتر، واظب الجميع على

العمل الدؤوب. استخدمنا تراب الحفر لنصب المتاريس. رأينا الجنود الألمان يتجولون بالقرب من بيت المزرعة في وهج النيران مثل خيالات شيطانية. صوَّب «تيو كارلير»، وهو شاب أعرفه من معمل صب الحديد، سلاحه إليهم في الحال، لكن أحد الضباط هرع إليه وهو يستشيط من الغضب وأنزل ذراعه بعنف:

ـ ألا تفهم أيها الأحمق أن أولئك الألمان طُعم لنا، على أمل أن نكشف لهم نحن البلجيكيين عن موقعنا بإطلاق النار؟

رأينا بضع سيارات إسعاف ألمانية تعبر في الغبش، في الطريق القريب. ثم ساد صمت المقابر. كانت السماء تمطر، ورائحة الرماد المحترق تعوم صوبنا. لم تكن الحفر عميقة بما يكفي، جلسنا بوضعية غير مريحة وبسيقان مطوية تحتنا إلى الجانب في التراب المبلل، وانتظرنا صدور الأوامر.

بعد انقضاء ساعة لم أعد أتحمل الملل والخمول. تسللت إلى الملازم وسألته عما إذا كان يسمح لي بالذهاب في مهمة استطلاعية؛ هناك شجرة زان ضخمة على بُعد مائة متر منا، مقلوبة من جراء قذيفة. أحنى الضابط رأسه بنعم وهمس:

ـ احذر جيدًا، لو أخطأت مجرد خطأ واحد، لقينا حتفنا نحن جميعنا.

رافقني «تيو كارلير». زحفنا على أكواعنا صوب جذع الشجرة، وبندقية كل منا في وضعية التلقيم. عندما انبطحنا وراء الجذع، لاحظنا برعب شقين مموهين يلوح في كل منهما مدفع رشاش في المعسكر الألماني. عددنا إلى ثلاثة، وأطلقنا ثلاث طلقات في آنٍ واحد على كل من الشقين. بقي الوضع هادئًا برهة طويلة، لكن عندما أخرجت رأسي من فوق جذع الشجرة، اشتعلت نيران الجحيم فجأة. أخذوا يطلقون النار علينا بشكل مائل من أجل أن يطردونا من وراء جذع الشجرة. وقعنا في الفخ. كانت الرصاصات تلعلع حولنا، تصيب الجذع، فتتطاير الشظايا الخشبية حول رؤوسنا. لم يبقَ أمامنا سوى أن نثب من مكاننا ونهرب لننجو بحياتنا، قافزين من شجرة إلى شجرة

بين وابل الرصاص. ارتمينا في أقرب حفرة. كانت المياه قد ارتفعت كثيرًا في الحفر بسبب المطر؛ معظم الجنود غاطسون حتى ركبهم في الطين. بقي الألمان يطلقون النيران بشكل منهجي؛ يطلقون بضع رصاصات في بادئ الأمر من أجل تحريضنا على الرد، وما أن يتحرك رأس من رؤوسنا في مكان ما حتى يقصفوا بالمدافع.

بقينا نهارًا كاملًا على هذا الوضع. كان الضباط يحثوننا طوال الوقت على الهدوء والتشاور. لم تصل إلينا المؤنة، تشنجت بطوننا من الجوع. غرفنا الماء القذر من الحفر لنشرب شيئًا على الأقل. عندما حل ظلام الليلة التالية، وزَّع عدة جنود الرصاص على الحفر، وجاء بعضهم الآخر بعلب كعك مبلل. أدركنا أننا محاصرون من الجهات كافة، مثل جرذان واقعة في المصيدة. تبين أن الغابة، التي كان من المفترض أن توفر لنا الحماية، كمين.

قبيل الصباح، استأنف الطرفان إطلاق النار، لكننا سمعنا دوي المدافع الأثقل بكثير من مكان بعيد. قبيل الظهر، رأينا عددًا من شبابنا قد لقوا مصرعهم بجانب الحفر التي حاولوا الوقوف فيها أو الخروج منها؛ كان جندي شاب، أراد أن يجيء بحربته من خلف العربة المغطاة، يرقد بعينين مفتوحتين على مرأى من الجميع. اخترقت رصاصة فمه المفتوح، وطيَّرت الجهة الخلفية من جمجمته. كان دمه يتدفق إلى داخل الطحالب الرطبة.

حلَّت الليلة التالية من دون أن يتغير الوضع. كان الضباط قد اعتلاهم شحوب الموتى ويتهامسون بعضهم مع بعض بتوتر بالفرنسية. حبوت صوبهم، سألت مرة أخرى عما إذا كانوا يسمحون لي بالذهاب لاستطلاع الوضع. نصحوني بعدم فعل ذلك، توقعوا وجود كمائن في كل مكان، فقد طوقتنا الأحبولة من الجهات كافة. مضى الليل بإطلاق النيران في البُعد، دوي مدافع الهاون، رعد متدحرج فوق الغابة، حمامات مذعورة طائرة في الظلام عبر الأغصان بشكل أعمى، انعكاس باهت للنيران في أماكن بعيدة،

و«طق طق طق» المدافع الرشاشة. سكتت الأصوات كلها في الهزيع الثاني من الليل؛ أخذت بومة تنعق في مكان ما من الغابة. انزلق الهلال من بين الغيوم وألقى ضوءًا في غاية الخطورة على النائمين.

في الساعات الأولى من اليوم الثالث، أرخى سديم الصباح سدوله على الحقول والمروج المحيطة بالغابة؛ بدا وكأن الألمان قد انسحبوا. رأينا في البُعد الغامض كيف تتعرض كنيسة قرية «إليفايت» وبيوتها إلى القصف وتنشب النيران فيها. نُودي للتجمع في عمق الغابة. نهض الرجال من أماكنهم بصعوبة، مثل مخلوقات «الغولم» وهي تنتزع نفسها من الطين، جرجروا أنفسهم من فوق جثث رفاقهم القتلى. وقفنا في صف مخلخل مرتعشين، مخدَّرين، متخشبين من آلام الظهر، في بدلات مسربلة بطبقات يابسة من الطين، نصف مستندين إلى بنادقنا. فك الألمان حصارهم عنا، لم نعلم ما الذي دفعهم لفعل ذلك. من الواضح كان لديهم ما هو أهم من فوجنا الثاني على خط المواجهة الأمامي. تركنا الغابة بحيطة وحذر، في صفوف من خمسة رجال، كتيبة وراء أخرى. عندما بلغنا القرية، رأينا أنقاض البيوت المحترقة في المطر، الناس والحيوانات التي قتلتهم نيران الهاون، الكنيسة المتحولة إلى رماد، التي افتتحها الكاردينال «مرسييه» قبل سبع سنوات فقط. هذا كل ما لاحظناه من معركة «سخيب لاكن» الفظيعة، التي دخلت بعد حين الكتب المدرسية كلها.

* * *

تابعنا المسير بهمة فاترة في بدلاتنا العسكرية الرطبة والنتنة. كانت النساء يأتين إلى جانب الطريق بالخبز، وإبريق من الحليب، وأحيانًا قطعة من اللحم. يذكرن أسماء أولادهن ويسألننا عن مصيرهم. كانت الطبيعة الواقعة بين القرى تزخر بجمال فاتن. تعوم سحابات الصيف فوق القمح المتماوج في البُعد، ترخي مجموعات الشجر المبعثرة في المروج أفياءها على المواشي المنهمكة في المضغ، تحوم طيور السنونو والقوبعة في السماء،

تلمع أسماك أبو الشوكة في جداول المياه النقية هنا وهناك، تهز صفوف أشجار الصفصاف المقلَّمة أغصانها في النسيم الدافئ. وجدت نفسي أفكر برسامي الطبيعة الهولنديين في القرن السابع عشر، بالسلام الذي تنضح به مشاهدهم، برؤوس الأشجار على النحو الذي رسمه الفنان الإنجليزي «جون كونستابل»، الموشاة ببقع من الضوء والظل، بالسلام الذي تزخر به الحياة المرسومة في تلك اللوحات. عسكرت حاميتنا بشكل مؤقت في سانت كاتيلاين فافر قرب مدينة ميخلن. وصلت إلينا مؤنة وذخيرة جديدة. أمضيت الأيام بالرسم. لأنني لم أعد أملك قلم رصاص، شحذت قطع الفحم الصغيرة المأخوذة من النار المطفأة ورسمت بها، حتى لقد وجدتها أفضل من قلم الجرافيت؛ أصبحت الخطوط ممتلئة، وصار بوسعي أن أدرِّج التظليل بدقة أكبر. طلب بعض الجنود أن أرسمهم كي يرسلوا صورهم إلى حبيباتهم. لم يكن لديَّ ما أستطيع تثبيت الفحم به، لذلك كانت الرسومات تبهت سريعًا. رمى بعض الجنود صورهم؛ كنت أعثر على صورهم الباهتة مجعدة على جانب الطريق العشبي.

سمعنا أن الألمان قد وجهوا أنظارهم إلى بروكسل، فاتجهنا، بعد أسبوع من البقاء قرب ميخلن، إلى الجنوب صوب فيلفورده. سمعنا أيضًا في تلك الأثناء ما يكفي من الحكايات عن الحجم الحقيقي للكارثة التي حلت بـ«سخيب لاكن»، فازدادت رغبتنا في القتال مع ازدياد المرارة التي أحسسنا بها. تحت وابل هادر مقترب من قنابل وقذائف مدفعية، اقتربنا من ضفاف نهر «سينه» قرب قرية «إيبخم». كان الألمان معسكرين في عمق الأراضي الواقعة على الطرف الآخر من النهر ويحرسون الجسر بالمدافع الرشاشة. بينما ننصب مدافعنا الرشاشة نحن أيضًا، سقط قائدنا «ماريشال» نفسه، برصاصة في معدته. هرع أحد الجنود لمساعدته، فأصيب بالعمى من جراء شظايا متطايرة في الاتجاهات كافة. تركنا القائد وراءنا بين براثن الموت، مع الجندي المنتحب، غطسنا في العشب ونحن نلعن، حاولنا أن

نقترب أكثر. كان علينا أن نسترد الجسر بأسرع ما يمكن، وندمره إن تطلب الأمر كي نقطع الطريق أمام العدو. كان الألمان يطلقون علينا وابل نيرانهم المميت على ارتفاع متر واحد من الأرض، بفواصل تتغير في كل مرة، كي يمنعونا من التقدم. رأينا الرصاصات ترتد بشرارات متطايرة على الدرابزين الحديدي على طول الجسر، والتراب يتناثر في سحابات عالية حولنا. امتد قطاع من المرج أمامنا تنتشر فيه جيف الأحصنة. بطونها مشقوقة، وعلى أحشائها اللزجة المندلقة من أجوافها المنتفخة تتهافت الغربان التي تنتفض مذعورة في كل مرة يتجه وابل القذائف صوبها. ينعطف نهر «سينه» انعطافًا حادًّا في هذه البقعة، لذلك أملنا أن نتسلل عبر المنعطفات القاحلة في مصد الفيضانات الممتد على طول النهر، ونقترب منهم من دون أن يرونا. لكن الألمان رأوا ما نحن بصدده في الحال، فقد عاد الرصاص يلعلع من جانب رؤوسنا. غطسنا نحن العشرات من الجنود وراء الساتر. حاول بعض الشباب أن ينظروا من أين يأتي القصف؛ ما إن رفعوا رؤوسهم لحظة قصيرة، حتى فجرتها رصاصة، فقفزت أجسادهم عاليًا في الهواء من جراء الضربة المميتة ووقعت بخبطة مكتومة على الأرض. أخذنا نزحف من فوقهم، منبطحين قدر الإمكان، سمعت صوتًا يردد مرة بعد مرة: «اللعنة، اللعنة، اللعنة»، بين دوي النيران. لم يعد ثمة مفر. كان شاب في الثامنة عشرة من عمره ممددًا على العشب ويئن بصوت عالٍ. زجرته بأن يغلق فمه وينتظر في هدوء. أمرت الرجال الموجودين حولي بأن يطلقوا النيران كل عشر ثوانٍ، ممسكين ببنادقهم فوق رؤوسهم، فوق الساتر مباشرة؛ في كل مرة يبدأ الجندي في أقصى اليسار والجندي في أقصى اليمين، مع الأوسط؛ ثم الجنديان بجانب أقصى اليسار واليمين مع الجندي بجانب الأوسط، ثم إعادة الكرة من جديد من أقصى الطرفين والوسط، وهلمَّ جرًّا؛ هز القائد رأسه باستحسان، ومرَّر هذا الأمر إلى الصفوف الأخرى على مسافة منا. يبدو أن الحيلة انطلت على العدو وأعطته الانطباع بأن أعدادنا كبيرة، فقد رأينا بدهشة عظيمة نحو

عشرين ألمانيًّا يظهرون من الغابات الواقعة وراء المروج، ويتقدمون إلى الأمام واضعين أيديهم على رؤوسهم، ويصيحون بالألمانية:

ـ لا تطلقوا النار!

أقبلوا علينا في بدلاتهم الرمادية، وخوذاتهم المسمارية اللامعة المرعبة، بخطوات بطيئة مثلما في الأحلام، متوعدين وعابسين، حتى في لحظة استسلامهم. كانوا أول من رأينا من الألمان بهذا القرب. انفتحت أفواهنا من الدهشة، فها نحن نأخذ أسرى حرب منهم، نسيطر على مدافعهم الرشاشة ذات التقنية العالية؛ شيء يُقدم إلينا على طبق من فضة. نهض الصف الأول من فوجنا وسار باتجاههم للقائهم. ارتمى الصف الأول من الألمان على الأرض في الحال، وبدأت المدافع الرشاشة تقصف من الغابات الواقعة وراءهم. سقط نحو عشرة شباب منا؛ انبطح الآخرون على العشب بسرعة البرق. كانت النار تُطلق بشكل مستقيم على ارتفاع ثلاثين سنتيمترًا من الأرض، ولكن أيضًا بانحدار، الأمر الذي استخلصنا منه أن مدفعًا رشاشًا واحدًا على الأقل متموضع في مكان مرتفع. بدأت ألعنهم أنا نفسي، أرغي وأزبد غضبًا من تلك الحيلة الجبانة والقتلى الذين سقطوا في كل مكان حولنا. أخذت أقترب ببندقيتي في وضعية التلقيم. اخترقت رصاصة قصعة طعامي على ظهري، سمعت خشخشة ملعقتي وشوكتي. تابعت خط النار بضع دقائق، فاستطعت أن أرى مدفعهم الرشاش في رأس شجرة. زحفت إلى ما وراء إحدى الجيف النتنة، وأخذت ما أحتاج إليه من وقت لأسدد بندقيتي، إذ إنني لن أُمنح مجالًا لإطلاق رصاصة ثانية. أصبت بالغثيان من الرائحة النتنة، فانتظرت إلى أن سيطرت على جيشاني. صوبت بدقة إلى فوهته اللائحة بغموض بين أغصان الشجرة وأطلقت الرصاص. رأيت الألماني ينقلب إلى الوراء، أما المدفع فوقع على الأرض. صرخت:

ـ نار! نار! نار!

أطلق جميع الجنود في المرج الرصاص في آنٍ واحد، مستهلكين قسمًا

كبيرًا من ذخيرتهم. ساد اضطراب في الغابات، طقطقت الأغصان، تصايحوا بصوت عالٍ، اعتقدنا أنهم بدأوا بالانسحاب. سأل قائدنا أن يذهب عدد من الرجال إلى ضفاف النهر لاستطلاع الوضع على الجانب الآخر؛ أملنا من جديد أن ننجو من بين فكَّي الكماشة. لم يتقدم أحد إلى الأمام. سأل مرة أخرى. قلت فيما بيني وبين نفسي: «لا ينبغي أن يذهب الأشخاص أنفسهم دائمًا، يجب على أحد آخر أن يذهب هذه المرة، أنا فعلت ما يكفي». لكن الجميع لزم الصمت مرة أخرى. لعن القائد وكرر سؤاله. رفعت يدي في آخر الأمر بإشارة ازدراء حيال رفاقي. قال القائد بالفرنسية:

ـ حسنًا يا «مارشان». كن حذرًا يا عريف.

ـ أمرك، سيدي القائد.

بينما أحس بالمرارة وألعن رفاقي، أخذت أحبو على طول ضفة «سينه» المنحدرة، من دون أي حماية، أتمسك بحزم الأعشاب كي لا أتدحرج إلى داخل المياه. كان الظلام قد بدأ يرخي سدوله. وكل صوت يصدر عن حمام الغابة وهو يطير أو جرذ المياه وهو يقفز في النهر، يجعل قلبي يتوقف من الرعب. لقد انكسر شيء في داخلي في اللحظة التي ارتمى فيها أولئك الألمان، الذين تظاهروا بالاستسلام، على العشب، أولئك الأوغاد الملعونون. انتابتني رغبة في القتل، في قتل أحدهم بالحربة، خفق قلبي في حنجرتي. فجأة، سمعت هسيسًا ورائي. لم أستطع حتى أن ألتفت إلى الوراء في وضعيتي تلك، وأيقنت أن ساعتي الأخيرة قد حانت، إلى أن سمعت صوت الأحول «رودي» من شارع «لوسي»:

ـ رفيق «مارتين»، هذا أنا، احْبُ بهدوء إلى الأمام، أنا أحميك ببندقيتي، توقف عن الحبو بعد مائة متر، التفت إليَّ واحمني بدورك، وهكذا سنتقدم.

على هذا النحو، في خطورة بالغة على حياتنا، وبعد طلقة في كل رأسٍ ألماني جرؤ على البروز من فوق الساتر على الطرف الآخر من النهر، وصلنا

بعد ساعة إلى قوات الهندسة العسكرية التي كانت تبني جسرًا مؤقتًا، بعيدًا عن المكان الذي وقع فيه رجالنا في المصيدة. كانت أصوات مطارقهم مكتومة، يلفونها بخرقة تنشق عند كل طرقة فيعيدون لفَّها بأخرى. كنا قد تركنا جعبتينا وعتادنا وراءنا على العشب؛ تركت بندقيتي على جانب النهر، وتسللت إلى قوات الهندسة العسكرية كي أبلغهم بوضع الألمان. ولأن الظلام أرخى سدوله، تسلل الأحول «رودي» عائدًا بمفرده إلى رفاقنا ليبلغهم عن هذا الجسر المؤقت. ما إن مضت نصف ساعة حتى أقبل رجالنا وهم يحبو بعضهم وراء بعض على الطريق الذي حبونا عليه قبل قليل، مائة رجل في المجموع، أفعى طويلة بطيئة الحركة تزحف عبر الأعشاب. ساروا جميعهم عبر الجسر بأمان في آخر الأمر. لم يسلِّم عليَّ أحد منهم حتى مجرد سلام، لم يشكرني أحد منهم بكلمة واحدة، لم يأتني أحد منهم ببندقيتي من جانب النهر. بينما أطلق اللعنات، حبوت تلك المئات القليلة من الأمتار على الجانب العشبي لأجيء بها. انضممت إلى صفوفهم الأخيرة بعد نصف ساعة من التأخير.

صقع الجو قبل الأوان في تلك الليلة من سبتمبر. تجمدت حواشي معطفي المتشبع بالطين وأصبحت مثل ألواح من الخشب، ارتجفت من البرد، أخذت أسناني تصطك بقوة حتى ظننت أنها ستتكسر في فمي.

تناولنا نوعًا من عصيدة باردة، سكبوها لنا في قصعاتنا القذرة المتهالكة. كانت قصعتي تسرِّب الطعام، فاضطررت أن أضع يدي تحتها، فاتسخت بتلك العصيدة المقرفة.

قال «كارلير»:

ـ «إيبخم»، يا قذارتي، كم استمتعت بقضاء الوقت فيك!

وربت على ظهري.

زجرته بأن يتركني وشأني، وعندما قال «كارلير»:

ـ أوه، أوه، أوه!

ابتعدت عنه عشرات المترات وجلست مديرًا ظهري إليه. قبيل الفجر القارس، في جوف الليل الذي يرتعش فيه كل كائن حي على الأرض العارية المبللة بالندى، رأيت أمي في المنام؛ تقف بجانب قبر أبي المفتوح، ينهمر المطر بغزارة، تلتصق ورقة كبيرة داكنة بظهرها، تضع أرياش الرسم الخاصة بأبي إلى جانب تابوته، في حفرة مفتوحة ترتفع فيها المياه، وهي تبكي؛ أمي التي لا تبكي على الإطلاق. أقف وراءها وأقصف القبور الموجودة في المقبرة بمدفع رشاش وأنا ألعن، أنا الذي لم ألعن من قبل على الإطلاق. انتفضت عندئذ من النوم وأنا أشعر بالغثيان. أفرغت العصيدة الحامضة من معدتي على العشب.

* * *

أُذن لنا، نحن المصابين بالإنهاك والإحباط، بالاستراحة بضعة أيام. سرنا تحت رذاذ المطر، نتصبب عرقًا في ساعات الظهر ونرتجف بردًا عند حلول المساء، صوب عدة قرى سمعنا أن أهاليها اضطروا إلى مغادرتها. وصلنا إلى قرية مهجورة في الجو المسائي ذي اللون الأصفر الكبريتي. استولى الضباط والملازم على دار البلدية الصغيرة، وعسكرنا نحن في مجموعات من ثمانية جنود ورقيب في بيوت متفرقة في القرية. عسكرت مع «كارلير»، الأحول «رودي»، «أنطوان ديرديان»، «دامان» و«بون»، «فينوس ده بليسير»، ابن عمي «رينيه»، وشاب آخر من منطقة فيلفورده، في بيت مزرعة صغير يبعد مائة متر عن القرية. لا بد أن الألمان هجَّروا الساكنين الفقراء من بيوتهم بشكل مباغت، وتابعوا زحفهم كما يبدو على الفور. كانت الأبقار ترعى في المرج وراء بستان الخضراوات، ويتجول الماعز والأرانب في الحظيرة المسيجة وكأن شيئًا لم يحدث. كان البيت الصغير يعبق برائحة التبن الرطب والخشب المحترق. تقوم على رف الموقد الخشبي البسيط صور أشخاص بدوا وكأنهم ينظرون إلينا موبِّخين: أناس فلاحون برؤوس مربعة، أيديهم الضخمة في أحضانهم، نظراتهم خالية من أي تعبير. ففككنا

أحزمتنا الجلدية الثقيلة، أصدرت أمرًا بأن يضعوا الجعاب في علية البيت، ويسندوا البنادق في صف منظَّم على الحائط في الممر الضيق.

نزلت إلى القبو لأرى إن كان بإمكاننا أن نختبئ فيه، في حال هجوم بالقذائف المدفعية. رأيت بدهشة عظيمة مائة كيلوجرام من البطاطس على أقل تقدير، وجرة تحتوي على لحم خنزير مملَّح في الشحم. رأيت برطمانات مرتبة في صفوف طويلة على الرفوف، تحتوي على خضراوات وفاكهة محفوظة، وإلى ذلك خمس جرَّات فخارية مفتوحة رُش سطح محتواها بطبقة رقيقة من الملح. كان «ديرديان» قد نزل ورائي. قال وهو يضحك بتهكم:

ـ هِهِه، فلاحون مخزِّنون على سبيل الاحتياط.

عثر على دورق «جين»، أمسكه وقال:

ـ أريد أن أتغوط هنا على هذه الأرض وأشرب حتى الثمالة.

وضغط على سرج بنطاله وهو يبتسم ابتسامة عريضة. لم أشعر بنفسي إلا وقد لكمته في وجهه. وقع على رفوف برطمانات زجاجية، تشظى الدورق على الأرض. بدأ أنفه ينزف؛ منعت نفسي بصعوبة من توجيه ضربات أخرى إليه.

صرخت به:

ـ اذهب إلى فوق وتأكد من وجود ما يكفي من الصحون والملاعق لتسعة أشخاص لوضعها على المائدة.

صعد السلم في ترنح، وفي اللحظة التي وصلت فيها أنا نفسي إلى فوق، رأيته يدير صور الفلاحين الموضوعة على رف الموقد إلى الحائط.

جاء «فينوس» من الحديقة إلى داخل البيت، وسأل «ديرديان» عن رأيه في ذبح الأرانب وإعدادها للعشاء، قبل أن يأتي الألمان ويلتهموها. أجاب «ديرديان»:

ـ اسأل «أوربايِن»، هو السيد هنا.

نظرت في عينيه الماكرتين، المخادعتين، الخانعتين.

قلت:

ـ حسنًا، سنعدُّ بطاطس مع أرانب في المساء، وهناك ما يكفي من الفاكهة الواقعة على الأرض في الحديقة لصنع صلصة التفاح.

قال الشاب المنحدر من فيلفورده إن خالته تسكن في مكان قريب من هنا، وسأل عما إذا كنت أسمح له بالذهاب لقضاء ليلة في بيتها؛ قال إنه يستطيع أن يأتي بالخبز للفطور. سمحت له بالذهاب وأمرته بتسجيل حضوره قبل الثامنة من صباح اليوم التالي. كان «دامان» و«ديرديان» واقفين في الفناء ينظران إلى السماء كي يريا مصدر الدوي المقترب. وإذ بسحابة من هدير متدحرج يصمُّ الآذان تعبر فوق القرية والمروج. همهمت لها الجدران. سمعنا بعد ذلك مباشرة سقوط قذيفتين، أصابت إحداهما صحن كنيسة القرية، ووقعت الأخرى في الحقل. سقطت الثالثة بعد لحظة قصيرة بجانب الفناء الصغير في البيت الذي نقيم فيه. جلجلت شبابيك الغرفة الأمامية الصغيرة وتهشمت؛ انزلقت بضعة صفوف من قرميد السطح إلى الأرض وتكسرت على البلاط أمام المنزل.

ساد سكون لحظة قصيرة، ثم سمعنا صوتًا ينادي:

ـ يوجد هنا سرداب نبيذ!

كانت إحدى القذائف قد أصابت بيتًا برجوازيًّا؛ كشفت الثغرة المفتوحة على مستوى الشارع عن عدد كبير من زجاجات نبيذ باهظة الثمن، مصفوفة في مشكاوات حجرية. اندفع «دامان» و«ديرديان» إليها. عرقلهما ملازم كان أسرع منهما في الطريق، زمجر بالفرنسية بأن كل جندي يحق له زجاجة واحدة، ومن يُضبط بزجاجتين، فسوف يُعاقب.

عاد كل من «دامان» و«ديرديان» بزجاجة، وذهب «فينوس» و«بون» والأحول «رودي» ليأتوا بحصتهم. قلت لـ«كارلير» الذي كان يقشّر البطاطس بجانب الباب الخلفي:

ـ هذا يكفي تسعة رجال ويزيد.

فرفع كتفيه. ما إن مضت لحظة قصيرة حتى سمعنا زمجرة الملازم. كان قد طرح «خيرت» بائع السمك و«بويتي» لص الكلاب أرضًا، وانكسرت الزجاجات التي كانا يخبئانها تحت معطفيهما، وصبغت بدلتاهما العسكريتان باللون البنفسجي. سطا «سيخيرس» الأعوج على مخبز القرية الصغير، وها هو ذا يخرج ظافرًا بسلة مسطحة عليها قطع الكعك والخبز. رفعها عاليًا إلى ما فوق رأسه، وصاح بأن كل واحد يستطيع أن يأخذ قطعة واحدة من دون أن ينظر. انتهى به الأمر في ترنح على الأرض بين الشباب المنقضين عليه ووقعت سلته على حجارة الشارع. أخذ كل واحد ما يستطيع أخذه. كانوا يضحكون، يلكمون، يلعنون، ويهللون. تركهم القادة يفعلون ما يريدون.

قبيل الساعة العاشرة من تلك الليلة، كانت مداخن القرية المحتلة ترسل دخانها في السماء بسلام، بعيدًا عن ضوضاء الحرب كلها، وتفوح من شوارعها رائحة اللحم المطبوخ. أكلنا لحم الأرانب في صلصة بُنيَّة. كان النبيذ يُسكب، والأصوات تصدح بالغناء هنا وهناك. أخذنا نغني نحن أيضًا، نشرب ونأكل ونضحك، كما لو أننا في حفلة من حفلات القرية.

خرجت بعد العشاء، جلست على كرسي صغير وراء حظائر الأبقار مباشرة، وشعرت بشيء من الطمأنينة لأول مرة منذ زمن بعيد. الجو صافٍ، كوكب الزهرة بازغ على ارتفاع منخفض فوق بستان الفاكهة، الدب الأكبر يسحب عربته اليدوية القديمة بتمهل عبر السماء الليلية، يتضوع العشب بعبق منعش يشعرني بنشوة خفيفة في رأسي. سرحت أفكاري إلى البيت حيث تعيش أمي وحدها مع أختيَّ. لا يزال أخواي الآخران صغيرين على التجنيد، حتى إنني لا أعلم أين يقيمان. أرى أبي المتوفى يجلس بانحناء وراء الموقد «اللوفاني»، وأرى يديه النحيلتين بالأظافر المؤطرة بالسواد، وحاجبيه الفاتحين. خطر في بالي أنني أستطيع أن أرسم وجهه من ذاكرتي، ما إن مضت عدة لحظات حتى اشتعلت نيران الجحيم. تزامن هجوم مدفعي

من طائرة على ارتفاع منخفض مع هجوم مجموعات من الألمان على الأرض يطلقون النار حولهم. لم نكن قد رأينا مثل هذا من قبل على الإطلاق. انهمرت الرصاصات من كل الاتجاهات. كان «دامان» يقف بجانب الباب الرئيسي يدخن سيجارة، سقط في الممر على الفور، سالت بركة دم على البلاط، بدا وكأن الرصاص قطَّع عنقه إلى أشلاء، وكأن رأسه لا يزال يرتبط بجسده ببضعة ألياف فحسب. سمعنا في الآن ذاته نيران الهاون. أصابت إحدى القذائف الحظائر التي هربت من جوارها للتو، سمعت الماشية تخور وتحشرج في أنين. اندفعت إلى داخل البيت. كان الرجال قد لجأوا إلى القبو، وبنادقهم ملقاة بعشوائية في الممر. لملمت البنادق من الأرض، وألقيتها عبر فتحة السلم المؤدي إلى القبو، وصرخت بهم بأن يصعدوا في الحال. سمعنا الصياح والصراخ من كل مكان في الليل؛ في قلب القرية كان دخان برتقالي يموج فوق السطوح المنخفضة، جعل دوي جديد ما تبقى من الكنيسة يتأجج ويتوهج، تصاعد أنين الاحتضار والخوف، طارت أسراب الزرزور بذعر من فوق رؤوسنا، أصابت قذيفة بئر ماء، تبقعت واجهات البيوت وأبوابها بالوحل، كانت النوافذ قد اختفت من الوجود. أمرت رجالي بأن يتسللوا بسرعة أحدهم وراء الآخر من وراء المزرعة باتجاه قلب القرية، انضممت أنا نفسي إلى آخر الصف. رأينا نحو عشرين ألمانيًّا على مسافة أمامنا في وهج الحرائق المستعرة، ركضنا عبر الحدائق الصغيرة، وانعطفنا عند ساحة الكنيسة، حيث استطعنا رؤيتهم بوضوح. كانوا يهمُّون بالهجوم على دار البلدية التي يتحصن فيها الضباط والملازم. قفزت إلى الأمام، أشرت إلى رجالي بأن يطلقوا النار جميعهم في آنٍ واحد. أصاب وابل نيراننا الألمان في ظهورهم، سقطوا قبل أن يستطيعوا الاندهاش. تمكَّن اثنان منهم من الاستدارة إلينا، فانطرح «فينوس» على الأرض مطلقًا صرخة من الألم، عاودنا نحن جميعنا إطلاق النار، هوى آخر الجنود الألمان على حجارة الشارع. سكن مرجل الساحرات. لم يعد يُسمع سوى رفرفة حمامات الغابة

وأجيج النيران المشتعلة. يعوي كلب في مكان بعيد عواء الذئب. يتألق درب التبانة، بعيدًا بُعدًا لانهائيًا، في الفجوة الظلماء التي يدور فيها هذا الكوكب الأحمق. انسللنا من جانب واجهات البيوت، ببنادق في وضعية التلقيم وحرباتها مسلولة، خائفين من كمين، لكن لم يحدث أي شيء. نظر ضابط من نافذة في الطابق العلوي في دار البلدية. رأيت إلى جانبه جندي المدفعية الذي يرافقه على الدوام. لوحت له بيدي وصحت بأن الدار أمان.

كنا نسمع أنين المصابين من هنا وهناك.

خرج الضباط أحدهم وراء الآخر من دار البلدية، توافد الجنود أيضًا من البيوت، لا يزال بعضهم ثملًا ومذهولًا. فقدنا نحو عشرين رجلًا. تمتم الضابط باللعنات فيما بينه وبين نفسه، ووضع عددًا من الحراس على جانبَي الشارع الرئيسي بترتيب مبعثر، وأمر بوضع مدفع رشاش على كل من طرفَي الطابق الأول، ثم قال:

ـ فليذهب الباقي إلى النوم. غدًا يوم جديد.

ثم قال لي:

ـ «مارشان»، سأعمل على أن يكون هذا سببًا في ترفيعك رتبة.

أديت تحية عسكرية وعدت مع رجالي إلى البيت.

كان «بون» يئن ويدعو أن يموت أمام باب البيت الذي نقيم فيه. كانت بدلته العسكرية قد انشقت عن صدره، وظهرت أعضاؤه المتورمة من بين أزرار جاكيته اللامعة. كان وجهه قد انغمر بما ألقاه من معدته. مسحت وجهه بمنديل جيبي المتسخ. لعنت تلك اللحظة السابقة من اليوم التي انكسر فيها دورق «الجين» في القبو بسبب حماقة «ديرديان». لم تطل معاناة «بون». ما لبث أن تدفق دم سميك وقاتم من أنفه وفمه وهو يغرغر ويحشرج، أخذت عيناه تدوران بخواء في المحيط، أغمي عليه بعد لحظة قصيرة، ولفظ أنفاسه الأخيرة بعد مضي بضع دقائق أخرى. أغلقت عينيه، وطلبت من الرجال أن يحفروا حفرة في الفناء الخلفي. وضعنا «بون»

و«دامان» أحدهما بجانب الآخر، غطيناهما بطبقة من القش قبل أن نهيل التراب ونغلق القبر. صنع «تيو كارلير» صليبًا بدائيًّا من بضعة ألواح رفيعة، وحفر اسميهما بسكينه على الخشب. لقد حلَّ الهزيع الأخير من الليل، وغطَّى الندى أوراق الشجر والعشب والأغصان. كان العالم هادئًا وغير مفهوم. بزغ القمر المكتمل بتألق، سرمديًّا وعظيمًا مثلما في حلم، مثل قرص أصفر من الجبن وراء صف من أشجار الحور التي تهفهف بهدوء. صليت لـ«العذراء سيدة الأحزان السبعة»، سألتها لماذا أدارت مُحيَّاها عن عالمنا. استنشقت بعمق رائحة التراب في الليلة الخريفية، الممتزج بها آخر أثر من دخان البارود. ذهبنا إلى داخل البيت، نمت على بعض من القش في القبو، اتخذ الأحول «رودي» و«كارلير» و«ديرديان» من الأرض فراشًا. غرقنا أحدنا وراء الآخر في نوم عميق لا قرار له، نوم يشبه انطفاء ضوء بطيء، ضوء عظيم بعيد، اخترق نافذة القبو الصغيرة من جديد بعد ساعات قليلة، بينما تزقزق الطيور على أشجار التفاح الهرمة مثل المجانين، ويصيح ديك على المزبلة بجانب المستودع الذي دمره القصف.

* * *

حلبنا البقرتين الشاردتين قبل أن نتابع سيرنا، أخرجت زمزمية «بون» من حقيبة ظهره وملأتها بالحليب حتى آخرها. أخذت قصعة القتيل «دامان» التي لا تزال سليمة. هكذا سرنا في ترتيب عسكري، مثقلي الرؤوس من نبيذ الليلة السابقة، متابعين الطريق باتجاه الغرب صوب قرية «هوميك». بعد بضعة كيلومترات طارت السدادات عن عدد من الزمزميات: كان بعض الجنود قد أترعوها بالنبيذ المتبقي، تخمَّر محتواها بسبب الارتجاج والحرارة المتزايدة، فانبجس في شكل قوس على ياقاتهم وشعورهم، وتقاطر في أعناقهم وعلى معاطفهم. تابعوا السير وهم يلعنون، وسط ابتهاج الآخرين، وقد تبقعت بدلاتهم بالبنفسجي وأحاط بهم سديم من الكحول الحامض.

بعد الظهر بدأت السماء تمطر رذاذًا. أخذت معنويات الجنود المصابين

بصداع الكحول تهبط بوضوح. كنا ننزلق على الطين اللزج الذي يغطي الدروب الريفية، والحجارة الملساء، المتنافرة، التي رصفت بها الشوارع المدمرة. خرجت بضع راهبات ممرضات من مدرسة صبيان، دمرت قذيفة قسمًا منها، وهرولن صوبنا. كن قد أعددن كميات كبيرة من الحساء، لأنهن سمعن من قبل بمجيئنا. وزَّعن علينا علب السردين ولحم العجل أيضًا. زمجر الضباط بأننا لا نستطيع تضييع الوقت. ملأ الجميع جعبته بالمأكولات وتابع السير بتذمر. بدأ المطر يضربنا باردًا ومزعجًا في وجوهنا. وجدنا آثار معركة سابقة في مكان وراء ركام رملي. كان قد جيء بأبواب ودرفات شبابيك من البيوت الخاوية ووُضعت بالعرض على القنوات الصغيرة والحفر. تمتد وراءها الخنادق المهجورة، المغطاة في جزء منها بالألواح والخردة. رأينا في قاعها الموحل آثار الأقدام وآثار التزحلق وحفرًا محفورة على جناح السرعة. لا بد أن السرية السابقة قد غادرت من هنا قبل ساعة ونصف الساعة على أقصى تقدير. تلقينا أمرًا بأن نحمل معنا جميع الألواح والأبواب والدرفات، ونستعملها عند حفر خندق على بُعد بضع مئات من الأمتار. لم نفهم الغاية من جرجرة هذا الحمل الثقيل المنهِك، إلى أن رأينا حركة حثيثة بين الشجيرات على بُعد بضع مئات من الأمتار. تلقى الجميع أمرًا بأن ينحني بسرعة البرق وينفذ العمل كله في وضعية حبو. حفرنا بصعوبة في هذه الوضعية هذه الحفر غير العميقة، وقد أخذ العرق والمطر ينسابان على أعناقنا وفوق ظهورنا. لأنني أبليت بلاء حسنًا في المرة الماضية على نهر «سينه»، أوكلوا إليَّ مهمة استطلاعية مرة أخرى بأن أحبو على يدَيَّ وركبتَيَّ إلى القناة التالية الواقعة وراء المروج. كنت أعرف الملازم «لورنس ده ميستر»، المستلم القيادة هذه المرة، من الكلية العسكرية في «كورترايك»؛ كان يكنُّ لي التقدير، ويشعرني بهذا الأمر من دون ضجة كبيرة وبكلمات قليلة عن طريق تفويضي بمهمات من هذا القبيل.

بقيت أتسلل مع «كارلير» و«ديرديان» حول معسكر الألمان إلى ما بعد

الساعة الخامسة. رسمت مواضع خنادقهم المحتملة بأدق ما يمكن؛ أنفقت على هذا الأمر آخر ما بقي لديَّ من أوراق الرسم المتسخة.

قبيل المساء أرسلوني من جديد لأستطلع الأوضاع، فقد ارتاب الضباط بالهدوء، بالمقارنة مع الآثار المحمومة التي رأيناها. في ضباب الليل البارد، تيبَّس الطين على شكل مسننات قاسية وعرة صعَّبت تسللنا. عندما اقتربنا من مشارف القرية على الجهة اليسرى من الغابات، ظهر حصان أسود ضخم من العدم فجأة وجرى باتجاهنا. عندما عدا من جانبنا مباشرة ولاحظ وجودنا، اندفع إلى المرج الواقع إلى يسارنا وهو يفرفر بشفتيه العريضتين بصخب، رفس بقائمتيه الخلفيتين في الهواء، فوقع محتوى الخُرج المتدلي على طرفَي السرج. تبين من عدته على الفور أنه حصان القوات المعادية. اختفى الحيوان مثلما ظهر. سمعنا وقع حوافره يتلاشى على الأرض العشبية. تسللت في الحال إلى ما وقع منه على العشب، وجدت كتابًا بخرائط طوبوغرافية، وبوصلة، ومنظارًا، ودفتر ملحوظات. بينما نعود إلى مواقعنا، سائرين بقامات منتصبة في حماية الظلام، وإذ بنا نسمع الحصان يقترب منا. عندما التفتنا إلى الوراء، رأينا عينيه البُنيتَين النجلاوين تلمعان بشدة في ظلام الليل. اقتفى أثرنا بهوادة ورضوخ، كما لو أنه رأى فينا صاحبه. كان «كارلير» قد تعلم في مزرعة والديه كيف يتعامل مع الأحصنة، فأمسكه من لجامه. انتفض الحصان برأسه الشرس بضع مرات وهو ينخر، ضرب بقائمتيه الخلفيتين على الطين، ثم انقاد لسائسه. هكذا وصلنا إلى خنادقنا، إلى الملازم المتلهف، الذي بدأ في الحال يمعن النظر في كل شيء. كان الرجال ينظرون إليه وهم يغرفون بملاعقهم من دون شهية مما حصلوا عليه من راهبات مدرسة الصبيان في ظهر ذلك اليوم.

ظهرت فجوات سوداء في السماء الشاحبة؛ بزغت نجوم من بينها، ما لبث أن تجمد الطقس. أخذت الأرض تنضح بالبرودة، مثل كوكب مجهول من تربة دباليَّة باردة، ونحن عالقون بها، نحن الصغار جدًّا والمرتجفين، مثلما

يعلق الذباب بالدبس. في تلك الليلة رأيت في منامي ابن الحداد وقد ابيضت عيناه من جراء احتراقه في النار؛ يتحدث إليَّ بشيء، لكنني لا أستطيع أن أفهمه. أقول له مرة بعد مرة: «لا أفهمك»، يلفظ باتجاهي فقاعات من اللعاب تحرق وجهي مثل حديد متوهج. عندما استيقظت من النوم، رأيت أنها قطرات المطر. في ضباب الفجر اللاذع، سحبت معطفي العسكري، بمزاج مكدر وأوصال مرتعدة، إلى ما فوق رأسي.

* * *

صباح يوم أحد. لم تدق أي كنيسة نواقيسها في الريف المحيط بنا، تطير الغربان في أسراب من فوق أشجار الحور المتكسرة والبيوت المدمرة على الطرف الآخر. حصل كل منا على قطعتين من الكعك العسكري وكوب من القهوة الساخنة؛ أخذت الكوب الساخن بلهفة، ارتشفت رشفة، لكن احترقت شفتاي؛ سحبت رأسي بسرعة بالغة إلى الوراء، أردت أن أنفخ على القهوة، وإذ بطلقتين من الرصاص تطير إحداهما وراء الأخرى من بين فمي والكوب باتجاه باب المستودع، حيث يقف رقيب يصب القهوة. أصابت الرصاصتان عنقه وحنجرته، مات على الفور، انقلب عند باب المستودع، وتكوم على نفسه مثل دمية. صرخ الجميع، وغطس في الخنادق، وأمسك ببندقيته. زمجر الملازم «ده ميستر» بالأوامر. أمرني بأن أركض مائتي متر إلى اليمين مع أربعة وعشرين رجلًا، أنبطح في المرصد هناك وأطلق النار على كل شيء يتحرك. انزلقنا عبر العشب مثل ثعابين البحر، وصلنا إلى حقل بطاطس؛ حالفنا الحظ لأن خطوط الزرع المرتفعة أمَّنت لنا حماية. عندما انتصبنا بقاماتنا في حذر، لم نرَ سوى حقول مهجورة، وبيت مزرعة منخفض وحيد على بُعد بضع مئات من الأمتار. لكنني عندما نظرت بالمنظار الألماني الذي ائتمنني عليه الملازم «ده ميستر»، رأيت الأعشاب ترتعش وتنزلق، مرج في تقدم، بسكون وغدر. لا بد أن هذا الفوج المعادي كان يراقبنا منذ اليوم السابق، عاقدين العزم على مباغتتنا وإبادتنا عن بكرة أبينا.

فجأة، رأينا نافذة السندرة الصغيرة في بيت المزرعة تتلألأ في الشمس الآخذة في الشروق. همست لرجالي:
ـ إنهم ينصبون مدفعًا رشاشًا هناك.
أمرتهم كلهم، الأربعة والعشرين، بأن يطلقوا النار على النافذة في آنٍ واحد عند نهاية العد العكسي. دوّى وابل النيران وكأنه من بندقية واحدة. رأيت عبر منظاري ستة أو سبعة رجال منهم يهربون بسرعة قصوى من البيت الصغير. ما لبثوا أن أطلقوا النيران بشكل عشوائي عبر الأوراق الخضراء في حقل البطاطس، لكننا كنا في أمان خلف الساتر الترابي. رأيت المرج ينساب باتجاهنا، يتموج، يتحرك ويتلوى. تخطّى قلبي دقتين من دقاته. كنا قد استهلكنا معظم ذخيرتنا، ولم يبقَ لدى كل منا سوى عشر رصاصات على وجه التقريب. وإلى ذلك كنا قد انعزلنا عن الفوج الرئيسي. أمرت رجالي الأربعة والعشرين بأن يطلقوا كلهم طلقة واحدة في آنٍ واحد، على شكل مروحة بارتفاع منخفض. شاع الاضطراب في المرج النابض بالحياة؛ لم يردُّوا بإطلاق النار برهة طويلة. فجأة، رأينا الراجمات تطير من فوقنا وتسقط بضع مئات من الأمتار وراءنا. خمن الألمان بأن الإمدادات في طريقها إلينا فحاولوا قطع الطريق عليها. شعرت لأول مرة بالخوف من الموت. علمت من الرائحة القوية أن الجندي الشاب الذي كان بجانبي قد تبول في بنطاله. كان يرتعش من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، واضعًا بندقيته إلى جانبه، قال:
ـ سيدي العريف، هل تأذن لي...
أجبت:
ـ أغلق فمك، لدينا أشياء أهم من بنطالك.
عاد السكون برهة من الزمن. كانت الساعة تقارب التاسعة. ظننت أن العدو لن يجازف بالدخول إلى حقل البطاطس.
التقطنا أنفاسنا. أومأت إلى الشاب المذعور إيماءة تشجيع. فجأة، قفز ضابط ألماني على مسافة أقل من عشرة أمتار أمامنا، وصوب مسدسه إليّ، إذ

إنني أردت أن أختلس نظرة من فوق الخضار. أطلق رصاصتين. تناثر التراب على وجهي، بينما أغطس إلى الأسفل. قفزت واقفًا في الحال، وسبقته في إطلاق النار؛ أخذته الدهشة، انطرح على ظهره ولم يعد يتحرك.

كان قد بقي لدى كل منا خمس رصاصات فقط ولم يكن هناك أي مفر. تسقط القنابل والقذائف على مسافة مائة متر وراءنا، تحرث الطبيعة برمتها حرثًا. أمامنا عدد غير معروف من الألمان على أهبة الاستعداد لذبحنا، نحن الذين لا نتجاوز أربعة وعشرين نفرًا. أجلت نظري في وجوه الشباب. إنهم منبطحون يتلصصون بتوتر عبر الخضار، يتوجسون من ظهور خوذة مسمارية أمام عيونهم في أي لحظة. كانت ذخيرتنا قليلة جدًّا على أن نطلق الرصاص عبر الخضار بشكل أعمى بهدف الترهيب.

تذكرت أن الملازم وعد بإعطاء إشارة بسيفه الشاهر، عندما يكون الطريق آمنًا لنزحف عائدين إليهم، لكن لم يأتِ أي صوت ولا أي إشارة من هضبة «مولن هيوفل»، التي كانوا يحتمون عند مستودع فيها. قلت فيما بيني وبين نفسي: «فلنعد إذن على مسؤوليتنا الشخصية»، وأمرت الجندي المنبطح في أقصى اليسار بأن يثب من مكانه ويعود راكضًا. بعد ثلاث وثبات طُرح قتيلًا على الأرض. عندما طال السكون مرة أخرى، أمرت هذه المرة الجندي الأمامي بأن يثب ويعود راكضًا بأسرع ما يمكن. خرَّ صريعًا بعد عشرة أمتار، مغربَلًا بنيران غير مرئية طائرة من فوق حقل البطاطس مباشرة. شعرت بكره حارق يتصاعد في صدري مثل حموضة معدة، بمرارة علقم تتدفق عبر جسدي وتجعلني أدوخ من طاقة طافحة بالجنون والرغبة في الموت. كانت لا تزال لديَّ رصاصتان. سحبت حقيبة ظهري إلى جنبي الأيمن على شكل درع، وثبت واقفًا، وركضت لأنجو بحياتي صوب حافة الحقل المحاذي. أحسست بالطلقات تلعلع حولي. انشقت ياقة معطفي، ومرَّ شعاع ساخن لصق رقبتي. بعد ذلك مباشرة قطعت النيران حمالات حقيبة ظهري، تعثرت، وانقذفت من فوق بندقيتي، وانتهيت بوجهي على التراب

في حافة حقل شمندر. بقيت بندقيتي ثلاث خطوات ورائي. أخذ قلبي يخفق بجنون. زحفت على ظهري إلى الوراء، سحبت بندقيتي من حزامها بحذر. كان الرجال ينظرون إليَّ، مشلولين من الذعر. أشرت إليهم بأن يلقوا رصاصاتهم إليَّ. سقطت عشر رصاصات بصوت مكتوم على التراب الهش حولي، وأنا أزحف في كل مرة صوبها بحرص شديد. عندما التقطتها جميعها، مسحت التراب عنها بعناية، حشوت بندقيتي، أطلقت رصاصة من فوق الأرض مباشرة كلما تحرك شيء. بعد الطلقة الثالثة، بقي الوضع هادئًا دقائق طويلة. سعلت بصوت عالٍ وغطست وراء الساتر الترابي. ما لبثوا أن أطلقوا رصاصة باتجاهي، رددت بطلقة في الحال، فقفز طيف داكن وهو يصرخ، ووقع إلى الوراء. ثم ساد صمت. أشرت إلى رجالي بأن يتسللوا إليَّ واحدًا تلو الواحد. بعد مائة متر بدأنا نحبو على أيدينا وركبنا، وبعد مائة متر أخرى وثبنا واقفين وركضنا لننجو بحياتنا، لكن لم يعد أي شيء يتحرك.

بقينا جالسين عند المستودع حتى يهدأ لهاثنا. لم ينبس أحد بكلمة. توافد الجنود من الجهات كافة، بعضهم مصاب، بضمادة مصطبغة بأحمر قاتم حول ذراعه أو صدره أو ساقه ـ ضمادة صنعوها من شرائط قماشية مشقوقة من ملابسهم الداخلية. يعرج آخرون إلى المعسكر متسربلين بالطين، مثل جثث متحركة وأموات أحياء، تلمع عيونهم في وجوههم السوداء. نسمع حشرجة وأنينًا من هنا وهناك، على مسافة قصيرة، في الحقل، لكننا لا نعرف من أين على وجه الدقة، ولم نعد نجرؤ على الابتعاد عن الجدار الآمن. كان بضعة جنود قد ذبحوا الحصان الألماني، سلخوا جلده بحرباتهم، وكدسوا شرائح لحم كبيرة على باب إسطبل. لم نستطع إشعال النار من أجل شيِّ اللحم؛ كانت رائحة دم باعثة على الغثيان تفوح من اللحم. في المساء، جئنا بالشابين المقتولين ونحن نتخبط في الظلام الدامس. ذهب رجال الإسعاف للبحث عن الجرحى الذين يئنون في الحقل. كان ابن عمي «رينيه» قد قضى نحبه، في مكان يبعد أقل من مائة متر عن الساحة التي خضنا فيها المعركة. لم

أستطع أن أراه، فقد كان رجال الإسعاف قد نقلوه من هناك. أكدوا لي أنه لم يكابد الألم وأنه «مات في ساحة الشرف»، العبارة الفارغة التي نسمعها دائمًا عن الذين يلقون مصرعهم الفظيع في كل مكان حولنا. كان أحد الجنود قد استولى على حذائه ـ حذاء ابن عمي «رينيه»، الأبيضاني والمتباهي، الذي كان يحلم أن يصبح صانع أحذية. كيف لهم أن يخبروا الحداد العجوز «إيفارست» بأنه فقد ابنه الثاني أيضًا؟

سرنا حتى بلدة «زافنتم». ذهبت إلى الكنيسة هناك، جثوت على ركبتيَّ برهة طويلة، أمام المذبح الجانبي المعلقة فيه لوحة شفيعي القديس. أعطانا الضابط حصصًا إضافية من الطعام، وهنَّأنا على شجاعتنا وبرودة دمائنا. ربَّت على كتفي بلطف وقال بالفرنسية:

ـ أنت فعلت كل ما تستطيع يا «مارشان»، لا تهتم كثيرًا.

عندما رقدت للنوم في تلك الليلة، بكيت مثل طفل، بينما أضغط على مسبحتي في قبضة يدي. صليت في اضطراب كبير عسى أن أتغلب على الصراخ الصاخب الذي يدوِّي في رأسي الدائخ مثل عاصفة هوجاء، وأحسست كما لو أن صلاتي ضاعت في الحال في تلك الضوضاء الداخلية التي لا تُحتمل. حينذاك، وبعد صلاة قسرية مدة ساعة كاملة، سمعت مرة أخرى ذلك العزف البعيد على الأرغن، وغرقت في النوم.

٣
معركة إيزر، أكتوبر ١٩١٤

اختُزلنا من جيش متحرك وخائض في عمل عسكري بشكل دائم، مكون من مائة وعشرين ألف رجل، إلى شرذمة غير نظامية تتدبر أمورها حسب الظروف، نجونا من الموت عشرات المرات في آخر لحظة، ففقدنا الإحساس بالدمامل، البثرات، العلل، والجراح التي أُصبنا بها ونحن نجرجر معنا المعدات الغليظة في الحقول الموحلة وعبر القرى المهجورة. ونحن مصابون بإرهاق نفسي وجسدي، ببنادق ما زال بوسعها أن تدوِّي لكنها فاقدة دقتها بسبب اهتراء السبطانات، تلقينا أمرًا في الأسبوع الأول من أكتوبر بالتقدم في سير قسري إلى مصدات الفيضانات المحاصَرة في جنوب غرب فلاندرز. عبرنا ببلدة «يابيكه» بعد ثلاثة أيام، تابعنا السير في اليوم التالي إلى أوستنده، وانقسمنا في ميدل كيركه. عسكرنا في البيوت الخاوية، هجمنا على القهوة الساخنة وشطائر الخبز، وغرقنا في النوم على طبقة رقيقة من القش المتناثر على الأراضي الخشبية. استيقظنا بعد بضع ساعات على صوت النافخين في البوق والقارعين على الطبول في الكتيبة. حصلنا على كوب من القهوة وبضع قطع من الكعك الجاف، من أجل أن يُبعث النشاط في مجموعتنا منهكة القوى مشوشة الذهن، فالتهمناها بصمت متأوه. ما لبثنا أن تلقينا أمرًا بسير قسري جديد، من دون أن نعرف وجهتنا هذه المرة. سمعنا

من ساعي بريد أن خنت على وشك السقوط، فامتلأ قلبي ذعرًا عندما فكرت بأمي. ثمة من يتهامس بأن ميدل كيركه كانت مصيدة لنا، إذ إننا، بالبحر وراءنا، لم نستطع الفرار من القوات الألمانية المكتسحة. زمجر الضباط بأن نغلق أفواهنا الوقحة ونتابع السير. لقد تمزقت قدماي؛ تخثر الدم في جوربَيَّ الخشنين وأخذ يحتك بالجراح ويوسع من رقعتها. كنت أعرج من الألم مع كل خطوة من خطواتي. سمعت أن القوات الإنجليزية والفرنسية قد تأتي لمؤازرتنا في القريب العاجل، ولكن ما أدرانا! نحن الذين نجرجر أنفسنا مثل شرذمة بائسة، رمينا خوذاتنا العسكرية أو طالها القصف أو وطأتها الأقدام منذ زمن بعيد، استبدلنا بها ما نهبناه من قبعات الشرطة والقلانيس والطاقيات التي تنسدل من تحتها شعورنا الشعثة، منتعلين أحذية عالية الساق عثرنا عليها في المزارع أو أحذية ألمان مقتولين، وعلى ظهورنا جعاب مصنوعة من مزق قماش مربوطة بعضها مع بعض، جماعة من الصعاليك متبلِّدي الإحساس، متسربلين بالطين، نشق طريقنا بتذمر وتأوه إلى الممتنع على التصور، حارثين الطرقات الموحلة تحت الغيوم المنخفضة في أرجاء البلد الذي جلدته سياط الأمطار.

وصلنا بعد الظهر بقليل إلى بلدة «إختيخم» وانتظرنا الأوامر من هيئة الأركان العامة. بعد أكثر من ساعة من التفكير والتأمل، أصدرت قيادة الجيش قرارًا بأن نعود من حيث أتينا. بلغت الاحتجاجات من الشدة أن الضباط شهروا سيوفهم ومزقوا حناجرهم من الزمجرة الحادة كي يهدئوا من حفيظة الأشباح المرهقين. أخذ الجنود يلعنون، يضربون الأرض بأقدامهم، ارتمى بعضهم على العشب، خلعوا أحذيتهم من أقدامهم المجروحة وصاحوا بأنهم لن يتحركوا من مكانهم. بدأ بضعة شباب والونيِّين يثغون بالفرنسية مثل الأغنام:

ـ جيش أحمق، جيش أحمق.

لاح الارتباك واضحًا على الضباط. خطوت إلى الأمام بمرارة في قلبي،

إذ إنني سمعت للتو أن أمي وأختي «كلاريس» قد جاءتا إلى «يابيكه» في اليوم السابق ولم يُؤذن لهما بالسلام عليَّ لحظة قصيرة. قلت للملازم «ده ميستر» إن الرجال يحتاجون إلى الاستراحة بضع ساعات قبل كل شيء. لم يُؤذَن لنا بذلك، فقد وصلت الأوامر. قلت إنه من الأفضل أن يبلغونا بهذه الأوامر، كي نستطيع على الأقل أن نفهم المغزى من هذا كله، فقال «ده ميستر»:

ـ «مارتين»، عليك ألا تقفز أعلى مما تسمح لك عصاك.

استجمعنا قوانا بسخط، سرنا بفوجنا عبر «مانيكنس فيره»، وقطعنا الجسر الوحيد إلى الطرف الآخر من نهر إيزر، حيث أُصدر أمر أخيرًا بالتوقف في منعطف «تيرفاته». عندما كنا في الطريق، سمح لنا الضباط بأخذ قسط من الراحة بضع مرات على الرغم من كل شيء. غسلنا جواربنا القذرة الملطخة بالدماء عند جدول ماء، تركنا أقدامنا تتأرجح في الماء المنعش دقائق طويلة، وتقاسمنا بودرة التَّلك والضمادات بعضنا مع بعض. في نهاية الأمر ارتمينا خائري القوى على ضفاف نهر إيزر.

كان صدى هديل حمام الغابة الناعم ينعكس على المياه المنسابة من دون تموج في المساء. رأيت في الطين المبلل آثارًا حديثة لحذاء نسائي وقدمَي طفل، لكن المنطقة كانت مهجورة بشكل كامل. كانت الأبقار والأحصنة شاردة هنا وهناك في الحقول الخاوية.

وزعوا علينا الكعك من جديد؛ علبًا معدنية كبيرة من بسكويت «باريان»، يتنازع الشباب عليها عندما تفرغ من محتواها، إذ بوسعك أن تحفظ فيها أشياء صغيرة شتى. في الليل، أخذنا نعمل بهمة محمومة عوضًا عن النوم. كان علينا أن نقطع، بما في حوزتنا من مناشير منثلمة، صفًّا من أشجار الصفصاف المقلَّمة، من جذوعها فوق الأرض مباشرة؛ سوف تحمينا الأشجار الواقعة ورؤوسها من الرياح والأمطار. قطعنا جذوعها الثخينة بالطول إلى قسمين من أجل استخدامها لتغطية جزء من الخنادق. أمر الضباط بحفر قنوات يمكن

حمايتها من الطرفين. سألت عن الغاية من هذا الأمر. تبين أننا مرابطون في انعطاف النهر الأهوج الذي يسير على شكل حرف «S»، فإذا قطع الألمان نهر إيزر، وقعنا في الحصار على الفور. أُعدت القهوة في بيت مزرعة، فشربناها بنهم من أكوابنا الحديدية. كانت الساعة قد بلغت السادسة صباحًا، ويتوق الجميع إلى النوم بضع ساعات. ما إن خرج الأعوج «سيخيرس» و«ليفينس» من البيت، وفي يد كل منهما مزادة من القهوة للمرة الألف، حتى اشتعلت نيران الجحيم من جديد. سقطت قذيفة «هاوتزر» بالقرب منهما وحولت أحدهما إلى غبار، حتى إننا لم نعثر على جثته، ومات الآخر أيضًا على الفور. بدا وكأن الألمان يريدون إطلاعنا على عينة من دقتهم المتناهية، فأطلقوا بعد ذلك مباشرة بضع قنابل مصوبة بشكل جيد، استهدفت بالتحديد الأحصنة والأبقار التي ترعى في المرج وراءنا. رأينا قوائم الحيوانات بارزة من الحفر التي أحدثتها القنابل مثل العُصي؛ بقي دخان البارود الأزرق يمور حول الحفر برهة من الزمن. نجح العدو في بلوغ الجهة المقابلة من النهر عن طريق جسر مؤقت. دب الذعر، خيضت معارك بحربات البنادق هنا وهناك، ثم بدأت القذائف تهمهم من فوق رؤوسنا. سُوِّي بيت المزرعة والمستودع المحاذي له بالأرض في أقل من لحظة. قبيل الساعة العاشرة من الصباح، لم يكن قد بقي شيء من الطبيعة الخلابة؛ تحيط بنا أكوام الأنقاض والتربية التي ليس فيها أي إشارة تدل على الحياة. أطلقنا النيران من المدافع الرشاشة في الاتجاه الذي يطلقون منه قذائف «هاوتزر». سقطت قنبلة من عيار ثقيل في منصة مدافعنا الرشاشة. رأينا أجساد رفاقنا تتطاير في الهواء، طارت أشلاؤهم حرفيًا من جانب رؤوسنا.

توالت الأيام ونحن نُقذف يمينًا ويسارًا بين إنذار مفاجئ وسكون تام يدوم ساعات طويلة، يبدو كل شيء فيه على خير ما يرام. خيَّب سلاحنا المدفعي ظنَّنا إلى حد بعيد، الحق أنه لم يكن هناك أي جدوى

من إطلاق النيران، فقد كانت سبطانات تلك المدافع أيضًا مهترئة من جراء الحرارة، ولم تكن مدافعنا الخفيفة تصل إلى مدى بعيد بما فيه الكفاية. وإلى ذلك كان الضباب جليدي البرودة يعيق في بعض الأيام أي شكل من أشكال الرؤية.

في أحد المساءات، أقبل علينا طوف عائم بهدوء عبر النهر، وعلى متنه صناديق كبيرة من ذخيرة جديدة. لم نعرف كيف وصل إلينا.

ولكن ما رأيناه في غبش الفجر من اليوم التالي، أصاب الجميع بالذهول: حشود من كلاب، أرانب، قطط، سراعيب، ظرابين وجرذان تقبل علينا، تظهر خطامها فوق سطح الماء مباشرة، تسبح باتجاهنا مثل جيش غير دنيوي، تتقدم بخطامها الحساسة مثلثة الشكل التي لا تُحصى عبر المساحة المائية اللامعة بالسواد؛ كانت بوابات السد في نيوبورت قد فُتحت، فأخذت المياه تغمر تدريجيًا أرجاء المنطقة كلها، حتى بلغت «ستاوفيكنس كيركه»، «بيرفايزه»، «تيرفاته» و«سخورباكه». استوعبنا شيئًا فشيئًا أن هذا الأمر قد يعيق تقدم العدو. راقبناها بقلوب خافقة. مُنعنا منعًا باتًّا من إطلاق النيران على الحيوانات الهاربة، لأن إطلاق النار سوف يكشف عن موقعنا للعدو. هكذا رأيناها، رأينا ذوات الخطام الرقيقة المبعوثة من عالم حلت عليه اللعنة، تهرب من آخر الزمان العصي على الفهم، تصل إلى اليابسة، تنفض الماء عن فرائها، تركض من جانب خنادقنا من دون أن تولي اهتمامًا بأي شيء، هاربة في تخبط أعمى مثل اللواميس. لم يتعرض أحد منا للحيوانات، لم يرغب أحد منا في قتل أي منها بهدف أكله، على الرغم من جوعنا الشديد. توارت الكائنات الشبحية المبللة بالمياه عن الأنظار، مثل ملائكة يوم الحساب بهيئات تنكرية، واثبة عبر السهل الموحل المتألق بالسواد في ضوء الفجر الرمادي. حملقنا بذهول في سطح النهر الداكن الذي لم يتوقف عن التماوج بعد. رأينا في البُعد اللمعان المبهم للمياه المقتربة على الأراضي السبخة. تجول القادة على الصفوف وهم يكررون في كل مرة أننا سنلاقي صعوبات

في التموين ويجب علينا أن نتدبر أمورنا بأنفسنا على مدى أيام عديدة، من دون إمدادات من المنطقة الواقعة وراءنا. لم يُوزع علينا سوى علب سردين وكعك رطب. أخذ الرجال يلعنون وهم يوشكون على التقيؤ من جراء شرب القهوة بعد تناول السردين المملَّح. صدر أمر يمنعنا من التحرك بهدف ما سُمي بـ«قضاء الحاجة»، لكن العديد من الجنود كانوا يقضون حاجتهم منذ أسبوع في المكان الذي يجلسون فيه، ويتبول بعضهم في بنطاله عند الضرورة من أجل لحظة دفء في ضباب الصباح البارد اللعين. تراكمت في أركان خنادقنا جبال من الفضلات المطروحة على مدى أيام طويلة. نحاول غض النظر عنها، ويلقي أحدنا أحيانًا بضع مغارف من التراب عليها، لكن رائحتها الكريهة النفاذة تعششت في رؤوسنا، وفي أنفاسنا، وفي عظامنا. قال «كارلير» في إحدى المرات:

ـ نعيش هنا حياة بدائية أكثر من سكان الكهوف، اللعنة.

وبصق في الطين.

ذات صباح، بعد مضي أسبوع، سمعنا طفلًا يبكي. كان صبي في نحو العاشرة من العمر يقف على الضفة المقابلة. منعنا القائد من أن نجيء بالصبي إلينا. قال «كارلير» إنه من العار أن نتركه هناك، خلع بدلته، قفز في النهر، وسبح إلى الجهة المقابلة. ما إن مدَّ يده إلى الطفل حتى غادر الأخير. أطلق الألمان النار من جميع السبطانات، من دون أن نعرف من أي مكان. وقع «كارلير» إلى الوراء، تدحرج من الجانب العشبي إلى داخل المياه، غطس في الأعماق، ولم يظهر على السطح إلا عندما وصل إلى طرفنا. تابع الجميع هذا المشهد المؤثر بأنفاس منبهرة؛ سحبنا «كارلير» إلى اليابسة، قال الضابط إنه يستحق عقوبة شديدة في واقع الأمر، لكنه عندما رأى استياءنا من الطريقة التي يتعامل بها الألمان، ترك الأمر عند هذا الحد.

أدركنا حق الإدراك أننا في مواجهة عدو لم يعد يردعه أي رادع أخلاقي. كان هذا النوع من الحروب النفسية جديدًا بالنسبة إلينا، كنا قد

تلقينا تربية صارمة في الشرف العسكري، في الأخلاق والفنون الحربية، تعلمنا أن نبارز بالسيف بأناقة وأن نجري تدريبات الإنقاذ بشهامة، تعلمنا أن نضع شرف الجندي والوطن في المقام الأول. ما رأيناه هناك كان شيئًا مختلفًا تمامًا، قلب أفكارنا ومشاعرنا رأسًا على عقب. شعرنا والخوف يعتصر قلوبنا بأننا نتحول إلى أناس آخرين، مستعدين لفعل كل ما كنا نشمئز منه في الماضي. كان عدد من ضباطنا يتشاجرون في هذه الأثناء بالفرنسية؛ يريد أحدهم إصدار أمر بعبور النهر، ويجأر آخر بأن هذا هو الجنون بعينه. زمجر «ده ميستر»:

ـ هذا هدر للذخيرة والأرواح!

تبين بعد مضي برهة من الزمن أنهم وضعوا خطة رغم الخلافات. أرسلونا إلى ضفاف النهر في مجموعات صغيرة من أربعة إلى عشرة أشخاص لنرى من الانعطافات إن كان هناك أي مناورات على الطرف المقابل. على مقربة من بيت المزرعة المدمَّر وقف نحو مائة رجل منتظمين في حلقة على أهبة الاستعداد لإطلاق النار. زُوِّدنا بمغارف وأخذ بعضنا يحفر من مسافة باتجاه البعض الآخر؛ حفرنا خندقًا بطول مائة متر بعد مضي عدة ساعات. عندئذ تلقينا أمرًا بأن نغطس في الخنادق على الفور ولا نتحرك حتى صدور أوامر أخرى. حلَّ الليل؛ نمنا على طبقة رقيقة من القش الذي جئنا به من المستودعات المدمَّرة. نام بعضهم على الأرض الطينية، بعضهم الآخر في وضعية نصف وقوف منحنيًا على بندقيته، وبعضهم في وضعية الجنين مديرًا وجهه إلى الجدار الترابي غير العميق. رغبنا في التدخين، لكننا خشينا أن تكشف رائحة السجائر عن موقعنا للمستطلعين الأعداء.

فكرت بأمي من جديد في تلك الليلة، ثم فجأة ومن دون أن أعرف السبب، بحقيقة أنني لم أصاحب أي فتاة بعد ـ الأمر الذي غالبًا ما عرَّضني لاستهزاء الآخرين. راودني طيف الفتاة في البركة الضحلة ـ هل كان ذلك في الماضي القريب إلى هذا الحد؟ رأيتها تنهض في السراب الدافئ وسط

الطبيعة الصيفية القريبة من الميناء، عارية من ملابسها ذات اللونين الأبيض والأزرق مثل ملابس «برناديت سوبيرو»، يشتعل أديمها الناعم مثل بقعة ضوء في الظلام. ما السبب في تلك المعجزة التي تجعلنا نرى الضوء والحياة في أحلامنا في حين يحيط بنا الظلام من الجهات كافة؟ جاش هيجان عبر جسدي، أسرتني الشهوة، وأحكم شيطان الرغبة في الاستمناء قبضته عليَّ. كنت أسمع الحفيف المنتظم الصادر عن القماش من هنا وهناك في الظلام، وأعرف معناه. كنت أتفهم حاجة الآخرين، لكنني لم أكن لأغفر هذا الفعل لنفسي. وجدتني بين براثن رغبة عارمة في أن أفرِّغ هذه الشحنة أخيرًا، أنا أيضًا مرة واحدة، بعيدًا عن مرأى القدير وقساوسته، في منأى عن كرسي الاعتراف، هنا في هذا الجحيم من الموت والطين، الذي هرب منه حتى حيوانات الجنة. هل يمكنني أن أفعل ذلك، مرة واحدة فقط؟ وقبل أن أبادر بفعل أي شيء، ومن مجرد التفكير في هذا الاحتمال، اندفع السائل حارًّا وباعثًا على الانتشاء في بنطالي العسكري؛ صُعقت، أصبت بالدوار، وأخذت أبكي بصمت، دعوت سيدتنا العذراء أن تغفر لي ضعفي. تراءت لي الفتاة من جديد، لم تخمد شهوتي بعد، استدرت متأوهًا إلى القش القذر، استسلمت رغم شعوري الحارق بالذنب لهوى نفسي في آخر الأمر، بكيت، استغفرت عن ذنبي، وغرقت في النوم.

عندما انتفضنا من النوم، وجدت بجانب رأسي قطعة لحم الخنزير المشوية التي أعطونا إياها قبل النوم بقليل، وهي لا تزال دافئة بعض الشيء. لا بد أننا نمنا أقل من ثلاث ساعات. كان النافخون في البوق يدعون بنداء مكتوم إلى القتال؛ صدر أمر عام، عندما اصطففنا في الخنادق مترنحين من النعاس. صُرخ بالفرنسية:

ـ الجنود، إلى الأمام بخطوات سريعة!

وبالهولندية:

ـ الفلامنديون، بخطوات أسرع!



ارتفعت في الحال صرخة رعب:
ـ اللعنة، الألمان في خنادقنا!
دوَّت الأبواق؛ قفزنا إلى الأمام ونحن نرتجف من البرد، بدأ بعضهم بالخروج من الخنادق. هاجمنا في صفوف من أربعة مقاتلين على العدو الذي عبر النهر في الليل؛ رامي قنابل بقبعة «القلبق» السوداء تحت إبطه، صياد[*] بقبعة «البيريه» الخضراء، جندي مدفعية خدم في السابق في نطاق الحصون، ومهندس عسكري، في كل مرة يطلق القائد بضع طلقات من جانب رؤوسهم بهدف التغطية. بينما نركض ونطلق الرصاص على هذا النحو، تقدمنا أكثر من كيلومتر واحد.
ـ إلى الصف!
ـ وراءه، وراءه، انضم إلى الصف، اللعنة!
لاح الموت والشقاء في الجو القارس.
ـ «مارتين» و«كيمبه» برتبة رقيب أول، من هذه اللحظة فصاعدًا.
ـ «ميرسي»، سيدي القائد.
ـ استعداد!
ـ حاضر، سيدي القائد.
ـ الجندي «ماروَا»!
ـ نعم، سيدي القائد.
ـ ابقوا أنتم الثلاثة على مسافة واحدة، مائة وخمسين مترًا بعضكم عن بعض. علِّموا كل بقعة نستطيع الاحتماء فيها في أثناء التقدم باتجاه العدو. حاولوا أن تعلِّموا «نقطة انطلاق» نستطيع الهجوم منها على جبهة العدو.

(*) جندي من فرقة عسكرية مكونة من جنود مشاة مهمتهم الاستطلاع والقتال والقنص، يرتدون بدلات وقبعات خضراء. (المترجمة).

«مارتين»، خمسة أمتار في المقدمة، إلى اليمين. «كيمبه» في الوسط. «ماروَا» إلى اليسار. إذا واجهتم مقاومة، عودوا وانضموا إلينا. الحربة على البندقية. هيا!

انطلقت أول واحد بسرعة البرق من مواقعنا، تتطاير الكتل الطينية المكسوة بالعشب حول رأسي، تنطلق أنقاض الأقبية في الهواء، أغطس من حفرة قذيفة إلى تجويف قنبلة، أقفز وراء جذوع الشجر، أنتظر الإشارة بأن الآخرين يتعقبون آثارنا، لكنني لا أسمع أي صوت من ورائنا؛ تلعلع فوق رؤوسنا الرصاصات والقنابل، القذائف والمتفجرات. لم أعد أرى «كيمبه» إلى يساري. كان من المفروض أن ينطلق ورائي بخمسين مترًا، لكن المنطقة التي حل بها الخراب لم تترك أي مجال للرؤية بوضوح. تشوشت أفكاري، انبطحت على الأرض وأخذت أزحف إلى الأمام بأقصى ما أستطيع من سرعة. يعج المكان حولي بشبكات محطمة من أسلاك شائكة، أبقار ميتة، أجزاء من جدار، حديد ملتوٍ، برك وحفر عميقة، حصان محتضر، يفرفر برأسه بيأس، يرغي الزبد ويبقبق على خطامه وتخرمش حوافره في الطين. خلَّصت الحيوان برصاصة رحمة، واضعًا بندقيتي على رأسه الحساس المكسو بشعر بني اللون. تناثر الدرن والدم في الهواء. كانت النيران القادمة من جهة العدو قد بلغت من القرب أنني استطعت رؤية منصات مدافعهم، فوهات جهنمية تعوي وتطقطق وتغمغم، وتحرمني من سمعي وبصري. وصلت فجأة إلى رابية. ثمة مرج أمامي، على ارتفاع متر ونصف المتر. إنها بقعة آمنة يستطيع أن يحتشد فيها رفاقي استعدادًا للهجوم. ولكن كيف لي أن أُعلمهم بذلك؟ المنعطف في هذا المكان غادر جدًّا. عودتي إليهم تعني الموت الحتمي؛ حتى رفاقي يمكنهم أن يطلقوا النار عليَّ، من دون أن يعرفوا أن من يطلقون عليه هو أنا. لذلك يجب عليَّ أن أصعد إلى فوق الرابية لأرى ماذا يوجد وراءها. وإذ بي أرى «كيمبه» في مكان بعيد عن يساري يتسلق الرابية؛ قفز إلى الأمام، وغطس تحت سياج حطمه القصف. حذوت حذوه؛ هرولنا

بفاصل مائة وخمسين مترًا أحدنا عن الآخر باتجاه خط العدو. قلت فيما بيني وبين نفسي: «هذا عمل جنوني». كان الرصاص يطير من حولي على ارتفاع الركبة، أخذت أهرول وأقفز من فوق الجثث، ثم الجثث، التي ترقد قريبة بعضها من بعض إلى درجة أنها قطعت أنفاسي؛ لكن في النهاية، هناك أمامنا، تقع «نقطة الانطلاق»، التي أمرنا الضابط بتعليمها. أخذت أقفز يمنة ويسرة وسط الرصاصات الملعلعة مثل المجنون، أرقص مثل الأحمق في سعي لإنقاذ حياتي. بلغت أخيرًا أكثر المتاريس المنزاحة إلى الأمام؛ يجب عليَّ أن أتصرف بسرعة البرق. قفزت، لكنني شعرت برشقة تسري في جسدي، لم أعرف أين على وجه التحديد، ومضة بيضاء أمام عيني، شعور بأن بطني قد انشق. سقطت في قناة جافة وسط وابل القنابل المتشظية الصغيرة. انطرحت على بطني وأنا أرتجف، بلغ الألم في مغبني الأيسر من الشدة أنني لم أستطع التنفس دقيقة كاملة وظننت أنني أختنق. لم أستطع أن أصيح طلبًا للنجدة ولا حتى أن أسعل، لم أستطع أن أصل إلى بندقيتي الواقعة على حافة القناة، لم أستطع أن أحرر نفسي من جعبتي الثقيلة الواقعة عليَّ، كنت قد أصبت بشلل تام. رأيت بنظرة ضبابية مصدات الفيضانات على طول نهر إيزر على بُعد مائة متر على وجه التقريب. تمتمت قبل أن أغيب عن الوعي:

ـ نفذت الأوامر، سيدي القائد.

ثم ساد ظلام وسكون.

عدت إلى وعيي بعد فترة طويلة. كان الظلام قد بدأ يرخي سدوله، والرذاذ يتساقط عموديًا، وأنا مخضَّل بماء المطر. وجدتني راقدًا بجانب القناة، يبدو أنني تسلقت منها، مع أنني لم أستطع أن أتذكر أي شيء عن هذا الأمر. لعلي رقدت ساعات طويلة على مرأى من نيران العدو بشكل كامل. كان حذاء ثقيل لشخص ميت قد حلَّ على حنجرتي. تنخعت، أدرت رأسي بحذر شديد، رأيت المكان حولي يعج برفاقي القتلى. يبدو أن هجومنا الكاسح

مُني بفشل مميت. كان الألم يمزق جسدي بأكمله. بقيت راقدًا في مكاني من دون حراك إلى أن حلَّ الظلام وتوقف القصف. كنت أموت من العطش، ويعذِّبني وجع مغبني، تحسست في الظلام حفرة اللحم المبللة، الدبِقة بالدم، أسفل بطني. بقيت أنشج بالبكاء برهة من الزمن وقد أيقنت من أنني سأموت في هذا المكان. تولاني يأس وحيرة، فأخذت أزحف على كوعَيَّ عبر الطين في أعماق الليل، ساحبًا ورائي ساقَيَّ فاقدتَي الإحساس، ولكن حتى الزحف كان يحدث ضجة، فقد بدأوا بإطلاق النار بشكل أعمى في اتجاهي عبر ظلام الليل؛ زحفت على كوعَيَّ المسلوخين من اللحم، والدم يتقاطر من بنطالي وأكمام سترتي، وأنا أدعو سيدتنا العذراء، أعبر بالأبقار الميتة، الأحصنة ذات البطون المشقوقة، الجنود القتلى الذين طيَّر الرصاص وجوههم، من دون أن ألتقي روحًا حية، سوى ربما بذلك الصبي الوحيد المتأوه في مكان ما في الظلام، أحيانًا تحط يدي بأكملها في جثة مشقوقة، فأرتجف، وأزحف بعيدًا وراء الخنادق المهجورة.

عندما لاحت بوادر الفجر في السماء، زحفت إلى الحفرة الألف وأنا أنشج بالبكاء وأعتقد أنني ألفظ أنفاسي الأخيرة. رأيت، بما يشبه معجزة، نقالتين من نقالات المرضى للصليب الأحمر هناك، وطبيبًا عسكريًّا وقسيسين شابين جالسين القرفصاء إلى جانبهما. أيقنت أنني وصلت إلى ما وراء خط المواجهة بمئات الأمتار. تدحرجت إلى داخل الحفرة. قدموا لي الإسعافات الأولية، سمعت الطبيب العسكري يتمتم بشيء، ثم غبت عن الوعي مرة أخرى. عندما صحوت، رأيت قطعة من الورق المقوى مثبتة بالدبوس على صدري؛ لم أستطع أن أتحرك بما فيه الكفاية لأرى المكتوب عليها. وضعوني في عربة مع جرحى آخرين وذهبوا بنا، ونحن نرتج على الطرقات المدمرة، إلى مكان وراء منعطف «تيرفانه» المميت. في ذلك الصباح نفسه كانت القوات الألمانية المتحصنة بشكل ممتاز قد أجهزت بمدافعها الرشاشة وقذائفها على من تبقى من كتيبتنا. سقط مائة وخمسون ألف جندي شاب

من جنودنا في أقل من أسبوع واحد في المنطقة الممتدة من نيوبورت إلى بلدة «ديكس ماوده».

بقيت ألهث من الشقاء في نوع من أنواع الثكنات على مدى عدة أيام. سمعت هناك المآل الذي آلت إليه خطتنا «نقطة الانطلاق» الباهرة: انتظر قائدنا إشارة منا ساعتين كاملتين، ولم يُوفق أي من ثلاثتنا في إعطائها. عندما فقدوا الأمل، هاجموا بالسيوف الشاهرة وحربات البنادق على جبهة العدو الذي حصدهم جميعهم من دون استثناء تقريبًا. فقدنا ثمانية آلاف ضابط خلال أسبوع واحد، على هذا الطرف من الجبهة فقط. بقي شباب لا يُحصون ممن لم تُحدد هوياتهم يتمرغون في الطين هناك وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة، أُصيب آخرون بجراح أو أُخذوا أسرى أو ماتوا في عربات الفلاحين في طريقهم إلى هذه الثكنة. وصلت في شاحنة مع جرحى آخرين عبر الطرقات الوعرة مخلخلة الحجارة، ونحن نترجرج ونتصادم، إلى خطوط الجبهة الخلفية. فحصَنا طبيب عسكري آخر في بيت صغير متداعٍ، كان الضباط ينظرون بعين الريبة ويبحثون بشكل دائم عن المتهربين من الخدمة: كان بعض الجنود يرتدون بدلات رفاقهم القتلى الملطخة بالدماء ويئنون ويتأوهون في محاولة منهم أن يصلوا مع الجرحى إلى هنا. كان القسيسان الشابان في حالة صدمة، لا يتوقفان عن البكاء، فنُقلا من هناك. كنا كلما نُقلنا إلى مركز طبي آخر، يبعد شيئًا فشيئًا عن الجبهة، خضعنا لفحص طبي، وتلقينا إسعافات أولية، وانخفضت أعدادنا أيضًا. رأيت شبابًا يموتون بجانبي في صندوق الشاحنة المفتوح. السماء الرمادية ضارية وخاوية، الغربان الحائمة مع الريح القارسة تنعق نعيقها في أعماق جسدي المحطَّم بابتهاج الظافر. وصلنا أخيرًا إلى مدينة كاليه الفرنسية، أرقدونا لأول مرة على الأسرَّة في فندق مصادَر، وقدموا لنا الحساء والخبز، ثم أخذونا إلى مستشفى، لم أعرف موقعه على وجه الدقة. أُخرجت رصاصة من مغبني. عندما عدت إلى وعيي، رأيت الطبيب العسكري واقفًا بجانب سريري. أعطاني الرصاصة وكأنها وسام شرف، وقال:

ـ أنت محظوظ يا «صديقي». لو جاءتك سنتيمترين إلى الوسط، لأصابتك في عمودك الفقري، وبقيت مشلولًا طوال حياتك.

لفظ كلمة «صديقي» بالفرنسية. ربَّت على خدي. لم أستطع الحراك. بقيت نائمًا على مدى أيام طويلة من دون أي طعام. بعد ذلك قدموا لنا حساء خفيفًا من الخضراوات، أصابني بالإسهال على الفور. كنت أشعر بأنني هش مثل ورقة خريفية في الهواء. في الليل تراودني الكوابيس أرى فيها أحصنة ميتة تنهض من الطين المخضَّل بالدماء وتبدأ بسحق الجنود بقوائمها. ذات صباح، عندما رأيت الممرضات يسرن جيئة وذهابًا بهدوء في بدلاتهن الرمادية، هؤلاء النسوة الشابات الصامتات اللاتي يُغدقن علينا برعايتهن بأصوات هامسة وأيدٍ حريصة، انفجرت بالبكاء رغم شعوري بالخجل. في اليوم التالي أخذونا، نحن قرابة خمسين شخصًا، ووضعونا على متن سفينة. قالوا: «ليفربول»، إنهم يأخذوننا إلى ليفربول. نمت طوال الرحلة.

٤

سأتذكر من ليفربول، عندما يُلقى بي في معمعة المعركة من جديد بعد ستة أشهر، صدمة التعرُّف التي تبقى معي طوال حياتي. ولكن قبل الوصول إلى هذا الأمر، أخذونا في البرَد المنهمر والعاصفة التي تهب برياحها قارسة البرودة على نهر «مرزي» العريض المتلاطم، إلى مستشفى قريب من الكاتدرائية التي ما زالت في طور البناء في شارع «هوب»؛ أعقبتها النقاهة في منتجع صحي في أثناء الربيع، في البداية في والاسي على الطرف الآخر من نهر «مرزي»، ثم في ليفربول من جديد في مكان قريب من «توكستيث».
مضت الأيام مثل حلم مبهم زاخر بالطمأنينة والارتياح. جلست عدة أسابيع في كرسي متحرك، تدفعه ممرضة صموت اسمها «ماود». كنت في تلك الأسابيع الأولى أجد صعوبة في العثور على كلماتي، وأسهد في الليل بسبب خجلي من سلوكي الأخرق. بعد انقضاء فترة من الزمن، استطعت أن أمشي بمساعدة عكازَين ذهابًا وإيابًا في الممر. لن يكون بمقدوري أن أعثر على المنتجع الصحي الذي أقمنا فيه في ذلك الحين؛ قالت «ماود» إنه يبعد نحو عشر دقائق سيرًا على الأقدام عن ضفة «مرزي». أتذكر أن دار النقاهة تلك كانت تقوم بجانب حديقة عامة تنتصب فيها عدة أشجار بلوط وراء جدران منخفضة. كانت كل حركة تؤلمني في الأسابيع الأولى؛ أشعر في كل لحظة من اليوم أن أبسط حركة من إحدى ذراعَيَّ تجهد العضلات

في أسفل بطني، كما لو أن تلك البقعة الواهنة هي التي توجه كل التفاتة أقوم بها. كنت أواجه صعوبات في التبول وأخجل من الممرضة المرموقة التي تساعدني في القسطرة، أنبوب بني اللون يسيل عبره مصل الدم في الوعاء الأبيض المطلي بالميناء الذي تمسكه لي؛ كنت ألعن فيما بيني وبين نفسي، عندما أتعثر بإحدى العتبات.

لكنني بعد مضي شهر ونصف الشهر تحسنت بما يكفي كي أمارس التمرينات الأولية التي من شأنها أن تعيد إليَّ لياقتي البدنية. بدأت أمشي مسافات قصيرة، ثم أطول فأطول تدريجيًا. أجلس تحت الأشجار في مقبرة «سانت جيمس»، في ظل الكاتدرائية غير المكتملة التي توقف بناؤها بسبب الحرب، وأنهمك في الرسم. ما لبث أن طلب عدد من الجنود أن أرسم لهم صورة. أخذت أرسمهم بقلم الفحم، وانحنت «ماود» الصموت على ورقة الرسم. كان ذلك في يوم من أيام الربيع، في أواسط مارس. شممت رائحة خفيفة من البنفسج، وعندما رفعت نظري رأيت عينيها الخضراوين موجهتين إلى يدي. ازدردت ريقي، وقلت من دون تفكير - وخاصة لأنني أردت أن أخفي ارتباكي الفظيع ولم أعرف ماذا يجب أن أقول - شيئًا تذكرته في تلك اللحظة فحسب وهو أن أبي المتوفى عن عمر مبكر أقام في هذه المدينة قبل سنوات، مبعوثًا من «جمعية مار منصور دي بول». فكرت «ماود» لحظة قصيرة، ثم قالت إن كنيسة «مار منصور دي بول» تقوم في شارع «سانت جيمس»، ثم تابعت جولتها.

لم أهنأ براحة البال منذ تلك اللحظة. هل بلغ بي الغباء ألا أتذكر من قبل أن أبي أقام في هذه المدينة ما يقارب سنة كاملة؟ هل زلزلت الحرب كياني إلى حد جعلني أفقد ذاكرتي؟ بقيت أؤنب نفسي في ليالي الأرق التي أعقبت تلك اللحظة. أين رسم أبي؟ وماذا رسم؟ ما إن عاد إلى البيت حتى تدهورت صحته سريعًا؛ قلما سألناه عن شيء، وقلما أخبرنا هو نفسه بشيء لأن الكلام كان يكلفه عناء كبيرًا. لمَ لم أستفسر منه عن إقامته هنا؟

بينما أعاتب نفسي، كتبت رسالة مطولة إلى أمي أخبرها فيها عما حدث معي في ليفربول. ما إن سمح الطقس ولياقتي البدنية حتى خرجت في رحلة بحث. وجدت كنيسة «مار منصور دي بول» فعلًا في شارع «سانت جيمس»، دخلت إلى الصالة الرطبة الكالحة بقلب خافق؛ لم تكن الجدران الكامدة على اليسار تبدي أي أثر يدل على رسومات جدارية قد يكون أبي عمل عليها، وكانت محطات درب الصليب معلقة في لوحات على الجانب الأيمن. شاءت المصادفة أن أرى عمالًا في الكنيسة يبيِّضون عدة جدران بالكلس. لم يتذكروا أنهم رأوا لوحات جدارية تحت طبقة الكلس. عرَّجت في الأيام التالية على جميع الكنائس تقريبًا في ليفربول، واندهشت من الحضور الكثيف للكاثوليكية في هذه المدينة؛ أخبرتني «ماود» أن السبب في ذلك يعود إلى الأيرلنديين المهاجرين. زرت كنيسة «القلب المقدس»، كنيسة القديس «فيليبو نيري»، التي لا تزال في طور البناء، كنيسة القديس «لوقا» التي تعرضت للقصف في الحرب العالمية الثانية، كنيسة «توما الكانتربيري»، كنيسة القديس «أنطونيو»، وكنائس أصغر حجمًا في ضواحي المدينة. لم أعثر في أي منها على أثر للوحات جدارية رممها أبي وزوَّدها بإضافات. تذكرت بغموض أنه عمل في دير أو مدرسة، لذلك سرت تلك المسافة كلها إلى «إفرتون فالي» لأزور كلية «نوتردام». لم أعثر على ضالتي في أي مكان، وازداد هوسي وشعوري بالذنب بمرور الأيام.

في ظهر يوم من أيام مارس الأخيرة، كنت أمشي الهوينى بجانب أحواض السفن، أهيم على وجهي في الشوارع، فانتهى المطاف بي في الضواحي الفقيرة، أضعت طريقي، ووصلت قرب حديقة مسيجة ورأيت مبنى أشبه بالدير مع كنيسة صغيرة. دخلت المبنى من دون أي أمل، بقصد وحيد وهو أن أصلي على روح والدي الفقيد. جثوت على ركبتَيَّ على مقعد قاسٍ بسيط. في أحد الأركان تشتعل عدة شموع يتصاعد منها الدخان، وتسجد امرأة على الأرض الحجرية وتصلي. أخرجت مسبحتي من جيبي. استغرقت في صلاة

مكرَّرة طويلة بثت الطمأنينة في نفسي، وأحسست بهمومي كلها قد انزاحت عني. عندما نهضت طاهر النفس، رأيت لوحة جدارية وراء المذبح تجسد القديس «فرنسيسكس» كما يبدو؛ إكليل من طيور صغيرة تطير حول رأسه نصف الأصلع. صعدت الدرجتين وراء المذبح وشعرت بنوع من صدمة كهربائية تسري في جسدي: وجه القديس هو وجه والدي بما لا يدع مجالًا للشك. لم أصدق عينَيَّ، لكنه ها هو ذا واقف أمامي؛ لقد رسم نفسه هنا، في هذا المكان حيث ليس بوسع أحد أن يأخذ عليه أي مأخذ بسبب فعله، وهو على قناعة تامة بأن لا أحد على الإطلاق سيعرف ما فعله أو سيراه. لقد خلَّد أبي نفسه هنا، بعيدًا عن عيون كل الذين يعرفونه، في هيئة القديس شفيعه... كان هذا وجهه، قبل موته بشهور قليلة، الموت الذي لعله حتى حينذاك شعر به يتسلل عبر جسده الهزيل. وقفت أحدق مشدوهًا في المشهد. كان وجهه على هذه الهيئة عندما استقبلناه عند القطار في محطة «زاود» في خنت، في ذلك اليوم البعيد في السنوات الهادئة قبل الحرب.

إلى يمين القديس يقف صبي راعٍ، وتلقيت الصفعة الثانية، إذ أصبح النفي مستحيلًا: وجه الصبي الذي يمد يده بمودة إلى القديس هو وجهي. نظرت مرة أخرى، معتقدًا أن خيالي المتوتر يخدعني، لكن لا، لقد رسمني من ذاكرته بدقة متناهية في الهيئة التي كنت عليها في ذلك الحين، صبيًّا في نحو الرابعة عشرة من عمري، بشعري الخشن المنفوش، ورقبتي القصيرة المتينة، وعينيَّ الزرقاوين اللتين ورثتهما عنه ـ كنت أقف هناك إلى جانب أبي في ركن متواضع، محاطَين بنصف ظلام في كنيسة صغيرة. هل رسمني في إحدى المرات بينما أنا نائم وراء الموقد «اللوفاني»؟ أم رسم هذه الصورة من ذاكرته فحسب؟ وإذ بي أتذكر أنني وقفت أمامه ليرسمني في وضعية المسيح في دير الرهبان التابع لـ«إخوان المحبة»، قبل فترة قصيرة من رحيله إلى ليفربول. هل جاء بعدد من تلك الرسوم إلى ليفربول، من أجل هذه الغاية؟ أم حملها معه مثلما كان الناس يأخذون صور أحبائهم معهم في أسفارهم

في زمن لاحق؟ لم يقل كلمة واحدة عن هذا الأمر، ولم يكن احتمال أن أكتشفه ليخطر في باله بأي حال من الأحوال. تذكرت كيف انفجر بالبكاء، عندما رأى رسوماتي بعد عودته إلى البيت مباشرة: من يدري، لعله فكر في تلك اللحظة في هذه الجدارية... باغتتني على الفور الذكريات عن الكنائس التي جلست فيها إلى جواره طوال سنوات طفولتي. كان لا يزال بوسعي رؤية كل شيء أمامي؛ حركاته، كحته الخفيفة عندما يعمل بتركيز، رائحة التربنتين والزيت. غمرتني اللهفة إلى تلك الأيام فبقيت أحدق في الجدارية برهة طويلة من الزمن. خرجت من الكنيسة بعد نصف ساعة. رجعت أدراجي إلى مركز المدينة مستغرقًا في ذكرياتي وأسيرًا في قبضة عواطفي المشوشة. رأيت تمثال «بالاس أثينا» يتوهج في إشراقة شمس مفاجئة، مثل طيف من كوكب آخر، على قبة دار البلدية. سمعت صوت النوارس فوق الشوارع، صليت في كنيسة «سانت نيكولاس»، مشيت بجانب نهر «مرزي» الرمادي الداكن المتلاطم حتى بلغت المحطة الأخيرة من السكة الحديدية «جريت ويسترن ريلوي». جلست على دعامة إرساء بجانب أحواض السفن أحدق غير مصدق في الخط المبهم البادي من السماء الزرقاء فوق «بيركنهد». لم أكد أنام في تلك الليلة. كتبت رسالة أخرى إلى أمي أخبرها بما رأيته، ويبدو لي في الوقت نفسه أنه شيء يمتنع على التصور إلى حد أنني بدأت أشك من جديد: ألا يمكن أن أكون قد توهمت هذا كله؟

في اليوم التالي حاولت أن أعاود السير في تلك الطرقات المتعرجة. أخذت أسير في الشوارع والحدائق، عبر الساحات والدروب، إلى أن فقدت الأمل في العثور على تلك الكنيسة الصغيرة. لم يبقَ لديَّ متسع من الوقت، إذ من المقرر أن نرحل إلى لندن بعد عدة أيام. لقد بدأنا بإجراء تمرينات تحضيرية على مدى أيام كاملة، وأخذت أعصابي تتوتر بشكل فظيع من حماقتي الألف: كيف لم يخطر في بالي أن أدوِّن اسم الكنيسة الصغيرة واسم الشارع على ورقة! كانت لا تزال لديَّ عطلة واحدة بعد

الظهر، فمضيت في تلك الساعات القليلة، قبل تسجيل حضوري، أتجول للمرة الأخيرة في كل الأحياء التي ظننت أنني عبرت بها من قبل. قبل أن أدرك كنت قد سرت في حلقة وعدت إلى نقطة البداية. وصلت إلى المنتجع الصحي منقطع الأنفاس. نظرت إليّ «ماود» بعين الارتياب، وسألت هل أنا جاهز فعلًا للعودة إلى الجبهة. أجبتها:

- ينبغي للعسكري أن يطيع الأوامر.

وقبل أن أشعر بنفسي كنت قد ألقيت تحية عسكرية. بدا كما لو أن ومضة من الاستهزاء اتقدت في عينيها.

وأنا مشوش الذهن، معذب النفس من شدة الندم وعتاب الذات، رُحِّلت في شاحنة عسكرية إلى لندن. أقسمت أن أعود إلى هذه المدينة ذات يوم وأعثر على الكنيسة الصغيرة. بعد انقضاء سنوات كثيرة، ولأن العودة لم تتسنَّ لي، طلبت من الرهبنة في خنت أن يزوِّدوني بقائمة تتضمن أسماء الكنائس والأديرة كلها في ليفربول. كان ذلك في عام ١٩٣٩. كانت مواصفات كنيسة ويلزية صغيرة شبه متطابقة مع ما كنت أتذكره من تلك الكنيسة، ولكن تبين أنها هُدمت؛ الحق أنني لم أتصور أن تكون هي الكنيسة التي رسم فيها. لم أستطع قَطُّ أن أنسى التأثير الذي أحدثته فيَّ تلك اللوحة الجدارية التائهة البعيدة. لعلها هي التي حكمت أن أكون الإنسان الذي أصبحته اليوم، أتذبذب بين حياة مليئة صعبة ورسم هادئ يواسيني ويبعث الطمأنينة في نفسي.

سرنا إلى المحطة في شارع «لايم». كانت العربات الكئيبة، التي أصاب الرصاص بعضها بالتلف، واقفة بانتظارنا. خرجنا من المدينة عابرين من جانب الجدران الداكنة العالية، ومن تحت الأنفاق والجسور المغطاة بالشحار الأسود. سرعان ما تركنا الجو البحري في ضفاف «مرزي» وراء ظهورنا وابتعدنا عنه. في الطريق رأيت هضاب ولفرتون الآمنة ومروجها

المحفوفة بالأشجار المعمرة وهي تنزلق إلى الوراء. أحسست كما لو أنني أُسحب من نقطة الجاذبية في حياتي التي عثرت عليها من جديد؛ أدركت أيضًا في تلك اللحظة فحسب أنني كنت مغرمًا بممرضتي «ماود» طوال تلك الفترة وأنني من شدة الخجل لم أذهب لوداعها قبل أن نسير في صفوف إلى الشاحنة العسكرية. كان مغبني لا يزال متشنجًا، وأشعر بالجرح عندما يدركني التعب من السير الطويل، وأعاني أحيانًا تشنجات عضلية لم تكن موجودة من قبل، لكنني كنت أعلم أيضًا أنني تعافيت بما فيه الكفاية وأنني استنفدت فرصي في تمديد إقامتي في نعيم المنتجع وراحته. كنت قد وضعت دفاتر الرسم في أعماق الحقيبة المنسوجة من الخيش التي زوّدونا بها قبل الرحيل. كلما أوغلنا في أعماق المناطق الداخلية، ازدادت السماء تلبدًا بالغيوم، وأمطرت فوق ضواحي المدن الرمادية. أخذت خطوط مائية ملتوية تزحف مثل ديدان زجاجية على شبابيك المقاصير، التي تضج بالأحاديث والضحكات، بالأغاني الهدّارة، بدخان التبغ ورائحة الشراب. لقد بدأت الحياة العسكرية القاسية من جديد.

* * *

في لندن رأيت أخي غير الشقيق «يوريس». كانت زوجته المصابة بفقر الدم قد لقيت حتفها في إحدى الغارات، وهرب هو مع كثيرين آخرين إلى لندن. كان يهيم على وجهه في المدينة منذ أسابيع ويتردد على صالات النوم الخاصة بالعساكر عسى أن يرى أحدًا من معارفه. ذرف الدموع عندما رآني، شدّد عليّ أن أنتبه لنفسي، قال لقد تحطمت حياته، ولا يرغب في الاستمرار في العيش. سألته عن حال أمي وأختيَّ، قلت ينبغي له أن يعود إلى خنت، لأنها المكان الذي ينتمي إليه، وأنه سيؤول إلى الهلاك إذا ما بقي في لندن. أخبرني بأن أخويَّ الاثنين قد عادا إلى البيت، الأمر الذي أشعرني بالارتياح. كان «إميل» في التاسعة عشرة، و«جول» في السادسة عشرة، ويمكن أن يتلقيا استدعاء للتجنيد في أي لحظة. كان

أخوه «رايموند»، أخي الثاني غير الشقيق، متشردًا هو الآخر في مكان ما، حتى إنه لم يعرف أين. كان شهر مارس من عام ١٩١٥ . سوف نعبر القناة إلى جبهة القتال بعد عدة أيام.

كنت لا أزال في لندن عندما استلمت رسالة من أمي، حُولت إليَّ من ليفربول بالبريد العسكري. كانت قد ردَّت بتأثر شديد على ما كتبته لها عن اللوحة الجدارية. كتبت أنها تتمنى لو تحج إلى ذلك المكان، لكن «هنري» سوف يمنعها من الذهاب بلا شك. كان قد تملص من التجنيد بسبب ساقه اليمنى المعطوبة ويحول حياتها إلى جحيم بنزواته الغليظة. لم تكتب عن «هنري» بمثل هذه الصراحة والوضوح من قبل. تولاني مزيج من الكدر والتعاسة والخوف وأنا أرى صخور دوفر الكلسية تغطس في تمهل وراء سفينتنا، لم تكد تمضي ساعة على وجودنا في عرض البحر حتى سمعنا همهمة المدافع الثقيلة بوضوح في البُعد؛ تشبه زمجرة حيوان عملاق ينتظرنا عند الأفق، فاتحًا فكيه الكبيرين بشراهة استعدادًا لالتهامنا. كنا عائدين إلى الجحيم.

* * *

عندما أسجل حضوري في المستوصف العسكري، ينتهي الفحص الطبي سريعًا. يقول الطبيب بالفرنسية:

ـ حسنًا يا شجاع، امشِ قليلًا. هيا! واحد، اثنان. أسرع!

ثم ينزل الختم في دويٍّ على الطاولة.

ـ صالح للنشاط العسكري. التالي!

أتعرف بدهشة عظيمة إلى معطفي العسكري، الذي طيَّرت رصاصة نصف ياقته، في الصندوق الذي استلمته منهم. ما إن أهم بارتداء تلك الخرقة البالية المنظفة بالبخار حتى يأخذوها مني.

يعطوني معطفًا أزرق اللون بأزرار سوداء مكورة الشكل، وحذاء قديمًا مهترئًا، وقبعة بحاشيتين على الأذنين. يبدو أن مخزون الملابس العسكرية

قد نفد. هكذا، في هذا اللباس الغريب، لعله لباس أحد المدنيين المقتولين، أقطع بمفردي الجزء الأخير من الطريق صوب الخطوط الخلفية من الجبهة، عابرًا ببطاريات المدفعية للقوات الاحتياطية، وبيوت الفلاحين التي تقوم وحيدة في الريف، والجنود يدخلون إليها ويخرجون منها. لا أصادف أي وجه معروف ويبدأ القلق يراودني، لكنني عندما أجتاز دربًا طويلًا محفوفًا بأشجار حور أجهز القصف على نصفها، تباغتني الزمجرة الصاخبة بالأوامر. يستولي الذعر على قلبي، أرى لأول مرة المشهد الأخير من السنة الماضية متجليًا بوضوح أمام عيني؛ الهجوم الكاسح مع «كيمبه» باتجاه ضفة القناة حيث طرحتني رصاصة على الأرض. أرى عبر سياج تمرحنة ضابطًا برتبة عالية يقف في الساحة الداخلية في مزرعة مفتوحة وسط جنوده، الذين يقفون حوله في حلقة كبيرة وينصتون إليه في سكون. عندما أعبر البوابة المفتوحة، يدير معظمهم رؤوسهم نحوي. أهمُّ بالانسحاب كي لا أشوِّش على الخطاب، لكن النقيب يزمجر بالفرنسية:

ـ اقترب!

أريد أن أشق طريقي بين الرجال، لكنهم يشدونني من ملابسي، ويمسك أحدهم بيدَيَّ ويريد معانقتي:

ـ «مارتين» يا عفريت، أما زلت على قيد الحياة؟ ماذا تفعل هنا بهذه الملابس الغريبة؟

الذي يطوقني بذراعيه هو «كيمبه». لقد أصبح الملازم «كيمبه».

يزمجر النقيب بالفرنسية:

ـ انصراف!

يلقي الجنود التحية ويسيرون صوب المستودع.

يأمرني النقيب بأن أتبعه هو و«كيمبه». عندما نبلغ مكتبه، الذي اتخذه من الغرفة الأمامية فاسدة الهواء في المزرعة، يستفسر عن هويتي.

يقول «كيمبه» بتألق بالفرنسية:

ـ إنه «مارتين» سيدي القائد.

ـ اسكت يا «كيمبه». الاسم؟

ـ «مارتين»، رقيب أول، سيدي القائد.

لا يعثر على وثائق عني، لذلك لا يبقى أمامه سوى أن يعتمد على «كيمبه» في تقديم تقرير عن سجل خدمتي. يفرزني إلى «القسم الرابع»، يقول إنه سيتحقق عما إذا كنت قد ترفَّعت حقًّا إلى رتبة رقيب أول، بسبب ما أبليته من بلاء حسن على الجبهة. يضع تحت إمرتي نحو عشرين رجلًا على الجبهة في قرية «نورد سخوته». يقول إنني أستطيع الذهاب إلى الحجرة المحاذية للمطبخ لاستلام بدلة وبندقية جديدتين.

الجبهة في وضع هادئ ظاهريًّا؛ إنها في «كوازي ستاتوس كو» حسبما يدَّعي «كيمبه» بنبرة متحذلقة.

عاد القسم الرابع للتو من الدفاع عن بوابة السد في قرية «بوزينجه»، حيث سقط اثنان من المجندين في أثناء محاولة الألمان السيطرة على بوابة السد هذه.

يقول لي النقيب بالفرنسية:

ـ ابقَ شجاعًا مثل قديم عهدك.

ويحني رأسه انحناءة ذات معانٍ كثيرة.

ألقي التحية وأخرج؛ يندفع إليَّ قرابة عشرة جنود، يربِّتون على ظهري، ويهتف بعضهم مع بعض:

ـ رفيقنا القديم، كنا نظن أن الأعشاب قد نمت على جثمانك منذ زمن بعيد... رآك «ده ميستر» وأنت تسقط، ولم نسمع أي شيء آخر بعد ذلك.

أخبرهم بقصتي، لكنني أسكت عن جدارية أبي.

بعد الظهر، نتلقى تفتيشًا صارمًا عن وضع البنادق، والذخيرة، والمواد الغذائية. يحذِّروننا من الأسلاك الشائكة والقنابل غير المنفجرة في أثناء الزحف على الطين، يبلغوننا بأن هناك قنابل من نوع جديد تطلق غازات

مسيِّلة للدموع بعد انفجارها، أول من استعملها هم الفرنسيون، ثم لحق بهم الإنجليز بعد فترة ليست طويلة. يقول «كيمبه»:

ـ «برومو أسيتون»، مادة خبيثة، تهب في اتجاهنا المرة تلو المرة. إذا استنشقت تلك القذارة بضع دقائق فحسب، أُصبتَ بعد عدة أيام بالتقيؤ إلى أن تلفظ رئتيك من جسمك وتموت مثل الحيوان.

نمضي الأسبوع الأول بتعبئة الأكياس بالرمل إلى ما لا نهاية. يأتي الرد على كل حركة غير متأنية من المدافع الرشاشة على الجهة المقابلة، التي تدوِّي دقائق طويلة في كل مرة. ينبغي أن نكون مستعدين لهجمات مباغتة في كل لحظة. الفوج كله في وضع غريب؛ حالة تأهب، على مدى أربع وعشرين ساعة في اليوم، تكاد تتحول إلى جمود كامل بعد فترة من الزمن. في الوقت ذاته، غالبًا ما تمر أيام طويلة تبلغ من الهدوء أننا نتناسى خطر الموت المحيق بنا بشكل مستمر؛ تُحكم اللامبالاة قبضتها على أرواحنا وأجسامنا. يجلس بعض الشباب ساعات طويلة يحدقون في اللاشيء، كما لو أنهم فاقدون أبصارهم. تصبح الأرض دافئة؛ بعد ساعات الصباح قارسة البرودة ينبعث البخار من الحقول الموحلة المحيطة بنا وهي تتألق في ضوء غريب. يحوم سرب من طيور الزقزاق فوق الأفق، نسمع أحيانًا النعيق الأجش للغربان الحائمة قرب صف من الأشجار، نسمع النوارس في البُعد في فترات الظهر الدافئة، ما عدا ذلك يبدو وكأن الحيوانات هاجرت من هذا العالم؛ باستثناء الجرذان التي تكتظ بها خنادقنا. إنها موجودة في كل مكان، نعيش على صريرها الحاد، تنطلق من بين أرجلنا، تقرض كل ما يعترض طريقها، تفوح منها رائحة كريهة، تتزاوج، تضع صغارها وتتكاثر وتزدهر، تلتهم الكعك الخاص بنا وتقرض أجساد الشباب القتلى، تمشي على وجهك في الليل، وإذا ما قتلت واحدًا منها حلت خمسة محله. أحيانًا يشوي الشباب واحدًا منها، لكن مذاق اللحم كريه، وموحل، ولزج. يزأر

أحد القادة بأننا سنصاب بالطاعون. نلفظ اللحم المقزز، ونغسل أفواهنا بالماء الأجاج.

يوزع التموين في الليل ويندر شيئًا فشيئًا؛ طعام معلَّب، كعك لزج، لا خضراوات ولا فاكهة، ولا لحم طازج إلا في حالات شديدة الندرة، خبز بائت رطب من حين إلى آخر، ماء آسن في زمزميات متهالكة تفوح منها رائحة الحديد. تعود لثتي إلى النزف بعد عدة أيام، ويعاودني الإسهال بعد عدة أيام أخرى. تنساب السحب البيضاء فوقنا، مثل التي يراها المرء في مشهد شاعري. نأخذ في بعض الساعات قسطًا من الراحة، نتمدد على بقعة أرض بدأت تكتسي بالعشب من جديد ونستغرق في أحلام اليقظة، متكئين على مرفق ذراع، مستمتعين برائحة الربيع والخضار الفتي، لكننا على العموم نشم بول الجرذان، ورائحة القش الرطب والمراحيض المفتوحة المحفورة على جناح السرعة. لو استطعنا إحراق القمامة المسببة للأمراض والنفايات العفنة، لأصبحنا على حال أفضل، لكن أصغر سحابة من الدخان تثير حفيظة الطرف الآخر فيرد بوابل من القذائف. عندما يبقى الوضع آمنًا وهادئًا عدة أيام، يأتي ضابط إلى داخل الخنادق، يزمجر بأن هنا ليس ساحة مهرجان، يمسك بندقية، ويطلق عدة رصاصات عن قصد في الهواء، فيعود الألمان لإشعال الجحيم بنيرانهم. على هذا النحو نعيش في نوع من نقمة إلهية، من دون إله: حركاتنا وسكناتنا كلها تتوقف على حكم لا يمكن التكهن به، بوسعه أن يأتي علينا في أي لحظة، ومن جراء أتفه حركة، بعقوبة الموت. يمكن لأي تقدير خاطئ أن يصبح بكل بساطة الحساب الأخير. لا يجعل ذلك الموتَ تافهًا، لكن الاحتضار يبدو أكثر عبثية؛ هذا الألم الجهنمي، هذه الفظاعة عديمة الشكل التي تندلق من الجسم، حشرجة الشباب التي لا تُحتمل في نزعهم الأخير، أيديهم الموضوعة في أجسامهم المشقوقة، بينما يمسكون بأمعائهم وينتحبون منادين أمهاتهم. إنهم أطفال، صبيان لا يُحصون يواجهون

الهلاك، لم يناهزوا العشرين بعد، كان من المفروض أن يعيشوا حياتهم بصفاء ونقاء بدلًا من أن يغرقوا هنا في هذه الفظاعة.

أصلي كل يوم. أتمتم مثل إنسان آلي بالصلوات إلى ما لا نهاية، إذ إن إيقاع الصلاة يساعدني على اجتياز نوبات اليأس والخوف من الموت أكثر من أي إيمان لا يتزعزع. يحاول الآخرون الحصول على نتفة من التبغ النادر أو رشفة من البراندي القذر المصفًّى، عن طريق مقايضات ابتزازية يجريها بعضهم مع بعض: ساعة يدك مقابل كأس من البراندي أو مقابل عشر سجائر، هذا النوع من المتاجرة، طوال النهارات والليالي قارسة البرودة، بينما ترتج همهمة المدافع في أحشائنا المقرقعة. أتمسك بالشيء الوحيد الذي يربطني بطفولتي البعيدة: ساعة جيب أبي التي لا تزال تعمل بمعجزة بعد معجزة، تدق في جيب معطفي مثل قلب ثانٍ، وعندما أمسكها بين يدَيَّ، أرى الجدارية في ليفربول، وأتحدث في خيالي مع أبي إلى أن يهدأ قلبي، ويدق الإيقاع المهدئ نفسه الذي تدق به ساعته.

* * *

ما يبقى لنا هنا وراء نهر إيزر، لا يتجاوز شريطًا من الأرض لا يمكن الدفاع عنه إلا بشق الأنفس، بضعة خنادق متشبعة بمياه الأمطار تحيط بالقرى التي سواها القصف بالأرض، طرقات دمرتها القنابل ولم تعد أي وسيلة نقل تستطيع السير عليها، عربة حصان متقلقلة نجرجرها معنا بمنتهى الصعوبة، محملة بصناديق من ذخيرة رطبة، توشك دائمًا أن تنقلب في القناة، فنكتم صرخات تحذير، ونكدح مثل المجانين من أجل كل عشرة أمتار من التقدم إلى الأمام؛ الضباط المهمهمون في الحفر الأكبر حجمًا المسوَّرة بالألواح، التي يجب على الجنود أن يفرِّغوها من المياه كل يوم، وينظفوا أحذية الضباط عالية الساق التي تتسخ مرة بعد مرة بالطين؛ السير بانحناء أبدي في الخنادق، ملطخين بالأوساخ والروائح الكريهة، في بدلاتنا المكتظة بالقمل، تحرقنا فتحات شروجنا من الطفح الجلدي بسبب انعدام الماء النقي كي نغتسل به

بعد كل نوبة إسهال، نزحف بمَعِدٍ متشنجة على الكتل الترابية الثقيلة مثل كائنات مسخ في حكايات خرافية مرعبة، شمس المساء الملقية أشعتها في ميل على السهل المقفر، الجروح المتقيحة في أصابعنا التي علقت بالأسلاك الشائكة، الذكرى المرعبة لحياة أخرى مستبعدة الاحتمال إذا ما باغتنا شحرور بالتغريد في شجيرة بيلسان أو هفَّ نسيم الربيع علينا برائحة الأعشاب من الأراضي الواقعة في الأماكن البعيدة وراء خطوط الحاميات العسكرية؛ ثم نعود إلى الانبطاح عندما تظهر قذائف «الهاوتزر» من العدم، فيقع الخبز القليل الذي أخذناه في أيدينا للتو على الطين الذي حولته الأقدام إلى ثريد في قاع الخندق الذي ينبعث منه البخار.

وإذ بنا نسمع الطائرتين الصغيرتين فوق رؤوسنا مباشرة، يقودهما طيارانا الاثنان: ها هما البطلان «كوبنس» و«دو أولترومونت» يكتسحان الأجواء فوق مواقع العدو، يرميان القنابل، يتقدمان بأسرع ما تسمح به صناديقهما المطقطقة، يستديران، يطلقان النيران بينما تُطلق عليهما النيران، ويعودان في كل مرة وقد نجوَا من الموت في آخر لحظة، تاركَين الأعداء وراءهما يكزون على أسنانهم ويتحرقون رغبة في الانتقام في حصونهم المحفورة الحاقدة، ومعاقلهم المنيعة، ومنصات مدافعهم المميتة وراء مياه النهر. يشعر كثيرون من شبابنا بالضعف ويؤمنون بالقضاء والقدر، يرفعون الهمم بالأغاني الحماسية، نرابط للحراسة وسط الضوضاء التي تصم الآذان، أو نغرق في النوم مع أول شعاع من أشعة الشمس وقد أنهكنا وهم الهجوم الذي يسري عبر صفوفنا في الليل، حتى لقد أطلق بضعة من شبابنا الرصاص على رفاقهم، في ردة فعل خائفة من ضجة مفاجئة في الظلام. إنه ينخر في خواصرنا، لا نستطيع أن نستمر، علينا أن نستمر.

* * *

الغريب هو أنني على العموم لستُ مكدر المزاج. على النقيض من هذا، هناك طاقة جديدة تتدفق من منبع غامض في كياني كل يوم، إنها ليست بسالة

حتى، بل طاقة حمقاء خالصة، الصداقة المتينة التي تربط الشباب بعضهم بعض، مرحهم البسيط ودعاباتهم البلهاء التي تجعلنا كلنا مع كل دقة من دقات الساعة ننقلب على جدار الخندق القذر ونحن نشهق من شدة الضحك، إلى أن تأتي رصاصة أخرى وتُطيِّر يد أحد منا لم يتوخَّ ما يكفي من الحذر لحظة قصيرة، ونضطر أن نضع خرقة في فم المنكوب لنكتم صراخه، بينما يهسهس الضباط من جحرهم الصاخب في اتجاهنا بالفرنسية:

ـ سكوت، سكوت هناك!

نرى من خندقنا رقعة طويلة من السماء الزرقاء تعوم فيها سحب بيضاء شامخة كأنما في حلم، نتناوب الحراسة في أثناء هبات الرذاذ، نزحف كيلومترين في الغبش من أجل لتر من الحليب، نجرجر أنفسنا في أحذية ثقيلة ثقل الرصاص عبر كتل الطين اللزجة، ننزلق مع كل طرفة عين أو نرى طعامنا المعلَّب تهرسه قدم غير حريصة. الشباب الماهرون يقتلون الوقت بصنع خواتم نسائية، صغيرة، نحاسية، من الرصاصات الفارغة، يقطعونها منها بنصال حرباتهم التي يشحذونها على شظايا القنابل، يحاولون بيع بضاعتهم بما يعادل خمس سجائر على وجه التقريب. يأتي بائع متجول مرة في الأسبوع، لا أحد يعرف من أين، يصل بالجرائد إلى الخنادق في الخطوط الخلفية وينادي باسم الجريدتين: «لو فانتيام سياكل» الفرنسية و«ده ليخِربوده» الفلامندية.

يجأر «كيمبه»:

ـ نعلم أنه القرن العشرون، يا لك من مقرف، واحتفظ بأخبارك لنفسك، اللعنة.

أحاول الحفاظ على هيبتي قدر المستطاع؛ أحيانًا عندما آمر عددًا منهم بالذهاب في دورية استطلاع، أتلقى جوابًا حاقدًا:

ـ اذهب بنفسك، يا رقيب مؤخرتي.

أصرخ بهم بأن يغلقوا أفواههم؛ أوجه في إحدى المرات لكمة إلى

«مايغرت» من مدينة لييج الذي يتمتم بالرفض دائمًا. هذا يعيد النظام والانضباط إلى المسار الصحيح، ليس ثمة حل آخر. أحيانًا، يخطر في بالي خاطر سريع: «كم تهت بعيدًا عما كنت أريد أن أكون!».

* * *

تحل بوادر موسم الكرز. أحيانًا تأتي فلاحة شابة إلى الخطوط الخلفية من الجبهة، تقول إن لديها فاكهة للبيع، لكن لا يملك أحد بنسًا واحدًا، لذلك يتهافتون إليها ويتزاحمون إلى أن يوقعوا البضاعة كلها من يدَي الفلاحة المعترضة، وعندما يتلمس بضعة منهم تحت تنانيرها ويجرجرونها من سترتها وتبدأ هي بالصراخ، أهدِّدهم بالعقوبة، وأوجه بضع نكزات هنا وهناك. أندهش عندما يذعنون في الحال وينصرفون من حولها. أشفق على هؤلاء الشباب؛ ليس ثمة ما يشغل بالهم، بينما أنكب غالبًا على قراءة بضعة كتب فرنسية جاء بها إليَّ بائع الجرائد. أحيانًا أحصل على شيء للقراءة من ضابط يشعر حيالي بالامتنان على الانضباط السائد في مجموعتي. في الغبش، عندما يباغتنا الحنين إلى الماضي، نغني الأغاني التي نتذكرها، بأصوات مكتومة؛ يعلِّمنا جنديّ المشاة «لوران موردن» من شارلوروا، الذي درس الموسيقى، أن نغني بطبقات صوت ينسجم بعضها مع بعض، شيء في غاية الروعة، يقول إننا سنشكل جوقة موسيقية كبيرة بعد الحرب، ويعدُّ الجميع كلمته عهدًا. إلى أن تقترب إحدى دوريات الاستطلاع من الأسلاك الشائكة وينطلق منها صوت جهوري صارخ، ونضطر تحت جنح الليل إلى أن نزحلق المنكوب في حفرة غير عميقة وكأنه حيوان، سعداء بأننا استطعنا أن ندفنه على الأقل، ولكن ليس قبل أن نعرِّيه من ملابسه كلها، حتى الداخلية منها، ومن كل ما يمكن أن يعود بفائدة علينا. نصبح قساة القلوب ورهيفي المشاعر؛ نضحك ونبكي في الآن ذاته؛ ننام ونحن صاحون ونصحو ونحن نيام؛ نتشاجر بأذرع مطوية بعضها على بعض، يضرب بعضنا بعضًا برفع الأكتاف؛ لا يبقى شيء في أجسادنا وعقولنا في

مكانه المعتاد، نتنفس ما دمنا نعيش، ونعيش ما دمنا نتنفس، مهما استغرق ذلك من وقت.

* * *

كان «هيكيتيك» المنحدر من أنتويرب، الجندي منذ بداية الحرب في ١٩١٤، رئيس الطباخين في أحد المطاعم الخاصة بالضباط في الماضي؛ ها هو يرقد هنا ويتذمر من القذارة التي نلتهمها. يتسلل أحيانًا إلى الغابة، ويعود بحمامة أيك، وبضع مرات بدجاجة تائهة أو طائر «تَدرُج» شارد، يزيل الدهن عن بضع شطائر من الخبز، يمضي إلى مكان بعيد وراء خندقنا، ويشعل النار خلف ساتر ترابي في الغبش، ويقلي اللحم المقطع إلى قطع صغيرة في غطاء قصعته، بحيث نفقد عقولنا من شدة الشهوة ونتوسل إليه أن يعطينا قطعة صغيرة. نمضغها ونبلعها، فيبقى مذاقها في أفواهنا على شكل جوع ضارٍ يتلهف إلى المزيد، نلوك الخبز ونشرب البيرة منخفضة الكحول التي يأتي بها رجال التموين على فترات غير منتظمة.

تعتريني رغبة ملحة في كتابة كل شيء، لكنني لا أملك متسعًا من الوقت. أفكر متسائلًا في بعض الأحيان كيف سنخرج من هنا ذات يوم، أو أرسم بعض الرسوم الأولية برأس غصن جاف متفحم. الرسم يبعث الهدوء في نفسي. عندما أنهمك في الرسم، يبقى الشباب على مسافة مني، في وضعية تنم عن شيء من الاحترام. لذلك أنعزل على العموم قبيل المساء الذي يمكث برهة طويلة على الطبيعة المسلوبة روحها. أرسم جذوع الشجر الكالحة في الدروب التي كانت تزخر ذات يوم بظلال الأوراق الخضراء؛ عريش عربة يبرز في الهواء من حفرة أحدثتها قذيفة؛ بقايا سطح يشبه في شكله كوخًا متداعيًا؛ أطلال جدار تغطيها الأعشاب ونباتات القراص. كُتلات طينية مكسوة بالعشب متدلية من عوارض خشبية بارزة في الهواء في سطح متداعٍ، تلوح في ضوء الغسق مثل رؤوس أناس ماتوا على الخازوق. أرتجف

وأوثّق بالرسم. يعبر سرب من الحجل، شاديًا شدوه المتقطع «نق نق نق» من فوقنا، يُسقط أحد الشباب حجلة من السماء برصاصة، تدوي مدفعية دويًا يصم الآذان بعد لحظات قليلة، نغطس في التراب المتطاير حولنا، تسري ضحكة بليدة في صفوفنا، ضحكة خافتة وقهقهة ساذجة لأننا نجونا مرة أخرى. يقول «هيكيتيك»:

ـ انظر. هناك تجثم حجلتان فوق الجدار. من منا سيصطادهما يا «مارتين»، أنا أم أنت؟ عليك أن تصيبهما بطلقة واحدة وإلا فقدتهما.

أُصوِّب وأُطلق، تغطس الحجلتان وراء الجدار، يأتي وابل من الرصاص باتجاهي، أبقى منبطحًا إلى أن يهدأ. يضجر العدو أيضًا من هذه اللعبة، يطلق النار شارد الذهن، كأنما بحكم العادة. يلعن «هيكيتيك». أزحف في ضوء الغسق صوب الجدار؛ ماتت إحدى الحجلتين وما زالت الأخرى تفرفر على الأرض. أنزع رأسيهما، وأتسلل بهما عائدًا إلى مكاني. يقول «هيكيتيك» إننا لا نستطيع طبخهما في الحال، ويجب أن نتركهما بضعة أيام حتى يطرى لحمهما. أرفع كتفَيَّ، أضع الطائرين في قصعة طعام لرفيق قتيل.

أختفي مع خمسة من رجالي لأرابط معهم في الحراسة عند أبعد موقع أمامي: مراقبة على مدى أربع وعشرين ساعة وتدوين التغييرات التي تحدث في مواقع الألمان. نحن قريبان بعضنا من بعض إلى حد أننا نستطيع أن نصيب مواقع بعضنا بعضًا بالحجارة. حتى عندما نرى خوذة مسمارية تبرز من فوق الساتر الترابي، لا نطلق النار. ليس ثمة جدوى من إثارة معارك كبيرة في هذا المكان نعلم أنها ستكلفنا رؤوسنا جميعًا، ولكن قبيل المساء عندما يباغتنا ألماني بإلقاء قنبلة تنفجر بالقرب من حفرتنا، أستشيط غضبًا. آخذ قنبلة من قنابلنا، أنزع صمام الأمان عنها وأرميها في اتجاههم بسخط شديد. نضع أيدينا على آذاننا، ننتظر انفجار القنبلة. لا يحدث شيء. لا يحدث شيء بعد ذلك. ننتظر غير مصدقين: القنبلة واقعة أمام موقعهم الأمامي من دون أن تنفجر. أرسل في الظلام أحد الشباب ليرى ما الأمر. نسمع دوي الانفجار

بعد برهة قصيرة، تشتعل نيران البنادق الجهنمية، تنطلق صرخات وصياح على الطرف الآخر وعلى طرفنا، تطير القنابل جيئة وذهابًا، نركض إلى الوراء لننفذ بجلودنا. يعود هدوء تام بعد عشر دقائق. تنعق بومة على شجرة صفصفاف مقلَّمة هابطة في ميل بجانب قناة تلمع في ضوء القمر الباهت. لم يعد الشاب الذي أرسلته إلى مكان القنبلة؛ أتحمل مسؤولية موته. أصدر الأوامر إلى رجالي بأن يعودوا إلى المرابطة في الموقع الأمامي بأقصى هدوء ممكن، وأزحف أنا نفسي إلى حيث يرقد الجندي المنكوب. أقترب من المواقع الألمانية إلى درجة أنني أسمعهم يتكلمون. أشعر بقلبي يخفق في حنجرتي. أحاول أن أسحب الشاب المقتول على الطين إلى موقعنا، ولكن سحبه مستحيل. لقد فتح الرصاص صدره بأكمله وهو يرقد على ظهره. آخذ بندقيته وذخيرته بحذر، أرسم الصليب على جبينه. أقول فيما بيني وبين نفسي: «باربوحفظ، باربوحفظ يا رفيقي. لعنة الله على هذا الوضع».

أعود إلى مكاني بين الرجال في الحفرة. يتبين لومهم من صمتهم الساحق. نتحرر من المناوبة بعد عشر ساعات وقد تخشبت أجسامنا من البرد والرطوبة.

عندما نعود إلى الخندق، أرى «هيكيتيك» من جديد. يسأل أين وضعت الحجلتين. أفتح قصعة الطعام، فتنتشر رائحة كريهة حادة. يقول:

ـ لقد فسدتا خلال أربع وعشرين ساعة، اللعنة.

تدب الديدان في العيون الهابطة في المحاجر. يقول:

ـ سأعدهما للضباط بزجاجة كاملة من النبيذ الأحمر.

يغمز لي بعينه ويتوارى عن الأنظار.

إنه شهر مايو ١٩١٥. تكتب جريدة «لو فانتيام سياكل» الفرنسية:

لا يزال الوضع هادئًا على الجبهة البلجيكية.

٥

الزمن يتحول إلى استمرارية رتيبة، الاستمرارية تفقد اتجاهها، الاتجاه يفسح المجال للسكون والملل، الملل يأتي بعدم الاكتراث وفتور الهمم، تتسرب الأيام عبر أصابعنا. الحق أنه يمضي أسبوع بأكمله في بعض الأحيان من دون أن يحدث شيء، أسبوع يحاول فيه القادة إلهاء رجالهم بمشاريع صغيرة؛ تجهيز مكامن أفضل للضباط، إقامة «سيرك حرب» وراء آخر خط من خطوط الجبهة، تُقدم فيه تمثيليات هزلية في مساءات الصيف: جندي المشاة «يف بريينتس» يتمايل في مشيه على الألواح الرفيعة مثل راقصة باليه عجيبة، مرتديًا ملابس الرقص؛ تنانير منتفشة قصيرة إلى ما فوق ركبتيه بارزتَي العظام، وقدماه المسطحتان مغمدتان في جوربين سميكين مخططين بنماذج من مربعات، تبرز كرتان من الجوارب المكوَّرة على شكل ثديين ناهدين تحت مشدِّه الضيق، ما تلبث أن تهبط إحداها إلى بطنه، في حين تتدحرج الأخرى أمام قدميه. بينما يغني بضعة جنود أغنية منحرفة، يتوه عن رؤية حافة المسرح في أثناء الرقص فيقع على الأرض مثلما يحدث في فيلم هزلي، تبرز ساقاه البيضاوان في الهواء ويظهر سرواله الداخلي القذر على مرأى من الجميع. يصخب الرجال بالضحك، يضربون أيديهم على أعلى سيقانهم، يهلِّلون، يلقون قبعاتهم المكتظة بالقمل في الهواء. ابتهاجهم انفجار، تحرير من لامبالاة الزمن الخانقة. لكن في طريق عودتنا إلى الخندق،

يصاب «يف بريينتس» الأهوج، الذي لا يزال منتشيًا بالنجاح الذي أحرزه، في عينه اليمنى برصاصة عدوانية. يطير نصف وجهه، يحشرج مثل حيوان، يوسخ نفسه، يفرغ ما في معدته، وينكب على وجهه. يخلصه أحد الجنود من شقائه برصاصة رحمة، فقد اندلق دماغه من رأسه. ننبطح جميعنا على الأرض ونزحف المائة متر الأخيرة إلى خندقنا ونتدحرج فيه.

يوجد «الموفونيون»(*) في القرب على الدوام، يتربص هؤلاء الأوغاد بنا على الدوام، وينتهزون أي فرصة لإحباط معنوياتنا. ما يتسبب أحيانًا في فورات كره أعمى؛ يندفع أحد رفاقي ببندقيته إلى الأمام في ثورة غضب، ينطرح بعد بضع ثوانٍ وقد تغربل بالرصاص على الأرض السبخة أمامنا. في الليل، نغامر بحياتنا لنجيء بالانتحاري، ونكرمه على الأقل بدفنه في حفرة في الأرض، كي يندرج اسمه في وقت لاحق في سجل «الذين سقطوا في معركة الشرف».

أكتب رسائل للآخرين، مثلما فعلت أمي ذات يوم في سنوات طفولتي، يوجهونها على العموم إلى ما يُسمونهن «أمهاتهم العرَّابات في زمن الحرب»، النساء اللاتي استضفنهم في فترة نقاهتهم. أكتبها بالفرنسية والإنجليزية، على قدر ما تسعفني به معرفتي، وأتعلم كلمات جديدة كل يوم، فقد حصلت على قاموسين صغيرين من أحدهم، وبينما أتصفحهما أو أكتب مسوَّدات الرسائل، يمر الشباب من جانبي، يربتون على ظهري ويسألون بنبرة مازحة بالفرنسية:

(*) لقب احتقار كان الهولنديون والفلامنديون يطلقونه على الألمان. وللكلمة عدة أصول محتملة، أبرزها أنها تأتي من اسم القفازات التي كان الجنود الألمان يرتدونها في أثناء غزو الأراضي الهولندية في القرن السابع عشر؛ وروايات أخرى ترجعها إلى تحريفات لصفات سلبية بالألمانية، منها: «فظ»، و«همجي»، و«متعفن». (المترجمة).

ـ «مارشان»، هل كل شيء على ما يرام؟

أرسم أيضًا لافتات تعلن عن العروض المسرحية والسهرات الغنائية، التي تُقام بهدف تسليتنا في مكان بعيد وراء خطوط الجبهة. في بعض الأيام أرى تلك اللافتات، المصنوعة من الورق المقوى، معلقة على الأشجار هنا وهناك، وعليها وجوه المهرجين والممثلين مرسومة بقلم الرصاص أو بالألوان المائية، وفي أسفلها قائمة بأسمائهم. يسألونني بتهكم أين عثرت على المرآة التي رسمت من صفحتها ذلك الوجه الساذج. تعزف الجوقة الموسيقية مقطوعات من «كفاليرا راستيكانا» لـ«بييترو ماسكانيي»، و«الربيع» لـ«فيلكس مندلسون»، و«سيرسي» لـ«جورج فريدريك هاندل» أو معزوفات من «الأرليزيين»، لـ«بيزيه». ينفجر بعض الشباب في بكاء شديد، ما إن يسمعوا المازورات الموسيقية الثلاث.

أحيانًا، يجب أن نرابط في الحراسة من دون تناوب، ثلاثة أيام بنهاراتها ولياليها يلعلع فيها الرصاص حول رؤوسنا، أيام نبتئس فيها ويفكر كل منا بصمت: متى سيأتيني الدور لألقى مصرعي مثل حيوان؟ عندما يُنادى بالأسماء في أثناء التفقد، يصيح بعضهم بالفرنسية: «فليذهب الوطن إلى الجحيم!» أو بالهولندية: «فلتمت اختناقًا بالتبن!». يضحكون بمرارة، يتمتمون بتذمر، يهز القادة رؤوسهم عابسين، لكن زمجرتهم تخف يومًا بعد يوم. أجيل نظري بصمت في الشباب الذين يواجهون مصيرهم المحتوم، يصغرني معظمهم في السن؛ رجال في ريعان الشباب جديرون بممارسة مهن راقية، بقلوب في المكان الصحيح، شباب أنهوا دراستهم وكان من المفروض أن ينشغلوا الآن بتأسيس أُسَرٍ وإنجاب أطفال، منبطحون على الأرض هنا، تفوح منهم روائح كريهة ويطفح الجرب على أجسامهم في

المطر الفاتر، من دون أي توقع بتغيير الوضع، غاطسون في السخرية واشتهاء الموت، مخدَّرون بالدعابات السخيفة التي يطلقها الحمقى في الفوج، يحكُّون أنفسهم مثل القرود، ويبكون عندما يرتعدون من التشنجات المعوية ويخشون التهابات مميتة، خائفون من رصاصة طائشة، من حادث انكسار عريش عربة متهالكة، من حشرجة أحصنة تموت ببطء على مدى ليالٍ طويلة.

يحين الوقت من جديد في أواسط أغسطس: نقف في حلقة وسط الظلام، بعد استدعاء من ضابط متحدث بالفرنسية:

ـ أريد متطوعًا بعزيمة قوية! واحدًا، اثنين...

لا أحد.

يكح الضابط، ينظر خائب الأمل، يكرر سؤاله.

يمسح أحدهم حذاءه بالتراب.

تتألق النجوم في السماء، يطلع القمر على ارتفاع منخفض فوق الأفق. تنعق بومة في البُعد.

أغضب من رجالي مرة أخرى. أقول بصوت نصف عالٍ:

ـ جبناء!

أتقدم إلى الأمام وألقي تحية وأقول بالفرنسية:

ـ أمرك، سيدي القائد.

يكلفني ببناء موقع أمامي محصَّن من أجل كسر الجمود المستمر منذ شهور طويلة. يجب أن ننصب الأسلاك الشائكة، في أربعة صفوف، على شكل نصف حلقة تحت سطح المياه في الأرض المغمورة بها الواقعة أمامنا. المياه موحلة وكريهة الرائحة، ينزلق المرء عند أبسط حركة غير متأنية على الطبقات الطينية اللزجة التي حرثتها القنابل حرثًا. إنه عمل شاق من المتوقع أن يستغرق نحو عشرين ليلة، يجب إنجازه مع ثمانية

رجال أستطيع اختيارهم بنفسي. أذهب للنوم، أنتظر قدوم الصباح التالي كي أختار الرجال. ليس من السهل إقناعهم، إذ إنهم على وعي تام بالخطر المحيق بمثل هذا النوع من العمل. يستغرق الأمر إلى الظهر حتى تهدأ المشاحنات والمعارضات، ويتبعني الرجال الثمانية إلى الخطوط الخلفية من الجبهة كي نجيء بأول حمولة من الألواح، الأوتاد، المطارق، الزرديات، المسامير، ولفائف الأسلاك الشائكة. نحصل على قفازات عمل، وبدلات سميكة، وأحذية طويلة الساق إلى الفخذ. نأخذ بطاقات الحالات الطارئة من المستوصف.

نبدأ الليلة الأولى بصنع طوف؛ بعد الضربات الأولى الحذرة من المطرقة، يشتعل الجحيم حول رؤوسنا على الفور. نسحب الألواح والعوارض كلها إلى فوق عربة تحت جنح الظلام، ونجرجرها مائتَي متر إلى الوراء، حيث نلوذ بالأمان خلف مصد فيضان قريب من الخطوط الخلفية من الجبهة، نركِّب حتى اليوم التالي ألواح الطوف بعضها إلى بعض بمطارق ملفوفة بالقماش. نتهاوى من النعاس قبيل الظهر، نحصل على الموافقة لأخذ قسط من الراحة بضع ساعات في بيت مزرعة صغير وراء الجبهة، يجيئوننا بوعاء من الحساء. نعود إلى الخندق، حيث يجلس الرجال يلعبون الورق ويدخنون، ينظرون إلينا بصمت، بمزيج من السخرية والإعجاب.

في الليلة التالية نسحب الطوف إلى الموقع الأمامي، نربطه إلى جذع شجرة بالحبال. نبدأ بدق الأوتاد الأولى في الأرض. ما إن نضرب ضربتين بالمطرقة حتى تعود نيران المدفع الرشاش إلى الاشتعال من الجهة المقابلة. يطير البط وهو يوقوق ويرفرف بصخب، يلعلع الرصاص حول رؤوسنا. نرتمي في المياه، يبدأ وابل أعمى من الرصاص مرة أخرى. القمر المتعاظم يعتلي السماء فوق الأرض المدمرة، القمر الهادئ الغادر، الذي يمكنه أن يكلفنا حياتنا. لا نستطيع أن نبقى من دون عمل طوال الليل، لذلك نبحث عن

الحجارة التي نلفها بمزق من القماش، نحرص على التحرك بأقصى ما يمكن من هدوء من أجل ألا نخيف الطيور المائية. تسبح الجرذان بخطومها الحادة الظاهرة على سطح المياه الذي ينعكس عليه الضوء بشحوب. نشبه جثثًا متحركة، تؤدي أعمالًا بحركات بطيئة.

يسيطر علينا الذعر بعد مضي ليلتين. يبدو أن «الموفونيين» يخمِّنون حدوث شيء هنا؛ يطير أحيانًا عدد من الرصاص المضيء من فوق رؤوسنا، فنقف في جمود تام، بأبصار منبهرة وقلوب خافقة، إذ إن أي حركة تعني الموت الحتمي، هذا ما علَّمت رجالي: لا تستسلموا للرعب، فكروا بسرعة البرق، وتصرفوا من دون ضجة قدر المستطاع. كلما أُطلقت النيران، اقترب بعضنا من بعض وراء عدد من الأشجار الواقعة على الأرض، مثل قطيع من الأغنام المفزوعة. أمنحهم موافقتي أن يشربوا بعضًا من القهوة الفاترة ويأكلوا قطعة من الخبز القاسي الحامض. يجلس بعضنا مع بعض نمضغ ونبلع، تمتزج رائحة الطين مع رائحة الليل الصيفي، عندما ينساق دخان البارود مع الريح. حينما ينهض «بونه» المنزعج من شدة الإرهاق، وتطير رصاصة ملعلعة من جانب رأسه، يصيح:

ـ الحسْ مؤخرتي أيها «الموفوني» القذر العفِن!

ويرد عليهم بالنار. ينهمر وابل من الرصاص في الحال، يسقط «بونه» مغربلًا بالرصاص في المياه الضحلة، تنفجر القنابل في كل مكان حولنا، يستمر القصف أكثر من ربع ساعة. أقول مخاطبًا الرجال المرتعدين:

ـ ذهب عملنا هباءً.

يريدون العودة إلى الخندق، أرفع مسدسي وأقول:

ـ سأطلق النار أنا بنفسي على أول مغادر.

يبقون في انبطاحهم متذمرين، يهددونني بأنهم سيعثرون عليَّ، إذا ما خرجوا من هنا ذات يوم سالمين. أقول:

ـ هدئوا كما يحلو لكم، أنتم على حق، هذا عمل جنوني، لكن لست أنا من ابتدعه.

يحل الصباح، ننام في الحقل منهكين، نصحو بين الحين والآخر على الزمجرة بالأوامر التي تُطلق على مسافة منا، قرقعة عربة على الطريق المدمَّر، الأسراب اللانهائية من البراغيث التي تطن وتئن حول رؤوسنا في حرارة الظهر، إلى أن نفقد عقولنا من لطم أيدينا على خدودنا المرة تلو المرة.

نحتاج إلى ما يزيد على أسبوع ونصف الأسبوع، كي ننصب الأسلاك الشائكة في أربعة صفوف سميكة.

في ليلة يتضاءل فيها القمر، بينما نأخذ قسطًا من الراحة بعد عدة ساعات من العمل، نرى شيئًا عجيبًا: آلاف من ثعابين المياه الصغيرة تزحف على العشب المضاء باللون الفضي، تتلوى وتتألق؛ جيش شفاف من فراخ سمك الأنقليس في صمت الليل الهائل. لا بد أنها قادمة من مناطق وضع البيض، في الأراضي السبخة المغمورة بالمياه، العابقة برائحة الماء الأجاج الكريهة التي لا تُطاق. إنه تحرك عظيم على قدر ما يمتد بصرنا، طقس موغل في القدم يحدث في صمت مطبق. تنساب ثعابين المياه التي لا تُحصى في أمواج عبر العشب، كما لو أنها تنفذ أمرًا بإذعان، تبعث رائحتها الزنخ في المكان؛ تزحف في تيارات بعضها وراء بعض. يستمر الطقس العجيب ما يزيد على الساعة. ينظر الشباب بأفواه مفتوحة، ويبدأ أحدهم بالصلاة. يتوارى القمر، ينزلق آخر الثعابين أمام عيوننا المرهقة، نظن أننا في حلم. نستيقظ بعد ساعات على ضوء الشمس المخترق عيوننا، ونتساءل عما إذا كنا قد حلمنا جميعنا الحلم ذاته.

بعد مضي ثلاثة أسابيع، ننهي أخيرًا بناء الموقع. لقد تشققت أيدينا، انكسرت ظهورنا، تسربت الرطوبة إلى عظامنا، فاحت رائحة الطين والغثيان

الكريهة من أنفاسنا. في غداة الليلة الأخيرة، التي عملنا فيها بهمة محمومة حتى انتهينا من العمل، أقف إلى جانب الطوف بظهري إلى العدو، وأتحقق من أن الأسلاك الشائكة مشدودة بالإحكام ذاته في كل مكان. أسمع بغتة دوي طلقة. تسري رعدة كهربائية عبر نخاعي الشوكي، ينمل جسدي بأكمله، تتصبب فجأة قطرات عرق كبيرة من جبيني إلى داخل فمي المتلهف إلى جرعة من الهواء. يقول أحد من جانبي:

ـ إنها قريبة جدًّا، أليس كذلك يا «مارتين»؟

ثمة فتحة في ساقي اليمنى، في الجهة العلوية من حذائي طويل الساق، يتدفق الدم منها. أتمتم:

ـ ها قد عدنا من جديد.

وأقع على وجهي في الماء. ينهمر وابل من القذائف، أشعر بأنني أختنق في الطين، تطوف صور بسرعة البرق في ذهني، أرفع رأسي من الماء، أستدير على ظهري، أهمُّ بالتقيؤ، أكاد أختنق بالقيء، يديرني أحد على بطني، يسحب رأسي إلى الأعلى من شعري ثم يدفعه إلى الأسفل، أشهق، أنشج، أتقيأ، وأتلهف إلى جرعة من الهواء، ثم يتلاشى كل شيء في الظلام.

أصحو من الألم الجهنمي المنتشر حتى ظهري وعنقي، بينما يحملني اثنان من الرجال ويهدجان بي إلى المستوصف. أرى الضابط الذي خرج من الخيمة للتو. أقول بالفرنسية:

ـ أنجزنا المهمة، سيدي القائد.

وأغرق من جديد في نوع من حلم محموم.

يرقدني اثنان من الممرضين على نقالة مرضى، يغسلان الجرح، ويطهرانه من الطين والأوساخ، ويعقمانه بالكحول الذي يجعلني أقفز من الألم. يدفعني أحد الممرضين بخشونة إلى الوراء. بينما يضعان أول ضمادة على الجرح، ألهث وأضرب رأسي بالنقالة مثل المجنون. تُحمل النقالة في عربة

مسطحة. تسير العربة في ارتجاج وقرقعة فوق حفر الطريق وحدباته صوب المشفى الميداني في قرية «هوخستاده». يضعونني في السرير. أجنُّ من الألم. إنه الثامن عشر من أغسطس ١٩١٥.

* * *

تقول الممرضة بينما تحممني بماء فاتر:

ـ إنك محبوب في فوجك، جاء ضابط وأوصانا بأن نحظيك باهتمام خاص جدًّا.

خصلات شعرها ـ شعر الممرضة ـ معقوصة، نحاسية اللون، تظهر من تحت قبعتها الرمادية والبيضاء. ترمقني بعينيها النجلاوين الخضراوين وتقول ضاحكة:

ـ سمعت أنك ستحصل على وسام شرف من الملك شخصيًّا.

أفح من الألم، عندما تقترب من ندبة العملية الجراحية في فخذي، أحاول أن أبتسم. أتلعثم:

ـ أنا مجرد رقيب أول.

تقول:

ـ خذ قسطًا من الراحة. عليك أن تستعيد عافيتك أولًا.

ترقدني تحت الملاءات المنشَّاة، تحكم شدها، وتمر بيدها المبسوطة عليها. تهفهف مغادرة، في ضوء الشمس، عبر الصالة الكبيرة التي ينبعث الأنين والتأوه من بعض أركانها. أغط في نوم عميق من وقت العصر حتى ضحى اليوم التالي.

في اليوم الذي يليه، يُحمَل الجنود الخمسون جميعهم الراقدون في الصالة الكبيرة من أسرَّتهم إلى النقالات، ويوضعون في الحقل العشبي الكبير.

نرى بدهشة عظيمة جوقة موسيقية تعزف الألحان. تلمع الآلات النحاسية في ضوء الظهر، يغني مغنٍّ ذو صوت جهوري: «أحب صوت البوق» لـ«ألفريد

دي فيني»، بعد ذلك يُقدِّم «الباليه المصري» لـ«ألكسندر لويجيني». تسطع الشمس من بين الغيوم، تطوف رائحة الأزهار على العشب الندي بعض الشيء. لقد حلَّ سبتمبر بأجوائه، يلين قلبي من نعومة الظهر الحريرية وعزف الموسيقى، من هذا الهدوء والتناغم والترف كله غير المشهود ـ لا قمل، ولا جرذان، ولا طين، لا بدلة كريهة الرائحة، ولا دوي الهاونات، لا رجال في نزعهم الأخير، ولا أقدام متورمة في أحذية عالية الساق شديدة الضيق مبلولة بالماء، ولا أسراب من البراغيث الحائمة حول رأسي. عندما أنظر إلى جانبي، أرى الممرضات واقفات بعضهن بجانب بعض على مسافة مني يصغين إلى الموسيقى. تميل إحداهن رأسها إلى جانب، تصالب إحداهن ذراعيها على صدرها، تضحك أخرى من شيء يُهمس في أذنها. تأخذ الموسيقى الهادئة بخناقي. تحضرني ذكرى منصة الجوقة في مدينتي البعيدة في يوم من أيام الآحاد، عندما كنت أسمع هذه الموسيقى وأنا طفل صغير بينما أسير بين أبي وأمي في ساحة «كاوتر». تعبق ملاءات سريري برائحة صابون «مرسيليا». في فواصل ما بين مقطوعات الباليه، نسمع دوي الأسلحة الخافت من الأقاصي البعيدة في الجبهة. حقيقة أن هذه الجنة من النور والسطوع في هذه البقعة ترتكز على أصوات ذلك الجحيم في البُعد... أفكر برجالي الباقين هناك، وبالأحول «رودي» من شارع «لوسي» الذي قال لي:

ـ رفيقي «مارتين»، لقد حالفك الحظ، ستخلص من هنا ستة أشهر أخرى، استمتع قدر استطاعتك. اليوم أنا هنا، وغدًا ستكون أنت.

وضحك.

بعد مضي أسبوع، تسود ضوضاء في الصباح الباكر. تحممنا الممرضات أسرع من المعتاد، ويقلن ضاحكات إنهن لا يرغبن في إفشاء السر، لكن بعد الظهر ينكشف لنا النقاب عنه، فها هي تدخل صالة المرضى التي نرقد فيها،

لا نصدق عيوننا، إنها الملكة بجلالة قدرها، مرتدية بدلة تمريض بسيطة. تتنقل من سرير إلى سرير، تسأل كل جندي مصاب هل يريد شوكولاتة أم سجائر. تعطيني الاثنتين معًا وتقول:

ـ سمعت أنك شجاع، أنت شرف وطننا.

أتلعثم:

ـ جلالة الملكة المعظَّمة، أنا...

أريد أن أقول إنني غنيت لها في ساحة «كاوتر» عندما كنت طفلًا صغيرًا. تقف الممرضة ذات العينين الخضراوين إلى جانبها، تمسد بضع خصلات نحاسية اللون على جبينها وتشجعني بابتسامة. تختنق الكلمات في حلقي، ينبثق نوع من البكاء في أعماقي. عندئذ تكون الملكة قد تابعت جولتها، أحس بحاجة ملحة إلى الذهاب إلى المرحاض، لا أستطيع أن أحرك ساكنًا، أتصبب عرقًا من الارتباك والخجل.

* * *

بعد ثلاثة أسابيع، لا أزال غير قادر على رفع ساقي المصابة مليمترًا واحدًا.

يرسلونني مع قرابة عشرين شخصًا إلى شمال فرنسا بعد استشارة طبيب الصالة. تسير بنا العربة على طول الساحل، ونحن راقدون على النقالات ونتألم من الارتجاج والاهتزاز على الطرقات. نصل بعربتين من عربات الجيش إلى نادي القمار المحوَّل إلى مستشفى في مدينة دينار. صالة كبيرة مطلة على البحر. هدوء، هدير خافت، هواء مالح، نوارس في الصباح، صفير سفن صيد بعيدة. دوي المدافع الغائب في الأماكن الخلفية لا يزال يطن في آذاننا. إنه منظر غريب؛ أسرَّة ثم أسرَّة، تفصل بينها مماشٍ للممرضين، في صالة رقص دائرية الشكل، يقوم كرسي في بعض أركانها وُضعت فوقه زجاجات الدواء وأشياء أخرى من شتى الأنواع.

أنا هواء في الأيام الأولى، لا أحد يتحدث إليَّ، الممرضون الذين يأتون بالطعام لا يتفوهون بأي كلمة. بعد مضي ثلاثة أيام فحسب، يأتي عسكري فرنسي ويسألنا عن أسمائنا. يجنُّ من هذه الأسماء الفلامندية، يضطر كل منا أن يكتب اسمه على قطعة من الورق. بعد مضي عدة ساعات، تُعلق ألواح صغيرة بأسمائنا على أسرَّتنا. يدخل طبيبان عسكريان إلى الصالة بعد برهة قصيرة، يفحصان كل جندي بضع دقائق.

عندما يصلان إلى سريري، ينتزع أحدهما الملاءة عني، ويقول بالفرنسية:

ـ ارفع ساقك.

ـ لا أستطيع.

ـ ارفع ساقك أيها الرقيب، هذا أمر!

ـ حقًّا لا أستطيع، أنا آسف.

ـ حسنًا، سنرى.



في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، يقف شخص ضخم البنية وقد شمَّر كمَّي قميصه بجانب سريري. أشرَقُ بآخر رشفة من قهوتي.

يخرج علبة حديدية من الفازلين، يفتح غطاءها. يلقي نظرة سريعة على دفتر صغير ويسحب الملاءة عن سريري. يقول بالفرنسية وهو يضحك:

ـ دعني أرى بحق المسيح!

يبسط يده على علو بضعة سنتيمترات فوق إبهام قدمي ويقول:

ـ حسنًا أيها العجوز، اركل يدي بقوة.

لا أستطيع أن أرفع ساقي حتى سنتيمترًا واحدًا؛ عضلاتها مصابة بشلل كامل. يبادر الجلاد بالعمل. يدهن فخذي بالفازلين، ثم يبدأ يقرص، يسحب، يفرم، ويضرب بحوافره الوحشية الخشنة.

أعرق، أكح، أتلاشى، وألهث. أكاد أختنق من الألم.

يقول:

ـ انظر أيها العجوز، لك أن تصرخ وتولول، لكن واظب على التنفس بحق الرب. هيا يا شجاع!

يمسكني من معصمَيّ الاثنين، ويجعلني أطوق بيدَيَّ العوارض الحديدية في أسفل السرير. أسحب بكل ما أملك من قوة. يستمر هذا التعذيب أكثر من خمس دقائق.

عندما تُنهك قواي، يوجه ضربة خفيفة إلى عجيزتي ويقول:

ـ حسنًا، هذا يكفي للمرة الأولى. شد حيلك. أراك غدًا.

عندما أرى وجهه الأذعر يقترب في صباح اليوم التالي، يتصبب عرقي بشدة تجعله يسيل من جبيني إلى داخل عينَيَّ.

يبتسم ابتسامة عريضة ويقول:

ـ لسنا خائفين، أليس كذلك؟

يربت على خدي ويبدأ التعذيب. يدفع يدَيَّ إلى العوارض الحديدية أسفل سريري مرة أخرى.

يتبين بعد انتهاء الجلسة أنني عقفت العوارض. يقول ضاحكًا ضحكة خافتة:

ـ لم أكسر فخذك، لذلك لا داعي أن تكسر سريرك.

تدب الحياة في ساقي بعد عشرة أيام. الأمر الذي يدهش المعالج العسكري نفسه، يعترف بأنه اعتقد أن العضلات كانت تبلغ من التلف ما يصعب شفاؤه.

أحتاج إلى أسبوع كامل آخر حتى أستطيع الوقوف بحذر إلى جانب سريري، أحاول الاستناد إلى الساق المصابة أيضًا، أتهاوى في طرفة عين، لكنني منذ هذه اللحظة أستطيع ممارسة تمرينات بسيطة بتمهل في سريري، فقد أصبح بوسعي أن أرفع ساقي عدة سنتيمترات، يبتهج الوحش ابتهاجًا كبيرًا، ويطفح الفازلين من فوق أذنَيَّ.

في يوم من أيام أكتوبر، أخرج من المستشفى وحدي لأول مرة، مستندًا

إلى عكاز. يذهلني هواء البحر؛ يلوح ضوء غريب في الجو، تحوم النوارس فوق الحديقة العامة وبيوت الأرستقراطيين، يخلد البحر إلى السكون ويتلون بأزرق مائل إلى الخضرة، أجلس على مقعد بالقرب من مصد الفيضانات. يمر الناس من جواري وهم يتجاذبون أطراف الحديث، تعوم عدة قوارب وراء خليج «باه دو بريوري» مباشرة. أرى هيئة سان مالو المنحدرة من القرون الوسطى تلوح بغموض في البُعد على الجهة اليسرى أمامي. تهفهف الأوراق الصفراء والندية على الأشجار، ينبعث حفيف النسيم من بين العشب، يبدو وكأن رحى حرب لم تدر في يوم من الأيام.

* * *

أجلس كل يوم بضع ساعات في هذا المكان، أراقب وأرسم رسومات سريعة؛ فتاة بصندوق قبعات دائري الشكل تسير عكس تيار الهواء؛ امرأة عجوز متشحة بملابس سوداء مرفرفة تلقي قطع الخبز إلى النوارس، التي تغطس حتى دنو خطير من يديها؛ جندي يعرج على عكازَيه وقرمة ساقه المبتورة متدثرة بشكل أنيق في ساق بنطاله المكوي حديثًا.

فجأة، يقف رجل مسن ورائي، تتوقف يدي عن الحركة، يقول بالفرنسية:

ـ أداء الخدع السحرية فن يحظى بتقدير ضئيل جدًّا.

ويتابع سيره.

أنظر أمامي في حيرة لحظة من الزمن. ما الذي يدفع هذا الرجل الغريب إلى تسمية الرسم بـ«الخدعة السحرية التي لا تحظى بالتقدير الكافي»؟

تبحر العبَّارات بين دينار وسان مالو ذهابًا وإيابًا بسلام. أركب العبَّارة ذات يوم إلى الجهة الأخرى. المياه مسطحة، تتقافز الأسماك إلى ما فوق سطح المياه، تنعق النوارس وتغطس إلى خط الزبد الأبيض وراء المركبة. أجلس على السطح وأفكر بأنني تحررت من كل شيء. ما إن تراودني هذه الفكرة حتى يخفق قلبي في حنجرتي ويتراءى لي رفاقي وهم يزحفون في الطين، مستنزَفي القوى خائري العزيمة.

عندما أعود في المساء إلى نادي القمار، سائرًا على عكازي بحذر، خطوة خطوة، تقبل عليَّ إحدى الممرضات وتعنفني: لماذا أركب مثل هذه المخاطر؟ كما أن هناك رسالة تنتظرني بجانب سريري. أفض الظرف المختوم بالتاج الملكي: اسمي مدرج على جدول الأوسمة العسكرية للحصول على وسام ملكي من درجة فارس. ما إن يمضي يوم آخر حتى تصل رسالة من إنجلترا: دعوة من أخي غير الشقيق «رايموند» لزيارته بضعة أيام في سوانزي، المدينة التي يقيم فيها لاجئًا.

* * *

إنه منتصف نوفمبر، عندما نركب العبارة، نحن قرابة عشرين جنديًّا، إلى سان مالو في الصباح الباكر، نطلب من القنصل الإنجليزي هناك أن يختم على وثائق السفر الخاصة بنا، ويوصلنا أناس بعد الظهر بقليل إلى سفينة يرحب بنا ربَّانها بتحية عسكرية.

أتجول في سان مالو نحو ساعة من الزمن؛ في الشوارع الصغيرة وعلى صخور الساحل. يرقد فرس بحر ميت بين أمواج الشاطئ يتأرجح، لامعًا وشفافًا، ذات اليمين وذات الشمال. أنا وحيد في هذه الدنيا، يخطر هذا في بالي، عندما أرى امرأة شابة تقترب من الجهة الأخرى من الساحل، ولا أدري إن كنت سأرى أمي مرة أخرى. إنها امرأة أنيقة رغم أنها متشحة بالسواد بشكل كامل، تحمل مظلة صغيرة، تغرزها في الرمل القاسي عند كل خطوة من خطواتها مثل عكاز. لا أجرؤ على النظر في عينيها. بعد أن تعبر من جانبي، أنظر إلى الوراء وأرى أنها تفعل الشيء ذاته. تبقى نظراتنا معلقة بعضها ببعض لحظة من الزمن.

لا تزال ساقي تتشنج من الألم في بعض الأحيان، لقد أجهدت نفسي أكثر من اللازم. أصل منهك القوى إلى متن السفينة، التي تغادر في نحو الساعة الرابعة بعد الظهر. لقد ثمل عدد من الجنود؛ ما استلموه من مرتب الجندية أجهزوا عليه في الحال. يرن جرس السفينة، تصدح الصفارة البخارية، ينكسر

الصوت على واجهات البيوت، أتساءل أين تقيم تلك المرأة الشابة يا ترى، وتتهاوى عليَّ الوحدة مثل صخرة.

نبحر صوب ساوثمبتن، المدينة التي فقدت تسعمائة رجل شاب من أبنائها في الكارثة التي حلَّت بالباخرة «تيتانيك» قبل ثلاث سنوات على وجه التقريب؛ كان معظمهم يعملون على متنها، بحارة، عاملون، عمال غسل الأطباق، محاسبون. يقول أحد الجنود:

ـ هناك عديد من النساء الوحيدات اللاتي يحتجن إلى خدماتنا.

ويبصق على الأرض. يأتي ربان السفينة ويوبخ الجنود الهاذرين. يأمرهم بالبقاء على سطح السفينة طوال الرحلة، بأحزمة السباحة المصنوعة من الفلين حول أردافهم، ويمنعهم منعًا باتًّا أن يسيروا من مقدمة السفينة إلى جانبها الأيسر. لا يلقي الكلام على عواهنه، إذ إن ثمة احتمالًا أن تنفك الصناديق الثقيلة بأجزائها المعدنية، التي تنقلها السفينة إلى إنجلترا، وتجرف معها الركاب غير الحذرين وتسحقهم بين ثقلها وحافة السفينة.

آخذ مكاني على مقعد مغطى بقماش القنب على الجانب الأيسر. في البداية يسير كل شيء على ما يرام، نتهادى بسلام على بُعد لا يكاد يبلغ خمسمائة متر عن جزيرة «سيزامبر» الصغيرة، بسجنها سيئ الصيت الذي أرسلت إليه المحاكم العسكرية عددًا لا بأس به من الجنود الفلامنديين.

بعد مضي ساعة، تظهر غيوم ركامية داكنة فوق البحر البنفسجي المترامي أمامنا، تهب رياح عاتية، يطلق الرجال اللعنات، يصعد الربَّان إلى السطح ويمنع الجميع منعًا باتًّا من التجول. ما إن تمضي بضع دقائق حتى تبدأ السفينة تشبُّ مثل حصان متمرد؛ تنفتح فجوات في سطح المياه، عمق بعضها يزيد على خمسة أمتار، تتهاوى مقدمة السفينة فيها في دوي هائل، كأنما تسقط على ألواح معدنية. نترجرج وننظر في توجس بعضنا إلى بعض بينما نتشبث بالمقعد. بعد انقضاء بضع دقائق أخرى تهب العاصفة الرعدية فوق رؤوسنا؛ تبدو السفينة ضائعة وسط

المياه الهائجة. نرى الربان المتجه إلى قمرة القيادة، يصطدم بالحافة، يتهاوى على الأرض، ينهض متعثرًا بخطواته ويختفي في القمرة ببالغ السرعة. الرياح تعوي وتئن، شياطين جهنم كلها مُطلقة العِنان. تلقي أمواج عملاقة كميات كبيرة من الماء على سطح السفينة، تتناثر على شكل مراوح في الهواء، وتُفقِدنا كل شعور بالاتجاهات. أتمدد تحت المقعد؛ ما يلبث أن يتقيأ جندي على قدمَيَّ. منذ هذه اللحظة لا يعود بأيدينا أي حيلة، نصاب جميعنا بالدوار، بالدوار المميت، نتقيأ أرواحنا من أجسامنا، بعض الركاب جنود لا يزالون في طور النقاهة، يبكون من شدة الألم، تشتد العاصفة أكثر. ترتفع مقدمة السفينة أحيانًا إلى ما فوق الأمواج، لتسقط بعد ذلك في دوامة عملاقة بدوي هائل، فنفكر بأن ساعتنا الأخيرة قد حانت. الوقت ليل، ليس ثمة اتجاه ولا يابسة ولا عالم، لا أسفل ولا أعلى، لا يمين ولا شمال، ليس هناك سوى قيء وماء مالح، ليس هناك سوى ضوضاء، طقطقة تنم عن أن السفينة توشك على التحطم، تستمر هذه الحال ساعات وساعات ولا تنتهي.

قبيل الفجر، يرقد بعض الجنود، الذين ربطهم رفاقهم إلى الأنابيب أو السواري، محطمين وأنصاف أموات، يتدحرجون يمنة ويسرة بخمول مثل أكياس رخوة. لم تعد السفينة تبحر بل تترنح، تلطمها الأمواج لطمة بعد لطمة، تتخبط في دوامة البحر. ينتظر الربان في ترقب. نشعر بالسياط تنزل علينا، نرتج من التشجنات، ونحن نصلي عسى أن تتوقف العاصفة في آخر الأمر. كان ينبغي أن نصل إلى الجهة الأخرى قبيل الساعة العاشرة من مساء أمس. لا نرى في الضوء الضئيل أي يابسة في الأفق، نتيقن من أننا ملاقون حتفنا، يعوي بعض الشباب مثل الذئاب، بينما يلفظون آخر ما تبقى من العصارة الصفراوية من مَعِدهم وهم يفرفرون، يسيل لعابهم من أفواههم وتصطك أسنانهم من الألم والشقاء.

قبيل الساعة التاسعة تهدأ العاصفة إلى حد كبير، لكن البحر لا يزال في

حالة من الهياج إلى حد أن إعادة تشغيل المحرك كافية لأن ندوخ جميعنا من البؤس مرة أخرى. نبحر ببطء شديد وفي خط مائل عكس الرياح، إلى أن نصل إلى مقربة من الساحل. تطلق السفن المتماوجة في الميناء أبواقها بغية تحذيرنا من الإرساء، إذ إن سفينتنا ستتحول إلى شظايا في الحال. لذلك نبقى في مكاننا نتمايل ونترنح حتى وقت متأخر من النهار، يرغي البؤس اللامتناهي بالأزرق والأبيض على أجسادنا المعصورة، مثلما يرغي الزبد على شفاهنا، نحبو في المكان كي نهرب من أنفسنا، بوجوه ملتوية القسمات مثل الشياطين والعفاريت، بينما نتشبث بآخر ما تبقى لدينا من قوة العزيمة.

هذا أسوأ من كل ما عشناه في الخنادق، هذا ما يقوله جندي في أذني وقد أخذه الفواق. تحين الساعة السادسة قبل أن يستطيع القبطان التوجه بمؤخرة السفينة إلى الميناء بحذر شديد، مترًا بعد متر. ترفعنا موجة عالية إلى فوق، تقذفنا فنوشك أن نصطدم بجدار الرصيف. نبتعد مائة متر عن الرصيف من جديد، تأخذ السفن المتمايلة كلها بإطلاق صفاراتها مثل المجانين بغية تحذيرنا.

قبيل الساعة السابعة مساءً ترسو سفينتنا في الميناء، وبينما لا تزال تتمايل، نحبو على أيدينا وركبنا، نحن الحيوانات المريضة، القمل والجرذان، ونتدحرج على الرصيف مثل المحتضرين، نبقى ساعة كاملة أخرى راقدين في المطر والريح نلتقط أنفاسنا، بناطيلنا ملوثة بالغائط ورائحة العصارة الصفراوية تحيط برؤوسنا.

عندما يصبح بوسعنا أن ننهض من رقودنا متعثرين، يكون الظلام قد أسدل ستاره من جديد.

يتفقدنا الربان ويعدُّنا، ثمة جندي مفقود؛ لا أحد لديه أي فكرة أين يمكن أن يكون.

يجأر الربان:

ـ الشيء نفسه مرة بعد مرة، سأتعرض للمساءلة من جديد عن الحيوانات التي تسكر وتنطرح في البحر.

يأخذنا إلى مطعم صغير نستطيع فيه استجماع قوانا.

ينظر بعضنا إلى بعض في هذه اللحظة فحسب، لأن الفتيات اللاتي سيقمن على خدمتنا يضعن أيديهن على أفواههن في اندهاش: نحن مصفرون مثل الصينيين، ناحلون وضامرون من تقيؤ العصارة الصفراوية، عيوننا غاطسة في محاجرها، ونثير الاشمئزاز بآثار البلغم الجاف على خدودنا.

لا أحد يريد تناول الطعام؛ نغرق من فورنا في نوم لا أحلام فيه، على الأسرَّة الخشبية البسيطة في الغرف العلوية الصغيرة التي أرشدونا إليها بعد برهة قصيرة، بينما تهيج عاصفة نوفمبر في ظلام الليل في الخارج وتدوي بصوت مكتوم فوق السطح.

* * *

أجلس في اليوم التالي غافيًا في القطار المتجه إلى لندن، أمضي هناك ساعتين في انتظار القطار التالي، مخدر الحواس وخالي المشاعر، مثل شخص أضاع كل هدف وكل اتجاه في حياته. أشعر بالحنين إلى رفاقي في الخنادق. أسافر من لندن إلى سوانزي عبر بريستول. أجلس وحيدًا مع شقائي، مرتعد الأوصال مكدر المزاج، في القطار الذي يشق طريقه بهوادة عبر الهضاب المقفرة. يتقاطر الثلج الذائب من السياجات الخضراء والأشجار. لا أحد يقول شيئًا. تعج أرصفة المحطات التي تنزلق إلى الوراء بالجنود المتكومين على أنفسهم، بعضهم يدخِّن ويبدو متعافيًا من جراحه وهو عائد إلى الجبهة، بعضهم الآخر مثلي، محطم وشاحب، وهو ذاهب في نقاهة بضعة أسابيع. نصل إلى محطة صغيرة قديمة متداعية بعد منتصف الليل بكثير. أسأل عن الطريق إلى الملجأ الذي يقيم فيه «رايموند»، أهدج ساعة كاملة في درب ممتد على طول الساحل، أبلغ منتجعًا عديم الأهمية، في شارع طويل تقوم فيه بضعة

دكاكين وبيوت منخفضة وثلاثة فنادق مطلة على مصد الفيضانات. لا توجد روح حية في الجوار، سوى جندي مرابط للحراسة في مكان عند الثكنات الخشبية المنتشرة على طول المصد، يراني ضابط في الظلام فيقف باستعداد، ويقول بالإنجليزية:

ـ مساء الخير، سيدي.

ـ تقصد صباح الخير.

يضحك ويسأل:

ـ كيف الحرب في بلجيكا؟

أتمتم ببضع كلمات، أسأله الطريق إلى ملجأ «هوم رست».

أتابع السير على طول الواجهة البحرية، بمحاذاة الأمواج المزبدة على الشاطئ المغطى بطبقة خفيفة من الثلج.

إنها الساعة السابعة ولم يطلع الضوء بعد. أنا محموم ومنهك القوى، أرى مقعد حديقة تحت رواق عند إحدى الفيلّات. أستلقي عليه، أشعر بتنميل وخفقان وحرقة في ساقي، لقد استنزفت قواي عن آخرها. أتكوم على نفسي مثل طفل وأتدهور في جحيم من عتاب النفس: كان عليَّ أن أعود إلى ليفربول لأبحث عن جدارية أبي، ماذا أفعل هنا بحق السماء؟ أجئت هذه المسافة كلها، فقط لأرى «رايموند» لحظة قصيرة؟ غادر رفاقي إلى جنوب فرنسا ليتماثلوا للشفاء. كم أنا أحمق فظيع! تكاد قدماي تسقطان من جسدي من شدة البرد، لم يكن ينبغي أن أقوم بتلك الرحلة البحرية اللعينة، أشعر بالغثيان من شدة الضعف وأرتجف إلى حد أنني أسمع عظامي تطقطق في جسدي.

التقيت أخيرًا أخي الثاني غير الشقيق في قلعة صغيرة راقية من الطراز القديم، انبثقت من الضباب الصباحي قارس البرودة، سألته بحذر عن حال أمي وأختَيَّ كي لا أجرح مشاعره، فهو يعلم رأيي في أبيه بصفته زوج أمي. سقطت على الأرض غائبًا عن الوعي قبيل الساعة الحادية عشرة من الصباح،

ربما لأننا كنا جالسين بالقرب من الموقد. لم أفق إلا بعد يومين كاملين وقد امتلأ جسدي ببقع حمراء من جراء إصابتي بتسمم الدم.

أقمت في ذلك المكان النائي شهرًا ونصف الشهر مخدر الحواس؛ ذهبت مع صياد سمك في رحلة صيد، تبين أن السمك الكبير الذي علق بصنارته الخشنة بعد ساعات طويلة أنه كلب بحر شوكي، شيطان غير صالح للأكل يتلوى في محاولة الإفلات، يرمقنا بنظرة مجنونة، بينما يقطع الصياد الشص من حلقه بالسكين ويترك هذا الحيوان الضخم ينزلق في دوامة المياه من جديد. أثر دم، لا شيء أكثر من هذا، الثلج الندي في وجوهنا من جديد.

إنه بورت تالبوت؛ رائحة المياه المالحة، رائحة الخيش، والحبال، والفقر. تلوح الجبال بمناجم الفحم الحجري في البُعد.

* * *

سمك رديء، قهوة رديئة، خبز رديء. لقد تعفَّنت أسناننا وفاح طعم كريه من أفواهنا. نمضغ بصمت، نتقيأ في بعض الأحيان، ننظر إلى الأشجار العارية من الأوراق أمام خط البحر الأخضر الرمادي. تأتي أعياد الميلاد بالثلج الندي والمطر الغزير. تجلس بضع ممرضات معنا إلى مائدة بطعام شحيح. لا أحد يتكلم تقريبًا. لا يكاد الناس يحتفلون برأس السنة. يتلون في كنيسة صغيرة صلوات طويلة ورتيبة من أجل الموتى والجرحى. في اليوم التالي، في شمس الشتاء الباهرة والرياح العاتية، نجد حصانًا أعجف ضُرب حتى الموت بالقرب من مصد الفيضانات. يبدو كل شيء غير واقعي. أشعر بالحنين إلى الوطن.

* * *

نزور في آخر يوم من إقامتي مصنع الذخيرة في سوانزي؛ يرشدنا أحد الإداريين في جولة عبر المصنع. أنتعش من جديد وأنا أسير بجانب الأفران المتوهجة، أستعيد ذكرى معمل صب الحديد، يُبهجني النقاش. أرى تقنيات

جديدة تملؤني بالدهشة؛ كيف تتحول كتلة متوهجة من الحديد إلى مئات الصفائح الرقيقة في طرفة عين، بهدف صناعة علب الطعام المحفوظ وأكواب الشراب للجنود. يعجز شيء في كياني عن التفريق بين ما يجول في ذهني وما أراه بعيني.

* * *

أجلس إلى جانب أخي غير الشقيق، نتأرجح بصمت في القطار البطيء المزعج نفسه، قبالة ثلاث فتيات إنجليزيات يعلقن بصوت مرتفع على هذين الجنديين البلجيكيين الساذجين، اللذين لم يسبق لهما أن لمسا امرأة في حياتهما على حد قولهن، ويصلح أحدهما، ذلك الجالس إلى اليسار، لأن يقف على شكل تمثال برونزي يجسد جنديًا ساذجًا، مغطى بذرق الحمام، في حوض عشبي صغير. يقهقهن في مرح إلى أن يحين وقت نزولنا من القطار وأتمنى لهن رحلة سعيدة بأفضل ما أستطيع من إنجليزية. يضربن أيديهن على أفواههن، ويصحن بعضهن مع بعض بمختلف أنواع الاعتذارات، نرفع أكتافنا، وبينما نسير على رصيف المحطة مغادرين وملوِّحين بلطف، أشعر بدوار، بشيء يعصف عبر أحشائي، مزيج من الخوف والشوق يتمخض عنه نوع من الغثيان لن يفارقني طوال طريق عودتي إلى الجبهة، يلازمني عندما أجلس في قطار متخلخل قذر آخر، وأحملق عبر الشبابيك الكامدة المتسخة بآثار سخام منبعث من شموع دهنية. تبدو آثار الأعمال التخريبية واضحة في كل مكان، على المقاعد وعلى الأرضية، وقد تلطخت المراحيض بالقذارة إلى حد لا يمكن استعمالها. يتحول الجنود إلى مخربين ورجال قاسين، عندما يعودون من الإجازة إلى الجبهة.

* * *

تمضي شهور من جديد يتناوب فيها العيش بضجر، والنوم نصف نهار، ثم الحلول المفاجئ في الفظاعة المطلقة على مدى ساعتين كاملتين؛ هجوم

مباغت، زعيق بالأوامر، رعب، اضطراب، صراخ الجرحى، ثم نقل الموتى، أشلاء مشوهة من جسم بشري، في المكان الذي جلس فيه شاب قبل قليل يدخن سيجارته ويتكلم بسرور في الخندق.

تصبح حكايتي رتيبة، مثلما أصبحت الحرب رتيبة، مثلما أصبح الموت رتيبًا، مثلما أصبح كرهنا للألمان رتيبًا، مثلما أصبحت الحياة نفسها رتيبة وبدأت تثير قرفنا في آخر الأمر.

يصيبني شيء وحيد في العمق في تلك الأيام القاتمة. في أحد المساءات، يُنقل جندي في نزعه الأخير من هناك، يتناهى إلى مسمعي أنه يملك ذراعًا واحدة، لكنه مع ذلك أبدى شجاعة منقطعة النظير؛ كان يعمل متطوعًا في المستوصف. لقد وقعت عليه عارضة خشبية في مستودع تضطرم النار فيه. أسير إلى النقالة وأتعرف الصبي الذي كان معي في مدرسة الرسم، الطالب المتفوق العزيز على نفسي الذي كان يبني عوالم بأكملها من الخطوط الصغيرة. رقبته منكسرة، متدلية في زاوية غريبة من جسده. يفتح عينيه لحظة قصيرة ويتعرفني، يريد أن يقول شيئًا، يستقيم بجذعه بعض الشيء، أرى ما كنت أتأثر به في السابق: كيف أن قرمة ذراعه المبتورة تتحرك مع كل حركة من حركاته تحت كُم بدلته العسكرية المشقوقة، ثم يتهاوى على ظهره. أسير إلى جانب النقالة من دون أن أستطيع فعل أي شيء. عندما نصل إلى المستوصف، يكون قد أطلق نفسه الأخير.

* * *

في يوم من أيام يونيو عام ١٩١٦، أُرسل في مهمة للمرة الثالثة، هذه المرة إلى موقع استطلاع أمامي؛ حظيرة أبقار واقعة بين خطّي القتال. كل ليلة يرسل قائدنا ثلاثة رجال إلى هذا الموقع. لا يعود أي منهم. يتذمر الرجال ويعارضون، يتعرضون لعقوبات وتهديدات. بعد مضي أسبوع ونصف الأسبوع، يأمرني القائد بالذهاب مع اثنين من رجالي للحراسة هناك. ألقي

تحية عسكرية وأقول إنني مستعد لتنفيذ كل الأوامر، ولكن هذا عمل جنوني. يصرخ القائد في وجهي بأنني أستطيع أن أتوقع عقوبة إذا ما رجعت سالمًا من هذه المهمة.

قرابة منتصف الليل، نتسلل إلى الحظيرة بحذر. نرى في الضوء الخافت الشباب القتلى في كل مكان، وذخيرتهم لا تزال موجودة في الحظيرة. آمر رجالي الاثنين بجمع أكبر كمية ممكنة من الرصاص، ثم أجعل كلًّا منهما يرابط على بُعد ثلاثة أمتار من الحظيرة.

أتسلل إلى الأمام تحت حمايتهما، أرسم النقاط التي أخمن وجود المدافع الرشاشة فيها، طول الخندق، وارتفاع الساتر الدفاعي. أتسلل عائدًا أدراجي. لماذا لم يُوفق الشباب الآخرون في إنجاز هذه المهمة؟

نلملم الرصاص كله، ونضعه في حقائبنا. يصبح بحوزتنا مخزون هائل من الذخيرة على غير المتوقع، لذلك آمر الجنديين الشابين بأن يتبادلا إطلاق الرصاص على فترات منتظمة، طوال الليل كله، بعد حساب دقيق لعدد الرصاصات التي نحتاج إليها للمواظبة على هذا العمل وللمدة التي يجب أن تتخلل إطلاق النار. لا يظهر الألمان في تلك الليلة، لا نقع في الأسر، نعود أدراجنا بشعور المنتصر قبيل الفجر، ولكن ما إن نظن أننا وصلنا إلى المنطقة الآمنة حتى تشتعل النيران. أرى خلال لحظات قليلة كلًّا من الشابين يقفز من مكانه للفرار وينطرح على الأرض في الحال؛ أمكث منبطحًا في مكاني بهدوء مطلق. أنهض بعد عدة دقائق بحذر وأصاب برصاصة في ظهري على الفور، رصاصة جبانة تخترق ظهري بميل وتعبر أسفل ظهري وتخرج من وركي. أوقف نزيف الدم المتدفق بغزارة، أتقيأ، أضغط بكل ما أوتيت من قوة على الجهة الأمامية من الجرح المتصدع الكبير، أُنقل تحت جنح الظلام إلى المستشفى الميداني، فيقول لي الطبيب العسكري بالفرنسية:

ـ ما الأمر يا «مارشان»؟ هل أصبحت زبونًا دائمًا عندنا، أم ماذا؟

أكشِّر من الألم، يتلاشى كل شيء، أصحو بعد ثلاثة أيام، بضمادة مبقعة

باللون البني حول بطني وألم فظيع في ظهري. أسمع من ممرض أنهم أبقوني تحت تخدير قوي على مدى أيام طويلة، لأنني لم أكن سأتحمل الألم من دون تخدير. بالإضافة إلى ذلك يجب أن أمثل أمام المحكمة العسكرية، بعد شفائي، بتهمة استخدام ذخيرة لم يُعهد بها إليَّ من سلطة أعلى. أرفع كتفَيَّ، وأقول فليأخذهم الشيطان.

رقود على ظهري، ضجر، ألم، إحباط، تفكير برجالي الموجودين في الطين. يرسلونني إلى مقاطعة البحيرات هذه المرة، إلى عزبة صغيرة في ويندرمير، لقضاء النقاهة نحو ثلاثة أشهر. أصبح على صداقة مع سيدة المنزل، «مسز لامب»، التي تلعب الورق معي، وتخبرني حكايات عن أجدادها في أثناء شرب الشاي بعد الظهر. غالبًا ما يتنزه أحدنا مع الآخر قبيل المساء في الحديقة. زوجها أيضًا في الجبهة. تنشأ حميمية بيننا لا نعرف كيف نتعامل معها. إنني مجرد جندي عادي من خنت، هذا ما أؤكده لنفسي، عندما أستلقي في الليل في غرفتي الفسيحة في الطابق الأول، وأسمعها تمشي في الممر.

* * *

في أثناء نقاهتي في ويندرمير، أقرأ في الجرائد أنهم يستخدمون نوعًا جديدًا من الغازات السامة، غاز الخردل، الذي يبدو أنه يسبب حالات أفظع مما تسببه القذائف بغاز الكلور التي رأيناها أول مرة في ١٩١٥. أقرأ عن المذابح الجماعية ولا أستطيع النوم لليالي طويلة؛ كم من رفاقي قُتل حتى الآن؟ أستطيع أن أخمن ذلك فحسب. أحس أحيانًا بأن خندقنا كان مكانًا آمنًا نسبيًّا، على الرغم من القتلى الذين كانوا يسقطون كل أسبوع. أسمع، بوتيرة متصاعدة، في النقاشات كلها، كيف أن الناس يشمئزون من المذابح العبثية غير المبرَّرة التي تستمر إلى ما لا نهاية؛ يتبين أن الألمان حتى قد ضاقوا بها ذرعًا وأخذوا ينشقون بأعداد هائلة. تسأل «مسز لامب» من ويندرمير:

ـ هل بقي شباب في أوروبا على قيد الحياة؟

وتضع يدها على كتفي. أقرأ الجرائد الإنجليزية التي ترد فيها قضايا مختلفة تمامًا عما يرد في الجرائد البلجيكية الصادرة بالفرنسية التي كنت أستطلعها على الجبهة بين الحين والآخر.

عند الوداع، تهديني «مسز لامب» صندوقًا من سجائر إنجليزية صفراء اللون وإهليلجية الشكل، بالإضافة إلى شال من الصوف حاكته لي بنفسها، شال طويل، تقول بقلق:

ـ ستحتاج إليه على الجبهة في شهور الشتاء.

وتأخذني بين ذراعيها. ارتعدت من البؤس في اليوم الذي كان يجب أن أغادر فيه ويندرمير. رأيت قمم جبال «لانجديل» تلوح في ضوء الفجر الرمادي المتزايد في البُعد. كانت الجبهة في انتظاري. كنا على أبواب الشتاء الثالث من الحرب.

عندما أعود إلى الجبهة، أسمع أن الضابط الذي كلفني بتلك المهمة لا يزال يريد إخضاعي للعقاب بسبب العصيان: عندما عدت مصابًا من موقع الاستطلاع الواقع قرب حظيرة الأبقار، كانت لا تزال لديَّ كمية هائلة من الذخيرة التي جمعتها من هناك. لم يكن يُسمح لنا باستخدام ذخيرة لم توزعها علينا سلطة أعلى. ارتكبت بذلك مخالفة فادحة.

استُدعيت للمثول أمام ملازم، تحدث إليَّ في بادئ الأمر بنبرة صارمة وعدَّد لي العقوبات المحتملة. عندما لم أحرك ساكنًا، وبقيت واقفًا باستعداد في انتظار أن يقرر عما إذا كان يجب أن أمتثل أمام المحكمة العسكرية أم لا، حملق في عينيَّ برهة طويلة. لا بد أنه قرأ المرارة البادية على وجهي. عاود قراءة ملفي بضع دقائق، طرق الختم عليه، وضع توقيعه في أسفله، ثم قال:

ـ وُضع الملف في الدرج يا «مارتين». انضم إلى رجالك. انصراف.

ألقيت تحية عسكرية، لم أتفوه بكلمة واحدة. لكن منذ ذلك اليوم

فترت عزيمتي، إيماني على وجه الخصوص. الاحتقار الذي كان الضباط المتحدثون بالفرنسية يعاملون به الجنود الفلامنديين، الإهانات الصريحة التي يوجهونها لهم وإلحاق الضرر بهم، أصبح لا يُطاق كلما ازدادت التضحية بحياة الناس. كان موقفهم يتناقض تناقضًا كليًّا مع موقف الجنود الوالونيين البسطاء الذين يُظهرون لنا صداقتهم، ويتضامنون معنا على العموم: «نحن جميعنا بارود المدافع». بينما نمكث في الخنادق، بأصابع تكاد تتجمد من الصقيع، وقبعات من الصوف السميك ومزق من الفانيلا في أحذيتنا العسكرية المهترئة، ونحاول أن يدفئ بعضنا بعضًا طوال الوقت كي لا نموت من الصقيع، يجلس الضباط في بيوت المزارع المُدفَّأة بشكل جيد. كل أسبوعين، يأتي ملازم ويجري تفقدًا سريعًا، رافعًا أنفه في الهواء، يمزح كم أن هذا الصقيع مفيد للصحة، لأنه يبيد جميع الهوام، «لم يبقَ سوى الألمان، أولئك «الموفونيين»». لا يضحك أحد. يدير الملازم ظهره إلينا بهيئة متعجرفة ويقول لمعاونه بالفرنسية بصوت مسموع:

ـ إنهم لا يفهمون شيئًا، هؤلاء الفلامنديون الحمقى.

* * *

ذات يوم، استدَعى مرة أخرى للمثول أمام قائد، ينحدر من بروكسل، يجبرني على أن ألقي تحية عسكرية بعد كل جملة يقولها. بينما يذلني على هذا النحو، وأنا أرفع يدي إلى رأسي بعد كل جملة وأطرق كعب حذائي أحدهما بالآخر مثل المهرج، ينظر إليَّ بابتسامة ساخرة ويبلغني بعنجهية بأنني سأُنقل إلى قسم آخر، لأنني أعامل رجالي برفق أكثر من اللازم وأشكل بذلك خطرًا على النظام العسكري. أسأله هل هذا أمر من سلطة عليا. يزمجر بالفرنسية بأن الفلامندي لا يحق له أن يطرح أسئلة. ألقي تحية عسكرية وأنصرف، أبدأ في حزم أغراضي بصمت. ينظر الشباب إليَّ من دون أن يفهموا شيئًا مما يحدث:

ـ ماذا تفعل يا «مارتين»؟

أجيب باقتضاب:

ـ تم نقلي من هنا.

فيحدث شيء لم أتوقعه: يحتدم رجالي غضبًا، يسيرون كلهم معًا إلى مكتب القائد، يطلقون هتافات عالية ويلوِّحون بقبضاتهم. سرعان ما يرشق بعضهم أحجارًا في الهواء. يخرج القائد إليهم، يزمجر عبثًا بأن يغلقوا أفواههم، وأن المتمردين سيُعدمون في الحال. الأمر الذي يزيد من شدة الضوضاء، يفد الجنود من كل حدب وصوب وينضمون إلى الانتفاضة التي تكبر شيئًا فشيئًا، يصيحون:

ـ اتحدوا أيها الفلامنديون!

يتضرج القائد بالاحمرار، يتوارى في المزرعة، يعود ومعه ضابط. يتحدث أحدهما مع الآخر وهما يشيران إليَّ، أنا الذي لا أزال مشغولًا بحزم أغراضي خلف الجماعة المتمردة، يأتي ملازمان ويلقيان القبض عليَّ، يمسكاني من ذراعَيَّ ويجرجراني بخشونة كما لو أنني متهم بجريمة. عندما أقف أمام الضابط، أستقيم بظهري وألقي تحية عسكرية. إنه الضابط نفسه الذي أنقذني من المحكمة العسكرية في وقت سابق. يمعن النظر فيَّ من جديد، بعينين نصف مغمضتين، ويقول بالفرنسية:

ـ حسنًا!

ويضرب بسوطه على يده اليسرى المغمدة بالقفاز.

ألقي تحية عسكرية مرة أخرى، أستل الصندوق الصغير الحديدي المحتوي على أوسمتي من جيبي، أفتح الصندوق، أعرض الأوسمة أمام ناظريه واحدًا تلو الآخر، من دون أن أتفوه بكلمة واحدة.

يفهم قصدي. يتفحص أوسمتي، ثم يحملق فيَّ برهة طويلة.

يأخذ وسام الفروسية الخاص بي من الصندوق في آخر الأمر، يقول بالفرنسية بنبرة بطيئة وواضحة:

ـ الرقيب أول «مارشان»، لقد نلتَ امتيازات عن جدارة. لكنك خُدعت. هذا الوسام مزيف.

يتضح أن أهم أوسمتي مزيف، لعل القائد الذي سلَّمني إياه قد أخفى وسامي الحقيقي في الغياهب. ينظر الضابط حوله وهو يستنشق الهواء بصوت مسموع.

ينكمش القائد ويريد أن يتدخل.

يصرخ الضابط:

ـ اسكت يا «ديلورو». لم أعد أطيق إهانتكم للجنود الفلامنديين.

ويشير إلى القادة وضباط الصف الذين تهافتوا على الضوضاء:

ـ أنتم جميعكم. مسؤولية هذا التزييف تقع على عاتقكم جميعكم، أيها الحمقى. حسنًا يا «مارشان»، لك أن تبقى مع جنودك في فوجك.

يعدني بأن أستلم وسامي الحقيقي خلال بضعة أيام قليلة، ويأمرني بأن أحتفظ بالوسام المزيف دليلًا إلى ذلك الحين. يهلل الرجال ويلقون قبعاتهم في الهواء. أحيي الضابط بتحية عسكرية، أقدم له شكري، أحاول تهدئة رجالي كي لا يستثيروا المزيد من حقد القادة. نعود إلى القذارة، الرائحة الكريهة، الضجر، الانفجارات المفاجئة، حرق الأعصاب، القتلى الذين يسقطون أمام أقدامنا في بعض الأحيان. يقول شاب والوني معنا في الخندق بفلامندية ركيكة إنه يخجل من سلوك القادة. نعثر في تلك الليلة على كوز صغير من مشروب «الجين» في الخندق، لا أعرف كيف وصل إليه. أترك الكوز يتنقل من جندي إلى آخر، يغني الشباب بصوت خافت، ينساب رذاذ المطر على رؤوسنا تحت الغيوم الليلية المنخفضة. تقع قذيفة بالقرب من مكان انبطاحنا، تحفر حفرة عميقة في الأرض، لا تنفجر. ننتظر بخوف، لا يحدث شيء.

لقد تخلَّى الزمن عنا، سقطنا في طيَّة مظلمة غير واقعية من طيَّاته، لا تلوح لها بداية ولا نهاية في الأفق. تتوالى فصول السنة، تعبر الغيوم من فوقنا،

حيوانات أسطورية بيضاء وآلهة مزاجية في ضوء الظهر في العلياء، لقد هرمنا قبل الأوان، نسلك سلوك أطفال محبوسين مستسلمين للقدر، متبلدي الإحساس، غير مكترثين بالحياة والموت.

* * *

أيضًا في شتاء ١٩١٧-١٩١٨ يموت شباب من الحرمان، البرد، الالتهاب الرئوي، التيفوئيد، الحزن، الأمراض الداخلية، الزهري، الإحباط، الغضب، ولا أدري ماذا أيضًا، ولكن أكثر الفظاعات التي نسمعها، تردنا من قرية «باسنداله»، في أكتوبر ونوفمبر من ذلك العام. نجلس في الخنادق، نرى حاملي النقالات يُستدعون الواحد تلو الآخر. تجري كلمة «باسنداله» على لسان الجميع. يسكت الضباط وينكسون أبصارهم، عندما نسألهم عن الأمر. القصف بمدافع الهاون في البُعد أشد من كل ما سمعناه من قبل. إنهم يستخدمون غاز الخردل، تبلغ القصص الواردة إلى مسامعنا من الفظاعة أننا نكاد نشعر بالامتنان على أننا نجلس هنا ونتفسخ في هذا الوحل، نعيش فقط تحت رحمة الصقيع، والمدافع الرشاشة الغادرة، والنزوات العسكرية. يتبين أن الحروقات التي يتسبب بها غاز الخردل أكثر ألمًا من كل ما عشناه من قبل؛ ليس ثمة مرهم أو دواء في متناول اليد يمكن أن يخفف معاناة الضحايا المولولين من الألم. تهبط الروح المعنوية لدينا إلى ما دون درجة الصفر الليلية. تجتاح صفوفنا موجة أخرى من الانتحار المقنَّع؛ شباب يندفعون في اتجاه نيران العدو ويصرخون: «أطلقوا النار عليَّ أيها الأنذال، أطلقوا»، يحصلون عمومًا على ما يريدون في الحال. تصل مشروبات روحية قوية إلى الخنادق في وتيرة متصاعدة بطريقة أو بأخرى؛ ثمة تهامس بأن قيادة الجيش هي التي تأمر بإيصالها. جنود سكارى يبكون هاذِين للنجوم في الهزيع الأول من الليل ويغرقون في النوم قبل الفجر، مخدري الحواس منهكي القوى، وفي تلك الساعات الباكرة، عندما يعضنا البرد في أجسامنا بمنتهى الشراسة والخبث، يتجمدون حتى الموت.

يأتي الربيع بالشائعات متزايدة عن استسلام العدو الوشيك؛ نرى أحيانًا صفًّا من الجنود الألمان يسيرون بعدم انتظام بعضهم وراء بعض باتجاه الأفق، يبدون مثل خيالات سوداء في ضوء الشفق الأحمر في البُعد، لا ندري ما هم بصدده. يحل الصيف من جديد، تعود البراغيث، الدبابير، والأمراض المعدية إلى الظهور؛ يتراكم في الخندق عديم المنفذ جبل ضخم من الفضلات تفوح منه رائحة كريهة لا تطاق، عندما نحاول طمره تحت الأرض، تظهر جثث وراء جثث، أشلاء متقطعة، وشظايا قنابل. نترك الوضع على ما هو عليه ونجر أذيال الخيبة باشمئزاز وقرف.

* * *

بعد التحرير بفترة قصيرة، يُسمح لي بالذهاب إلى البيت بضعة أيام. في الطريق أرى الخراب الذي حلَّ بيلدنا، أرى البيوت المدمرة، المشردين والباحثين عن حياة أفضل، الفقر، ولكن أيضًا أمارات الارتياح لحلول السلام.

يلاحظ الناس أن هناك محاولات للسطو في بعض الأماكن أو محاسبة الذين تعاونوا مع العدو في أثناء الحرب؛ تتعرض بيوت بأكملها للتحطيم. أرى أمي وأختَيَّ وأخوَيَّ، إنها لحظات مؤلمة مؤثرة. تندفع أمي من باب البيت تعرج بخف في إحدى قدميها وقبقاب في قدمها الأخرى، ترى أوسمتي وتنفجر بالبكاء. لقد تغيرت، تبدو أرهف حسًّا وأكثر هشاشة. شاخ زوجها «هنري»، أصبح متباطئ الحركات مهموم النفس، يحتسي المشروب بصمت كعادته، نوعية رديئة من الكحول، يصنعه في الخفاء من نبات الراوند والإجاص نصف العفن. أنهكهم العيش في فقر زمن الحرب واستنزفهم جميعهم. لقد شاب شعر أمي بأكمله، انحنى ظهرها المستقيم الشامخ، لكن شكيمتها القوية لم تنكسر. أصبحت أختاي سيدتين شابتين ناضحتين بالجاذبية، ارتبطت «كلاريس» بشاب صاخب أحمر الشعر، «فونس»، يلوث الهواء في بيتنا بدخان غليونه، لكنه يجعل الجميع يضحك

بدعاباته المستمرة، وسط الفقر والحرمان المريرين، اللذين جاءت الحرب بهما على أهل المدينة.

عندما أعود إلى فوجي، أسمع الشائعات التي تتردد بكثرة: لقد ثار الشعب الألماني نفسه ضد الحرب، كانت الجبهة في حالة انهيار منذ شهور عديدة. في طريق عودتنا النهائية بعد بضعة أسابيع، نعبر بكل ما يمكن أن يخطر على بال من أنقاض، ونفايات، ومدافع متروكة، أعثر على أسطوانة قذيفة لا تزال سليمة في قناة قريبة من بلدة «ميريل بيكيه»، قطرها كبير، ٢١٥ مليمترًا. يسخر رفاقي مني لأنني أريد أن أجرجر هذه الأسطوانة الثقيلة معي إلى البيت. في ظهر ذلك اليوم، أصل إلى البيت غارقًا بالعرق، وأعطي الأسطوانة النحاسية لأمي، فتقول إنها ستزرع الأزهار فيها. لم تفعل ذلك قَطُّ؛ وضعتُ الأسطوانة بعد حين على دعامة الدرابزين في بيتنا الجديد، فقالت «جابرييله» التي لم تكن تحب التلميع: «يمكنك أن تلمِّع هذا النحاس بنفسك يا «أوربابن»». وهذا ما واظبت عليه طوال حياتي، كل صباح من صباحات يوم الجمعة، قبل أن تبدأ نهاية الأسبوع ويعود الأولاد إلى البيت.

* * *

أسمع حكايات حدثت في الحي: حبلت إحدى الجارات الجائعات من ألماني، لأنه وعدها بأن يعطيها رغيفًا من الخبز مقابل «تواصل جنسي»؛ جُرجرت من بيتها بعد الحرب، وحُلق رأسها بالموسى، وكيلت لها الركلات، فأجهضت بعد ذلك بفترة قصيرة؛ ابنة فلاح خبأت ألمانيًّا في مستودع البيت، وكانت تمارس الجنس معه في الليل؛ صادفها أبوها هناك فركلها حتى الموت، بعد ذلك هشَّم الألماني رأس الفلاح ولاذ بالفرار. يظهر فجأة وطنيون أشداء في كل مكان، مع أنهم كانوا يتاجرون مع الألمان بجشع في الخفاء. في كل مكان تُمحى الآثار والأدلة بهمة محمومة. في كل مكان هناك

نزاع، حسد، نميمة، خيانة، جبن وسَطو، بينما تكتب الجرائد بابتهاج وتهليل عن السلام الحلو. نحن الجنود العائدين من الجبهة نعلم حقيقة الأمر. نلزم السكوت، نصارع الكوابيس في الليل، ننفجر أحيانًا بالبكاء عندما نشم رائحة قماش مكوي للتو أو كوب من الحليب الساخن.

تُرفع الأعلام في شارعنا هنا وهناك، ترفرف في الرياح الندية.

* * *

كان أحد التجار قد سكن في الآونة الأخيرة في منزل قائم خلف منزلنا، في شارع «آنيمرز» المتقاطع مع شارعنا، فلاح كسب ثروة في زمن الحرب. يتاجر بالقمح والبطاطس. تقول أمي: «لم يعلم أحد من أين جاء بذلك الثراء». محل التجارة له مستودع كبير خلف المنزل، فناء داخلي طويل يقع وراء جدران فنائنا الصغير. أستطيع أن أرى من نافذة غرفتي العمال والزبائن وهم يروحون ويجيئون. للفلاح ابنتان، إحداهما، وهي الصغرى، تشبه أمي: جميلة الطلعة أبيَّة النفس سوداء الشعر، تتنقل في الفناء الداخلي متأنية في خطواتها واثقة من نفسها. لا أستطيع أن أمنع نفسي من الوقوف خلف النافذة في المساء، عسى أن أراها هناك. أفتح النافذة في أحد المساءات وأعزف بعض المقطوعات على العود القديم الذي جاء به «جول» إلى البيت قبل سنوات. ترفع الفتاة الشابة عينيها، تراني. أعزف لحنًا عسكريًّا، تضحك. عيناها عسليتان ومتقدتان، مثل عينَي أمي، وشعرها هو شعر أمي ذاته. يخفق قلبي بشدة وتتوتر أعصابي إلى درجة أنني أشعر لاحقًا بالندبات المتبقية عن إصاباتي تتوهج في جسمي.

في الأسابيع القليلة الأخيرة التي أمضيها على الجبهة، لا تتوارى صورتها عن بالي لحظة واحدة. أول ما أفعله، عندما تحدث الهدنة المفاجئة ونتهافت على القطارات المزدحمة مثل قوم فوضويين ونتجه صوب البيت ونحن ننشد الأغاني، هو الذهاب إلى غرفتي والوقوف خلف النافذة. لقد وضعت الحرب

أوزارها. أرى الفتاة مشغولة في الفناء الداخلي في الأسفل، بظهرها إليَّ. تلتفت على نحو مفاجئ وسريع، كأنما شعرت بشيء ما، فأنظر في عينيها الشاحبتين المتألقتين. أصاب بالإعياء والدوار، أضطر إلى التشبث بنهاية سريري.



٣

لم يعتقد قَطُّ ـ هكذا قال ـ أن تطول الأيام، والزمان، والحياة، إلى هذا الحد بالنسبة إلى شخص زُج به في درب هامشي.

«ف. ج. زيبالد»



يرفع عينيه من جديد عن طاولة الزينة الصغيرة القديمة التي يجلس إليها. يفكر فيما يجب أن يسرده. لقد انتهت حكايته عن الحرب أخيرًا، بعد تلك السنوات كلها، وحان الوقت أن يصف كيف التقى «ماريا إميليا» وكيف فقدها.

إنه صيف ١٩٧٦، الصيف الذي يبقى منطبعًا في ذاكرة جيل بحرارته وجفافه الاستثنائيَّين. إنه شيخ طاعن في السن؛ لقد أمضى السنوات الثلاث عشرة الماضية في كتابة هذه المذكرات، تخللتها فترات انقطاع. كان أحيانًا يترك دفتر مذاكرته جانبًا على مدى أسابيع، حتى لقد حدث أن تركها ستة أشهر في إحدى المرات؛ حدث ذلك عندما حان الوقت أن يكتب عن إصابته الثالثة، وعما سمَّاه بخيانة الضباط. يضع إلى جانبه أوسمته التي أخرجها من مكانها اليوم، لأن الذكريات نابضة بالحياة بشدة. تشاء المصادفة أن يصف لقاءه الأول بـ«ماريا إميليا»، عندما يكاد هذا الدفتر الثاني يمتلئ هو أيضًا؛ لا تكفي الصفحات الفارغة المتبقية لتدوين القصة بأكملها. ينتابه التردد، يضع القلم على الطاولة، يُخرج ملفًّا من تحت غطاء مكتبه، ويبدأ كتابة رسالة:

غاليتي «جابرييله»،

عندما أستغرق في التفكير بوفاة أختكِ الغالية...

يضع القلم على الطاولة من جديد، لا تسعفه الكلمات.

إنها حرارة خانقة، أواخر يوليو، يبدو وكأن العالم كله في حالة اختناق. يرفع قبعته السوداء عن رأسه الأصلع ويمسح العرق عن جبينه بمنديل جيبه.

هل ينبغي له أن يطلب من ابنته أن تشتري له دفتر مذكرات ثالثًا؟

لا يرغب في ذلك. لقد تطلبت منه الصفحات الأخيرة الشيء الكثير.

كما أن كل شيء بدأ يتلاشى. يسير خط يده في تعرج، فهو يعاني داء النقرس في أصابعه.

لا يزال قادرًا على الرسم، ساعة في اليوم، لكن الوقوف أمام حامل اللوحات الصغير بات يصيبه بمزيد من التعب.

سيولد طفل لحفيده الأكبر في المستقبل القريب. لا يراه إلا نادرًا، فهو يسكن في مزرعة صغيرة في مكان قريب من حدود هولندا، لقد تغير كثيرًا من جراء ذهابه إلى الجامعة، تحول من شاب ورع ومطيع إلى شاب متمرد، يستهزئ بالرب وتعاليمه ويتسبب بذلك في حزن والديه. هكذا تسير الأمور: يشقى الآباء والأمهات ويدخرون النقود كي يتيحوا المجال لأولادهم أن يكملوا تعليمهم، والنتيجة هي أنهم يتعلمون أشياء في الجامعة يحطون بها من قدر آبائهم وأمهاتهم. لقد أرسل شعره إلى منتصف ظهره، مظهر لا يمت إلى التهذيب بأي صلة. كان الشباب في زمانه يتسمون بشخصية قوية، يحلقون رؤوسهم بأناقة، ويعيشون في انضباط. لا يفكر حفيده الأكبر سوى بقضاء وقت ممتع، ينصت إلى أولئك المعتوهين من ليفربول ـ نعم، ليفربول، اللعنة ـ وأصبح يتشدق بالسياسة في الآونة الأخيرة. بنطال العمال الأزرق الذي يرتديه مشقوق ومهترئ، مع أنه لم يتربَّ هكذا، لا على السياسة، ومن المؤكد ليس على أفكار تلك العصبة الحمراء.

تصيبه الحرارة بشيء من الغثيان، أم يتعلق الأمر بقلبه؟ لم يكن ينبغي أن يستعيد ذكرى «ماريا إميليا»، لكنه لا يجد مناصًا من ذلك. في القادم من الأيام سيدوِّن بعض الأفكار القصيرة عن الشهور الأولى من خطبته.

بعد ذلك، يحتوي الدفتر الثاني على جمل قليلة متفرقة، تسيل مُبعثرة في شيء عن الليل والذعر، لقد انحل الحبر فيما يشبه بقعًا من الدموع. هناك تتوقف قصة حياته. هناك أيضًا توقفت حياته نفسها بطريقة أو بأخرى.

* * *

شيء ما، في أخلاقيات الجندي القديم المختفية من الوجود، نكاد نعجز عن تصوره، نحن الذين نعاصر التفجيرات الإرهابية والألعاب العنيفة. لقد حدث شرخ في أخلاق العنف. كان جيل الجنود البلجيكيين الذين دُفع بهم إلى أفواه المدافع الألمانية المرعبة في السنة الأولى من سنوات الحرب، قد نشأ على المبادئ الأخلاقية السامية الخاصة بالقرن التاسع عشر، من كبرياء وشرف ومثاليات ساذجة. كانت أخلاقهم العسكرية تشتمل على الفضائل بالدرجة الأولى: الشجاعة، الانضباط الذاتي، حب السير العسكري اليومي، احترام الطبيعة والإنسان، الأمانة، الكرامة، الاستعداد للقتال رجلًا في مواجهة رجل. كانوا يقرأون هذه الأخلاقيات بصوت عالٍ من كتب صغيرة يحملونها معهم، كتب أدبية أيضًا، تتضمن حتى الأشعار في أغلب الأحيان، وإن بدت طنانة إلى حد بعيد. الورع، الاشمئزاز المطلق من الاعتداءات الجنسية، الاعتدال في تعاطي الكحول وحتى الامتناع الكامل عنه. كان يجب على العسكري أن يكون قدوة للمدنيين الذين من المفترض أن يحميهم.

لقيت هذه الفضائل القديمة كلها مصرعها في جحيم الخنادق في أثناء الحرب العالمية الأولى. كانوا يتركون الجنود يشربون حد الثمالة عن قصد قبل أن يدفعوهم إلى خط النار (ذكر هذا الأمر من المحرمات الكبيرة عند المؤرخين الوطنيين، ولكن حكايات جدي لا يمكن أن تكذب)؛ كلما اقتربت الحرب من نهايتها، ازداد انتشار ما سمَّاه جدي إن جاز التعبير بملاهي «الهرج والمرج» السرية، حيث كان الجنود يشجَّعون على إشباع رغباتهم الجنسية المسببة للإحباط بأساليب لم تكن تنطوي دائمًا على الرقة، واقع جديد بحد ذاته، في هذا الشكل الممنهج. غيَّرت الأعمال الوحشية والمذابح الجماعية المبادئ الأخلاقية لهذا الجيل، وكذلك نظرته إلى الحياة، وعقليته، وقيمه المتعلقة بالشرف تغيرًا جذريًا. لم يبقَ من ساحات المعارك العابقة برائحة العشب المسحوق تحت الأقدام، الجنود الذين يلقون التحية العسكرية حتى

في نزعهم الأخير، المشاهد الريفية الزاخرة بالهضاب والأشجار المجسَّدة في لوحات القرن الثامن عشر العسكرية، سوى دمار فكري مخنوق بغاز الخردل، حقول تعج بالأشلاء البشرية، بالكائن الإنساني من الطراز القديم الذي أُبيد عمليًّا عن بكرة أبيه.

عاد الفلامنديون مناصرو الملك إلى بيوتهم، متأذين نفسيًّا وجسديًّا، ورغم أن دخول الملك «ألبرت الأول» إلى مدينة بروكسل في نهاية ١٩١٨ بموكب عسكري بدا مجللًا بالنصر للوهلة الأولى، فإن العديد من الجنود العائدين كانوا يشعرون في أعماقهم بالإرهاق والخذلان، إلى جانب شعورهم بالارتياح لحلول السلام على البلد المدمَّر. لم يكن بمقدور بعضهم إظهار حب الوطن المطلوب في تلك المناسبة إلا بشق الأنفس. عثرت في درج الطاولة الصغيرة القديمة الخاصة بجدي على ملف صغير يتضمن اثنتي عشرة بطاقة بريدية، صورًا فوتوغرافية من تصوير «إس. بولاك» المنحدر من بروكسل. كُتبت كلمات فرنسية منمقة على الظرف البسيط المصنوع من الورق المقوى: «الموكب التاريخي للملك «ألبرت» وجيوش الحلفاء في أثناء العودة المجللة بالنصر إلى بروكسل، في ٢٢ نوفمبر ١٩١٨»؛ ولكن حتى في ذلك الوقت كان حب الوطن قد اكتسب مذاقًا غريبًا. كانت القنابل قد قصفت العيش بانسجام مع المثاليات السامية وحولته إلى أشلاء، فالحقول الفلامندية الغربية كانت منثورة ببقايا الأفكار والرومانسيات الساذجة. كان هناك عرض موسيقي بالتعاون «مع المفوضية الأمريكية»، صورة عن استقبال «وجهاء القوم»، حشد من الرجال المجللين بعباءات «التوجا» الواقفين حول الملك على درجات السلم، صورة عن موكب السلاح المدفعي الأمريكي، استعراض «فرقة الصيادين» البلجيكيين المسلحين ببنادق «الكاربين»، الطابور العسكري براية إيزر، جوقة موسيقية إسكوتلاندية، فرقة آلات نفخ فرنسية، العودة المهيبة لعمدة المدينة البطل «أدولف ماكس» إلى بروكسل، موكب العائلة المالكة، وأخيرًا صورة جماهير محتشدة هائجة. لكن كان هناك

شيء قد انكسر في مكان ما، وهذا ما كان يعرفه الجنود الذين يراقبون بصمت ولا يشاركون في الهتاف: تقوَّضت الحميمية في الأجواء الأوروبية إلى الأبد. ما كان يهب إلى الداخل عبر الفجوات الجهنمية التي أحدثتها الحرب في الإنسانية، إنما حرارة الخواء الأخلاقي القادمة من الأرض الخراب التي أصبح من شبه المستحيل نثرها ببذور مثاليات جديدة، إذ اتضح مثل عين الشمس إلى أي مدى بلغ إضلال الناس بالمثاليات القديمة. كانت السياسة الجديدة التي في طريقها إلى الاشتعال بقدرة تفوق سابقتها في الدمار هي سياسة الانتقام، الضغينة، الحقد، وتصفية الحسابات. لكن الجندي القديم ولَّى إلى غير رجعة، الجندي الذي كان يجعل من سيره العسكري قضية شرف، الذي تعلم المبارزة بالسيف كأنما يتعلم رقص الباليه، الذي كان، على بلاهة الأمر، ينحني أمام عدوه انحناء خفيفًا قبل أن يطعنه بالسيف. ضاع جزء من الإنسانية على الطراز القديم في قذارة الخنادق، في سحابات غاز الخردل الفتاك وعمليات الانتقام السادية التي مارسها الألمان بحق المدنيين العزَّل في كل مكان بشكل ممنهج، وعندما صرَّح كاتب ألماني مسالم في أثناء حروب البلقان في أواخر ذلك القرن نفسه بأن أعمال العنف بلغت ذلك المبلغ من الفظاعة لأن الأخلاق الحربية لم تعد تعرف الشرف، لأنه لم يعد هناك احترام إنساني للعدو، لأن القتال لم يعد يتسم بالأسلوب والذوق، أظهر بتصريحه ذاك جانبًا يسيرًا من الإحساس بالأسلوب الذي فقدته أوروبا. شنت الصحافة هجومًا مميتًا على الكاتب، مدعية بأنه يعاني الحنين إلى أمور غير صائبة.

بقي ذلك الطراز القديم المؤثر يلازم جدي طوال حياته، فقد كان منطبعًا في أعماق كيانه؛ ولكن الشكوك التي انتابته فجأة في السنوات اللاحقة، وحالة الجنون الارتيابي في سنوات الخمسينيات، ونوبات الانفعال والغضب التي لم تكن موجهة إلى أحد على وجه الخصوص، من دون أي سبب واضح ـ ربما موجهة إلى براءته المفقودة أكثر من أي شيء آخر ـ

كانت تحكي لنا مجلدات صامتة، ساكنة، مريرة، نحن الذين كنا نعيش معه تحت سقف واحد.

* * *

بعد أن مضت عدة سنوات على زواج والدته من زوجها الثاني، انتقلوا إلى بيت في شارع «ختنبروخه»، ليس بعيدًا عما يُعرف بـ«فايفهوك»، حيث تلتقي خمسة اتجاهات في هذه النقطة: الاتجاه الأول يؤدي إلى جذوره، عبر جسر «ختنبروخه» على نهر «سخيلده»، إلى المكان الذي تنحدر منه والدته؛ الاتجاه الثاني يؤدي إلى فن الرسم، إلى شارع «برينس ألبرت» حيث يقيم صديقه الرسام «أدولف باينز»؛ الاتجاه الثالث يؤدي إلى ذكرياته: عبر شارع «ختنبروخه» صوب طريق «ستيين» المتجه إلى تيرموند ومن هناك إلى «دامبورت»، المكان الذي قضى فيه طفولته المبكرة؛ الاتجاه الرابع يؤدي إلى مستقبله: شارع «دستل بيرخن»، حيث بنى في زمن لاحق بيتًا هناك على ضفة «سخيلده»؛ أما الاتجاه الأخير فيؤدي إلى الحب: شارع «أنيمرز»، المتقاطع مع شارع «ختنبروخه»، حيث جاء تاجر البطاطس والقمح، السيد «خايس» من قرية «سانت دنايس بوكل» وسكن فيه.

كان يرى من نافذته البنت الصغرى كل يوم وهي تروح وتجيء في مخزن السلع القائم في الفناء الداخلي: مشيتها الرزينة، نظراتهما التي يلتقي بعضها بعضًا. ذات مساء استجمع شجاعته، سار في انعطاف الشارع باتجاه منزل آل «خايس» ورن جرس بابهم. دعوه إلى الدخول. بعد مضي ساعة خرج معها من بيتها، اصطحبها إلى بيته وقدَّمها لوالدته:

ـ أمي، هذه «ماريا إميليا».

صمت طويل. غصة في حلقه. أخذت المرأتان ذواتا الشعر الأسود والعينين الشاحبتين تحدق إحداهما في الأخرى بنظرة ساخرة، تبدو إحداهما نسخة شابة من الأخرى. قالت والدته في آخر الأمر:

ـ حسنًا ما فعلت يا «أوربان».

وشدَّت على يده. بادرت الفتاة إلى معانقة المرأة المبتسمة بجمود.

ـ هل تريدين فنجانًا من الحليب يا آنسة؟

ـ لا، شكرًا. هذا لطف منك.

صمت. أصبح منذ ذلك اليوم يزور بيت حميه كل يوم، وقد أنزله التاجر من نفسه منزلة الابن.

بدأت أولى دور السينما تفتح أبوابها في خنت. في المساء يذهب مع خطيبته المرموقة كي يشاهد النشرة الإخبارية في ذلك الزمان، مشاهد معروضة على شاشات يميل لونها إلى الرمادي ترمز إلى عصر جديد بالنسبة إليهما. يحبها بجنون. يريد أن يشتري سيارة من أجل خاطرها، «فيات» موديل ١٩١٩، نية غريبة بالنسبة إلى رجل في وضعه المادي المتواضع. تبدو والدته والفتاة الشابة مثل أختين، إحداهما كبرى والأخرى صغرى. تبتعد فظاعات الحرب عن تفكيره بعض الشيء، رغم ما يراوده من نوبات خوف، وضيق نفس، وكوابيس يستيقظ منها لاهثًا وغارقًا في العرق. لم يكن هناك إرشاد نفسي لتخطي الصدمات في ذلك الزمن؛ يكظم مشاعره ويُطمئِن والدته عندما تقلق عليه وتسأله عن حاله. يُهدئه الحب. تختفي ميوله إلى التزهد، التي بدت متأصلة في نفسه، إلى حد كبير، لكنه لا يزال يحطم أصابعه من كثرة الصلاة في أيام الآحاد، بينما يجلس أمام المذبح الجانبي لـ«العذراء سيدة الأحزان السبعة».

يُطلع «ماريا إميليا خايس» الجميلة، البالغة خمسة وعشرين ربيعًا في تلك اللحظة ـ يبلغ هو نفسه السابعة والعشرين ـ على جداريات والده، المرسومة بتقنية «الفريسكو» وبغيرها، يخبرها عن اللوحة التي رآها في ليفربول. يفضفض لها عن مكنونات نفسه، لا شيء يمكن أن يفرق بينهما. يبدو كما لو أن الحب الذي شعر به والده المتوفى عن عمر مبكر حيال والدته يتكرر في قامة هذه الفتاة الشابة الجميلة الأبيَّة النفس. إنها فكرة تبث الطمأنينة والتوازن في نفسه، يحملها على أكف الراحة، تتلاشى فظاعات

الحرب، يشعر بالسعادة رغم كل شيء. يخططان لحفلة الزفاف، يعمل في الآونة الأخيرة في ورشات شركة السكك الحديدية في طريق «بروسلزه ستيين» في بلدة «ليدي بيرخ»، ويلتحق من جديد بالدروس في أكاديمية الرسم. يعدها بأن يرسمها إذا ما وقفت أمامه.

* * *

أجد التالي في مذكراته:

التقيت فتاة سماوية أستطيع أن أقترن بها وأنسى الفظاعة. قلت لها وغنيت:

تنفسي، تنهدي / ارفعي صدركِ / كوني حبيبتي.

وهلمَّ جرًا.

نذهب للتسوق معًا. ما أحبذه أكثر هو الذهاب معها إلى المرج ومراقبة الأمهار وهي تطفر وتثب برشاقة. في أيام الآحاد نذهب إلى صالة الرقص «الفولك» ويرقص أحدنا مع الآخر، وأقول لها عندئذ إنها تشبه تلك الأمهار في المرج.

عندما تصاب «ماريا» بوعكة صحية، أذهب إليها بكتب «كورتس مالر»، لكنها تقول إنها تفضل قراءة شيء آخر ثم تضحك وتعانقني باندفاع. يراودني القلق على صحتها، إنها شاحبة شحوب تمثال من المرمر، لكن خديها متوهجان، وروحها مرحة على الدوام. تقول لي:

ـ شجاعة، شجاعة، يا جنديَّ الصغير، سنتزوج في الربيع.

* * *

إنه عام ١٩١٩. تجري الإنفلونزا الإسبانية عبر أوروبا المنهَكة من الحرب، الفيروس الذي يُزعم أن الجنود الأمريكيين قد جلبوه معهم إلى القارة العجوز، وما يدعو للسخرية هو أنه ينتشر ببالغ السرعة بسبب التجمعات الكبيرة التي تُنظم في أرجاء القارة كلها للاحتفال بنهاية الحرب. يقضي الفيروس على مائة مليون شخص في أنحاء الكرة الأرضية كلها، عدد أكبر من عدد الضحايا الذين قضوا في الحرب الفظيعة التي صارت وراء

الظهر للتو. الغريب هو أن الإنفلونزا الإسبانية أصابت البالغين الشباب بشكل أساسي، ويخشى جدي في لحظة معينة أن تكون العدوى قد انتقلت إليه. إنه يسعل، ويعاني الحمى وألمًا في الحنجرة؛ أعراض المرض الأولية. يضطر إلى الرقود في الفراش، يترقب الجميع في خوف، لكنه يتعافى بعد مضي أسبوع. ثم يأتي دور حبيبته الجميلة «ماريا إميليا» التي تمرض قليلًا، تبدو شاحبة وتشعر بنفسها منهكة؛ تعاني الدوار وانخفاض ضغط الدم. ذات يوم يُغمى عليها بضع لحظات، بينما يخرجان من دار السينما؛ يسندها إلى أن تستعيد وعيها. تقول:

ـ لا شيء، حدث ذلك بسبب مشاهد الحرب التي رأيتها في النشرة الإخبارية، لم أفكر من قبل بالظروف الصعبة التي مررتَ بها.

تشعر في يوم الأحد التالي بالإعياء، بينما يسيران الهوينى بين الأزهار في ساحة «كاوتر»، يذهب بها إلى البيت، تضطر أن ترقد في الفراش على الفور. بعد بضعة أيام تسعل بشكل فظيع، وتستفرغ كل ما تأكله. يضنيها المرض، تذوي على مرأى منه، يجلس كل مساء إلى جانب سريرها ويمسك يديها بين يديه. يتكلمان عن مستقبلهما بنبرة قلقة. يلم بها أحد المضاعفات: تصاب «ماريا إميليا» بالتهاب رئوي. لم يكن هناك شيء في متناول اليد في ذلك الزمن يستطيع التخفيف من معاناتها. اكتُشف البنسلين وأول المضادات الحيوية في ١٩٢٨، عُثر على الكورتيزون في قشرة الغدة الكظرية لأول مرة عام ١٩٣٥، لم يعرف «الفينوتيرول»، موسِّع القصبات الهوائية، الرواج إلا في أواخر القرن العشرين. يرى حبيبته الأبيَّة تتحول خلال بضعة أسابيع إلى خيال ضامر لا يتوقف عن السعال، وعندما تصاب بنوبات ضيق التنفس، وتلهث من أجل جرعة من الهواء مثلما رأى أباه يفعل ذات يوم، يظن أنه موشك على الجنون. يشخِّص الطبيب أن الماء متجمع في رئتيها. انعطاف قاتل.

تقول له ذات يوم:

ـ أعيد إليك حريتك، لن يكون لك مستقبل معي.

يتوسل إليها:

-أرجوكِ يا «ماريا»، لا تقولي مثل هذا الشيء بحق الرب، عندكِ حمى، هذا كل شيء.

يأخذ يديها بين يديه. تثقبه بعينيها الشاحبتين الفريدتين برهة تبلغ من الطول أنه يتجمد في مكانه، يشعر بأنه يمتلئ بالفظاعة التي اعتقد أنه تركها وراءه منذ زمن الحرب. يشعر بالغثيان، يصاب بالدوار، يزدرد ريقه، ويلقي بنفسه عليها، غارقًا بوجهه في شعرها الأسود المرسَل. تبقى هادئة في أثناء بكائه اليائس، تحدق بنظرة غائبة في الفراغ وتمرر أصابعها عبر شعره.

لا بد أن نهايتها كانت مروِّعة، لم يكونوا يتحدثون معي عنها إلا في غياب جدي. تسبَّب الماء في تورم رئتيها إلى درجة أن قلبها تسطح عمليًا من جراء الضغط، الأمر الذي يسبب آلامًا لا تُحتمل حسبما يُقال. كانت في أيامها الأخيرة تتوسل أن يأخذها الموت، وعادت تؤكد لجدي في ساعاتها الأخيرة أنها «تعفيه من التزاماته نحوها»؛ كلمات كانت لا تزال تبكيه بعد خمسين سنة، حسبما أخبروني. ماتت بين ذراعيه وهي تنتفض من الألم، الذي ازداد بشاعة من جراء الضغط المتزايد على قلبها؛ غابت عن الوعي وبقيت هامدة بين ذراعيه إلى أن لفظت نفسها الأخير.

لم تكن ثمة كلمات تستطيع التعبير عن عمق حزنه. فكر بالانتحار، رمت والدته المسدس الذي كان بحوزته من أيام الحرب في نهر «سخيلده». عاوده المرض، وتمنى لو تأخذه الإنفلونزا الإسبانية هو أيضًا «لأنضم إليها، وإلى سيدتنا العذراء، ووالدنا المتوفى». لكنه لم يمت. كان متين البنية مثل قط متشرِّد، اكتسب صلابة من العمل في صب الحديد، من الفقر والحرب والحرمان، واستمر في العيش رغم إرادته، مثل نبتة في صخرة. كان مسيحيًا شديد التدين في آخر الأمر ليُقدم على الانتحار، إذ يجب على الإنسان أن يرضى بالقدر الذي يقضي به الرب. لم تكن صورة «ماريا إميليا» موجودة على بطاقة النعي، بل صورة المسيح المصلوب، قلب يسوع الأقدس الطيب

ذاك، وقد أوصت هي نفسها بكتابة الكلمات المواسية له في آخر يوم كانت في كامل وعيها: «من أجلك، يا حبيب قلبي، يا من تمنيت أن أؤسس معه بيتًا سعيدًا، أتوسل إلى الله القدير أن يلهمك السلوان في محنتك».

* * *

كان والداها، اللذان ربطتهما علاقة صداقة مع والدته في تلك الأثناء، لا يزالان يأتيان لزيارتهم على فترات منتظمة. يصطحبان دائمًا ابنتهما الكبرى، الوحيدة بعد موت أختها، «جابرييله» الخجول الصموت، الوردة الموضوعة على الرف، التي جاوزت الثلاثين من العمر ومن ثَم فإنها عانس، كما كان الناس يقولون في ذلك الزمن من دون أي رحمة. بعد مضي بضعة أشهر، استدعى أبوها «خايس» جدي، وسأله بإلحاح أن «أوربابن» الفاضل لا ينوي التخلي عن العائلة، أليس كذلك؟ فهم جدي الرسالة. استجمع شجاعته، طلب مهلة أسبوع كي يفكر في الموضوع، وفعل الجندي الذي بداخله ما فعله على الدوام: قال نعم، نزولًا عند الطلب.

ـ أمرك، سيدي القائد.

* * *

هكذا تزوج الرقيب أول «أوربابن جوزيف إميل مارتين» عام ١٩٢٠، المحارب القديم في الحرب العالمية الأولى المزين بالنياشين، المقلَّد ثلاث مرات بوسام الملك «ليوبولد»، مرة بوسام الصليب ذي النخلات الثلاث، ومرة بالوسام الملكي ذي النخلة الواحدة، بالإضافة إلى صليب الفرسان على إنجازاته الاستثنائية، الزينة العسكرية المزوَّدة بشريط، صليب الحرب بثلاث نخلات وأسديْن، وسام إيزر بلون وسام الملك «ليوبولد»، وكذلك جوائز وأوسمة أخرى ـ هكذا تزوج، في عمر يناهز الثلاثين، بـ«جابرييله خايس» الخجول التي تكبره بثلاث سنوات، والتي تبقى زوجته ما يقارب الأربعين سنة ويكنُّ لها مودة صادقة طوال حياته من أجل أن يبقى منسجمًا مع أسلوبه.

في عيد جميع القديسين وتذكار الموتى المؤمنين، يمّمان وجهيهما صوب قبر «ماريا إميليا»، بصرف النظر عن حالة الطقس، ويجبر زوجته على تلاوة الصلاة الربانيَّة ساعات طويلة من أجل أختها الصغرى المتوفاة. اكتسبت صلاته ملامح تبجيلية، أصبحت «العذراء سيدة الأحزان السبعة» تمثل حبيبته المتوفاة «ماريا إميليا». كان سماع اسم «ماريا» في المقطوعة الموسيقية «ستابات ماتر» لـ«دومينيكو سكارلاتي» قد وافاه ذات مرة بنوبة ضيق نفس بلغت من الشدة أنهم اضطروا أن يسعفوه بإبرة كورتيزون في الحال. كنا حينذاك في مرحلة متقدمة في سنوات الخمسينيات، في السنوات التي أُدخل فيها إلى مستشفى الأمراض النفسية. لأن صورتها لم تكن موجودة على بطاقة النعي المعلنة عن جنازتها، مضت فترة طويلة جدًّا وأنا لا أستطيع أن أتصور كيف كان شكلها على وجه الدقة، على الرغم من القصص التي سمعتها عنها مرارًا وتكرارًا، إذ إن اللغة مهما بلغت في قدرتها على وصف ملامح شخص، لا تستطيع أن تمنحه شخصية ملموسة.

عندما وُلدت ابنته، والدتي، أصرَّ أن يكون اسمها هي أيضًا «ماريا إميليا» - لم تستطع «جابريله» إلا أن تقول نعم، إذ ما الذي يمكن أن يمنعها من تكريم أختها المتوفاة التي كانت أفضل، وأذكى، وأكثر وسامة وروعة في كل شيء؟ قبل سنوات عديدة صرَّح لي والدي في حديث خاص بأن «ماريا إميليا خايس» كانت امرأة تحب الحياة من دون شك، مثل والدتي تمامًا، وأفهمني بوضوح ما الذي يعنيه بذلك؛ أعلم أن العلاقة الزوجية بين والدي ووالدتي كانت زاخرة بوصال جسدي وحب دائم، ولعل جدي كان يرى هذا الأمر في حبيبته «ماريا إميليا». عوضًا عن ذلك أفنى عمره إلى جانب امرأة طيبة القلب لكنها محرومة من الهيام، تنام في السرير بسترة واقية من المطر، إذ إن زوجها تراوده تلك الميول الحيوانية في بعض الأحيان ويحاول تحت سيطرة نزوته المتهورة أن يعانقها. يكاد أفراد العائلة يجزمون بأنه لم يكن له تواصل جنسي مع هذه المرأة سوى بضع مرات فحسب؛ تجاربه الوحيدة في

الحب الجسدي، والسؤال الذي يطرح نفسه ما مدى النقصان الذي انطوت عليه تلك التجارب. إحدى الأساطير التي يتداولونها هي أنها هرعت إلى والدته بعد أن حبلت، وقالت إنها من الضروري أن تضبط ابنها، إذ لم يعد هناك أي داعٍ لممارسة تلك القذارة بعد أن حبلت منه.

ما تبقى هو سكوت، خشوع، صلاة أمام ما لا يُحصى من مذابح الأم العذراء، بطاقات النعي، نسخ اللوحات المنحدرة من القرن السابع عشر المجسِّدة «فينوس»، «أفروديت»، «سالومي»، «ماجا وديانا»، الأم العذراء، النساء الرهيفات بالأبيض والأزرق، الفتيات الباديات في لوحات «جان أوغست دومينيك إنجر»، الآنسات المرسومات بإتقان، حوريات الغاب وجنيات الريف، الدهان الزيتي، الفن والتزهد، الخطيئة والعقاب، الوعي بالإثم والندم، الحزن والترفع ـ أيام الآحاد اللانهائية الهادئة الشبيهة بذلك الأحد الذي ضبطته فيه بالدموع في عينيه، بينما يحدق في نسخة «فينوس روكبي» لـ«فيلاثكيث». الجسد الحزين وأسطورته الشخصية. لعل من أكبر سخريات التاريخ أن القدر ابتلاه من هذه الناحية بنفس ما ابتلى به زوج والدته ـ لا بد أن هذا الأمر قد أثقل قلب والدته بمشاعر متناقضة على كل حال. كنت أسمع في البيت مرة بعد مرة أن الإنسان يجب أن يرضى بالقدر الذي ابتلاه به الرب الرحيم. مهما يكن من أمر، كانت «ماريا إميليا»، والدتي، المرأة الحنون المرحة التي هي والدتي، تأسى بصمت على والدها في بعض الأحيان، تحني رأسها وتقول: «ربما كان ينبغي أن أُدعى باسم آخر، ربما كان ذلك سيبعث بعضًا من الطمأنينة في نفسه».

يبقى مشهد الزوجين العجوزين وهما جالسان بسلام وصفاء أحدهما إلى جانب الآخر، بأيدٍ متشابكة، منطبعًا على شبكية عيني إلى أبد الآبدين. إنها ظهيرة يوم سبت، يهمَّان بالذهاب معًا إلى المدينة. لقد وضعت وشاحها الأسود على رأسها وأسدلته على كتفيها، فوق سترتها رمادية اللون، الأمر

الذي يناسب ملامحها الصارمة، أما هو فيجلس بظهر مستقيم، وسيم الهيئة في بدلته كحلية اللون، يرمقها بنظرته الفاحصة المتقدة ويقول:

ـ تبدين بمظهر لائق يا «جابرييله»، هيا، فلنذهب.

تنهض واقفة بضحكة شجية وتقول:

ـ يا لك من فاتن يا «أوربابن»!

يغلقان الباب وراءهما. يخيِّم السكون على البيت.

لقد تخلى عن فكرة قيادة السيارة، لم يعد يرغب في تعلُّم قيادتها. كانت «جابرييله» تعارض ذلك، تضيف أنه يبلغ من التوتر ما لا يسمح له بفعل مثل هذا الشيء.

* * *

ماذا يعني، في واقع الأمر، أن تمضي حياتك كلها إلى جانب أخت حبك الكبير؟ بماذا كان يشعر عندما يرى ملامح «ماريا إميليا» المتوهجة في «جابرييله» الخجول، المرأة التي ترفض أن يعانقها؟ هل بقي معها ليكون قريبًا من حبه الكبير؟ أم أن بعضًا من ملامحها التي لا بد أنها كانت تتجلى في القامة الأخرى مرة بعد مرة، تسبِّب له العذاب، الذي كان ينبغي له أن يتفاداه مهما كلفه ذلك؟ ألا يرتكز وهم الحب على مبدأ أن الحبيب لا يُعوَّض ولا يُضاهى؟ ألا تشكل النسخة شبه المطابقة للحبيب، وما يرافقها من إحساس بأنها تعوز القليل فقط حتى تتطابق تطابقًا كاملًا، طعنة في مفهوم شخصية الحبيب وفي الصميم أيضًا؟ ألا يبلغ عذاب المرأة الأخرى قدرًا لا يُحتمل، وهي تحس يومًا بعد يوم بهذا الفرق في الشبه الذي لا يرقى إلى التطابق؟ أليس من المحتمل أن نفور جدتي من زوجها في المسائل الحميمية قد تأتّى من حقيقة أنها كانت تحس بهذا الأمر من دون كلام، تدرك مغزاه، تعاني تحت وطأته وتشعر بالإهانة منه؟ ألم يكن يبحث في طلبه الوصال منها عن الأخرى التي في خياله؟ ألم يكن يرتكب شكلًا من أشكال الزنى في واقع الأمر عندما يريد معانقة زوجته، ويتلقى صدًّا منها بما يبعث على

الأسى مرة بعد مرة. ألم يكن هذا تعذيبًا إضافيًّا يخضع له، هذه المرة طوال حياته؟ كيف أمكن أن يتحول هيامه بـ«ماريا إميليا» المتوهجة إلى ارتباط عميق بـ«جابرييله» المتمنعة الانطوائية؟

لا أعلم ما يكفي عن علم الأعصاب كي أسبر ما يحدث على وجه الدقة عندما تزلزلك فجأة قامة معينة، نظرة محددة، طريقة تصرف، شيء يجعلك ترى شخصًا ما فريدًا من نوعه. أظن أن أشياء كثيرة في غاية التعقيد تحدث معًا في الآن ذاته، نوعًا من انفجار متشارك العناصر يعطيك انطباعًا بأن هذا الشخص منقطع النظير، الشعور بأن هذا كله من دون أي نقصان قد اكتسب معنى وجدوى على الفور ومن دون أي شرط. العاشق يرى رموزًا في أكثر الأشياء بداهة. أعتقد أن الشيء الأكثر تعقيدًا هو الانسجام بين الهيئة الجسدية التي يظهر بها المعشوق والتأثيرات العاطفية والنفسية المتشابكة التي يتركها على دماغ العاشق. هناك عنصر ثالث في حالة جدي: الشبه في المظهر والشخصية بين والدته المعبودة وحبه الكبير. أم كان يتخيل هذا الشبه إلى حد ما؟ ولكن أليس هناك شهود من كبار السن في العائلة ممن يتذكرون أنها كانت فعلًا تشبه والدته؟





أمضى جدي حياته في هذا المربع المشكَّل من النساء الأربع؛ والدته، حبيبته المتوفاة، أختها الكبرى، وابنته ذات الاسم القاتل. كان الطريق الوحيد خارج هذا المربع يؤدي إلى عالم الرسم الخيالي ـ القامات المثالية الفتية إلى الأبد في لوحات «جورجوني» و«رافائيل»، المرأة الشابة في لوحة «بالما إيل فيكيو» الرائعة أو «ديانا مع كاليستو» العاريتين في لوحته الأخرى، «فينوس أوربينو» لـ«تيتسيانو»، ما لا يُحصى من النساء الشابات المثيرات في جداريات «جيوفاني باتيستا تيبولو»، و«أوداليسك» بجذعها المشدود لـ«إنجر» ـ هؤلاء كن النساء الأخريات، لكنني وجدت ذوات الشعر الداكن في المقام الأول، بين النسخ الوفيرة التي شقها من كتب الرسم ووضعها بين صفحات كتبه، نساء مغناجات من القرون الماضية في مشاهد أسطورية، أضف إلى ذلك صور نساء برجوازيات شامخات، تضع بعضهن يدًا على المشدِّ المنسوج من القطيفة الموشاة بالذهب أو الأصابع على الجيد المضاء بنور رهيف، وقد ظهرت من تحت الشعر المضموم لؤلؤة بسيطة في الأذن الصغيرة التي أديرت إلى المشاهد.

* * *

لم أجد سوى كتابات قليلة عن سنوات العشرينيات. في البداية يسكنان في مسكن صغير «وراء النهر». في ١٩٢٩، السنة التي حدث فيها انهيار في سوق الأوراق المالية، يستطيع بمساعدة مالية من بيت حميه أن يشتري قطعة أرض رفيعة وطويلة على الضفة الأخرى من «سخيلده»، بمحاذاة ممر مهجور لسحب السفن. الموقع زهيد الثمن، مستودع قمامة قديم تحت الأرض من زمن ما قبل الحرب. لم تكن معالجة التربة تخطر في بال الناس في ذلك الوقت. بُنيت الفيلَّا الوادعة الصغيرة، المزوَّدة بسطح من طراز فيلَّات مقاطعة «زيلاند» الهولندية، على أرض يمكن أن تشكل موقعًا مثاليًّا لدراسة الآثار العائدة إلى أواخر القرن التاسع عشر. أتذكر أنني استخرجت مرارًا هياكل عظمية لحيوانات صغيرة من تحت التربة السوداء القاحلة. كنت أضع العظام

الصغيرة في صفوف بعضها بجانب بعضها الآخر في الخيمة البسيطة التي صنعها لي جدي من قماش قنب خشن «لم يزل موجودًا من أيام الحرب». أظن أنه كان يقصد الحرب العالمية الثانية.

ولدت والدتي في ١٩٢٢. كانت طفلة رهيفة، وإلى ذلك مصابة بالربو مثل والدها وجدها، لكنها مفعمة بالنشاط، مرحة الطبع، نقيض والدتها الصموت في كل شيء، ترقص وتلعب بمرح على الدوام، ذات شعر أشقر متماوج، شخصية مغايرة تمامًا، تزعزع الجو المكبوت في بيت والديها وتعارضه من دون اكتراث بالعواقب. عندما تكبر، تجد نفسها في مواجهة المبادئ الأخلاقية الصارمة لوالديها شديدَي الاحتشام. حينما تعلن في الثالثة عشرة من عمرها أن عادتها الشهرية قد بدأت تجيئها، تتلقى صفعة من والدها بسبب استخدامها لغة غير مهذبة، وحزمة محارم قماشية خاصة بوالدتها الصامتة.

البيت مريح. يقوم المطبخ في القسم الخلفي من البيت، بمضختين يدويتين من المعدن فوق المجلى، واحدة من أجل ماء المطر والأخرى من أجل ماء البئر. يشربون من ماء البئر ـ المسحوب مباشرة من قاع الأرض الذي كان مستودع قمامة في السابق ـ ما طاب لهم أن يشربوا من دون أن يغلوه أولًا. وفوق ذلك تقع البئر بجانب بالوعة القذارة مباشرة، التي تقع بدورها تحت حجرة الفحم المغطاة بالسواد. أتذكر أيام الربيع عندما كان جدي يفرغ البالوعة من محتواها بدلو مثبت إلى عارضة طولها متران. كان يسميه «مجحفة»، مع أن المجحف نوع من أنواع المكاشط في واقع الأمر، حسبما يخبرني القاموس. كان الزبل تُسمَّد به الدوالي، شجيرات الورد وسيف الغراب، السوسن والتوليب، أشجار الخوخ والإجاص، شجيرات ريبس الأحمر وعنب الثعلب. تنبعث منه رائحة حلوة نفاذة، مرتبطة بالربيع والشمس.

* * *

هناك، في ذلك البيت الرومانسي إلى حد ما، القائم على ضفة «سخيلده»، كان ينبغي لجدي أن يعيش في سعادة وهدوء. بقي يعمل في شركة السكك الحديدية حتى منتصف الثلاثينيات، لاحت عليه حينذاك أعراض أول أزمة نفسية. أُجري له فحص طبي، وأُحيل إلى التقاعد في ١٩٣٦، وهو في الخامسة والأربعين من العمر، بسبب علامات تدل على توتر نفسي شديد. عاشوا في فقر. كانت وزارة المالية تصرف له معاشًا منذ ١٩١٨، بعد انتهاء الحرب مباشرة، لأن اسمه مندرج في «سجل المدفوعات المخصصة للحاصلين على أوسمة شرف وطنية»، معاش إعاقة مخصص للجنود قدره مائة وخمسون فرانكًا بلجيكيًا، أي ما يعادل ٣,٧٥ يورو. كان لديه دفتر مدخرات، تُسجل فيه المبالغ بالتفصيل مع تاريخ الدفع؛ مبالغ تتفاوت بين فرانكين وخمسة فرانكات بلجيكية. هناك ملاحظة بالفرنسية إلى جانب المدفوعات الأخيرة المسجلة: «توقف عند خمسمائة وواحد وثمانين فرانكًا وسبعين سنتيمًا، في تاريخ ٢٣/ ١٢/ ١٩١٩، قائد المقر العسكري إف. إف». في ١٧ يناير ١٩٢٢، استلم وثيقة معاش تقاعد بتجديد تسجيله في سجل المدفوعات، تحت رقم ٩٥٤. حُررت الوثيقة في حي «سانت أماندز بيرخ» في خنت، وقد كُتب اسم الحي بالفرنسية. كان معاش الحرب ذاك قد تضاعف أضعافًا مضاعفة في ١٩٣٩، أي بعد سبعة عشر عامًا، لكنه مع ذلك بقي متواضعًا. أجد في وثيقة مصفرَّة اللون، محررة بتاريخ ٩ نوفمبر ١٩٣٩ (أي بعد يوم واحد من محاولة اغتيال «هتلر» في ميونيخ، وقبل خمسين سنة على وجه الدقة من سقوط جدار برلين) حسابًا تفصيليًا عن المعاش السنوي الذي كان يتقاضاه: معاش تقاعد عسكري قدره ١٢٦٩ فرانكًا؛ ما يسمى «مكافأة خطوط الجبهة» قدره ٢٢٤٨ فرانكًا؛ ومدفوع الحاصل على وسام وطني قدره ٧٤٨ فرانكًا، فيكون المجموع الكلي ٤٢٦٥ فرانكًا في السنة، أي ما يعادل ١٠٦ يوروهات. بقي راتب تقاعده العسكري

ضئيلًا إلى ذلك الحد، لأنه لم يحصل على ترقية أعلى من رتبة رقيب أول بسبب إنجازاته في الحرب. ملأه هذا بالمرارة؛ كان يدعي أن الرقباء الوالونيين جميعهم قد ترقَّوا إلى رتبة ملازم بسبب إنجازاتهم، حتى ابن حميه الفلامندي «دافيد خايس» حصل على ترقية، لأنه كان يسكن في والونيا، مع أنه لم يصب بإصابة واحدة على حد قوله، لكنه هو، وعلى الرغم من أوسمته وإصاباته (كان يتحدث أحيانًا عن إصابة رابعة وحتى خامسة، لم يدوِّن عنهما أي شيء في مذكراته) بقي برتبة رقيب، «مثل كثيرين من الشباب الفلامنديين».

لعل هذا كان السبب في أن يصبح من أنصار الحركة الفلامندية. أخذ منذ ذلك الحين يلفظ اسمه الأول باللهجة الفلامندية «أورباَن»، وأيضًا اسم زوجته «جابرييلا» في بعض الأحيان؛ يتشكى أن الشباب الفلامنديين في الخنادق كانوا من أنصار الملكية والوالونيين المتحدثين بالفرنسية من أنصار الجمهورية، لكن العائلة المالكة لم تكافئ الفلامنديين بعد الحرب، بل كافأت المتحدثين بالفرنسية الذين، هكذا يتذمر، صاروا منذ اللحظة التي مُورست فيها هذه العنصرية المشينة، يعتبرون أنفسهم من المصطفَين المكلفين بحماية العائلة المالكة من الفلامنديين. يقول عندئذ: «أعطينا دماءنا، متى نحصل على حقوقنا؟»، مقتبسًا النص الذي كتبه أحد الجنود على حجر الحرب ذائع الصيت في قرية «ميركم»، ويعض على شفته السفلى بامتعاض.

* * *

يجد مواساته في الرسم، لكنه لا يبلغ أبعد من الطبيعة الصامتة، التي يفرط في رسمها بدقة متناهية، إلى درجة تمنعها من اكتساب أي شخصية. هذا التعلق الشديد بإظهار البراعة التقنية هو ما يحرمه من قوة معينة، ربما كانت لتجعل أعماله أكثر اتقادًا. يقشعر من «سيزان» و«فان خوخ» و«المخربشين» الآخرين، فيقول بازدراء: «إنهم يرسمون بالطرف الخلفي من أرياشهم». يرسم صورة مفعمة بالحب لابنته «ماريا»؛ إنها جالسة على كرسي خيزراني

صغير تنظر أمامها، بدمية بين ذراعيها، عيناها الزرقاوان، اللتان ورثتهما عن والدها، تحدقان في اللاشيء الآمن. يبدو أنه رسم كل شعرة فيها، لكن الواقعية، كما يعلم هو نفسه، مسألة تأثير مدروس دراسة جيدة.

* * *

ما يدعو للاستغراب هو أنني لا أجد أي شيء عن وفاة والدته «سيلين» التي كان يحبها حبًّا عظيمًا، لا أرى كلمة واحدة في مذكراته، لا أسمع حكاية واحدة من أفراد العائلة القلائل الذين لا يزالون على قيد الحياة. تموت في سبتمبر ١٩٣١، عندما يكون هو نفسه رجلًا في الأربعين من العمر، على رأس عمله في ورشات المجمَّع الكبير لشركة السكك الحديدية في خنتبروخه، والد بنت تبلغ التاسعة من العمر، متزوجًا بأخت حبه الكبير، مالك بيت قيد البناء على ضفاف «سخيلده». ثمة صورة تتناقلها الأيدي يظهر فيها إلى جانب زوجته الجالسة إلى جانب والدته؛ لعلها آخر صورة لها.



إنها صورة يمكن أن تكون من تصوير «كارتييه بريسون» بسهولة، على الأقل فيما يتعلق بالجو والضبط. إنهم يجلسون في صف، بعضهم إلى جانب بعض: هو، وزوجته «جابرييله» بقبعة عصرية دائرية الحواف من طراز سنوات العشرينيات الأخيرة، وامرأة كبيرة في السن مكتنزة الجسم مدورة الوجه، لا تشبه في أي شيء السيدة الأنيقة التي كانتها في صباه. تبدو «سيلين» أقرب إلى فلاحة مرفّهة متقدمة في العمر، تضع يديها المكتنزتين في حضنها الأسود وينمُّ ظل غامض فوق شفتها العليا عن شعر خفيف، ترتدي هي أيضًا قبعة من تلك القبعات الدائرية التي كانت شائعة في السنوات الأخيرة من «العشرينيات الصاخبة»، تبتسم ابتسامة عريضة في اتجاهه ويبدو أنها في غاية الاستمتاع. يرتدي هو قبعته «الفيدورا»، وحذاءه الأسود، وقميصًا أبيض، وبدلة سوداء بنيشان صغير على طية سترتها، وبطبيعة الحال ربطة العنق الفراشة، التي لا يمكن الاستغناء عنها، المزينة بحاشيتين طويلتين، مع أنهما تبدوان هنا أقصر قليلًا من المعتاد. إنهم يجلسون على منحدر مكتسٍ بالعشب، يظهر وراءهم، في مكان أكثر ارتفاعًا، عشرات الأشخاص المحدقين في شيء لا يمكن رؤيته في الصورة. وجه جدي الذي لا يزال شابًّا يتباين بشكل غريب مع ملابسه التي اعتدت أن أراه فيها في سنواته الأخيرة؛ رجل أربعيني في هذه الملابس السوداء الكالحة، هيئة تشي بشيء عن العالم العاطفي الصارم الذي يعيش فيه. في الزمن الراهن، يظهر الرجل الأربعيني بالمعدل العام في هيئة مختلفة كل الاختلاف: بنطال جينز، قميص بكمين قصيرين، حذاء رياضي، ربما قبعة ذات حافة، المظهر الصبياني الذي ينمُّ عن أننا نجد صعوبة أكبر في أن نودع أوهام الحياة. بينما يبدو على جدي، وهو في تلك الثياب التي كانت الطبقة المتوسطة الصارمة ترتديها في تلك السنوات، أنه استطاع التخلي عن أوهام الصبا بسهولة شبه تلقائية. إنه جالس يحدق في شيء يقع خارج إطار الصورة، أظن أنه منهمك في الكلام، يداه في وضعية غريبة، وكأنه ماسك بين أنامله عصا قائد فرقة موسيقية رفيعة جدًّا،

غير مرئية. تذكرني هذه الصورة بالمشهد الصيفي المنطبع في ذاكرتي على شاطئ أوستنده في ١٩٥٧. أدرك أن مظهره لم يطرأ عليه سوى تغيير بسيط خلال السبع والعشرين سنة الفاصلة بين هذه الصورة وذلك المشهد الصيفي. لقد دوَّن الكلمات التالية بقلم ريشة دقيق على الجهة الخلفية من الصورة:

> كانت والدتي واحدة من المائتين الأوائل الذين حجُّوا إلى برج إيزر حيث مقبرة «ديكس ماوده»: يمكن مشاهدة حضرتها هنا في التجمع الأخير الذي حضرته في موسم ١٩٣٠. أحيا مائتان وخمسون ألفًا من الفلامنديين ذكرى موتاهم في ذلك اليوم.

أتوصل بعد بحث بسيط إلى أن برج إيزر الأصلي، الأصغر في الحجم ـ الذي دمَّر القصف قسمه الأكبر في مارس عام ١٩٤٦، وأُقيم محله البرج الحالي الأكبر حجمًا ـ دُشن مكانًا مقدسًا في ٢٤ أغسطس ١٩٣٠. كان اسم جدي مدوَّنًا على البرج الأصلي ذاك، مع صورة له، ضمن قائمة أبطال معركة إيزر. كان القصف المعروف بأنه «لم يُوضح قَطُّ»، الذي يُزعم أن أعضاء المقاومة البلجيكية نفذوه، بأمر من قيادة الجيش العليا المتحدثة بالفرنسية، انتقامًا من الفلامنديين المتعاونين مع المحتل الألماني في أثناء الحرب العالمية الثانية، قد تسبَّب في محو آثار القائمة بأكملها. عندما أزور برج إيزر، أرى أن المنحدر الوحيد الموجود هناك يقع في محيط البرج القديم مباشرة، هذا يعني أنهم كانوا جالسين في مركز الحفل.

قبل ١٩٢٤، كان الناس يحجون إلى مواقع تذكارية منتشرة حول إيزر، أما بعد ١٩٢٤ فقد أصبحوا يحجون إلى «ديكس ماوده»، المكان الذي التُقطت فيه الصورة المعنية. هذا يعني أن هذه الصورة تشكل وثيقة تاريخية ذات قيمة عن يوم التدشين المعروف، لكنها تشي لي أيضًا بأمر آخر: من الواضح أن والدته كانت واحدة من أسرته الصغيرة إلى درجة أنها من البديهي أن تذهب معهم إلى هذا الطقس المزدحم بالناس. ما يثير الدهشة هو أنه يزعم أن ربع مليون شخص تجمع في مرج «ديكس ماوده» في ذلك اليوم، بينما

تتحدث معظم المصادر عن ستين ألفًا إلى مائة ألف (أظن أنه كان منبهرًا بالتجمع الكبير والطقس المهيب، ولكن مهما يكن من أمر: أي طاقة منعشة معبِّئة كانت تنبعث من طقس مزار إيزر في ذلك الحين في ضوء الحركة الفلامندية ذات التوجه الإنساني، الساعية إلى الارتقاء بالشعب على الطراز القديم، أي طاقة مختلفة ذلك الاختلاف كله عن تلك الطاقة التي انبعثت من الطقس ذاته الموبوء بالنازية الجديدة في الثمانينيات، أو في السنوات الأخرى عندما كان رعاع حزب «التكتل الفلامندي» يأتون ويفسدون الأجواء، لأن رسالة المحاربين القدماء الداعية إلى السلام «يسارية أكثر من اللازم» بما لا يوافق هواهم).

حقيقة أن يكتب جدي كلمة «حضرتها» في إشارة إلى والدته، تنطوي على شيء من المنطق في حالته. ولكن أين ابنته «ماريا» التي تبلغ الثامنة من عمرها في تلك اللحظة؟ هل التقطت الطفلة الصغيرة هذه الصورة، بذلك الجهاز من الطراز القديم ومع ذلك الأكثر تعقيدًا من الأجهزة التي نستخدمها اليوم؟ كان زوج والدته «هنري ده باو» قد مات في ذلك الحين، وفي سبتمبر من السنة التالية ماتت والدته أيضًا؛ شابة بالنسبة إلى معاييرنا الحالية. ما أراه في الصورة مشهد يومي باعث على الاطمئنان، أناس عاديون جالسون على منحدر عشبي، على مسافة تقارب عشرين مترًا من الحشود لأخذ قسط من الراحة. الصورة مبقَّعة عند وجه «جابريله»، لذلك لا أستطيع أن أرى التعبير المرتسم على وجهها بشكل جيد، لكنني أظن أنها تضحك. إنها لا تشبه في أي شيء المرأة العجوز المنطوية على نفسها التي عرفتها جدة لي. تضع ساقيها جميلتَي الشكل إحداهما فوق الأخرى، تلبس حذاء بكعب عالٍ، وتبدو في كامل هندامها مثل أي امرأة عادية، أنيقة الملبس، من الطبقة الوسطى. تبلغ الثالثة والأربعين في ذلك الحين. بلغت «سيلين» الثانية والستين في التاسع من أغسطس، قبل أسبوعين من التقاط هذه الصورة.

ولكن، بالعودة إلى موضوعنا، لا توجد كلمة واحدة عن وفاتها في

مذكراته. لقد ماتت في سنوات الثلاثينيات نفسها التي لم أعثر على أي شيء تقريبًا عنها. «سايلنس»... لعل السكوت عن تلك السنوات ينم بكل شيء عن حياته حينذاك. لعله كان يشعر بالامتنان على رتابة الحياة العادية، بينما يندفع العالم برمته، من دون دراية منه، صوب كارثة جديدة، ويندفع هو صوب صدماته الكهربائية الأولى. لكنني أظن الآن، بما أعرفه، أنه في تلك السنوات أيضًا كان يرسم في الخفاء صورة حلمه الممنوع، لوحة لن أكتشف وجودها إلا بعد سنوات طويلة.

* * *

يمضي الحرب العالمية الثانية في البيت، يعيشون من راتب تقاعده الزهيد. هناك حكايات عن حشود السمك التي ظهرت في مياه «سخيلده» النقية نقاء البلور، بعد سنة ونصف السنة من بداية الحرب، في انتظار أن تلتقطها الأيدي، صيد مدهش كل يوم، لأن عجلة الصناعة المسببة للتلوث توقفت عن الدوران، وهناك حكايات أخرى عن الهدوء والهواء المفيد للصحة لأن المداخن لم تعد تنفث الدخان. أجل، كان عليه أن يمشي كيلومترات عديدة من أجل تحصيل نصف كيلوجرام من السمن، قطعة لحم من بطن الخنزير، بضعة كيلوجرامات من البطاطس أو قليل من الحليب، من أجل ابنته الصغيرة في طور النمو، لكنك لن تموت من جراء ذلك. عاد شيء من الفقر الذي عاشه في صباه وكرر نفسه. ما أستطيع استخلاصه من حكاياته هو أن هذا لم يكن يضنيه. على النقيض، كان توقف العالم يبعث الراحة في نفسه. لا أعلم ما الذي كان يفكر فيه، يشعر به، يقوله، عندما يسمع حكايات عن جبهات القتال، إذ إن هذه الفترة محاطة بالسكوت. ثمة حديث عن عدة مواجهات له مع الجنود الألمان، لأنه كان يعود بعد حظر التجول في المساء ويضطر إلى عرض مشترياته أمامهم: غنيمة ضئيلة من مواد غذائية اشتراها من فلاح في بلدة «لارنه» البعيدة بأسعار باهظة، فيلقي عندئذ تحية عسكرية ويعرِّف بنفسه: ««مارتين»، رقيب أول متقاعد». فيرد العسكري الألماني بتحية

مماثلة، ويتركه يمضي في سبيله. ثمة حديث عن قسائم غذائية، عن خبز رديء، عن الجارة التي تقول، في خضم الحرب، لعسكري ألماني يطلب منها معلومات: «لا أزال أتذكر جيدًا، أيها السيد المحترم، أن السبت حلَّ في يوم الجمعة»، وتصفق الباب في وجه الألماني المذهول.

بعد سنة من بداية الحرب تنفد ألوان الرسم من الأسواق، يندر الورق، وينعدم قماش الرسم. تمضي فترة طويلة وهو يركِّب الألوان بنفسه من المكونات المدَّخرة في الخزانة الجدارية في القسم الخلفي من البيت، ويرسم على ألواح صغيرة من الخشب. عندما تنفد هذه الألوان والألواح أيضًا، يضطر إلى الانتظار إلى ما بعد الحرب كي يستأنف العمل. يعاود الرسم بقلم الفحم، ويصقل مهاراته في «الكياروسكورو».

* * *

أدعى شيء إلى عدم التصديق هو أنه لم يكتشف أنه يرى ألوانًا معينة بطريقة خاطئة إلا في وقت متأخر إلى حد ما. لا بد أن ذلك كان في منتصف الستينيات. داء «الدالتونية»، أو عمى الألوان، داء غريب، ينتج عنه خلل متنوع الأشكال في رؤية تدرجات اللون، لذلك فإن عدد أعراضه يقارب عدد الأشخاص المصابين به. كان جدي مصابًا بعمى ألوان جزئي من نوع شائع، حيث لم يكن يميز بين تدرجات الأحمر والأخضر على وجه الخصوص ـ ليس تدرجات اللونين كلها، إنما بعضها فحسب. كان على سبيل المثال يلاحظ الأخضر الفاقع متقاربًا مع الأحمر الفاقع بطريقة أو بأخرى؛ يكاد توت الروان الناضج شديد الاحمرار لا يختلف في لونه عن الأوراق المتمايلة في رأس الشجيرة، ولا سيما إذا ما سقط الضوء عموديًّا عليها. لا يستطيع تمييز الأخضر الداكن عن الأسود، خاصة في الأسطح اللامعة، مثل سطح السيارات، إلا بصعوبة بالغة. الغريب هو أن لفت انتباهه إلى الأمر يكفي أحيانًا لأن ينظر بشكل أفضل ويقول: «صحيح، هذا ما أراه الآن أنا أيضًا». يتبين أن المرأة تحمل هذا الداء من جيل إلى جيل من دون

أن تصاب به، إلى أن تورثه إلى أحد أبنائها الذكور. لذلك لا بد أنه ورث هذا الداء من طرف والدته. كان عدم قدرته على ملاحظة درجات معينة في اللون يتمخض عن عواقب واسعة التأثير، فحينما يريد تركيب لون من درجة معينة، يفتح ثلاثة أو أربعة أنابيب من ماركة «رمبرانت» ـ الألوان التي لا يمكن أن يخطئ فيها، ببساطة لأن أسماءها موجودة على الأنابيب ـ يضيف قطرة من زيت الكتان إلى كل بقعة لون منها، ثم يبدأ بمزج بعضها مع بعض. هناك تبدأ المشكلة، فقد كان إذا ما مزج الألوان، ابتعد كثيرًا في بعض الأحيان عن درجة اللون الذي يريده من دون أن يلاحظ ذلك، ولأننا لم نكن، نحن الذين نعيش معه، نولي اهتمامًا بالغًا بالنسب الواقعية للألوان التي يرسم بها مشاهد بأحاسيس في منتهى الرقة، كنا نرى أن الإفراط في استخدام اللون البني أو الأحمر في عنصر معين من عناصر الطبيعة على أنه رؤية فنية أو إبداع في تأثير الضوء. لم يعِ حجم هذا الخلل إلا في اليوم الذي كان يرسم فيه إلى جانب زميله، الرسام «أدولف باينز»، في حديقة القلعة في مزار «بيرخن كراوس». لم يكن المزار يبعد كثيرًا عن مسكنه. كانا يذهبان إليه سيرًا على الأقدام ـ سيدان من الطراز القديم يمشيان الهوينى في الدرب المحفف بأشجار الزان الشامخة، وقد تأنق كل منهما في بدلة رسمية، على الرغم من الطقس الحار، في قميص أبيض مع ربطة عنق فراشة، وقبعة على رأسه، يحمل مسند اللوح تحت إبطه ويتدلى صندوق خشبي صغير محتوٍ على أدوات الرسم من كتفه. يحطان رحالهما في مكان مريح في الهواء الطلق، كما لو أنهما من جماعة مدرسة «باربيزون» الفنية في القرن التاسع عشر. في ذلك المكان رسم كلاهما بيتًا ريفيًا قائمًا على هامش الغابة، لكنهما عادا إلى البيت وكل منهما يحمل لوحة مختلفة عن الأخرى كل الاختلاف. لم يكن «باينز» قد استخدم الأسلوب التعبيري وتقنية المنظور الزاوي فحسب، وإنما كان البيت أزرق اللون في لوحة أحدهما، وبنيًا أحمر في لوحة الآخر. منذ تلك اللحظة صار جديَ يرتاب في قدرته البصرية،

وفي إحدى المرات التي كان يرسم فيها لوحة أخرى تجسد منظر البحر وصيادي الجمبري، لاحظ ذات صباح أن لون البحر على اللوحة لا يتوافق مع لونه الطبيعي المائل إلى الخضار، بل اكتسب شيئًا من البني الأحمر، اللعنة. بحر بني اللون، يا إلهي! شاءت المصادفة أن أكون شاهدًا على هذه اللحظة المأساوية. لعن، ذرفت عيناه الدموع، أخذ يضرب اللوحة على طاولته الصغيرة العزيزة على نفسه إلى أن تحطمت، حاول، وهو في غاية الهيجان، أن يمزق قماش الرسمة، فتلطخت يداه بالطلاء الذي لا يزال مبللًا. مسح يديه على مريلته، وقف ينظر إليَّ في ذهول، لا ينبس بكلمة واحدة، لكنه يفح في غضب غير مُجدٍ. رأيت اللوحة التجريدية على سترته القماشية المشكَّلة من مسح يديه عليها، أظن أنني لم أستطع حينذاك أن أسبر بشكل كامل عمق المأساة التي حدثت على مرأى من عينَيَّ. حدث ذلك بعد مضي سنوات على وفاة زوجته، أخمِّن في ١٩٦٢ تقريبًا، إذا ما عددت السنوات عدًّا رجعيًّا، كنت أبلغ الحادية عشرة حينذاك. ماتت «جابريله» في ١٩٥٨. كيف أمكنه ألا يكتشف هذا لتلك الفترة الطويلة كلها؟

منذ تلك اللحظة تغير شيء في أسلوبه الفني، كما لو أنه أخذ يرسم فجأة بطلاقة أكبر وغموض أكثر واكتراث أقل، ولكن من المحتمل أيضًا أنه لم يعد يبصر جيدًا. عاود الهروب إلى ما يبدع فيه، الرسم بقلم الفحم، الذي أتاح له الفرصة أن يعمل بتقنية «السفوماتو» الرائعة. هناك أعداد لا تُحصى من فتيات نصف عاريات قرب ينابيع الغابة، أطياف شبيهة بالحوريات في رياض مظللة توحي بالنقاء البدائي، غيوم كثيفة حالمة وبقع ضوء متلألئة متسربة عبر أوراق صيفية غزيرة على درب يمتد في غابة قلما وطأته الأقدام. كان، في هذه التقنية، بارعًا في استدعاء الجو الريفي الشاعري الحزين. كان يهدي العديد من هذه الأعمال إلى أقربائه وأصدقائه ومعارفه. لم أره قَطُّ يكسب فرانكًا بلجيكيًّا قديمًا واحدًا مما يرسمه بالألوان أو الفحم؛ أظن أن هذا لم يكن ليخطر في باله، وحتى كان يمكن أن يشكل اعتداءً على

إحساسه بالرقي، الذي بقي يبحث عنه في الرسم طوال حياته. لعله أيضًا كان سيعني خيانة لوالده، «فرانسيسكس» رسام الجداريات، الذي عاش فقير الحال دائمًا.

* * *

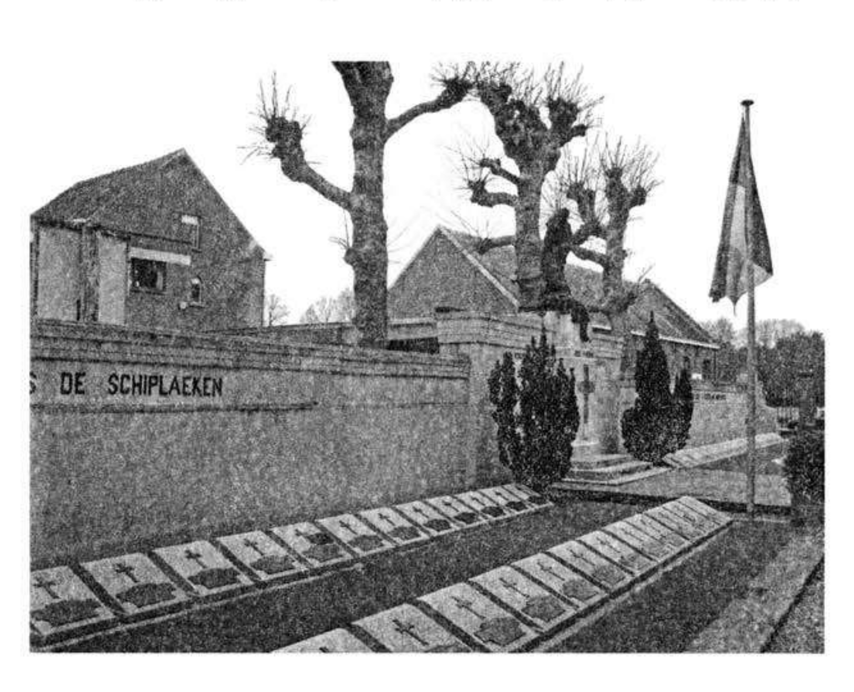
اصطحبني معه إلى «الإكسبو ٥٨» ذات مرة، المعرض العالمي في بروكسل، هو الذي رأى المعرض العالمي في ١٩١٣. ما أتذكره هو البياض؛ مبانٍ بيضاء، مماشٍ بيضاء، طراز معماري جديد، صارخ في أناقته، ساطع في وضوحه، نوافذ كبيرة عصرية، شمس، شمس بيضاء، عالم أبهرني ـ كل شيء أبيض في ذاكرتي. كان ذلك شيئًا مذهلًا بالنسبة إلى جيل لا يزال يعيش في بيوت ذات غرف قديمة شبه مظلمة. بدا معلَم «الأتوميوم» أبيض، بدت الأشجار بيضاء، كان العالم أبيض. حتى لقد كان الخبز أبيض، خبز «الإكسبو» الأبيض. لماذا كان كل شيء ناضحًا بالبياض؟ لعلها نفحات في ذاكرتي من مقصورة أمريكية، أو من مقصورة فرنسية مستقبلية، ما أدراني! الناس وحدهم كانوا متشحين بالسواد، أعلم ذلك علم اليقين. كان الرجال جميعهم يرتدون الأسود، والنساء يرتدين تنانير سوداء وقمصانًا بيضاء، هذا مؤكد، وأنا أسير ويدي في يد جدي المرتدي الأسود، بقبعته السوداء وربطة عنقه الفراشة السوداء. عالم أبيض وأسود. لا شيء آخر. كنت في السابعة من عمري، كان قد فقد زوجته في الربيع. لا بد أنه تجول هناك وهو يشعر بحزن عميق على فقدانها. لا يحضرني أي شيء آخر عن هذا الأمر. أتذكر أنها ماتت في الكرسي الذي رأيتها تحشرج فيه ذات صباح مبكر، كان ذلك في مايو من تلك السنة نفسها ـ في أغسطس يصبح ذلك من الماضي البعيد بالنسبة إلى طفل في السابعة من العمر. الآن فقط، بعد مضي نصف قرن من الزمن، يبدو كل شيء قريبًا بشكل غريب في بعض الأحيان، ذلك العالم بالأسود والأبيض.

* * *

«سخيب لاكن»، يناير ٢٠١٢

لا تزال تبدو وكأنها نابضة بالحياة بعض الشيء على خريطة «جوجل»، أستطيع أن أتصور الغابات التي خيضت فيها المعارك: بينما أحرك المؤشر بين جادتَي «سايشيس» و«بيتهوفن»، بين محل الألبسة «بودي فاشن» وطريق «باترايزن»، مارًّا على المعسكرات الحجرية في الطبيعة الفلامندية المتمدنة، أستطيع أن أستكشف الموقع وأتفحصه، كما لو أنني أملك خريطة عسكرية طوبوغرافية ثلاثية الأبعاد أو أحلِّق في طائرة هليكوبتر من طائرات الجيش فوق الأماكن التي يجب عليَّ استطلاعها. نظرتي المتجولة بالأقمار الصناعية تشبه لعبة من نوع معين، لكنها تبدو أيضًا وكأنها تقرِّب الأشياء إليَّ، طوال ظهيرة مسليَّة. تقع المقبرة موضوع البحث في شارع «بيست»، رائع! لكنني عندما أصل بسيارتي إليها في الواقع، يكون يومًا من تلك الأيام قارسة البرودة عديمة الضوء، التي تعطيك انطباعًا بأن الإنسان في هذا المكان يعيش تحت خرقة مبللة إلى الأبد، بينما يعيش في الأماكن الأخرى من الكرة الأرضية، في البقاع الأوفر حظًّا، تحت زرقة ساطعة لامتناهية. في هذا المكان يبدو كل شيء مسطحًا وعاريًا. تفتقر المباني الجديدة إلى الإبداع، شأنها في ذلك شأن الملعون بلعنة أبدية من أشجار السرو والغار والرقع العشبية الملساء. الطريق الأسمنتي خالٍ من العربات، ما عدا سيارة توصيل طلبات صغيرة وحيدة سائرة على شقوق الطريق في هدير رتيب «دوك دوك. دوك دوك». بينما أجيل نظري فيما حولي، يخرج الأولاد من المدرسة الصغيرة القائمة إلى جانب المقبرة. يلوِّح أحد المعلمين بلوحة مرور إلى الشارع الخالي من السيارات. فجأة، تظهر من كل حدب وصوب سيارات رياضية متعددة الأغراض، عربات فاخرة، حافلات صغيرة، وآباء وأمهات سائرين على الأقدام؛ يأخذون أطفالهم، يحشرونهم في السيارات، يغلقون أبوابها، وينطلقون بها، تختفي إحداها وراء الأخرى عن الأنظار باتجاه أحياء الفيلَّات المنتشرة في الجوار. يسود الهدوء من جديد؛ بوسعك سماع حفيف الرياح

بين الأشجار العارية من الأوراق. إنه برد لاذع. يتدلى العلم إلى جانب بوابة المقبرة مثل طير ميت. ألتقط صورًا للنصب التذكاري؛ حائط طويل كُتب عليه بحروف حديدية سوداء: «إلى أبطال معارك «سخيب لاكن»».



التمثال الكئيب في الوسط، القائم على قاعدة كُتب عليها «مناصرو الوطن» مع تواريخ المعارك (٢٦ أغسطس ـ ١٢ سبتمبر ١٩١٤)، هو الشاهد الوحيد على ما حدث في هذه المنطقة. الصليب الحجري واقع من قاعدة التمثال، مخلفًا وراءه بقعة صليبية الشكل رمادية اللون. التمثال البرونزي للفنان «برنارد كالي» يمثل أمًّا واقفة، تنحني على جندي في نزعه الأخير، يرتدي معطفه العسكري ويسند رأسه المغمَّد بالخوذة إلى حضنها؛ يبدو وكأنها تضع غصن نخيل على كتفه. لا تزال جعبته متدلية من عنقه البرونزي. إحدى ساقيه منزلقة من القاعدة، ما يضفي طابعًا مأساويًا على التمثال. البرونز ملطخ ببقع من الرطوبة والطحلب. على طول الجدار، الذي

يظهر وراءه سطح المدرسة الصغيرة إلى جانب شجرتين من السرو، عديمتَي الشكل، مفرطتَي النمو، يمتد صفان من شواهد القبور الصغيرة ـ إنها أشبه بلوحات أسماء قائمة على نحو مائل ـ لما يقارب مائة جندي قتيل. أدوِّن عددًا من الأسماء، مفكرًا بأن هناك احتمالًا كبيرًا أن يكون جدي قد عرف هؤلاء الشباب: «أ. فان ديزانده»، «ب. ده مونتر»، «أ. فانده كانديلاره»، «ي. بوفل» جندي صياد، «د. ده بكر» جندي مدفعية، «إ. ده يونغ»، «ي. فيرهاخه»، «أ. ده خروته»، «ل. ل. كونه»، «ي. كرافيز»، الجنود جميعهم من الفوج الثاني على خط الجبهة.

ليس هناك جدوى من تدوين هذه الأسماء، أدوِّنها لأشغل نفسي بشيء، لكن سرعان ما تتجمد أصابعي، فأضع يدي في جيبي وأسير منحنيًا بقامتي عكس اتجاه الريح. ينتصب صليب كبير على قاعدة في الحقل العشبي الواقع في القسم الخلفي من المقبرة. تلوح من فوق الجدران رؤوس الأشجار العارية من الأوراق وهي تتمايل في الريح القارسة. أقول فيما بيني وبين نفسي لقد حدث ذلك في هذه الغابات. أركب سيارتي من جديد، أسير على الدروب الرملية الممتدة عبر رقع الغابة المقفرة الواقعة هنا وهناك بين التجمعات السكنية. ليس هناك أي شيء يمكن رؤيته في الواقع، ما عدا سيارة محطمة من دون عجلات في مكان ما وسط الغابة، وكأنها تجمع في نفسها وحشة هذا المكان، الافتقار إلى كل ما يمكن أن يدل على ذاكرة. أترجل من السيارة مرة أخرى في مكان ما، وأجيل عيني فيما حولي: حتى الأشجار كانت مختلفة في تلك اللحظة. لا أجد شجرة واحدة عمرها مائة عام؛ لعلها زُرعت جميعها من دون استثناء بعد الحرب العالمية الثانية. لا يوجد أي شاهد هنا، لا في الرمل، لا في الأشجار، لا في البيوت، ولا في الطرقات. وأنا مستغرق بالتفكير في المُغيَّب في هذه الأشجار الفتية جدًّا، يباغتني إحساس شبه ملموس بالبُعد الذي يفصل زمني عن هذا كله، عن كل ما بقي يشغلني

طوال السنوات الماضية. يبدو كما لو أن هذه الأشجار البليدة، الفتية جدًّا، منافقة، متآمرة مع الزمن.

أقود سيارتي إلى «سانت مارغريت هاوتم»، حيث خيضت هناك أيضًا معركة فظيعة، أعبر الشارع المسمى على اسم الفوج الثاني والعشرين على خط المواجهة، شارع «٢٢ ليني»، أقود عبر قريتَي «فيرده» و«إليفايت» ـ التي رآها تحترق بعد القصف ـ من بورتميربيك إلى كامبن هاوت ثم إلى «فينكسله»، الأماكن التي سار فيها، عسكر، قاتل، حفر، نام، وركض لينجو بحياته: لقد صار كل ذلك طي النسيان، فعليك السلام أيها السلام الرتيب المحبوب. بقالة، مخبز، مرأب سيارات خاوٍ، سوبر ماركت صغير، صيدلية مسرفة في الأناقة، لوحة مرور صدئة، محل بيع جرائد في مقصورة غريبة من البلاستيك، طريق أسمنتي ممتد على شكل شريط من الفراغ في ظهيرة يوم شتوي. لا أحد في الخارج، سوى سيارة منطلقة في غاية السرعة بين الحين والآخر. تصدح في راديو سيارتي «سيمفونيات آلات النفخ» لـ«سترافينسكي»، موسيقى مأساوية منسابة تتوافق كليًّا مع هذه الضواحي المغمورة المنسابة إلى الوراء. تحين الساعة الثانية، ثم الثانية والنصف، أتلكأ برهة طويلة لأتشبع بهذا اللاشيء المطلق، هذا اللاشيء الذي يُدعى «الزمن الراهن» المحيط بي مثل شرنقة واقية. أعود خالي الوفاض، لا أستطيع حتى أن أحس بقبضة الرمل القذر قارس البرودة من درب الغابة على أنه شكل من أشكال التواصل مع ما حدث هنا في يوم من الأيام. مطبات سرعة، لوحات مرور، مجنون نافد الصبر يغمز لي بالأضواء العلوية لأنني أريد الحفاظ على السرعة المحدودة، ما إن يجد فرصة سانحة حتى يتجاوزني بسرعة جنونية تكاد تطيِّره من الطريق عند الدوار. إقليم فلاندرز عام ٢٠١٢. لا شيء. لا شيء على الإطلاق. لا معنى، وأمان، حمدًا لله على ذلك. ألتقط بضع صور أخرى، أتفحص في البيت خريطة «جوجل» من جديد، تبدو مثيرة للاهتمام أكثر بكثير من الواقع.

* * *

كل يوم جمعة خلال شهور الصيف، كان ييمم وجهه مع زوجته، لكن غالبًا معنا نحن أيضًا، أسرة ابنته، صوب مدينة بروخه حيث يحمل الشعلة في كاتدرائية «الدم المقدس»، التي يسميها «كنيسة الدم».

رأيته مرات لا تُحصى في فترات الظهر الصيفية من أيام الجمعة وهو يخرج من الصف في أثناء الطقس الديني، يتسلم الشمعة الضخمة الموضوعة في شمعدان ذهبي اللون، ويخطو بخطوات مهيبة إلى الأمام، في أعقاب القسيس الذي يرأس القداس، شاقًّا صفوف الجماعة المنهمكة في الصلاة أو الترنيم. كانت الذخيرة المقدسة التي يجب على المتعبدين أن يقبِّلوها في أثناء القداس، تملؤني بمزيج من الاشمئزاز والافتتان. يجلس قسيس إلى منصة صغيرة، حاملًا القارورة الزجاجية المحتوية على قطعة القماش ذات اللون البني الحائل، البالغة من العمر قرونًا من الزمن، على يديه الممدودتين إلى الأمام في جمود، كما لو أنه هو نفسه يشمئز منها بعض الشيء؛ كانت القطعة الثمينة تلك، إذا لم تخنِّي الذاكرة، لها حواشٍ مزينة بحلية رقيقة من الذهب. كلما قبَّلها أحد المتعبدين في ركوع وخشوع، مسحها القسيس من آثار الشفاه الآثمة بمنديل أبيض بحركة رزينة، كي يستطيع المتعبد التالي أن يقدم ذات القدر من المساهمة الجسدية المتواضعة في التقليد القديم قدم قرون من الزمن، من دون أن يتعرض لخطر الإصابة بعدوى جرثومية من جراء عبادة الآخر. كانت بروخه خارج الكنيسة تزدحم بالحياة الدنيوية العادية. الأعلام تهفهف، القوارب الصغيرة تمخر عباب المياه الموحلة في القنوات المائية، الناس يجهرون بقراءة الترجمة الإنجليزية لرواية «بروخه الميتة» على رصيف «روزنهود»، وبإلقاء القصيدة التي تحمل اسم الرصيف نفسه بالفرنسية، «رصيف المسبحة الوردية»، للشاعر «راينر ماريا ريلكه». بينما نحن في الداخل نشارك في الطقس السرِّي الذي بوشر في ممارسته في القرن الثاني عشر، عندما جاء الكونت «تييري الألزاسي» بهذه القطعة القماشية

المدماة من الأرض المقدسة، أكثر بقاع الأرض عرضة للانفجار في الوقت الراهن (لعلهم كانوا في يومنا هذا سيرفعون عليه دعوى قضائية بتهمة تصدير قطعة تراثية وطنية بشكل غير قانوني، مع أن هذا الأمر من المسائل المعقدة في القدس الحالية). كنا في عيد الصعود نشهد موكب الدم. كنت أبقى بأفكاري عند تلك الخرقة البنية حائلة اللون، المضمَّخة بالدم، التي أقبِّلها مرة في الأسبوع، وكلما كبرت في السن، أخذت أجهد ذهني عن مدة صلاحية الأقمشة، والخرق المدماة، والذخائر المقدسة. كلما قلَّ الاحتمال من وجهة نظري بأن هذه القطعة القماشية قد تضمَّخت فعلًا بدم يسوع، ازداد استغرابي من السحر العجيب المحيط بهذه الطقوس الظريفة، بهذه الترانيم، المواقف، الولاء القديم قدم قرون من الزمن من دون أن تكون هناك أدلة دامغة؛ باختصار، قوة التسامي النقية التي يتمتع بها الإنسان المؤمن. كان العالم موجودًا في الخارج، وهذا ما يضفي الجاذبية والعمق على الدين، في الغبش العابق بدخان البخور في الداخل. يبدو أن التزهُّد يضفي الجاذبية والعمق على العالم بشكل دائم؛ يعوم الإوز في بحيرة «ميني واتر»، تندثر آخر الناسكات العلمانيات بينما يزدهر زعفران الخريف في أفنية الأديرة الرطبة على طول القناة في شهر أغسطس، يتجول السائحون اليابانيون في المدينة من دون أن يفهموا شيئًا من هذا الأمر. كان الدم المقدس مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بتناول المثلجات السخية، مشي الهوينى في ساحة «الزاند»، شرب الليمونادة من الطراز القديم على مصطبة أحد المطاعم، حيث جلست ذات يوم أحملق في عاشقين؛ رجل أكبر في السن يتكلم بنظرة ثاقبة مع امرأة شابة شقراء، تتطاير خصلات شعرها في الهواء وتقشعر ذراعاها، عاشقان يهيم أحدهما في عينَي الآخر، ولأنهما لا يليق أحدهما بالآخر في واقع الأمر ويربطهما مع ذلك شيء حميمي بشكل واضح، ملآني بالحيرة والتشوش. دين، سياحة، أول لمحة من الشبق، صيف ونفحات

من سحب عالية، رايات مرفرفة ورائحة كنائس قديمة، مياه تتناثر بهوادة وفتور على جانبَي مقدمة سفن بيضاء.

«هذه الكأس هي دمي، دم العهد الجديد الذي يهرق عنكم» ـ كلمات القسيس هذه تتردد في أذني من دون أن أفهمها. كان حمل الشعلة في أثناء الطقس الأسبوعي بالنسبة إلى جدي مؤشرًا زمنيًا، إيقاعًا يمضي بالأسابيع خلال الصيف، وعندما تحضرني ذكراه وقد استقام بظهره وأخذ رأسه الأصلع الرهيف يلمع بلطف تحت ضوء الشموع الذهبي، أفهم لماذا كان متعلقًا بهذا الطقس إلى هذا الحد. الحق أنه كان يتسم بشيء من سمات الجندي الخارج عن نطاق الزمن، المنحدر من القرون الوسطى، تلك الفروسية على النحو الذي يوصف في أساطير «الكأس المقدسة». لذلك انصهر ذلك الصندوق الزجاجي بني اللون، القائم في «كنيسة الدم»، في ذاكرتي بعد مضي سنوات، مع الحكايات القديمة عن «بارسيفال»، وفهمت أن جدي كان الأحمق الخالص في حقيقة الأمر، وكان هكذا على الدوام، الساذج النقي الذي استحق مني أشد الإعجاب، إذ يبدو أنه لم يعرف الأنانية، ولا الغرور ولا العنجهية، لم يعرف سوى تلك العفوية في تقديم خدماته، ما أضفى عليه سمة البطل المقدام والأحمق الشهم في الوقت نفسه. وعندما فهمت هذا الأمر، سافرت إلى بروخه في أحد الأيام من جديد، بعد انقضاء سنوات عديدة، ووقفت أجيل نظري منبهر الأنفاس في «كنيسة الدم»، وفهمت أنني لا أفهم إلا أيسر اليسير.

* * *

بعد أن مضت سنوات طويلة على موته، وجدت في خزانة كتبه الصغيرة نسخة ملطخة بآثار الأصابع من رواية «جورج رودنباخ» الشهيرة، «بروخه الميتة». في هذه القصة، التي يلتقي فيها البطل «هوج فيان» امرأة داعرة تشبه في مظهرها حبيبته الميتة، ويضطر أن يخلص إلى أنها ليست في نهاية الأمر سوى نسخة مشوهة تجسد الفتاة التي كان يعشقها، ثمة

خطوط باهتة بالقلم الرصاص مسحوبة تحت جمل هنا وهناك. أخذت أقلِّب الصفحات المصفرَّة بالرسومات المؤثرة، والنقوشات الملونة الغامضة التي تستدعي إلى الأذهان أجواء مدينة بروخه الهادئة بطرازها القوطي من القرن التاسع عشر. كانت ثمة بقع من اللون الأزرق الزيتي في صفحة في وسط الكتاب الصغير، وشروع في رسم صورة وجه في صفحة فارغة. «بروخه كانت حبيبته الميتة، وحبيبته الميتة كانت بروخه. تلتقي الأشياء كلها في قدَر مشترك واحد». يؤدي موكب الدم المقدس دورًا حاسمًا في هذه القصة. في يوم الموكب، تسخر المرأة الداعرة من التذكارات التي جمعها الرجل الحزين خلال سنوات وقدَّسها تقديسًا ساذجًا. لكنها لا تتوقف عند هذا الحد. تستفزه بانتهاك مقدساته في استهتار واضح، تأخذ خصلة من شعر «أوفيليا» الميتة، وتتبختر بها باستهزاء عبر الغرفة. في هذه اللحظة يطيش عقل «هوج»: يخنقها بيديه، إذ إن هذا الانتهاك يضعه أمام الحقيقة الساخرة الكامنة وراء تساميه كله. إنها قصة عن استحالة تكرار عشق عظيم منقطع النظير، لكنها أيضًا قصة عن «أورفيوس» عصري، فمثلما فعل «أورفيوس» تمامًا، نزل «هوج» إلى عالم الموتى من أجل العثور على حبيبته المفقودة، أمر لا بد أن ينتهي بمأساة. يفقدها مثل «أورفيوس» مرتين، لأنه يخلط ذكرى حبيبته الميتة مع شبيهتها الحيَّة التي تعيش فوق الأرض.

كم مرة قرأ جدي هذه الرواية عن الحب «الأورفي» وأعاد قراءتها؟ كان قد وضع خطًّا على سبيل المثال تحت الجملة التي يقول فيها «رودنباخ» إن «هوج» لم يستطع أن يقاوم فكرة الانتحار إلا بفضل استحضاره الروحاني لذكرى حبيبته «أوفيليا». كان جدي، مثل بطل هذه الرواية، يعيش في الخفاء مع ما أقامه في ذهنه من ضريح لحبيبته المفقودة. علم، مثل «هوج فيان»، أن ما كان منقطع النظير لا يمكن أن يعود إلى الظهور في شبيهه، ولا سيما إذا كان هذا الشبيه أختها الكبرى الخجول. بينما أحمل هذا الكتاب في يدي،

أدركت فجأة أنه كان بمثابة أرمل متزوج في واقع الأمر. يأسى في الخفاء بالإشفاق نفسه الذي تأسى به هذه الشخصية الروائية. كانت قد وُضعت بين الصفحات الأخيرة ـ الأمر الذي أصابني بالدهشة لأنني لم أستطع أن أرى حينذاك العلاقة بين هذين الأمرين ـ نسخة مأخوذة من أحد الكتب من صورة «فينوس روكبي» لـ«فيلانكيث»، التي رأيته يبكي عليها ذات يوم. وبعد بضع صفحات منها وُضعت ورقة رسم شفافة في منتهى الرقة، مطوية بحرص شديد على بضع شعرات سوداء طويلة، لُفّت ذات مرة بإتقان تام حول أنملة على شكل لولب صغير.

غرام سرّي، تعليم سرّي لا يعلّمنا أي شيء. وفاء لمن هو غائب، ومع ذلك يحدد كل شيء، ويمنحه شكلًا، ويعطيه معنى خفيًّا. لم يكن بوسعه أن يشارك أهم شيء في حياته مع الآخرين، لذلك كان يرسم الأشجار، الغيوم، الطواويس، شاطئ أوستنده، حظائر الحيوانات والحياة الطبيعية، على طاولة نصف ململمة، حالة حِداد وفيٍّ، صامت، هائل، عسى أن يُخمد بكاء العالم في أبسط الأشياء اليومية.

* * *

لم يرسم أي مشهد من مشاهد الحرب على الإطلاق. لم يخطر في باله أن يرسم ذكرى من ذكرياته عن الحرب قَطُّ، ولا أثر للصور التي رسمها لرفاقه بالفحم وتحدث عنها في مذكراته، بين الأشياء التي وجدتها بعد موته. ليست هناك لوحة واحدة تجسد عسكريًّا، ربما ما عدا صورته الشخصية الصغيرة التي يتقلد فيها أوسمته، وقد رسمها بأسلوب أكاديمي إلى حد ما، على الأرجح قبل ١٩٢٠ وفيها كل شيء ما عدا الروح العسكرية، إنها أقرب إلى صورة شخصية بألوان زيتية تم تكبيرها، من يدري، لعله رسمها كي يُسعد حبيبته المريضة «ماريا إميليا». ليس هناك سوى الصورة الشخصية المؤطرة الكبيرة بالأبيض والأسود، الظاهر فيها ببدلته العسكرية، لعلها تكبير صورة التُقطت له بعد الحرب مباشرة،

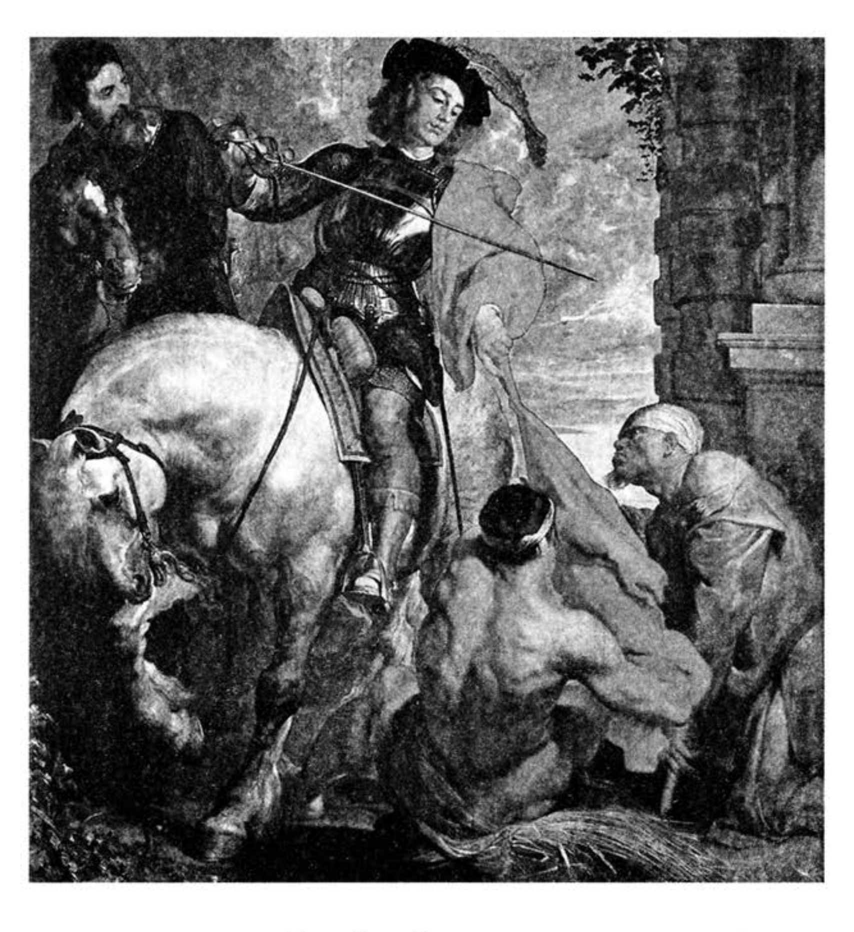
وأُدخلت عليها تحسينات بقلم الفحم، وظننت دائمًا أنها رسمة من رسماته، من شدة ما يكتنف الغموض والتغبش بعض خطوطها. كتب بنفسه في أسفل الصورة المؤطرة: «هكذا عاد «أوربابن» من حرب ١٩١٤-١٩١٨». أُعيدت كتابة هذه الجملة على جهتها الخلفية، ولكن بخط آخر، لعله خط والدته. لا شيء أكثر من هذا. لا يمكن العثور على أي أثر من الشؤم فيما لا يُحصى من اللوحات التي رسمها، على الأكثر غيمة خجول، مائل لونها إلى الأزرق، بفرشاة من وبر السمُّور أخشن قليلًا، تمر من أمام شمس المساء، لا تنذر حتى بعاصفة «جورجوني» في «أركاديا البيدرماير».

مهما يكن من أمر، في الفترة التي اكتشف فيها إصابته بعمى الألوان، كان لديه عدة أعمال صغيرة فحسب، إلى أن قرر في منتصف الستينيات أن ينجز شيئًا كبيرًا. هناك لوحة مؤثرة إلى حد كبير تجسد القديس «مارتينوس»، الذي يقطع ثوبه إلى نصفين ويعطي نصفه إلى متسول، رسمها «أنطوني فان دايك». إنها قصة مشهورة من قصص الأيقونات، رسمها العديد من الرسامين، مثل فنَّان هنغاري بارع غير معروف، و«سيمون مارتيني»، والرسام الفلامندي «ياكوب فان أوست»، و«إل جريكو». رسم «فان دايك» صيغتين مختلفتين من هذه القصة، أعطى كل منها تفسيرًا ديناميكيًا ومأساويًا. رسم جدي من الصيغة الموجودة في الكنيسة الأبرشية في بلدة «زافنتم» القريبة من بروكسل، التي رسمها «فان دايك» بناء على طلب «فرديناند فان بوسخوت»، المستشار الهولندي لـ«دوقية برابانت»، في السنة التي ارتقى فيها إلى طبقة النبلاء.

* * *

يمتطي القديس «مارتينوس» جواده الأشهب، تلمع درعه بالسواد وينضح بالنبل والكبرياء، توحي إحدى ساقيه الموضوعة بثبات في

ركاب السرج بالقوة والمهارة. لا يزال شابًّا فتيًّا، يرتدي قبعة سوداء أنيقة بريشة كبيرة مائلة بعض الشيء. إلى اليسار (إلى جانب يد «مارتينوس» اليمنى)، ثمة فارس ثانٍ، يرتدي ملابس أبسط ويمتطي حصانًا بني اللون ببقعة بيضاء على رأسه. إلى اليمين، يجلس المتسول العاري من الملابس على حزمة من القش، مديرًا ظهره مشدود العضلات، المرسوم بطريقة تشريحية رائعة، إلى المشاهد، وهو يسحب بتلهف العباءة الحمراء الوهاجة التي يقطعها القديس من النصف. يجلس إلى جانبه متسول آخر بمنديل رأس شرقي الطراز، يمطُّ شفته السفلى بشيء من الارتياب وقد رفع عينيه إلى الرجل النبيل الكريم. إنه أعرج، يجلس على ركبتيه ويستند على عكاز يظهر قسم منه من بين القماش تحت إبطه مباشرة. عنق الحصان المتين المحني إلى الأمام، قائمته المرفوعة تلك، العضلات المشدودة في ظهر المتسول: المشهد برمته لا ينضح سوى بالحركة، والقوة، والحياة المفعمة بالنشاط. يستخدم «مارتينوس» سيفًا في غاية الرهافة، يمسكه أمام صدره بشكل مستقيم، لكن لأنه يمتطي جواده في ميل، يبدو مائلًا بعض الشيء من منظورنا، حده يقطع الجزء العلوي من القماش بزاوية تقارب التسعين درجة. يجنح الجزء السفلي المقطوع إلى اليمين، يشير إلى اتجاه آخر، اتجاه المتسول مشدود العضلات المنهمك في استلامه منه. ما هي إلا ثانية واحدة حتى ينفصل جزءا العباءة بشكل كامل وتسقط قطعة القماش الحمراء عديمة الشكل على المتسول. إلى يمين المشهد، يظهر جانب من أعمدة تبدو أثرية. تلوح وراءهم في البُعد غيوم مسائية تنيرها شمس منخفضة. إنه مشهد بارع، لا تشهد أناقته وسطوعه وخطوطه الواضحة على مهارة «فان دايك» العالية فحسب، وإنما أيضًا على هيام ويفاعة الرسام، الذي كان قد بلغ الثانية والعشرين للتو، عندما رسم هذه اللوحة في ١٦٢١.



من أجل هذا المشهد، عمل جدي أسبوعًا كاملًا في نجارة الإطار الكبير في دفيئة العنب القائمة في القسم الخلفي من الحديقة. قدَّر مساحة اللوحة بما يقارب مترين بمترين، والعجيب هو أنه حجم أكبر من حجم اللوحة الأصلية في «زافنتم»، الذي يبلغ ١٧١ في ١٥٦ سنتيمترًا فحسب. كانت هذه جرأة ومغامرة على غير المتوقع، حيث إن تكبير اللوحة إلى هذا الحجم يتطلب منه رسم مربعات على النسخة الموجودة في كتابه بدقة بالغة. ذهب في أبهى ملابسه إلى محل «ده خاودن بلاوم» في ساحة «فرايدخ ماركت»، واشترى قطعة من قماش الكتان، طولها متران ونصف المتر وعرضها متران

ونصف المتر، جرجرها معه إلى البيت، تحت أنظار الناس المحملقين في ترام المدينة بينما ينظر هو أمامه بتجهم، يحمل لفة القماش الكبيرة على كتفه، وعندما ينعطف بين الحين والآخر، يكاد يخبط بها عابرًا من عابري السبيل. عندما أراد أن يشد القماش إلى الإطار، اكتشف أن المكان الذي ينوي وضع اللوحة فيه، أي فوق باب غرفته العلوية مباشرة، ضيق بعض الشيء: الجدار الخارجي في الجهة اليمنى من فسحة السلم يسير بميل طفيف في ذلك المكان، بحيث لا يبقى متسع كافٍ للوحة. وإلى ذلك ينحدر السقف في هذه الفسحة بشكل بسيط، ما يستوجب أن يكون القسم العلوي من الإطار منحدرًا أيضًا. فك أجزاء الإطار بعضها عن بعض، وركَّب شيئًا كان رائجًا جدًّا في تلك الأيام، من دون دراية منه: صنع ما يُدعى «الكتان المشكَّل»؛ قماش كتان بحجم غير متناسق. عدَّل، بنجارة مفصَّلة دقيقة، الزاوية العليا من اليمين، في المكان الذي تنساب فيه الغيوم في شجيرة تنمو من شق في العمود الأثري. سقط جزء من العمود من جهة اليمين أيضًا، لكن لم يتسبب ذلك في خسارة كبيرة. شدَّ قماش الكتان إلى الإطار من دون إحكام، بلَّل جهته الخلفية على نحو طفيف بإسفنج ناعم، انتظر ثلاثة أيام، أحكم شدَّه بمشابك مسطحة بحرص بالغ، ودق فيه حينذاك فحسب مسامير البرشام الصغيرة النهائية. عندما رأى أن كل شيء على ما يرام، جرجر اللوحة الكبيرة فوق السلم، عطف بها إلى غرفته، وأقامها إلى جانب السرير ـ لم يعد بوسعه الوقوف في هذا المكان أو الوصول إلى سريره في الليل إلا بصعوبة ـ وبدأ مشروعه الكبير الذي استغرق ما يزيد على نصف سنة.

رسم مربعات على النسخة وانكب عليها أسابيع طويلة يتفحصها بعدسته المكبِّرة وبَرجله النحاسي، الذي يجدر بالذكر أنه تلقاه هدية من السيدة اللذيذة «مسز لامب» من ويندرمير في عام ١٩١٦. لم يكن بحاجة إلى الذهاب إلى الكنيسة الأبرشية المتواضعة، كنيسة «سانت مارتينوس» في «زافنتم»، من أجل تفحص اللوحة الأصلية التي رآها هناك في خريف

عام ١٩١٤، في أثناء الانسحاب بعد معركة «سخيب لاكن» المفجعة، التي من العجيب أنها لا تزال معلقة هناك شبه مغمورة إلى يومنا هذا، فقد كانت منطبعة في ذاكرته بكل تفاصيلها. جلس حينذاك، في صباح يوم أحد في بدايات الحرب، أمام قديسه الشفيع وأخذ يصلي مرتعد الأوصال، متأثرًا بما عاشه في الأسابيع السابقة في أثناء الفظاعة التي حلت بـ«سخيب لاكن» و«سانت مارغريت هاوتم».

ما يلفت النظر هو أن نسخته صافية لا تشوبها شائبة وألوانها كلها مضبوطة بدقة، على قدر ما أستطيع أن أحكم من دون أن أضع النسختين إحداهما إلى جانب الأخرى. أجل، ألوانها أوضح بعض الشيء، كما لو أن اللوحة الأصلية خضعت للتنظيف. كرَّر جدي، بانعكافه على رسم قديسه الشفيع، ما فعله والده، الذي رسم قديسه الشفيع «فرانسيسكس» في ليفربول. لا بد أن ذلك أشعره بسرور عظيم، إذ أنجز ما كان عليه إنجازه: لقد عبر عن تقديره لوالده المأسوف عليه. أعثر بين الوثائق التي احتفظ بها بين رسوماته على عدة صفحات، شقها من «الأسطورة الذهبية» التي كتبها «يعقوب دي فراغسي». إنها عن حياة «مارتينوس»، جندي فيلق روماني، يعتنق الدين المسيحي. إلى جانب ما يذكره «دي فراغسي» من وقائع مدهشة شتى، يعدد خصال «مارتينوس» الحميدة من تواضع، وكبرياء في القتال، وعدل، وصبر، وورع في الصلاة، ومهارة في كشف القناع عن الأشرار. وضع جدي خطًّا أحمر تحت هذه الأخيرة. أصبح «مارتينوس» القديس الشفيع للجنود جميعهم؛ كان الملوك الفرنسيون يلبسون عباءة القديس في أثناء القتال. يُقال إن «أنطوني فان دايك» أيضًا كان لديه مثل تلك العباءة.

هذا الموضوع ألهم جدي في زمن لاحق بأن ينحت قوصرة رومانية الطراز بارزة النقش من حجر رملي، علَّقها فوق الباب الرئيسي للفيلَّا الصغيرة. كان حينذاك يبلغ الثانية والسبعين، في قمة نشاطه بالنسبة إلى عمره. بدا أن حزنه على فقدان زوجته قد خفَّ قليلًا من جراء انشغاله بهذا العمل الضخم،

الذي ارتقى بمنشئه واسم عائلته المتواضعين إلى مرتبة أعلى في ألق الفنان العظيم «فان دايك». امتلأت الأجواء بصرخات الإعجاب، لكن صديقه «أدولف» شزر اللوحة الكبيرة وقال بكلمات شحيحة:

ـ لا أملك من الصبر ما يمكنني من القيام بشيء من هذا القبيل، أقصد، نسخ اللوحات.

وغمز لابنته «ماريا إميليا» غمزة لئيمة، وفترت الصداقة بينهما.

* * *

عندما أذهب في يوم عمل من أيام الأسبوع إلى «زافنتم»، لمشاهدة اللوحة الأصلية هناك، يهطل المطر بغزارة شديدة. تصدح موسيقى هادئة في الكنيسة المهجورة. أسير من جانب الأعمدة الضخمة بأناة وهوادة صوب اللوحة المعلقة في المذبح الجانبي على الطرف الأيمن، وأحاول أن أتصور كيف جثا على ركبتيه، فوق الدرجة الأولى من الدرجتين الخشبيتين، في أكتوبر ١٩١٤، ببدلته الملطخة بالأوحال، وإلى جانبه جعبته، وبندقيته وقصعة طعامه المتهالكة، مستنزف القوى من ضراوة المواجهة الأولى مع الجيش الألماني المغير. لأنني تعودت رؤية النسخة الأكبر حجمًا، تبدو لي اللوحة الأصلية أصغر قليلًا، وإلى ذلك تميل ألوانها فعلًا إلى الدكنة. لقد رُسمت على سبعة ألواح عريضة متصلة بعضها ببعض، ويبدو واضحًا أنها خضعت للترميم: بريق اللون الزيتي الذي رُممت به قوي بعض الشيء، ما يجعل التحفة الفنية تلمع أكثر من اللازم. أضف إلى ذلك انتفخت الألواح قليلًا من جراء طول الزمن ودرجة الرطوبة المتغيرة، ما يجعلك ترى الفواصل الستة بين الألواح. الأعمدة ذات الطراز «الكورنثي» التي تقوم في المذبح وتخفي اللوحة، منمقة بزخارف رخامية وذهبية. فوق هذه الزخارف من طراز لويس الخامس عشر تتألق درع «فرديناند فان بوسخوت» تحت قبة محلاة بالذهب. يسترعي انتباهي مدى الشبه العظيم بين الزخارف الرخامية هنا وتلك الزخارف التي نمق بها جدي مدخل بيته ذي السقف العالي والجدران القريبة من اللوحة

كي يحيط بها ما يحيط بها هنا. الحق كان الترخيم من أكثر المهارات التي يتقنها جدي: يستطيع أن ينمق الأبواب، والجدران، والأعمدة، بزخارف خشبية أو رخامية ببراعة خبير من القرون الماضية.

يظهر شماس خدوم من الكواليس الواقعة في الطرف الأيمن من المذبح، عندما يراني أطيل الجلوس أمام اللوحة، ألتقط صورًا وأكتب ملاحظات، يشعل عدة مصابيح أمام المذبح الجانبي في رغبة منه في تقديم خدماته. أعبر عن دهشتي من أن تحفة من هذا النوع، قطعة نفيسة ذات معنى بالنسبة إلى التراث العالمي الفني، معلقة هنا، في هذه الكنيسة الأبرشية الفلامندية، من دون أي حماية وشبه مغمورة. يطوي يديه بارزتَي العظام بشيء من الورع، يخبرني بأنه كان حاضرًا هنا في أثناء الحرب العالمية الثانية، عندما فكوا الألواح الرهيفة وأخفوها في أحد الأقبية الموجودة في المنطقة، كي يحفظوها من أيدي النازيين. يعطيني منشورًا صغيرًا، أتحقق من المعلومات المذكورة فيه عن اللوحة، أقود سيارتي في اليوم نفسه إلى البيت القائم على ضفة «سخيلده» كي أشاهد نسخة جدي، أندهش من ألوانها الواضحة الساطعة، من البريق الأصلي الرائع الذي يمكن أن يتوارى في نسخة.

* * *

رسم في تلك الفترة مزيدًا من النسخ الناجحة من أعمال مشهورة، مثل الصورة الغريبة التي تجسد صبيًّا مع كلبَي صيد مربوطين إلى حبل، أبدعه الرسام البلجيكي «يان إراسموس كيلينوس الثاني». يلبس الصبي ملابس مبهرجة نوعًا ما مثل البنات، يقف في فستان براق حد الإفراط، باللونين الأزرق والوردي. اللوحة بحد ذاتها لا تأسر المشاهد حتى، إنها لوحة قصصيَّة ووجدانية إلى حد بعيد، لكنها تنم عن براعة الفنان، وتكشف عن شيء خاص بعقلية أنتويرب الباروكية، لعل جدي اختارها فقط من أجل أن يواجه التحدي التقني في رسم القماش المزركش (وربما من أجل مظهره البناتي هو نفسه، عندما كان طفلًا صغيرًا، الأمر الذي كان يتحدث عنه بروح

مرحة في بعض الأحيان: «في أواخر القرن التاسع عشر، كانوا غالبًا ما يُلبِسون الصبيان ملابس البنات في سنواتهم الأولى، قبل أن يتعلموا الذهاب إلى المرحاض، لأن الفستان كان يوفر عليهم بعض الغسيل»). لا أستطيع أن أحدد متى رسم «فينوس روكبي» لـ«فيلاثكيث»، إذ إنه لم يكن يؤرخ لوحاته؛ أستخلص من طريقة الرسم أنه رسمها في فترة مبكرة، من المحتمل في سنوات الثلاثينيات، أو ربما حتى أبكر من ذلك.

* * *

ولكن أكثر استنساخاته نجاحًا، كما لو أنه تحضير لرسم لوحته الأخيرة، هو صورة مشهورة: «الرجل ذو الخوذة الذهبية»، الموجودة في صالة العرض «جيميلده جاليري» في برلين، التي بقيت منسوبة إلى «رمبرانت» على مدى قرون من الزمن، ولكن تبين لاحقًا أنها ليست من رسم الفنان العظيم نفسه، ما أفقدها الكثير من قيمتها، التي هبطت من عشرين مليون مارك ألماني في ذلك الحين إلى أقل من مليون واحد؛ حقيقة محبطة لم يُضطر جدي إلى معرفتها، فقد اكتشف الخبراء ذلك في ١٩٨٥، بعد مضي أربع سنوات على وفاته. لكنها كانت من دون شك نسخة جدي المفضلة. أعاد رسمها عدة مرات لأصدقائه بسبب النجاح الكبير الذي حظيت به، إلا أنني لا أعرف أين توجد اللوحات الأخرى التي رسمها على وجه الدقة (لذلك اعتراني الذهول عندما اكتشفت أن إحدى النسخ التي رسمها، «الطاووس الأبيض في فناء الدواجن» لـ«ملخيور هونديكوتر»، معلقة في الحانة القائمة في الطابق العلوي من المطعم البروكسلي «له باو روايال»، وهي مشهد مجازي عن سيطرة الشر في العالم، ألهمتني ذات مرة تأليف كتاب بأكمله؛ كيف وصلت إلى هناك، هذا ما بقي لغزًا بالنسبة إليَّ؛ تبين أنها بلا بتوقيع، وهي من الناحية التقنية أدنى بكثير من النسخة التي أمتلكها).

* * *

لا بد أن ذلك كان في صباح ذات يوم عيد «سنتر كلاس» في أواخر

الخمسينيات، عندما رأيت طائرة صغيرة رائعة على الطاولة الحافلة بثمار اليوسف أفندي، وبسكويت «اللوتس»، وتماثيل الشوكولاتة، فأيقنت أن القديس نقولا الكريم في توزيع الهدايا قد جلبها لي في الليل. كانت مصنوعة من لوحات خشبية صغيرة رفيعة، نوع من الطائرات الصغيرة مزدوجة الأجنحة لُوِّن جذعها بالأزرق، وأجنحتها بالأحمر، وذيلها بالأصفر والأسود. العجلتان الصغيرتان مصنوعتان ببراعة من قطعتين نقديتين من قيمة خمسة وعشرين سنتيمًا، تلك القطع النقدية الحديدية الكبيرة في ذلك الزمان، المزودة بثقب في الوسط. يمرُّ عود رفيع عبر ذلك الثقب ويوصل العجلتين بالجذع؛ لأن العود الصغير يمرُّ في ثقب في الجذع أوسع قليلًا، تستطيع العجلتان الدوران بسهولة. يُبقي مسماران من مسامير البرشام العود في مكانه. خشب الطائرة منشور بمنشار يدوي على نحو أخرق إلى حد ما، ثم مسوًّى بالمبرد، وبسبب اعتقادي الراسخ بأن القديس الفاضل موزع الهدايا هو الذي جاء لي بالطائرة في الليل، مضت سنوات طويلة وأنا لا أعلم أن جدي هو الذي صنعها لي بيديه؛ لذلك لم أشكره عليها إطلاقًا، مع أنه صنعها بقدر هائل من الحب والحرص. لا أعلم ما الذي حلَّ بها بعد ذلك. أعتقد أنها ضاعت في مكان ما في أصص التراب المغبرة القائمة في دفيئة العنب، بعجلة ناقصة أو جناح مكسور، ملفوفة بكومة من الخيط يبرز من بينها مشبك مثل حافر مكسور، لا أدري. بعد مضي عقود من الزمن، رأيت الطائرة أمامي بالوضوح الذي يمكن أن يتجلى به حلم عن سنوات الطفولة، وقرأت الحروف والأرقام المكتوبة عليها، التي ظلت واضحة أمام عيني بعد استيقاظي من النوم: «د.ك.١٠٧١٠». دوَّنت الرمز، أدركت أنه كان يرغب في أن يجعل الطائرة الصغيرة مثل طائرة حقيقية بكتابة رمز من هذا القبيل عليها، ورأيت ذلك في منتهى الروعة. وافاني في ذلك اليوم مزيد من الذكريات عن ألعابي المفقودة من سنوات الطفولة، من جراء الحلم الذي رأيته، ثم نسيت الأمر.

لكنني عندما قرأت مذكراته وبحثت عن بعض الحقائق، صادفت تاريخ وفاة «دانييل كينيت»، الطيّار الأول الذي سقطت طائرته على ساحات «بورت آرثر»، ليس بعيدًا عن المكان الذي رأى فيه جدي الفتاة العارية في البركة. سقط «كينيت» في ١٠/ ٧/ ١٩١٠، قرابة الساعة العاشرة صباحًا. أتذكر أن جدي فشل في زيارة العيادة الخارجية الملحقة بالمستشفى الذي مات فيه «كينيت» بعد بضعة أيام، وأنه كان يُنزل الرجل من نفسه منزلة الأبطال. «د.ك.١٠٧١٠» إذن... تبين أن الطائرة الصغيرة تحمل رمزًا سريًا لكنه حقيقي، رمزًا يذكره ببطل من الملاحة الجوية البلجيكية. كم من أشياء أخرى لم أفهمها حينذاك؟ كلما قرأت أكثر، وجب عليّ أن أتعلم كيف أتحمل إدراكي بمدى جهلي بطريقة أفضل.

على هذا النحو ظهرت علامات أخرى في ذاكرتي، إذ نفضت مذكراته الغبار عنها، وبدأت أفهم مزيدًا من الإشارات. كانت أول سيجارة دخنتها في حياتي هي لفافة قديمة كريهة الرائحة مصفرة اللون إهليلجية الشكل، نهبتها من علبة سجائر مسطحة فضية موضوعة في الدرج الضيق في طاولة جدي الصغيرة الشهيرة. كنت في الخامسة عشرة من عمري، ورأيت أن الوقت قد حان أخيرًا كي أدخن سيجارة، مضيت بغنيمتي إلى آخر الحديقة وجلست خلف بضع شجيرات، ودخنت تلك السيجارة الغريبة الثقيلة حتى منتصفها. أصبت بغثيان رهيب على الفور، وما إن مضت برهة قصيرة حتى ألقيت ما في معدتي. قرأت في مذاكرته عن علبة السجائر الفضية التي أهدته إياها السيدة الغامضة «مسز لامب» من ويندرمير، وأدركت أنه احتفظ بها تلك السنوات كلها، مثل شيء مقدس، من دون أن يلمسها، فهو على حد علمي لم يدخن إطلاقًا. كانت أختي الصغرى غالبًا ما تلتفع في تلك الأيام بشال طويل، تلقاه هدية من دون شك من تلك المرأة نفسها، عندما كان عليه أن يعود إلى الجبهة، شال اكتسب أبعادًا أسطورية في حكاياته وأصبح عند كل سرد جديد أطول قليلًا. لكنه ترك الشال الحقيقي يهترئ في درج

قديم. هذا أيضًا يشي بالطريقة التي كان يتعامل بها مع ماضٍ لا يريد أن يتركه وشأنه. تبين على هذا النحو أنه كانت هناك علامات في كل مكان في سنوات طفولتي، لم يكن بوسعي قراءتها؛ وفقط من خلال ربط ذكرى معينة مع ما قرأته، استطعت البدء بإيفاء جدي شيئًا قليلًا من حقه، تعويضًا غير كافٍ عن جهلي الفظيع في ذلك الزمان.

* * *

ويظهر هذا المشهد فجأة، هذا المنظر، كما لو أنه يُعرض أمام عينَيَّ في هذه اللحظة: إنه يوم من أيام الربيع، في أبريل على ما أظن، الضوء أبيض ومنخفض، لا بد أنها فترة ما قبل الظهر. إنه يقف فوق الغطاء الحديدي الموضوع على بئر مياه الأمطار، ويشرح لي ماذا يعني أن تكون جنديًا، ويقول إنه يلزمني الكثير كي أتعلم. بينما أتناول مخاط أنفي، أنظر إليه بإعجاب، ولأنني أسأله من دون تفكير:

ـ هل تستطيع الوقوف على رأسك؟

يرمقني بنظرة حادة، يطلق تنهيدة، يضع قبعته «الفيدورا» على المقعد القائم إلى جانب الحائط الصغير، وهيًا، ها هي المعجزة تحدث أمامي: رجل سبعيني يثب في وثبة سريعة واقفًا على يديه، ينسدل جزء من مريلته أمام عينيه، لكنه لا يستسلم. أسمع صوته المكتوم يقول:

ـ انظر.

ويرفع إحدى يديه باتجاهي، مستندًا إلى يد واحدة ورأسه شبه الأصلع. أرى ساقَي بنطاله تهبطان إلى الأسفل في هوادة، فتبرز ساقاه البيضاوان في الهواء مثل مسندين من مساند المعترشات. قدماه مدارتان إلى الخارج، بعيدة إحداهما عن الأخرى بعض الشيء. قبل أن أصحو من اندهاشي، يعود إلى الوقوف أمامي بشكل مستقيم، يمسح الغبار عن يديه، يضع قبعته على رأسه من جديد، يقول وقد تضرج بشيء من الاحمرار:

ـ تستطيع أن تفعل كل شيء، إذا أردت.

أوافق بصمت على كلمات البطل من سنوات طفولتي، وأمضي باستحياء في سبيلي. يقول إنه سيذهب لتشذيب الشجيرات، ثم يتوارى في الحديقة وهو يصفِّر بفمه.

* * *

طوال تلك السنوات كلها، كان هناك ما يمنعني من القيام بواجبي في زيارة تلك المقابر اللانهائية بالشواهد البيضاء في منطقة «فيست هوك» من فلاندرز، أو الخنادق التي من شأنها إعطاء انطباع كامل للزائر المهتم بالتاريخ، المحفورة بأقرب ما تكون إلى «الخنادق الحقيقية». تساءلت فيما بيني وبين نفسي ما الفائدة من الذهاب إلى «تيرفاته» والوقوف بجانب جسرها، أو الوقوف في «ستاوفيكنس كيركه»، أو في أي مكان آخر من الأراضي السبخة التي لا تزال تعج بقذائف غير متفجرة آخذة في الصدأ، وأنا أعلم أن لا شيء يمكن أن يقترب بي من تجاربه أكثر من دفتَرَي مذكراته القديمين الموجودين على طاولتي؟ عندما كنت أعيش مع فتاة من جنوب غرب فلاندرز في ثمانينيات القرن الماضي، كنت أتجول هناك أحيانًا في أيام الآحاد، أزور النصب التذكاري «كاثه كولويتز»، متحف «تالبوت هاوس» الظريف، مقبرة الجنود الإنجليز «تاين كوت» وحقول الأموات اللانهائية، كل الأشياء التي ينبغي أن تكون قد رأيتها حتى تستطيع المشاركة في النقاش حول الحرب العالمية الأولى ومنطقة «فيست هوك». قرأت كتبًا مرعبة عن معركة «سومه» وإبادة صفوف لانهائية من الشباب الإنجليز المهاجمين، وتساءلت ما الذي يمكن لشخص أن يضيفه إلى مثل تلك الفظاعة.

لكنني قبل بضع سنوات فحسب، عندما زرت مع ابني قلعة «دينانت»، وقفت على مقربة مخيفة من تجربة جدي على مدى نصف ساعة. الجو الخانق في الخنادق الاصطناعية في المتحف الحربي، الضوء الخافت، المحاكاة الساذجة لكن الواقعية لحياة الجنود في سنوات الحرب؛ لأنني وُجدت في ذلك الفضاء الكئيب، واضطررت أن أتحسس طريقي عبر

الدروب المتعرجة بصعوبة، شعرت بتواصل مفاجئ مع جدي وخطواته المتلمسة طريقها في الظلام. لامست أكياس الرمل المتيبسة، رأيت ساحة المعركة، البنادق، الدمى الخرقاء المجسدة الجنود الجالسين مثل جرذان في الفخ. كانت تسود رائحة عطنة مثل تلك التي تسود في المتاحف التاريخية فحسب. كان ضوء المصابيح الكابي يشتعل من غير مواساة على الأشكال الهامدة، يلقي ظلالًا مثل بقع كالحة على الخنادق الاصطناعية. أحسست كما لو أنني اجتزت الطريق إلى عالم الموتى، عكس التيار، ونهضت «يوريديس» الذاكرة وأخذتني من يدي. لقد أصاب الفيلسوف رقيق المشاعر، صاحب المطرقة، في كتابه «نقيض المسيح»، فكما قال، لم أعد أستطيع أن أنظر إلى لوحات من دون أن أرى علامات، لأنني أفهم أن ما لامس حياتي الشخصية ليس «كتاب البراءة»، بل قراءة طافحة بالذنب التاريخي.

* * *

الآن وقد سردت هذه الحكاية شيئًا فشيئًا، ينبغي أن أمضي إلى اللوحتين الأخيرتين، إلى صورة «جابرييله» الشخصية الساحرة، والصورة العارية لأختها في السر، التي لم أكتشفها إلا في اللحظة الأخيرة. أقترب منهما بحذر وصمت، مثلما يقترب رجل بحذر في متحف خيالي، وقد وضع يديه على ظهره، يأخذ نظارته من فوق «أنفه قصير النظر»، يميل إلى اللوحة ويبتسم من تفصيل لا يراه أحد سواه. يسود سكون في متحف الذاكرة، تمر من وراء ظهره امرأة تُروح عن نفسها بمنشور صغير في يدها، لا تنتبه إلى الرجل الغريب الذي يحملق سارح الفكر، وقد ظهرت ابتسامة ساذجة على وجهه، وكاد أنفه يلامس اللوحة القديمة ذات الإطار المذهَّب المتداعي.

تتسم صورة «جابرييله»، المرسومة من صورتها الشخصية الصغيرة بالأبيض والأسود المطبوعة على بطاقة نعيها، بنوعية شبه كلاسيكية، وبوسعها أن تضاهي عددًا من أفضل صور النساء من العالم التقليدي الواقعي. تسدل وشاحها الأسود على شعرها الأشيب، ترتدي سترتها الرمادية، وقميصًا من

الدانتيل الأبيض ضمت ياقته بحجرها الكريم العاجي. تنظر إلى المشاهد في أمان تام وطمأنينة داخلية. نظرتها هي النظرة ذاتها التي كانت تتجلى في عينيها في الأيام الآمنة، الأيام التي كانت تجلس فيها على مقعد في الحديقة وتنظر إلى الأشياء اليومية حولها، التي تبعث السعادة في نفسها. اللون السائد في اللوحة يميل إلى لمعان ذهبي، كما لو أن ضوء مساء من نوع ما مشعٌّ على وجهها.

هذه النظرة شبه المثالية تعبر عن حبه وإخلاصه لها، وبالتالي أيضًا عن التطهُّر وإيجاد الانسجام أخيرًا. لم يحدث هذا الأمر من تلقاء نفسه، نظرًا إلى الطريقة التي ماتت بها. قبل سنة من وفاتها، أُصيبت بنزيف دماغي لم تتعافَ منه بسهولة. خرجت منه بخرف طفيف، واضطرت أن تتعلم المشي، والأكل، والكلام من جديد. كان حنونًا معها ومخلصًا لها؛ يعتني بها، يحمِّمها، ويلبسها ثيابها كل يوم؛ ها هي تضطر إلى التخلي عن احتشامها، بحكم الضرورة، الآن وقد فات الأوان على أي شكل من أشكال الحميمية الجسدية. ساعدها في أن تتعلم الوقوف على رجليها من جديد، بعد محاولات كثيرة للنهوض ومرات لا تُحصى من السقوط، ساعدها على أن تتعلم كيف تخطو خطواتها الأولى من جديد، كما لو أنها طفلته الثانية، المتأخرة في مجيئها إلى الدنيا. رغم التدهور الواضح في قدرتها على التفكير والتحدث، أصبحت سعيدة نسبيًّا، امرأة عجوز مطمئنة وهادئة، تغفو في كرسيها وتستطيع إفهام الآخرين أنها بخير وراضية عن وضعها. أُصيبت ذات صباح بنزيف دماغي ثانٍ. كانت جالسة في الكرسي إلى جانب النافذة التي اعتادت الجلوس بجانبها، اتسعت عيناها فجأة، تورمت الأوردة في حنجرتها بشكل مخيف، اكتسى عنقها ووجهها باللون البنفسجي، أمسكت بحنجرتها وهي تحشرج، ووقعت من كرسيها بشكل مائل. أحدث الذعر الذي استولى على والدتي وجدي تأثيرًا عميقًا في نفسي. تجمدت من هول المشهد وأنا أنظر إليها إلى أن دفعتني أمي إلى خارج الباب، وقالت يجب أن أذهب إلى المدرسة.



بقي هذا المشهد يلازمني طوال عمري، وكان آخر ما رأيته منها؛ عندما عدت إلى البيت في مساء ذلك اليوم، كانت قد أُدخلت المستشفى من جديد، وتوفيت هناك بعد عدة أيام. تحدق فيَّ صورتها المهيبة من غير انفعال، في كل مرة أزور البيت فيها. تدحض تلك الذكرى المأساوية، لكن من شدة ما هي متقنة، من شدة ما هي نابضة بالحياة، تبدو وكأنها على وشك البدء بالحديث.

إنها من دون شك أعظم إنجاز فني أصيل قام به جدي، كما لو أن حياته كلها كانت تمرُّسًا من أجل إنجاز لوحة التطهُّر هذه. في الوقت نفسه لم أتمالك أن أسأل نفسي عما إذا كان قد تساءل، في أثناء رسم «جابرييله»، في أي هيئة كانت أختها الصغرى «ماريا إميليا» ستبدو في شيخوختها، لو بقيت على قيد الحياة. لم يكن بوسع صورتها التي حملها في كيانه في السرِّ أن تهرم، في حين بلغت أختها الكبرى عتيًّا من العمر، كما لو أنها هرمت نيابة عنها. كادت «جابرييله» تشبه صورة الغندور الهرِمة «دوريان جراي»

في رواية «أوسكار وايلد». هكذا وجدتني أشبِّه صورة جدتي بتلك الصور من الطراز القديم في سنوات طفولتي، التي كنت ما إن تحركها حتى تصبح صورة أخرى، ويمكنك أن تلعب بها ما شاء لك هواك أن تلعب، تديرها ذات اليمين وذات اليسار على نحو طفيف: أختان اثنتان، الكبرى نسخة مُنتحَلة تستمد تألقها من البريق المنجلي في عينَي الصغرى، رسمها بعد وفاة كلتيهما.

* * *

لم يخطر في بالي حينذاك أنني سأعثر ذات يوم على صورة الأخت الأخرى المخبأة بحرص بالغ، لكنني بعد مضي أسبوع عدت إلى البيت القائم على ضفة النهر. سألت والدي الطاعن في السن عن شتى التفاصيل والظروف. أخرج صندوقًا معدنيًّا من فسحة نصف متوارية وراء حاجز في سندرة البيت، التي كانت غرفتي في أيام طفولتي. كان المفتاح ضائعًا، فتحنا الصندوق بمفك براغي صغير بحذر. كان يتضمن عشرات الصور، على سبيل المثال صور والدَي جدي، فرأيت «فرانسيسكس» و«سيلين» لأول مرة، واقفَين بجمود إلى جانب عمود خشبي صغير وأمام ستارة تجسد منظرًا جبليًّا، التُقطت قرابة مطلع القرن الجديد؛ صور جدي وهو في الثلاثين من العمر؛ ما يُدعى «بطاقة النار» الخاصة بالجنود على خط المواجهة في زمن الحرب. علمت أن هذه البطاقة خولته الحق منذ عام ١٩٣٨، أي بعد مضي سنتين على تقاعده من شركة السكك الحديدية، في معاش إعاقة إضافي متواضع بمقدار بضع مئات من الفرانكات البلجيكية القديمة (في زمن لاحق، عندما أستطلع القوائم اللانهائية بأسماء المحاربين القدماء في الحرب العالمية الأولى، أجد اسمه في الصفحة ١٤ من إضبارة ٣٧-٣٨؛ بعد سطرين من اسمه أرى «تشارلز مارتين» من خنتبروخه، لكنني لا أستطيع التحقق عما إذا كان من العائلة أم لا). توغلنا أنا ووالدي في نبش الصندوق المعدني، فبرز ملف صغير يضم بطاقات بريدية كان

جدي قد أرسلها إلى والدته من ويندرمير في مقاطعة البحيرات؛ صور لا تُحصى لأفراد العائلة، بضع بطاقات نعي خاصة بالجنود؛ علبة براجل خشبية رائعة فيها برجل من النحاس ومؤشر صفحات على شكل شريط من الحرير مُطرَّز بالنص: «احمل الصليب، وارتدِ التاج»، وصليب وتاج؛ صورة الممرضة الإنجليزية الجذابة بتوقيعها عليها: «مع فائق احترامي «ماود فوريستر»»؛ صوره من الكلية العسكرية (قبعة مسطحة، ومعطف أزرق بأزرار لامعة)؛ بطاقة دخول إلى المتاحف البلجيكية منحتها له «المديرية العامة للفنون الجميلة والآداب» عام ١٩٤٨. أعثر أيضًا على قطع ساعة والده المكسورة؛ ترقد إلى جانبها رصاصة حُفر فيها على نحو أخرق «١٩١٦» بسكين جيب.

ولكن فوق كل شيء، ومرة بعد مرة، أعثر على صور من دون أسماء أو تواريخ، صور امرأة شابة لا يمكن أن تكون أحدًا سوى «ماريا إميليا». يصدق ظني عندما أرى صورة تقف فيها هي و«جابرييله» معًا، مثل توأمين ومع ذلك مختلفتان كليًّا في الموقف والطلعة، تضع كل منهما يدها على كتف والدتها الجالسة جلسة الملوك في الوسط. ثم أجد من نصف الصورة الذي يجسد «ماريا إميليا» قرابة عشر نسخ غامضة، أغلبها مكبَّر إلى حجم أصغر قليلًا من بطاقة بريدية (١٣ في ٨ سنتيمترات). وهناك أخيرًا، في ظرف مغلق في أعمق أعماق الصندوق، صورة رائعة لوجه لا يمكن أن تدع أي مجال للشك: إنه محيًّا «ماريا إميليا». أحدق في هذه الأسارير الصافية لأول مرة، في هذه السيماء التي تملك المفتاح إلى حياة جدي العاطفية السرِّية، المرأة الشابة التي كان يمكنها أن تكون جدتي، ويمكنني أن أحمل شيئًا منها في داخلي. أرى الأنف الدقيق، النظرة الشاحبة لكن الرقيقة، الشعر الداكن المضموم في عقدة صارمة، الذقن المدبب الرهيف، الجيد الطويل فوق ياقة قميص أبيض بسيط. أدرك بعد بضع لحظات أن هذه المرأة لم يكن لها أن تكون جدتي على الإطلاق، فلو تزوج جدي

من فتاة أحلامه، لما جئت إلى الدنيا ببساطة شديدة. إنها تمثل المستحيل من أناي الأخرى.

تكشف النسخ العديدة، المطبوعة بأحجام ومقاييس مختلفة، بوضوح عن أنها لم تُطبع جميعها في اللحظة نفسها؛ إذن لم يكن الأمر متعلقًا بقرارات عابرة. كان استنساخ صورة من دون أن تكون نسختها السالبة في متناول اليد، يحتم عليه أن يمشي نصف ساعة، في المرة الأولى على الأقل، ليصل إلى «السيد محمِّض الصور» في ساحة الكنيسة الأبرشية «القلب المقدس»، ثم ينبغي له أن ينتظر أسبوعًا قبل الحصول على النسخة السالبة الجديدة والصور، أي معاودة الذهاب سيرًا على الأقدام ساعة كاملة في ذهاب وإياب. لماذا كل هذه النسخ من الصورة نفسها؟ وأين الصور السالبة؟ هل حلم دائمًا بأن يرسم صورتها ولم يستطع استجماع شجاعته لفعل ذلك؟ كم من مرات لا تُحصى عبرت هذه الصور المائل لونها إلى الرمادي من بين يديه في الخفاء؟ ولماذا وُضعت الصورة الكبيرة الأجمل في ظرف مختوم؟ لا أدري.

أتذكر الشك المبهم الذي خامرني، عندما وقفت مع ابني أمام لوحة «فينوس روكبي» لـ«فيلاثكيث» في «الناشيونال جاليري» في لندن، فأسأل والدي عما إذا كانت لديه أي فكرة عن المكان الذي توجد فيه نسخة هذه اللوحة. أظنني، إن لم تخني الذاكرة، رأيتها في مكان ما في السندرة عندما كنت طفلًا صغيرًا. نصعد معًا السلم المتخلخل بعض الشيء، المفضي إلى السندرة، ونجد نحو عشرين لوحة من دون إطار في أحد الأركان تحت طبقة من الغبار، لا بد أنها بقيت مكدسة هناك بعضها فوق بعض على مدى عقود من الزمن. نجد قبل اللوحة الأخيرة نسخة من «فينوس روكبي». نخرج اللوحة من بين اللوحات المكدسة، ننفض الغبار عنها، وها هي ترقد هنا، عارية ومتباهية بصمت، في كامل حلتها التلقائية: «فينوس روكبي».

ويا ويلتي... الدم يتدفق إلى رأسي: الوجه الذي ينظر إلينا من المرآة ليس وجه المرأة النموذج التي رسمها «فيلاثكيث» بل، ومن دون أي جدال، الوجه الذي تعرفت إليه قبل قليل في الصورة المائل لونها إلى الرمادي التي أخرجناها من الظرف ـ الوجه ذو العينين المتألقتين الشاحبتين ـ وجه «ماريا إميليا». ولهذا السبب لفت انتباهي لون شعرها المائل إلى الدكنة الذي تذكرته في لندن... أدركت بشيء من الدوار في رأسي أن هذه النسخة، وإن بدت متطابقة إلى حد بعيد مع الأصل، لم تكن استنساخًا على الإطلاق، بل ممارسة حب في الخفاء. فقد غيَّر جدي، الناسخ البارع، التفاصيل بحرص بالغ حتى يتمكن من تصور حبيبته الميتة عارية لحظة قصيرة؛ إثمه العظيم، إظهار رغبته العميقة التي بقيت تنهش في روحه المعذَّبة طوال حياته. لم يأتِ هذا الفعل عن طريق رسم جسدها، الذي لم يره قَطُّ، بل عن طريق تحويل الوجه الظاهر في المرآة إلى وجهها؛ وجه مستقل عن الجسد في واقع الأمر بسبب المرآة. هكذا رقدت تلك الشخصية المزدوجة أمامنا، في هيئتها الجديدة والعارية على اللوحة القديمة المغبرة: «فينوس فيلاثكيث» بسيماء «ماريا إميليا» المنزَّهة. ما بدا استنساخًا، كان يخفي أصل هيامه ـ هكذا أصبحت الكناية في اللوحة الفنية قصة مجازية عن عشقه الخفي الذي لم يستطع نسيانه طوال حياته. هناك بعض الناس لا تكفيهم حياة بأكملها كي يتغلبوا على صدمة الحب، حتى وإن عاشوا ما يقارب قرنًا من الزمن.

الآن فقط أفهم لماذا بقيت هذه اللوحة في السندرة على مدى عقود من الزمن: لا بد أن منظرها كان يُفظع «جابرييله» الورعة. من يدري لعل هذه الصورة التي تجسد أختها في هيئة «فينوس»، هذا الانتهاك الصارخ للعلاقة الزوجية، كان السبب الحقيقي في نفورها الجنسي. لن أعلم هذا أبدًا. عندما أعود إلى البيت، أرى الصورة المأخوذة من الظرف، تكشف عن آثار غامضة من مربعات رُسمت بقلم رصاص على نحو خفيف ثم مُحيت من جديد.

* * *

في صباح من صباحات شهر مايو ٢٠١٢ أنعش بكثير من المعهود، قررت أن أزور منعطف «تيرفاته»، من أجل تهدئة ضميري أكثر منه من رؤية شيء أعرفه منذ زمن طويل في واقع الأمر، مما قرأته في مذكرات جدي.

إنني مولع برائحة الملوحة منذ قديم الزمان، الرائحة المستدعية ذكرى بحر مندثر، التي تعبق بها الأراضي السبخة في النهارات الضبابية؛ الأرض المنبسطة مثل المياه، العصية على السبر والناضحة بالهدوء مثل بحر غائر. الماء الأجاج في الجداول، الملوحة في الهواء، الرائحة الثقيلة المنبعثة من التراب والمواشي، الأرض البسيطة الباعثة على الألفة والأنس، العزاء الذي تنضح به تلك الحياة الريفية الوادعة. وسط هذا الضرب من الطبيعة بقي عشرات الآلاف من الشباب الفلامنديين والألمان، الفرنسيين والإنجليز، راقدين في الوحل، الذي يمتص ويبتلع، ويجفُّ ويقرقع، ويغبِّر ويطقطق، ثم يمتص أمطارًا مفاجئة من جديد إلى أن يتشبع ببرودة رطبة ويبث رائحة حامضة؛ الأراضي السبخة، في مايو أو سبتمبر، حيث طيور الزقزاق الحائمة في السماء فوق الحقول، والرائحة اللاذعة العابقة بها أشجار الحور، زرائب الخنازير، الآفاق المحيطة من الجهات كافة. السحر الذي يخلب الحواس.

لا تكاد «تيرفاته» تكون حتى قرية صغيرة. ليس بمقدور «الجي بي إس» أن يعثر سوى على شارع «تيرفاته» في «ديكس ماوده»، تستطيع أن تصل إليها عن طريق القرية الصغيرة «ستاوفكنس كيركه»، ثم تعبر ببيت مزرعة فاخر ذي بوابة مقنطرة، ودرب للسيارات وفناء جميل؛ واحة للراحة والانعزال الراقي. في الوقت الراهن يقوم فندق يُسمى «كاستيل هوفه فيكونيا»؛ في ١٩١٤ كان هذا الموقع يُعرف باسم مزرعة «فيكونيا». أسير بمحاذاة الشجيرات المشذبة بإتقان وفي الدروب، وأتعلم أن الألمان احتلوا هذه المزرعة فترة قصيرة في أثناء الحرب، وأرادوا أن يقيموا فيها مقرًّا من مقراتهم الرئيسية. كان بوسع المزرعة أن تشكل نقطة استراتيجية

في خططهم الهادفة إلى عبور ذلك المنعطف اللعين في إيزر، الذي لا يبعد عنها سوى بضع مئات من الأمتار. قصفتها القوات البلجيكية وحولتها إلى أنقاض في ٢٤ أكتوبر ١٩١٤، كما فعلت من قبل بالجسر القائم على نهر إيزر والكنيسة في «ستاوفكنس كيركه». استطاعت بتدمير هذه النقاط الاستراتيجية الثلاث أن توقف تقدم الألمان. لأن جدي يؤرخ ذكرياته عن معركة إيزر في الفترة الواقعة بين ١٧ و٢٤ أكتوبر من عام ١٩١٤، فهذا يعني أنه شارك في هذه المعركة، ولعل المزرعة التي يذكرها هي مزرعة «فيكونيا».

الطريق المفضي إلى النهر مهجور. ما إن تصعد مصد الفيضانات على ضفة إيزر حتى ترى جسر «تيرفاته»، الذي شكَّل آنذاك حدًّا بين عالمين: أوروبا المحتلة وأوروبا المتحالفة. في الوقت الراهن تقوم لوحة سياحية تعلمني أن كلمة «فاته» تعني «خوْض»، «مكان ضحل يمكن الخوض فيه في سهل إيزر».

كم كل شيء مكشوف هنا، كم المكان منبسط ومفتوح! فلا يوجد أي مكان تستطيع الاختباء فيه... لم يكن بوسعك أن تختبئ سوى تحت الأرض، تمامًا مثل الجرذان والخلدان، كان هذا هو الخيار الوحيد: الاختباء من السماء الشاسعة اللامحدودة. يقع الأفق في خط يقارب ثلاثة أثمان من الأرض وخمسة أثمان من السماء، ما يشكل «النسبة الذهبية» في الرياضيات، المكان المثالي لرسامي المناظر الطبيعية ومتذوقي الجمال. في الأسفل العميق تحت هذه السماء الشاسعة هناك أشجار الحور، المروج، الأراضي الموحلة، مستنقعات الملح، جداول المياه، وثم، أمامي مباشرة: الانعطاف القاتل المتخذ شكل حرف «S» في النهر. طبيعة هادئة، طبيعة مذنبة.

بعد الجسر بقليل، حيث تصدح بضع من دجاجات الماء بنقيقها المنتظم الرهيف في مكان قريب، أجد نصبًا تذكاريًّا متواضعًا. ألتقط صورة للنص المنقوش عليه لأنقله فيما بعد إلى هنا:

إلى الذين سقطوا

من

الكتيبة الثانية

الفرقة الأولى من رماة القنابل

الذين قضوا

في ٢٢ أكتوبر ١٩١٤

في أثناء تنفيذ الهجوم الكاسح

تحت إمرة الرائد معاون هيئة الأركان

الكونت «هندريك دو أولترومونت»

حروف مُذهَّبة، صليب من ورق مقوى بوردة بلاستيكية، كلما أقمته بشكل مستقيم، وقع في النسيم العليل على الفور. تخور ثيران في حظيرة على الجانب الآخر من النهر. يتناهى صوت من بين شجيرات القصب النامية على الشط لم أسمعه منذ عقود من الزمن: التغريد الجنوني الذي تصدح به هازجة الغابة. تسمع حتى طائر الوقواق بوضوح على الضفة الأخرى من النهر؛ شدو لم تعد تسمعه إلا نادرًا. هناك اعتقاد شعبي قديم بأن السنة ستكون سنة خير، إذا ما سمعت تغريد الوقواق في فصل الربيع.

يا لها من عذرية. هدوء. سلام.

إنها الأصوات الناعمة البعيدة التي لا بد أنه سمعها هو أيضًا، وسمعها أولئك الجنود كلهم المنتظرون في رعب مميت: أنشودة رعوية في الجحيم.

منظر طبيعي صامت، طبيعة لامبالية، عذوبة، نسيان الأرض، النسيان في المياه المتدفقة بسلام التي فصلت الحياة عن الموت في ذلك الوقت. تبدو جميع الطيور في هذا الصباح الربيعي المكسو بالضباب مثل أرواح كائنات غريبة تنادي بشيء لا أفهمه. لغز الزمان والمكان. يا لها من أرض غريبة، هذه التي اعتدنا أن نعيش عليها!

تتهادى سفينة صغيرة اسمها «دوزبورخ» من أمامي، ركابها الهولنديون

المتهللون يلوِّحون بلطف إلى البلجيكي الذي يقف بدفتر صغير في يديه محدقًا في المياه، لعلي شخص محلي ظريف بالنسبة إليهم. تطير نوارس باتجاه اليابسة بحثًا عن الغذاء، يعوم شيء شبيه بكُمٍّ قميص في المياه بنية اللون، تحت السطح مباشرة. تمر سيارة توصيل طلبات بسرعة كبيرة في الطريق الضيق، يبدأ كلب بالنباح في البُعد، تقوم أشجار دردار فتية على طول القناة، تبدو الأبقار بين الأعشاب الباسقة كما لو أنها غاطسة في الخضرة في إحدى اللوحات من عصر «كونستابل». ليس بوسعك بسبب هذا الانعطاف الغريب في النهر أن تميز دائمًا الطرف الآخر من هذا الطرف. لا بد أنهم انخدعوا كثيرًا بمعرفة المكان الذي يحدث فيه شيء معين؛ كان بوسعك أن تظن بسهولة أن الألماني ذا الخوذة المسمارية البارزة فوق الأعشاب موجود على ضفتك، في حين أنه لم يكن قد قطع النهر في واقع الأمر، ولكن يمكن أن يكون العكس صحيحًا أيضًا، فيأخذ الموت بخناقك فجأة، مزمجرًا بشيء ما بلغة «جوته». شجيرات زعرور مزدهرة، لبلاب حقول، أعشاب برية من حوذان، وبَرك، وتاناستوم، ولكن ليس هناك خشخاش في أي مكان، ليس هناك بقع حمراء في الخضرة. «ليس هناك خشخاش في حقول فلاندرز على الإطلاق». تبدي الطبيعة بعضًا من التحفظ في زمننا هذا: الخشخاش لا ينمو ولا يزدهر إلا في التربة المحروثة؛ هذا يعني أن ظروف الحرب بالذات هي التي جعلت الخشخاش يزدهر حد الإفراط، وهو أمر باعث على السخرية.

لا شيء يهفهف بسلام مثل أشجار الحور القريبة من المياه في يوم هادئ منعش من أيام مايو. غربان بحر، دجاج ماء، طيور غطاس بادية بأعرافها الغريبة فوق سطح الماء، مالك حزين واقف على عمود لا يطير عندما أقترب. يقف ويحترس، ويبدو أنه يفكر بعدم قدرته على التفكير.

جسر «تيرفاته» مزوَّد بجرس. يرن الجرس، عندما يُفتح الجسر من أجل السماح للسفن بالعبور. بوسعك سماع رنينه من بُعد مئات الأمتار، بوسعك

سماع صياح الديك من إحدى المزارع الواقعة فيما وراءه. كل شيء مسموع، واضح، وهادئ. كم كان هذا المكان مصيدة غريبة فردوسية الهيئة، قبل أن يحوله القصف إلى أنقاض وأوحال؛ تلاقي الحياة والموت في أصوات الأرض. أتصور كائنات فضائية تحط على هذا الكوكب في هذه اللحظة بالذات، وتسمع هذه الأصوات لأول مرة. لا بد أن تسبب الهذيان، تخلب الألباب. تغريد هازجة الغابة شيء يطرب العقول التي تسمعه أول مرة. يا لك من معجزة، كيف لك أن تأتي بشيء من هذا القبيل؟

أسير بضع مئات من الأمتار في الطريق المهجور على طول النهر. لا يوجد سوى مأمن واحد في هذه الطبيعة: مصد الفيضانات المرتفع ذاك على الضفة المقابلة. من جهة «ستاوفيكنس كيركه»، المكان الذي يتسطح فيه المصد، يشكل عقبة كبيرة كان بوسع الألمان الملعونين أن يختبئوا وراءه. كانوا يرمون القنابل من فوقه على شكل قوس كبير، ويطلقون النار بشكل عشوائي، آملين في حصاد الفلامنديين. كان البلجيكيون يردون بإطلاق النيران من أماكن غير متوقعة، يتنقلون بحركات سريعة خلف الساتر الترابي وعبر الخنادق المحفورة في كل مكان من المنطقة. كان سخط الألمان مبررًا كافيًا في كل مرة لعمليات ثأر من بضعة جنود في الحراسة غير حذرين.

يبدو أن الطريق الموازي لمصد الفيضانات في الزمن الراهن ليس أكثر من طريق يفضله الهواة من سائقي الدراجات الهوائية. بانتظام دقات الساعة يمر واحد منهم بسرعة كبيرة، يشهق ويزفر، وقد وضع نظارة بلاستيكية على عينيه، وصوَّب نظرته إلى الأسفلت، ويرتدي دائمًا زيًّا من طراز هذا العصر: بدلة ضيقة، حذاء رياضيًّا باهظ الثمن، خوذة واقية براقة، والدراجة الهوائية باهظة الثمن مثل طير مغرد بين فخذين من الفولاذ. الرياضي يشبه ابن حفيد الجندي الذي كان يرتدي بدلته الثقيلة ثقل الرصاص. السن نفسها، الكوكب مختلف.

كلما تقدمت في المسير، استطعت أن أخمن على وجه التقريب في أي

مكان خاطر جدي بحياته في أثناء اجتياح مصد الفيضانات. عندما أجتاز الانعطاف، أفهم أيضًا كيف استطاعوا إخفاء طوف عن عيون الألمان أيامًا طويلة، وكيف كانوا يُزوَّدون بالتموين في الخفاء من الجهة الأخرى من دون أن يراهم العدو. كان كل شيء له علاقة بانعطاف «S» في النهر. منطق ساحة القتال، لعبة الشطرنج حيث المصادفة والموت.

بعد الانعطاف ثمة لوحة كُتب عليها:

> الصياد الرفيق بالطبيعة لا يصطاد السمك سوى من المواقع التي يُسمح فيها بالصيد، ويحترم نباتات الضفة.

في هذا المكان الذي لا تُؤذى فيه نبتة واحدة ولا حتى ورقة واحدة، تنمو الجذور في أعماق التربة الخصبة والسخية من السماد الغريب الذي يُدعى الإنسان، مادة عضوية صديقة للبيئة تتحول إلى دبال بسهولة. كيف أمكن أن يتحول مثل هذا المكان النائي، الهادئ هدوءًا لا يُصدق، إلى مسرح لعمليات فظيعة من ذلك النوع ـ هذا يبين من جديد كيف أن منطق الحروب يتعارض مع كل واقع طبيعي، مع الزمن العادي، مع المسار الطبيعي للأشياء، المسار الذي لا يريد شيئًا في نهاية المطاف ولا يبالي كثيرًا بما يفعله الناس.

يُقبل قارب آخر، ممتلئ هذه المرة بتلاميذ مع معلميهم. وما يدعو للعجب هو أن اسم القارب «نجم إيزر». يلوح العابرون الصاخبون بمرح إلى الشخص الواقف على الضفة، فيرد هو أيضًا بتلويحة من يده. يا لها من أرض سهلة آمنة! لا تحتاج إلى أكثر من الصعود فوق شجرة كي ترى خنادق العدو. المشكلة الوحيدة هي أنه لم تكن قد بقيت أشجار، لم يكن هناك سوى حفر وحدبات في الأرض.

يلتصق طائر عوسق دهسته سيارة بأسفلت الطريق، يمر سائق دراجة هوائية عليه بسرعة بالغة، فيتطاير بضع من ريشه في الهواء. أكان «أرماندو» من ابتدع مفهوم «الطبيعة المذنبة»؟ أم كان «كلود لانزمان»، بتلك الغابات الغادرة في فيلمه الوثائقي «المحرقة»؟ يمكن لهذا المنظر الطبيعي أن يكون

لوحة من لوحات «أنسيلم كيفر» على أي حال، منظر طبيعي تشوبه ندبات غير مرئية من كارثة غائرة. لكن لا، هذا غير ممكن، هذا ليس أسلوب «كيفر» إطلاقًا. لقد مرت الفرشاة بدقة أكثر وحب أكبر، فأنا أرى كل زهرة صغيرة وكل ورقة خضراء صغيرة. إنها لوحة رومانسية، الحق أنها كذلك، كيف لم أدرك هذا من قبل، إنها أقرب بكثير إلى أسلوب الرسام الدقيق من الطراز القديم، المصاب بعمى ألوان جزئي، أجل، المجنون بالأخضر، بهذه التدرجات الرائعة كلها في اللون الأخضر المحيطة به، ولا بقع حمراء من الخشخاش كي تخدعه.

وراء المكان الذي تضع فيه أسماك القاروس، والروش، والأبراميس، والقوبيون بيوضها (لوحة معلومات أخرى مفيدة قائمة في الخضرة)، يقوم مزار صغير لمريم العذراء إلى جانب الطريق، كما لو أنه أُقيم هنا من أجله:

يا أيتها القدم الإنسانية

لا تمضي من هنا

من دون أن تلقي

تحية تبجيل على مريم العذراء

بينما أتساءل كيف يمكن لقدم إنسانية أن تلقي تحية على مريم العذراء، تعبر جرارة زراعية بهدير صاخب، مزودة بواحدة من تلك الحدبات الغريبة على شكل حشرة، التي سيُسمّم بها الحقول بعد قليل. لم يعد هناك خشخاش. لقد مضى زمن طويل على كل شيء، مضى قرن من الزمن، أسير هنا بمورثاته الجينية في جسدي، وحيدًا، أكثر من وحيد، وقد فات الأوان على كل شيء. ويشدو الوقواق من جديد، من مكان قريب هذه المرة، بصخب مثلما في الأحلام، إلى حد يصيبني بالفزع. يطير فوق السياجات الخضراء في الربيع المنعش، يوقوق مثلما كان يفعل في زمن طفولتي. يحاكي ساعة الوقواق في الغرفة الوسطى باهتة الضوء، وجدي هو من يضبطها برفع أثقالها النحاسية ويقول شيئًا غير مفهوم لوالدتي، شيئًا عن الزمن.

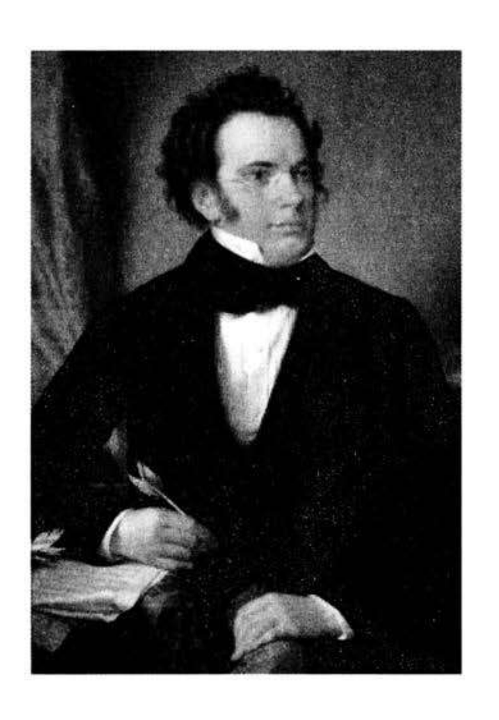


في سنواته الأخيرة، كانت مقطوعة موسيقية تؤثر فيه أكثر من أي مقطوعة أخرى، تأخذه من بيننا إلى مكان خيالي لا نستطيع الوصول إليه ما دامت آخر نغمة منها لم تخمد: موسيقى الباليه «روزاموند» لـ«شوبرت». لا أدري على وجه الدقة ما الذي كان يؤثر فيه في هذا اللحن، العذب إلى حد ما، لكن المتدفق بانسياب طبيعي للغاية، ليست لديَّ أي فكرة عما إذا كانت لديه ذكريات محددة مع هذه الموسيقى؛ إذا كانت قد عزفت في حفلة حضرها مع شخص معين، أو حدث شيء ما في اللحظة التي كانت تصدح فيها من صندوق الراديو، بني اللون، المثبت بالمسامير على الجدار، في سنوات الخمسينيات. في ذلك الحين لم تكن هناك جداول مفصَّلة عن مواعيد البرامج الإذاعية، لذلك كان إذا ما عزفت «روزاموند» في الراديو، حدث ذلك عمومًا على غير المتوقع، فيسري ما يشبه النشيج في شهيقه وزفيره، وقد وضع يديه على وجهه، نسمعه يتنفس بصعوبة، يستعيد السيطرة على أنفاسه التي تعود إلى التباطؤ، إلى أن يجد، وهو يلهث مثل والده، إيقاع

تنفس يستطيع أن يصالح به وظائفه العضوية من جديد مع صاعقة التعرُّف التي تعرض لها للتو.

كان هذا الشيء يحدث، عندما تصدح معزوفة الباليه الخفيفة التي يُخيل إليك أنك تسمع فيها رقص الجنيات، يعقبها جواب بصوت رجولي ذي نغمة تميل إلى القتامة، يبلغ أوجه في نفحة من اللحن، ثم يتيه في الإيقاع الراقص من جديد، لكن الفاصل الثالث هو الذي يشكِّل الجوهر في انفعاله الغريب، شعوره الذي يجعل العالم حوله يتلاشى من الوجود. في هذه المعزوفة البطيئة يمتزج الحزن مع الإحساس بالأمان بمنتهى التلقائية، وقد ألقت على سنوات طفولتي بذلك الستار من الحنين والجمال البعيد أنني كلما رأيت رسمة من رسوماته الكثيرة بقلم الفحم بتقنية «السفوماتو»، وقد ظهر فيها شكل نسائي أثيري على الورق المصفرِّ تحت الزجاج المغبر، رأيته جالسًا وسط الطبيعة التي رسمها بيده، في مكان ما بالقرب من ينبوع ألماني لا يمكن العثور عليه في غابة ألمانية من محض الخيال. أراه يرتدي قبعته «الفيدورا» ويتنفس أنفاسًا متثاقلة، لكنني لا أسمع أي شيء، لا شيء على الإطلاق، إلى أن تصدح النغمات الأولى من هذه المعزوفة البطيئة في البُعد، وتظهر صور أمامي، صور من الزمن الرمادي الهادئ، الذي كانت الأسرار فيه تُعدُّ أسلوبًا طبيعيًّا في الحياة، تمنحها شكلًا، تضرب بقسوة النعومةَ الدفينةَ في الرغبات المسكوت عنها. كانت موسيقى الباليه الثانية تعيد إليه بعضًا من الهدوء: المعزوفة البطيئة في نغمة «صول كبير» تختم «روزاموند»، وتعود الرشاقة الرعوية إلى الحياة بعد الشجن؛ قمة مزاجه الحقيقي. لعل شخصية «شوبرت» هي التي جعلته رفيق روحه بامتياز؛ وجومه، لوعاته الجنسية المتسامية، نزوعه إلى داخل كيانه من جراء قصة حياته المأساوية، كل ذلك شكَّل عوامل أشعرته بالانجذاب نحوه. بقي «شوبرت» معدم الحال ولم يحظَ بالتقدير طوال حياته، وعانى تطوره الإبداعي تحت تهديد الخدمة العسكرية. كان يحمل الاسم الأول لوالد جدي المتوفى عن عمر مبكر؛ هناك مزيج من

البراءة والإحساس العميق في موسيقاه، رباطة جأش سوداوية مع حساسية عالية، صفات شخصية تعبر عن نفسها في هذه المعزوفة البطيئة البريئة. أيام آحاد لا تُحصى، تلك التي استمع فيها إلى هذه الموسيقى وسكن كل شيء حولنا. أم أنها لم تتعدَّ بضع مرات، تكتلت معًا في ذاكرتي وأصبحت حياة كاملة؟



لا يمكن الإجابة عن هذه الأسئلة كلها. لكنني في ذلك اليوم بالتحديد، الذي خرجت فيه من البيت الهادئ الخاص بوالدي ومعي الصندوق المتضمن صورة «ماريا إميليا»، ونظرت فيه في سيماء هذه المرأة الشابة لأول مرة، في ذلك اليوم بالتحديد، وأنا عائد بسيارتي إلى البيت، عندما سمعت تلك المعزوفة البطيئة من «روزاموند» في راديو السيارة، أصابتني بصدمة بلغت من الغرابة أنني كدت أحيد عن الطريق، خفق قلبي بقوة بلغت

من الشدة أن الدم نبض في صدغَيَّ، وعندما ركنت السيارة بجانب الطريق، وفتحت الصندوق المعدني بيدين مرتجفتين، وأمسكت الصورة بين أصابعي، نهض شيء في كياني، كأنما جدي نهض في داخلي، واستولى على جسدي مثل شيطان رقيق، واحتل كياني كله بعواطفه، بعالمه الذي ظل مغلقًا أمامي على الدوام. وجلست هناك، ويا ويلتي، أعض على شفتي السفلى بغصة في حلقي، في حين أعلن صوت في الراديو عن انتهاء المعزوفة التي لم تكد تستغرق سبع دقائق وأعقبتها معزوفة من معزوفات «باجانيني»، الموسيقار الذي كرهته على الدوام بسبب تباهيه الفارغ بمهاراته. في صورة «شوبرت» التي أبدعها «فيلهلم أوجست ريدر» عام ١٨٧٥ (أي بعد ما يقارب خمسين عامًا على وفاة «شوبرت»، مستأنسًا بصورة مرسومة له بألوان «الباستل» قبل نصف قرن من الزمن)، يظهر الموسيقار بريشة كتابة في يده اليمنى، في حين يستريح مرفقه على مدوَّنة موسيقية؛ الموسيقار البالغ الثامنة والعشرين في ذلك الوقت ينظر نظرة تنم عن الثقة بالنفس، يبدو عليه أنه جيد الصحة وخيِّر الطبع، يلبس ربطة عنق فراشة سوداء اللون كبيرة الحجم على قميص أبيض لا تشوبه شائبة. كان في تلك الفترة قد رفض العرض بأن يصبح موسيقار البلاط من أجل أن يحافظ على حريته واستقلاله، وها هو ذا يجلس بكثير من الاعتزاز بالنفس الذي حاول جدي أن يظهر به في صورته الشخصية التي لم يُوفق في رسمها إلى حد ما، حيث يمسك في يده اليسرى لوحة الألوان الخاصة به.

* * *

ازداد الرسم صعوبة في سنواته الأخيرة. أصبح يعاني داء النقرس، وتصلبًا في المفاصل، وتشنجًا في اليدين، فأخذت الفرشاة تفلت من بين أصابعه، والماء الأبيض جعل بصره يتغبش، فاضطر أن يعتمد على التلمس في عمله بوتيرة متصاعدة، أن ينشر الألوان أحيانًا بأصابعه على اللوحة فتصبح لطخة انطباعية، هو الذي احتقر الرسم بالأصابع الذي يلجأ إليه أولئك

«المخربشون» المعاصرون جميعهم، هو الأستاذ المتواضع المتفاني في رسم التفصيل الدقيق، الرجل الذي استطاع في إحدى المرات أن يستنسخ زهرة «كاسر الحجر» الصغيرة البيضاء الرهيفة بمنتهى الدقة، التي تسمى «حزن الرسام» بسبب صعوبة رسمها البالغة. ظهرت بقع غريبة على لوحاته الصغيرة الشحيحة في الأماكن التي كان ينبغي أن تظهر فيها وجوه، رسم سيارات ساذجة بإطارات متنفخة على الرصيف الممتد على طول «سخيلده» أمام نافذته، بإخفاق طفل يجرب الألوان الزيتية لأول مرة في حياته، كتابة غريبة تخطها أنامل مصابة بالعمى، تنزلق على قماش الكتان في ارتعاش وتلمس، حاول رسم شخص نصف عارٍ من حاشية ملك، نسخة ملطخة اقتطفها من إحدى لوحات «تيتسيانو»، تحولت في آخر الأمر إلى شبح غامض شبيه بلوحة مشوهة من لوحات «إدغار ديجا». لكنه لم يتمكن من رؤية السخرية المؤلمة في هذه المآسي الصغيرة كلها. كان يقف متيبسًا من ألم الظهر، يجرجر قدميه خطوة خطوة على البلاط المتهالك، متعدد الألوان، الذي يكسو أرض المطبخ. يجلس في كرسيه الهزاز ويمسك الجريدة لصق وجهه، كأنما يريد استنشاق الأخبار منها. يأكل أقل مما يأكله عصفور، وغالبًا ما يغني بهدوء فيما بينه وبين نفسه. لم يعد بوسعه، وهو شيخ طاعن في السن، أن يلبس جوربيه أو يخلعهما بنفسه، ولا أن يقص أظافر قدميه المتكلسة. لم يعد بوسعه أن يغتسل بنفسه في آخر الأمر. حصلت ابنته على موافقته، لكن بعد إلحاح طويل، على أن تضعه في مغطس الحمام وتعتني به مرة في الأسبوع. أحيانًا، كان يريد ترك قبعته القديمة «الفيدورا» على رأسه، لأنه يشعر بعبور تيار هوائي، تيار هوائي في الأوقات كلها والأماكن كلها، حتى في الأيام الدافئة ساكنة الريح، كأنما حدثت صدوع في الحياة نفسها؛ شيخ عارٍ هش، بقبعة سوداء على رأسه، في الحمام، الندبات والتجاويف في ظهره لا أحد يراها أو يشعر بها سوى ابنته.

كان ينبغي أن يُستدعى الطبيب في غالب الأحيان في أثناء الليل، عندما

يزداد ضيق التنفس سوءًا ويهدد بخنقه. كان الدكتور المدعو «رومباوتس»، الطبيب المسن ذو الحاجبين الرهيبين والشعر الشائب الشبيه بشعر «بيتهوفن»، يمارس هواية النحت في أوقات فراغه، فيجلس السيدان أحدهما مع الآخر، في الضوء الخفيف المنبعث من مصباح ليلي قديم الطراز، يتسامران بصوت منخفض عن تشريح الجسم البشري المثالي، عن «الرجل الفيتروفي» والنسب الحسابية في قنطرة «بالاديو». قبل غبش الفجر بقليل، يعود الطبيب إلى البيت في الهيئة ذاتها التي جاء بها: وسيم الطلعة في بدلته، وربطة عنقه الكبيرة مسترخية ومعقودة بشيء من الأناقة. كلما وصل إلى باب المنزل، التفت إلى الرجل الطاعن في السن، الذي أخذ يتنفس بامتنان، فقد بدأت إبرة الكورتيزون تؤدي مفعولها، وقال: «ابقَ عاقلًا، أيها الرقيب الأول «مارتين»». فيرد جدي بما يشبه قهقهة مبحوحة وانحناءً من رأسه الأصلع مثل حصان وراء سياج. قبيل السابعة والنصف من الصباح، يجلس بين ذراعَي ابنته حتى تنتهي من إلباسه ثيابه، كي يذهب للجلوس إلى طاولته، بعد احتساء القهوة وتناول شطيرة بسيطة، ويمسك القلم بين أصابعه الهرمة، ويكتب أشياء لن أقرأها إلا بعد مضي عقود من الزمن، أو يحاول، مرتعش اليدين وبمنتهى التفاني، أن يرسم هيئة وجه من القرون الوسطى، ثم يقول عندما يرفع عينيه عن الصفحة الملأى بالبقع: «كان «ألبرشت دورر» عبقريًّا بالفعل، ألا توافقني في الرأي؟».

* * *

عندما كنت طفلًا صغيرًا، كان يغني أحيانًا أغنية إنجليزية:

ساعة جدي

كانت كبيرة على الرف

فقامت تسعين سنة على الأرض...

ويوزن إيقاع الأبيات الأخيرة بضرب يده على طاولة الطعام الصغيرة الخاصة به:

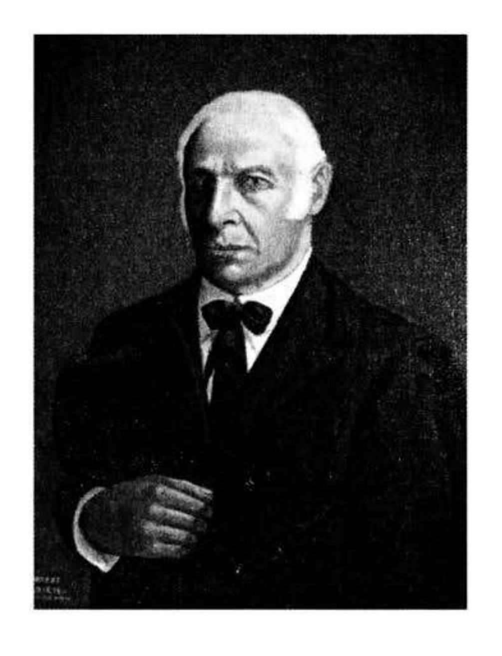
لكنها توقفت (بوم بوم) تعطَّلت (بوم بوم)
لم تعد تعمل مرة أخرى
عندما مات الرجل الهرِم (بوم... بوم)

سمعت هذه الأغنية بعد حين من أسطوانة فونوجراف كان أحد أخويه قد قدمها له هدية، ولم أعلم ما الذي كانت تريد أن تقوله لي، طوال تلك السنوات كلها من البراءة البلهاء.

* * *

كثيرٌ جدًا على هذا الكوكب ما يثير الدهشة بشكل دائم، ولا سيما عندما يُرى في ضوء وداع وشيك: الطريقة التي تتحرك بها الجزيئات في الماء على سبيل المثال، مسببةً أرهف لعبة من النور المتغير عند حلول المساء في أحد الخلجان الجنوبية على البحر ـ فلنقل على الشاطئ الصخري في المدينة الساحلية الإيطالية رابالو، عندما تخلد الرياح إلى السكون وتعرض وردية الغيوم المسائية تنوعاتها اللانهائية مع انعكاس الزرقة المتزايدة عمقًا على سطح المياه ـ وكيف أن كائنات حية ذات عيون وإدراك، وهي أدوات معقدة عصية على الفهم مكيفة وفق هذا الغلاف الحيوي العجيب كله، ترى هذا بأكمله من البديهيات، وتواظب على التنفس في داخله، مصمَّمة في أحسن تصوير من أجل مثل هذا النظام.

بقي جدي في السنوات الأخيرة قبل موته، هو المتمرس في رؤية الأشياء إلى حد كبير، يندهش المرة تلو الأخرى. بدا وكأن اندهاشه يتعمق بمرور السنوات. يتسم بتلك السمة العجيبة من سمات الهرم؛ يشعر كل يوم بسعادة عصية على التفسير من حقيقة أنه لا يزال على قيد الحياة، ويستطيع المشاركة في شيء أرقى منه بكثير بوسعه الارتقاء به على ما يبدو. أظنني أستطيع حتى أن أقول إنه في سنواته الأخيرة فحسب عاش في سعادة حقيقية لا يكدرها شيء، مع أن القليل من هذا كله يتبدى في الأسى المترفِّع المتسمة به صورته التي رسمها بنفسه. رسم نفسه بقبعته في يده، بقميص أبيض مع

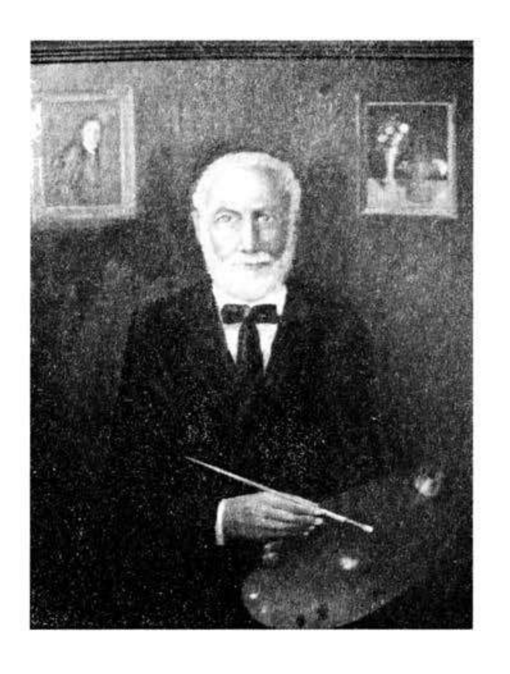


ربطة العنق الكبيرة السوداء المميزة، وسترة كحلية اللون. نظرته صارمة، بل حتى جامدة، والصورة في مجملها لا يمكن مقارنتها بأي شكل من الأشكال مع الانطباع الرقيق النابض بالحياة الذي تحدثه صورة زوجته، فتبدو هذه الصورة الشخصية، المعلقة إلى جانب الصورة الأخرى، شاردة ومنعدمة الروح إلى حد ما. لقد وضع في صورتها كل ما كان يريد منحها، فأفرغ نفسه إذا جاز التعبير، ولم يحالفه النجاح في إحياء نفسه عبر المرآة التي كان يرى نفسه فيها يومًا بعد يوم، حتى وإن دقق النظر بعمق في عينيه. لم تتضح لي هذه المأساة الصامتة في تهاونه في رسم نفسه إلا بمرور السنوات، وعندما أنظر الآن إلى الصورتين، أرى فيهما عودة الفاجعة الصامتة التي ربطت هذين الشخصين أحدهما مع الآخر طوال حياتيهما.

* * *

الجدير بالملاحظة هو أنه رسم نفسه مرة أخرى بعد عدة سنوات، هذه المرة بصورة «جابرييله» في الخلفية (على طرفه الآخر لوحة عن الطبيعة الصامتة،

الأمر الذي لا يخلو من سخرية). إنه حاسر الرأس في هذه الصورة أيضًا، كما لو أنه خلع قبعته أمام المرآة. ينظر إلينا بشكل مستقيم. يمسك في إحدى يديه لوحة الألوان الخاصة به، وقد أدخل إبهامه في فتحة الإبهام. الغريب هو أنه يمسك هذه اللوحة أمامه بصلابة، كما لو أنها درع يريد أن يرشدنا بريشته على علامات دفينة فيها، على شيء يبرر موقفه من خلاله. إنها تشبه أي شيء ما عدا لوحة الألوان كالسمة الرومانسية للرسام الدقيق الذي كانه على الدوام. لقد اختفت الصرامة من هيئته تمامًا، الحق أنني أتصوره «هنري روسو» بطريقة أو بأخرى، الرسام الساذج الذي رسم حيوانات الأحلام وأوراق النباتات الغريبة. نظرته هنا ليست جامدة لكنها ثاقبة، وقفته متكلفة لكنها مؤثرة للغاية. كتفاه ضامرتان بشدة. يكمن جوهر هذه اللوحة في نظرته النفاذة، المتجلية في عينيه الزرقاوين البراقتين. يده تشبه يد رجل شاب، والفرشاة الراقدة بين أصابعه تكاد تكون عديمة الوزن، تمامًا مثل ريشة الكتابة في يد «شوبرت».



ما فشل فيه في صورتيه الشخصيتين، تغلب عليه في نسخته من لوحة «الرجل ذو الخوذة الذهبية». هذه الصورة الكئيبة التي يتجسد فيها عسكري متقاعد، الهالة الداكنة المحيطة برأسه، السطوع المدهش الذي تسطع به الخوذة في الألق الذهبي ـ هذا هو جدي بذاته في سنواته الأخيرة. ومرة أخرى حوَّل النسخة إلى كناية. إذ تتبدى نظرته بما لا يدع مجالًا للشك في ملامح اللوحة الأصلية، على النحو الذي كانت تتبدى عندما يحدق أمامه مهموم الخاطر، ظانًّا أنه في منأى عن الأنظار، يفكر بما لا يعلمه غير الله. بينما لم ينجح في إبعاد العسكري من صورته الأولى ولذلك لم يُوفق في رسمها، حقق نجاحًا باهرًا في انتصار الرسام على العسكري في استنساخه اللوحة المنسوبة عن غير وجه حق لـ«رمبرانت» ـ لوحة مُعادة الرسم في عالم الفن، استنسخها عدد لا يُحصى من هواة الرسم.



غالبًا ما تتوارى حقيقة الحياة في أماكن لا يربطها الإنسان مع الأصالة. الحياة رقيقة في هذه الأشياء أكثر من أخلاق البشر ومبادئهم الصارمة. الحياة تعمل مثل هذا الرسام المستنسخ، تلجأ إلى الخدعة لتصور الحقيقة.

* * *

هكذا، كان هذا التناقض السمة الدائمة في حياته: التذبذب جيئة وذهابًا بين العسكري الذي اضطر أن يكونه والفنان الذي أراد أن يكونه. الحرب والتربنتين. السلام الذي عاش فيه في سنواته الأخيرة أتاح له المجال لأن يودع صدماته شيئًا فشيئًا. كان عندما يصلي لـ«العذراء سيدة الأحزان السبعة»، يخلد للسكينة والاطمئنان. في الليلة التي مات فيها، ذهب إلى سريره بهذه الكلمات:

ـ اليوم، كنت في منتهى السعادة يا «ماريا».

أحنت ابنته رأسها وأعطته قبلة ما قبل النوم. مضى إلى غرفته العلوية.

هناك وضع قبعته «الفيدورا» على الطاولة الصغيرة بجانب النافذة، مثلما اعتاد أن يفعل كل ليلة. تجرَّد من سترته القماشية، فك ربطة عنقه السوداء الحريرية الفراشة وعلقها بعناية على مسند الكرسي القائم إلى جانب سريره. خلع قميصه الأبيض ثم قميصه الداخلي؛ ظهرت التجاويف الزرقاء في ظهره، الندبات المتبقية من السنوات العصيبة في صب الحديد. وعندما خلع سرواله الداخلي الطويل، ظهر تجويف آخر مائل لونه إلى الزرقة في أسفل بطنه المترهل، بجانب مغبنه مباشرة، وكذلك تجويف آخر في فخذه الضامرة؛ وساما شرف عن أعماله البطولية، منقوشان في جسمه. ارتدى قميصه الليلي الطويل من قماش الفانيلا، استلقى في سريره، ولا بد أنه أصيب بإعياء في الصباح الباكر، ألقى ما في معدته في السطل الكبير الأبيض المطلي بالمينا الموضوع بجانب سريره، قليلًا من العصارة الصفراوية في واقع الأمر، ليس طعامًا حتى، مجرد نوع من السوائل أفرزه جسمه من جراء حلم مزعج، ثم عاد إلى رقوده، يعبس قليلًا، يلهث قليلًا. عُلق في منامه في شجيرة كبيرة

في مكان ما، شجيرة شائكة ذات أغصان رفيعة، تكاد من رهافتها تطير إلى أقاصٍ بعيدة. ظل عالقًا بها مثل حيوان بري مصاب، ذراعاه وساقاه ممدودة مثل حيوان مشدود إلى سلم، وتوقف عن التنفس. خمدت الأضواء كلها في رأسه وذابت في فضاء أسود غير معروف. هكذا مات البطل المغوار على جبهة إيزر، الذي جازف بحياته مرات لا تُحصى تحت نيران العدو، مات بسلام في نومه بعد ما يقارب السبعين سنة. وجدته ابنته بعد بضع ساعات، بتعبير بالغ الهدوء على وجهه، وفم مفتوح بعض الشيء، كما لو أن المشهد الأخير الذي رآه في حياته بعث دهشة مبهجة في نفسه. كان ضوء الشمس يتسلل عبر النافذة على الجهة الشرقية، السوسن يزدهر بالأزرق العميق في الحديقة، نواقيس عيد الخمسين تدق في كل مكان. لامسته والدتي بحذر. كان لا يزال دافئًا، هذا ما قالته بعد حين وهي تبكي.

* * *

هكذا، يصبح هو نفسه نفحة في غابة الذاكرة، يرتقي إلى الأعلى، أخف من سحابة دخان في الهواء. يصل إلى بوابة سمائه التي طال انتظارها، يتلهف للقاء أحبائه هناك، يقف باستعداد في انتظار تصريح الدخول، كأنما يقف أمام الطبيب العسكري في الثكنة من جديد.

يتصفح القديس «بطرس» القائمة اللانهائية بأسماء المحاربين القدامى من الحرب العالمية الأولى، يسأله بالفرنسية في آخر الأمر:

ـ الرقيب أول «مارشان»؟

يجيب بالفرنسية:

ـ لا يا سيدي القائد. اسمي «مارتين» وليس «مارشان»، أمرك سيدي.

ويلقي تحية عسكرية.



المؤلف

ستيفان هيرتمانس كاتب وشاعر بلجيكي فلامندي من مواليد مدينة خنت ١٩٥١. عمل في مهن عديدة، منها مدرِّس وموسيقي. نشر الروايات والمجموعات القصصية والمقالات والمسرحيات والدواوين الشعرية. وحقَّق نجاحًا عالميًّا، فأعطى محاضرات في كثير من الجامعات الكبرى، كالسوربون وفيينا وبرلين والمكسيك ولندن، وحازت أعماله جوائز عديدة.

نالت روايته السادسة، «الحرب والتربنتين»، تقديرًا نقديًّا كبيرًا، واستقبلها القرَّاء بحفاوة بالغة، فبيعت أكثر من ٢٥٠ ألف نسخة منها، وتُرجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة، وحصدت عدة جوائز مهمة، منها: جائزة المجتمع الفلامندي للنثر الروائي ٢٠١٢، وهي جائزة تُعطى كل ثلاث سنوات لكاتب نشر عملًا متميزًا، وجائزة «آك و» الأدبية، التي تمنحها سنويًّا رابطة بائعي الكتب الهولندية.

في بداية عام ٢٠٢٠ تلقى ستيفان هيرتمانس جائزة «كونستانتاين هايخنس» الأدبية المرموقة عن مجمل أعماله.

المترجمة

أمينة عابد من مواليد مدينة عفرين بسوريا، ١٩٧٠. درست في حلب ومدينة لايدن الهولندية، حيث بدأ اهتمامها بالأدب الهولندي. تعمل في الترجمة وتدريس اللغة العربية في أكاديمية اللغات بجامعة لايدن.

من ترجماتها عن الهولندية: «الاعتداء» للكاتب هاري موليش (الكرمة ٢٠١٧)، و«البحيرة السوداء» للكاتبة هيلا هاسه (الكرمة ٢٠٢٠)، و«الإوز يأكل خبز البط» للكاتبة أنّا روت فيرتهايم، و«كتاب من أجلك» ـ مجموعة قصصية للأطفال.

ترجمات الكرمة

١. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.
٢. سالباتييرًا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.
٣. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٥. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.
٦. الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٧. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.
٨. الإوزّة البريّة - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٩. عشيق الليدي تشاترلي - د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي.
١٠. الوعد - فريدريش دورِنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
١١. طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.
١٢. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.

١٣. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة.
١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.
١٥. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.
١٦. ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك - جون جالزورذي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.
١٧. اعتراف منتصف الليل - جورج دوهاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عياد.
١٨. الأمريكي الهادئ - جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.
١٩. الأمير الصغير - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.
٢٠. أربطة - دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٢١. مليون نافذة - جيرالد مُرْنين. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٢٢. البحيرة السوداء - هيلا هاسه. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٢٣. حلم - أرتور شنيتسلر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٢٤. حرائق صغيرة في كل مكان - سيليشت إنْج. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.
٢٥. مذكرات شرلوك هولمز - آرثر كونان دويل. ترجمها عن الإنجليزية: أمين سلامة.
٢٦. كتاب المقبرة - نيل جايمان. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.
٢٧. نحن نعرف ما سيأتي - كريستا فولف. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.

٢٨. ظلام مرئي: مذكرات الجنون - وليام ستايرون. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.
٢٩. المنزل الريفي (هواردز إند) - إ. م. فورستر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.
٣٠. اعتراف - ليف تولستوي. ترجمها عن الروسية: الأرشمندريت أنطونيوس بشير.
٣١. جسور مقاطعة ماديسون - روبرت جيمس والر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٣٢. الحرب والتربنتين - ستيفان هيرتمانس. ترجمتها عن الهولندية الفلامندية: أمينة عابد.
٣٣. سولاريس - ستانيسواف لَم. ترجمها عن البولندية: هاتف جنابي.
٣٤. الاعتذار - إيف إنسلر. ترجمته عن الإنجليزية: سها السباعي.
٣٥. شخص نعرفه - شاري لابينا. ترجمتها عن الإنجليزية: منى عبد الغني.
٣٦. خلف هذه الأبواب - روث وير. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٣٧. احتضان - كلير كيجن. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.
٣٨. اترك العالم خلفك - رمان عَلَم. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.

«عمل خارق لإعادة بناء تاريخي... سرد شجاع ولكنه حزين للحرب والذاكرة والفن» - «النيويورك تايمز»

عندما تُوفِّي «أوربايِن مارتين»، ترك وراءه دفترَي مذكرات، سيعتمد عليهما حفيده الكاتب لسرد قصة جده في «الحرب والتربنتين». فنتعرف على «أوربايِن» الطفل ابن رسام الكنيسة المتواضع، و«أوربايِن» الشاب الذي نجا من الموت بأعجوبة في مسبك حديد، و«أوربايِن» الجندي، و«أوربايِن» الرجل الذي تزوج أخت من كانت حب حياته، بينما تطارده ذكرى الحرب وحلمه بأن يصبح فنانًا.

وإذ يحاول الحفيد أن يفهم الماضي ويجد مكانه في الحاضر، ينجح في رسم صورة مبهرة، لإنسان استثنائي في زمن صعب، تشبه لوحة جدارية من عصر النهضة، ويكشف كيف يمكن لحياة واحدة أن يتردد صداها على مر العصور.

حصدت هذه الرواية عدة جوائز مهمة، وتُرجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة، وهي أول عمل لـ«ستيفان هيرتمانس» يترجَم إلى اللغة العربية، بترجمة جميلة لأمينة عابد.

«الموت والدمار والالتزام والواجب - «أوربايِن» يواجهها كلها، ومع ذلك لا يزال يجد بهجة في الحياة» - «التايمز»

«كتاب يقع على مفترق طرق الرواية والسيرة الذاتية والتاريخ... كل التفاصيل لها لَمعان الشعر» - «الجارديان»

